سلمان رشدي

غضب



ترجمة: فاطمة النظّامي

دار التكوين منشورات الجمل

رواية

سلمان رشدي

غضب

ترجمة: فاطمة النِّظامي

دار التكوين منشورات الجمل

ولد سلمان رشدي في مدينة بومباي عام ١٩٤٧ ، وهو بريطاني من أصل هندي تخرج من جامعة كنج كولج في كامبردج بريطانيا، عام ١٩٨١ . حصل على جائزة بوكر الإنجليزية الهامة عن روايته **«أطفال منتصف الليل»** . نشر رواية آيات شيطانية سبتمبر عام ١٩٨٨ أدى إلى ضجة كبيرة في دول العالم الاسلامي الامر الذي أدى إلى منع ترجمة وبيع الكتاب في اللغة العربية . في نهاية عام ١٩٩٠ خرج سلمان رشدي بإعتذار رسمي للمسلمين في العالم . وفي الرابع والعشرين من شهر سبتمبر عام ١٩٩٨ اعلنت إيران انه تم أسقاط الفتوى ضد سلمان رشدي الأمر الذي أدى في نهاية المطاف إلى إعادة العلاقات الدبلوماسية بين المملكة المتحدة وإيران . من أعماله الروائية : **غريموس** (١٩٧٥)؛ **أطفال منتصف الليل** (١٩٨٠)؛ **العار** (١٩٨٣)؛ **أبتسامة جكوار** (١٩٨٧)؛ **آيات شيطانية** (١٩٨٨)؛ **هارون وقصص البحر** (١٩٩٠)؛ **مشرد باختيار** (١٩٩٢)؛ **شرق، غرب** (١٩٩٤)؛ **النفس الاخير للجدار** (١٩٩٥)؛ **الأرض تحت أقدامها** (١٩٩٩)؛ **الجنون** (٢٠٠١)؛ **خطوات تقطع الخط** (٢٠٠٢)؛ **شاليمار المهرج** (٢٠٠٥)؛ **عرافة فلورنسا** (٢٠٠٨).

Salman Rushdie: Fury, roman

© 2002 by Salman Rushdie

سلمان رشدي، **غضب**، رواية، ترجمة: فاطمة النِّظامي

كافة الحقوق محفوظة لـ **دار التكوين** للتأليف والترجمة والنشر

تلفاكس: ٠٠٩٦٣٢٢٢٣٦٤٦٨١١

ص.ب: ١١٤١٨، دمشق ـ سوريا

taakwen@yahoo.com

ولـ **منشورات الجمل** بغداد ـ بيروت، ٢٠٠٩

ص.ب: ٥٤٣٨ ـ ١١٣، بيروت ـ لبنان

تلفاكس: ٦٦٨١١٨ ٠١ (٠٠٩٦١)

© *Al-Kamel Verlag* 2009

Postfach 1127 . 71687 Freiberg a.N . Germany

WebSite: www.al-kamel.de

E-Mail: info@al-kamel.de

الفصل الأول

[1]

الأستاذ مليك سولانكا مبتكر دمى غضوب، وهو إلى عهد قريب عالم في تاريخ المثل، اتّخذ قراره (الذي انتقد عليه بشدّة) بأن يعيش وحيدًا في تاريخ سنواته الخمسين. شهد العصر الذهبي، عندما أخذت خيوط فضيّة تتسلّل إلى شعره. في الخارج، صيف رطب طويل، فأول فصل حار من الألفيَّة الثالثة كان يغلي ويشوي. في كل مكان من المدينة كان الدولار يخشخش. لم يسبق للسوق العقارية إطلاقًا أن ازدهرت بهذا الشكل، وبالنسبة لصناعة الألبسة فقد كان كل الناس متفقين في القول على أنه لم يسبق للأزياء أن كانت عصرية بهذا الشكل. مطاعم جديدة كانت تفتح أبوابها طوال ساعات اليوم، مخازن، وكالات، أروقة كان العمل يقوم فيها على قدم وساق كي تلبي الطلب المتزايد للمنتوجات المرغوبة. زيت زيتون عُصِرَ بضغط خفيف، فتاحة نبيذ غالية الثمن، سيارات جبلية رباعية الدفع مصنَّعة بحسب الطلب، برامج كومبيوتر مضادة للفيروسات عالية الجودة، مكاتب مضيفات فاتنات تعرض عروض بهلوانات أحاديّة ومزدوجة، تجهيز تلفزيوني، فن ترفيهي، أوشحة بمنتهى النعومة صنعت من عثنون الماعز السائر في طريقه إلى الانقراض، ولكثرة عدد الناس الذين كان عليهم أن يجدِّدوا زينة بيوتهم فقد ابتاعوا رياشها بأسعار

باهظة. كانت هناك قوائم انتظار من أجل المغاطس، وأكرات الأبواب، والخشب القاسي المستورد، والمواقد المصنوعة على الطراز القديم، وأحواض الاستبراد وألواح المرمر. وعلى الرغم من هبوط مؤشر نازداك في البورصة لأسهم شركة أمازون المساهمة، فإن التقنيات الجديدة كانت تعمُّ المدينة، كان الناس وما زالوا يتحدثون باستمرار عن الانطلاقة الأولى، وعن العروض العامة، والنشاط المتبادل لهذا المستقبل غير المعقول الذي ما كاد يبدأ بالدخول. كان المستقبل عبارة عن ملهى، كل الناس يقامرون فيه والكل يأمل بالربح. في شارع البروفسور سولانكا، شُبَّان بيض يتظاهرون بالغنى، كانوا يتبخترون أمام سيارات البورش الوردية يقنِّعون فقرهم بشيء من الأناقة، وهم ينتظرون صاحبتهم الخارقة التي لن تلبث أن تؤول إليهم. امرأة متفرِّدة، ممشوقة القامة، خضراء العينين، بوجنتين بارزتين لكأنها من أهل أوروبة الوسطى، لفتت نظره الحرج كعازب متمنِّع. كان شعرها بلون شقرة البندقية، يخرج كالسنابل من تحت قبعتها التي كقبَّعة لاعبة بيسبول سوداء، إن لها هيئة المهرِّج الشَّعث، أشبه ما تكون بمشعوذ آنجلو.

كانت لها شفتان مكتنزتان، تشنُّجيَّتان، وضعت يدها أمامهما بحسب الأصول قبل أن تضحك هازئة وبفظاظة، حينما باشر سوللي سولانكا، الغندور، القصير القامة، الذي عفَّى عليه الزمن، وقد اعتمر قبعة قش وارتدى بدلة من الكتَّان السكَّري، باشر نزهته التي اعتاد القيام بها عصر كل يوم، مدورًا العصا حول رأسه بضع دورات. سوللي لَقَبٌ لُقِّبَ به أثناء دراسته الجامعية، لم يسبق له أن أثاره إطلاقًا، لكنَّه لم يفلح في التخلص منه تمامًا.

«إيه يا سيد؟ المعذرة يا سيدي». خاطبته السيدة الشقراء بنبرة حاسمة تتطلَّب جوابًا. أصاخ مرزباناتها السمع، لكأنهم حرس طغاة حقيقيون. لقد أتت وبكل وقاحة على خرق واحدة من عادات المدينة، وهي واثقة من نفسها، من سلطتها، من موقفها، ومن رهطها، غير آبهة بشيء. فتاة شابة تفيض جسارة،

ليس عندها ما تعبأ به. توقف البروفسور سولانكا قبالة الإلهة المسمَّرة على عتبة بيتها، والتي أخذت تستجوبه بطريقة محيِّرة.

«أنت تمشي كثيرًا، أنت. أراك تغدو وتروح، هكذا، خمس أو ست مرات في اليوم على الأقل. من حيث أنا، أراك تخرج، وتعود، ألا تملك كلبًا، أنت لا ترجع أبدًا مع صاحبات أو مشتريات، ولساعات طويلة كما لو كنت تمارس عملاً شاقًا فأتساءل إذن، بالرغم عني، أحدّث نفسي لماذا يسيح وحده دائمًا؟ هناك رجل في المدينة، عدائي يهاجم النساء بقطعة اسمنت، ربَّما سمعتَ بذلك، لكن حسن، لولا أني أحسبُكَ صريحًا، لما تحدَّثت إليك، كما أن لك لكنةً إنجليزية، هذا ليس مبتذلاً. لقد تعقَّبناك عدة مرَّات، لكنَّك لا تذهب إلى أيِّ مكانٍ، تمضي إلى الأمام، دون غاية، هكذا تمشي من أجل المشي، أو لكأنَّك بحسب ما يوحي لي إحساسي تبحث عن شيء، حدَّثت نفسي عندئذٍ، حسن سنسأله. فقصَّه أن يكون المرء مهذَّبًا. هي خدعة بين الجيران. وأنت من النوع الغامض. على الأقل، أنا أجد ذلك. وفي الحال عاودت سولانكا لوعة الغضب».

«ما أبحث عنه، هو أن أترك وشأني. أجاب بجلافة».

كان صوته يرتجف نتيجة لغضب شديد، لم يكن يسوِّغه التطفُّل، غضب يزعزعه كلما كان يتغلغل في جملته العصبيَّة، تراجعت المرأة الشابة أمام هذا الغضب وتلفَّعت بالصمت.

«قل إذن، قال أحد حرس الطاغية، الأكثر مهابة، والأكثر حُنُوًّا، لا بدَّ أنه عشيقها، دون شك، نوع من قائد المئة بشعر أكمد، قل إذن إنك من النوع الشرس، بدلاً من أن تدَّعيَ أنك داعية سلام».

كانت المرأة الشابة تذكره بأحد ما، لكنه كان عاجزًا عن تذكره. ضعف الذاكرة هذا، وهذا التنبُّه إلى العمر الذي بلغه أغاظه كثيرًا. لحسن الحظ لم تعد موجودة، لا هي ولا الآخرون عندما عاد من الكرنفال الكاريبي، مبلَّلاً حتى

العظم، وقبعته كذلك بعد أن بوغِتَ بمطر سائط ودافئ. أثناء مروره أمام أبرشيَّة شيريث إسرائيل Shearith Israeel في سنترال بارك (بناء هائل أبيض بجبهة مثَلثيَّة محمول على أربعة أعمدة كورنثيه هائلة لا أقلَّ من ذلك!).

كان البروفيسور سولانكا يعود في تفكيره وهو يخفُّ في مسيره تحت المطر الغزير إلى البنيَّة ذات الثلاثة عشر عامًا تمامًا Bat-Mitzauachee، التي لحظها من خلال المدخل الجانبي، والتي كانت تنتظر تناول الخبز المقدَّس وهي تحمل بيدها سكينًا. إننا لا نجد في أي دين شعيرة إبطال التبريكات الربَّانية، فكَّر البروفسور سولانكا، ربّما كان من الممكن للمرء أن يظنّ أن الأنغليكانيين يبتدعون واحدة منها. كان وجه الطفلة يتوهج في العتمة، وقسماته الناعمة تنمُّ عن لمحات تأملية، توحي بيقينها بأن أسمى ما تأمل به سيُلبَّى.

أجل، عهد مباركٍ، إن كانت كلمة «مبارك» تندرج في عداد مفرداتكم، ما لم تكن عليه الحال عند هذا المتشكِّك سولانكا.

غير بعيد عن مفرق برودوِيْ وجادة أمستردام، أقيم معرض صيفيٌّ، سوق في الطريق. كانت الأعمال تسير على ما يرام على الرغم من المطر الذي كان يهطل بغزارة، لقد قدَّر سولانكا أنه من الممكن لسلع التصفية المكدَّسة على مباسط البضائع الموقتة هذه أن تملأ رفوف وواجهات أفخم المحالّ وأكبر المخازن في ثلاثة أرباع المعمورة. سواء في الهند أم في الصين أم في أفريقية أم في أكبر جزء من قارَّة أمريكا الجنوبية. لربَّما كان من الممكن لهؤلاء الذين كانوا يملكون الوقت والمال الذي يكرِّسونه للموضة ولأبسط المقتنيات المادية ـ أو ضمن خيارات أقل صلاحية حتى ـ أن يكونوا مستعدين لأن يقتلوا في حالات العسر من أجل الحصول على ما كانوا يجدونه على أرصفة مانهاتن، أو من أجل الحصول على الرِّياش القديمة وأقمشة تنجيد المفروشات التي كانت تعرضها المخازن الثرية في رخصتها، خزف صيني نخب ثان، منتوجات رفيعة، بسعر تصفيات مخازن مركز المدينة الكبرى البخس. تشتُم أمريكا بقيَّة الكوكب، لعبة

قديمة. فكّر سولانكا المحافظ. وهي تتاجر بالثروات المماثلة لوقاحة الغني المكشوفة الذي اغتنى ظلمًا. في هذا الزمن الفاحش الثراء، غدت نيويورك موضوع وهدف الشهوة العالمية، ولم تفعل الشتيمة إلاّ إثارة حسد بقية العالم. كانت العربات التي تجرَّها الجياد تأتي وتروح في سنترال بارك الغريبة، ورنين أجراس عُدَّتها، يذكِّرك بارتطام قطع المال ببعضها بعضًا.

كان الفيلم الذي يُمثِّل صرعة الموسم يحكي عن انحطاط روما القيصر جوشان، فينيكس الإمبراطورية، حيث الشرف والكرامة ـ بصرف النظر عن الألعاب والاقتتالات التي تصل حدَّ الموت ـ لم يكونا موجودين إلاّ من خلال اختلافهما ثانية ضمن حلبة المتصارعين الكبيرة التي أعيد إنتاجها على الحاسوب في مدرَّج ڤيلاڤيان أو كوليزيه.

تمتلك نيويورك أنواعًا من التسليات بقدر ما تمتلك من أنواع الخبز: مسرحية غنائية مع آساد رائعة، سباق سرعة على الدرَّاجات في دائرة بروس سبرينغ سْتين الخامسة في حي حديقة ماندسون مع أغنية عن الواحدة والأربعين رصاصة التي أطلقتها الشرطة على البريء المرحوم آمادو ديااللو، التهديد الذي مارسته إدارة الشرطة كي تقاطع حفلة فرقة «بوس» الموسيقية الراقصة، هيلاري ضدّ رودي، تشييع أحد الكرادلة، فيلم بديناصورات مدهشة، موكبا المرشَّحين المتعاوضَيْن على الرئاسة والرائعين (بوش، باور)، هيلاري ضد ريد، الاضطرابات التي ألمَّت بحفلة سبرينغ ستين الراقصة واستديو شن، تقليد أحد الكرادلة، فيلم رسوم متحركة بدجاجات إنجليزية رائعة، ومهرجان أدبي. حتى، زد على ذلك سلسلة من العروض البالغة الحيوية التي تمجِّد العديد من الثقافات المدنية العرقيّة الفرعيّة، الوطنية والجنسية والتي تُختَتَمُ «أحيانًا» باعتداءات بالسكين على النساء (غالبًا). في أيام العرض، كان البروفيسور سولانكا الذي كان يعتبر نفسه نصيرًا للمساواة بطبعه، ومدنيًا بجذره، مع تأييد الشعار السياسي «الريف بالأبقار» ينضج عرقًا وسط مواطنيه المتراصين. أحد أيام الآحاد انخرط بين

مترنّحي الغي برايد المنعمين الذين يطفحون حيويَّة، في عطلة الأسبوع التالي، كان يتململ بالقرب من امرأة بورتوريكية، ركزت علمها الوطني على صدرها، لكأنه حمَّالة لذلك الصدر. لم يكن يشعر بنفسه يتحرك. وسط الحشود، على العكس تمامًا. مجهول جميل اندسّ وسط الجمهرة حيث لم يكن أحد يشعر إطلاقًا بأن دخيلاً هناك. لم يكن أحد معنيًّا، عندئذٍ، بأسراره. جميعهم كانوا متواجدين هناك كي يعيشوا لحظات مجون. كان في ذلك سحر الحشد المضمر، وكان هدف سولانكا الوحيد تقريبًا هو أن يضيع ضمن ذلك الوسط.

كان الطقس الماطر بشكل لا يُعقَل في يوم عطلة نهاية الأسبوع يضجُّ بتواتر أنغام الكاليبسو المتنوعة، لم يكن لهذا أية علاقة بكلمات الوداع الجامايكية للمدعو هاري بولا فونت الذي تعلَّقت به ذاكرة سولانكا الآثمة. («الآن أقول لك ذلك بوضوح/ لا ترم إلى ربط بغلي/ وإلاً فإنه سينهق ويرفس/ إذن حذارِ من أن تربط بغلي») كانت تلك هي الموسيقى الهجائية الحقيقية للمحادلين التروبادوريِّيْن الجامايكيِّيْن، بانانا بريد، كوول رونانغس، يللوبيللي، المبثوثة مباشرة من فترة بريَّانت والغوتو بلاستر القابعين على أكتاف من كانوا يذرعون برودويْ بخطًا واسعة.

لدى عودته إلى بيته كان سولانكا فريسة لهذا الحزن الخفيِّ والمعتاد، الذي كان يصعِّده في الساحات العامة. ثمة شيء أصدر رنينه في هذه الدنيا. كانت فلسفة شبابه التفاؤلية قد بارحتْه، فما عاد يعرف كيف يتصالح مع واقع يغرق في انخداعه أكثر فأكثر. (زِدْ على ذلك، فإنه كان يمقت ضمن هذا الجدل ما يعنيه المضمون الرائع لكلمة موجود بالقوَّة) كان برمًا بمسألة الكمون تلك، في حين كان مواطنوه المحتدُّون يكتظُّون في تشكيلات اللوتس التي لا تحصى، من يعلم ما كان يدبره حكام المدينة من دسائس، ليس آل غليَّاني وسفير من كانوا يتلقون شكاوى النساء المغتصبات باحتقار كي تُبثَّ أشرطة فيديو هواة الاعتداء عبر أخبار المساء. وليس هؤلاء الإقعيون القشور أبدًا، بل المتنفّذون، هؤلاء

الذين كانوا يشغلون المقامات العالية، ويشبعون دون انقطاع رغباتهم النهمة، باحثين عن الجدة، مفترسين الجمال، ومتهافتين أبدًا، أبدًا على المزيد؟

ملوك العالم مجهولون، لكنهم ثابتون ـ كان سولانكا الزنديق يتحاشى أن يَنْسبَ إلى هذه الأشباح البشرية هبة كليَّة الوجود ـ القياصرة النزقون والقتلة كما يقول صديقه رينيهارت، آل البولانغبورك، عديمو الشفقة، القضاة أصحاب الأيدي المغروزة بعمق جونيس[1] العمدة والمحافظ... هذه الصورة الأخيرة جعلت سولانكا يقشعرُّ، إنه لم يكن معميًا لدرجة يجهل فيها نزوع طبعه الفطري المخجل إلى السُّوقيَّة. لكنَّ لعبة الألفاظ البذيئة كانت تؤذيه مع ذلك.

دمى العرائس هذه تجعلنا نرفس، ننهق، قال سولانكا بقلق. إنَّما من سيّشدُّ خيوطنا، نحن دمى العرائس الأخرى ونحن نرقص؟

رنَّ جرس الهاتف عندما كان يتخطَّى عتبة شقَّته، وطرف قبَّعته ما زال يقطر بماء المطر، رفع السمَّاعة بنزق منتزعًا هاتفه النقَّال من قاعدته في ردهة المدخل. «نعم، ما هذا؟»، صوت زوجته وصل إلى مسمعه بواسطة سلك من قاع الأطلسي، إذا لم يكن ـ ربَّما أن كل شيء قد تغيَّر هذه الأزمان ـ من خلال هوائية فوق البحار. أمر يصعب إدراكه. عهد الذبذبات السريعة يخلي مكانه إلى عهد حرارة الهاتف، العهد القياسي (بل عهد غنى اللغة، والترادف) أخلى مكانه للعهد الرقمي، الانتصار النهائي للرياضيات على الأبجدية. كان لا يزال يحب صوت إيليانور، فقبل خمسة عشر عامًا من الآن، وبينما كان يهاتف إلى صديقه الناشر مورغان فرانز الذي كان غائبًا في تلك الأثناء، فإنَّ إيليانور هي التي رفعت سمَّاعة الآلة الزاعقة، لم يكونا يعرفان بعضهما بعضًا بعد، لكنَّ محادثتهما استمرت قرابة الساعة. في الأسبوع التالي كانا يتعشيان في بيتها دون أن يلمِّح

---

(١) Jenas: واحد من الآلهة القديمة في روما، حارس الأبواب التي كان يراقب مداخلها ومخارجها لذلك فقد مُثِّلَ بوجهين. لم يكن يغلق هيكل جونيس إلاَّ في أيام السِّلم.

واحد منهما إلى عدم لزومية المجيء إلى هكذا مكان من أجل أول موعد. لقد تلا ذلك خمسة عشر عامًا من العيش المشترك. عشق صوتها إذن قبل أن يعشقها بكليتها. وكانت هذه هي المرحلة الأثيرة لديه من عمر حبهما. أمَّا الآن، ومع الوجه المتوحش للحب، والذي بُعِثَ من جديد تحت حراب الألم، الآن وقد صار صوتهما عبر الهاتف هو كل ما تبقى لديهما، فقد صارت هذه المرحلة، بالطبع، المرحلة الأكثر حزنًا، أصغى البروفسور سولانكا إلى صوت إيليانور بشيء من النفور، فتصوره مكسَّرًا إلى إرب صغيرة من المفاهيم الرقمية، وقد ابتلعت سلَّم أنغامه الجميل ثم تجشَّأته ناظمة آلية متموضعة دون شك في مكان كحيدر آباد دكن. ما هو المعادل الرقمي لكلمة «جميلة»؟ تساءل. ما هي الأرقام التي ترمز إلى الجمال، إلى القوَّة المرمَّزة التي تحاصر، تنفِّذ، تفك الرموز، لكنها تخفق، لست أدري كيف، هل بسجن أم بخنق روح هذا الجمال؟ ليس بسبب التقنية، بل رغمًا عنها، يتحرك الجمال، هذا الطيف، هذا الكنز، سليمًا معافى في هذه الآلات الجديدة. «مليك سوللي» نادته هكذا كي تضايقه. أنت لا تسمعني. ها أنت ذا تسترسل ثانية في مناجاتك الداخلية مع نفسك، حتى إنك لم تستوعب الحدث البسيط بأن ابنك مريض. لم تستوعب الحقيقة البسيطة بأن عليّ أن أستيقظ كل يوم كي أسمعه يسألني ـ الأمر الذي ليس لي طاقة على احتماله ـ لماذا أبوه غير موجود؟ ليعرف أنك دون أي تفسير، دون أي مبرِّر يمكن تصديقه، هجرتنا، وعبرت المحيط، وخنت كل من هم بحاجة إليك ويحبونك ولا يزالون حبًّا جمًا، تبًّا لك على الرغم من كل شيء».

لم يكن إلاَّ سعالاً بسيطًا، حياة الولد لم تكن في خطر، لكنها كانت على حق، فالأستاذ سولانكا قد انكفأ على نفسه، كانت على حق سواء في ما يتعلق بهذه المسألة بالذات أم في ما يتعلق بحياتهما المشتركة الأكثر اتساعًا لعهد قريب، والمنفصلة من الآن فصاعدًا، بزواجهما الذي نُظِر إليه في وقت ما على أنه زواج لا يمكن فسخه، برباطهما الذي لم يسبق لأحد من أصدقائهما أن عرف

مثله قط؛ ومسألة وضعهما كأبوين لأسمعان سولانكا، الولد الصغير البالغ من العمر الآن ثلاثة أعوام، ذي الطبع اللطيف والحس العجيب، ثمرة بشعر أشقر تدعو إلى العجب كونه من أبوين شعرهما بنياً وإليه أعطيا هذا الاسم الأثيري (أسمعان، الذي معناه المباشر السماء، ومعناه المجازي الفردوس). لأنه كان السماء الوحيدة التي كان من الممكن لهما هما الاثنان أن يؤمنا بها دون أي تحفظ. طلب البروفيسور سولانكا من زوجته أن تغفر له إهماله، وعلى ذلك انفجرتِ في نحيب، وزفرة طويلة متقطعة هصرت قلبه، لأنه لم يكن فاقدًا الإحساس قطعًا. انتظر بصمت أن تهدأ، ثم تكلَّم بلهجة المثقف المتنفذ الماهر متلافيًا ومانعًا عليها أدنى ظل للانفعال.

«أنا أقرُّ بأن ما قمت به يبدو غير قابل للتفسير، لم أنسَ، مع ذلك، ما علمتني إياه أنت بنفسكِ فيما يخصُّ أهمية ما يتعذّر تفسيره (أقفلت السمَّاعة في وجهه، بيد أنه أكمل جملته) أوه عند شكسبير».

هذه الخاتمة التي لم تسمعها ذكّرته برؤية زوجته ضمن أبسط شكل، بإيليا نورماسترز قبل خمسة عشر عامًا، المستلقية عارية في ألق عمرها البالغ خمسة وعشرين عامًا، وقد ألقت برأسها على ركبتيه، لكأنها نموذج فقد رونقه، لروائع فائقة الإتقان، وهو مجلَّد بجلد أزرق فتح على شعر عانتها.

تلك كانت النتيجة غير اللائقة، بل المندفعة بحبور إلى ذلك العشاء الأول كان قد أحضر الخمر، ثلاث زجاجات باهظة الثمن من الـ «تينانيللو آنتينوريا». (ثلاث! دليل فاضح على إرادة الإغواء المفرطة) وهي أعدَّت له وجبة من لحم الضأن ـ وسلطة الزهرة الطريَّة إلى جانب اللحم المطيَّب بالكمُّون. كانت ترتدي فستانًا قصيرًا أسود، وكانت تتنقَّل برشاقة وهي حافية القدمين في شقة برز فيها إبداع فريق بلوموسبوري، فخورة بأنَّها تقتني ببَّغاء في قفص، كان يقلِّد صوت ضحكتها، ضحكة فاقعة جدًا بالنسبة لامرأة بهذه الرِّقة. كانت هذه هي المرة الأولى والأخيرة التي أعطى فيها موعدًا إلى مجهولة، وهي قد أفصحت

عن نفسها بمنتهى الجلاء: ليست جميلة فحسب، بل ذكيَّة، حسَّاسة، واثقة من نفسها في الوقت نفسه، وطاهية حقيقية ماهرة.

بعد أن أكلا من سلطة السلبوت، وشربا بإفراط من نبيذه التوسكاني أخذت تحدِّثه عن أطروحتها في الدكتوراه (كانا مسترخيَيْن حينئذ في صالونها على سجَّادة يدوية من حياكة كريسيداييل عندما قاطع سولانكا حديثها بالقبل: لقد وقع البروفسور سولانكا في حبها باستسلام الحمل الوديع. خلال السنوات الجميلة العديدة التالية، كانا يتشاجران بحبور لمعرفة مَنْ منهما قام بالخطوة الأولى، هي كانت تصرُّ على التنكّر لذلك بتعنُّت (لكنَّ عينيها اللامعتَيْن) كانتا تنمَّان أيضًا، وهما تستجيبان لرغبته ـ مع أنها تعلم كل العلم أن هذا كان عاريًا من الصحة ـ بأنها هي من كانت «قد ارتمت بين ذراعيه». «أترغب في أن أتحدَّث عن ذلك، أم لا؟ أجل، قال مذعنًا وهو يداعب حلمة نهدها الرائع الخلق. وضعت يدها على يده واسترسلت في عرضها».

نقطة الانطلاق الأولى كانت أطروحتها، إننا نجد في كل واحدة من مسرحيات شكسبير المأسوية أسئلة لا جواب لها في ما يخصُّ الحب، ولكي نفهم هذه المسرحيات جيدًا، يكون لا بدَّ لكل واحد أن يجهد بطريقته لتفسير هذا المتعذِّر التفسير. لماذا يرجئ هملت الذي يحب أباه المتوفى ساعة الانتقام في حين أنه يدمِّر أوفيللي التي تحبه؟ لماذا لير الذي يفضِّل كورديليا على كل بناته، لم يفهم الحب ضمن صدق استجاباته الأولى فصار حينئذ فريسة أخواتها الفاقدات الإحساس، ولماذا انقاد مكبث المخلص لأقرانه بسهولة أيضًا بواسطة الجنيَّة اللامبالية الليدي م. إلى عرش ظالم ودامٍ؟ في نيويورك، كان البروفسور ـ سولانكا الذي يمسك الجهاز الهاتفي اللاسلكي في إحدى يديه بشرود، يتذكّر حلمة إيليانور المنتصبة تحت أصابعه الرشيقة. مثلما كان يتذكر جوابها الخارق لمسألة عطيل، التي لم تكن في نظرها «الإساءة المجانية لياغو بل هي على الأرجح»، لدى المغربي، الافتقار إلى

الذكاء الفعَّال «بلاهة عطيل اللامعقولة حيال الحب، التصعيد المعتوه الذي قاده إلى قتل زوجته بناءً على دليل تافه، وزوجته التي كان من المفترض أن يعبدها» كان تفسير إيليانور هو التالي:

«عطيل لا يحب ديدمونه وقد خطر هذا في بالي دون أن أسعى إلى إيجاده. فصَّال حقيقي، فتيل مصباح تشتعل. إنه يدَّعي حبها، إنما لا يمكن لهذا أن يكون صحيحًا. لأنه لو كان أحبّها لما كان هناك معنى للقتل. إن ديدمونة برأيي، هي الزوجة ـ الغنيمة بالنسبة لعطيل، أغلى وأثمن ما يملك، والشاهد الجنسي لشهرته المتعاظمة في عالم البيض. هل فهمت؟ هذا هو الشيء الوحيد الذي أحبّه فيها: فعطيل كما هو واضح للعيان ليس أسود، بل مغربي: عربي، مسلم، واسمه دون شك مرطون لاتيني أخذ عن العربية عطا الله؛ أو عطولله، فهو ليس مخلوقًا من العالم المسيحي إذن، من الخطيئة ومن خلاص البشر، بل هو مخلوق من عالم الأخلاق الإسلامية التي يمثل الشرف والعار قطبَيْها. موت ديدمونة هي حالة غسل العار بالدم. فلا حاجة لأن تكون آثمة، الاتهام كان كافيًا. التعدي الذي تكبَّدته الفصيلة كان متنافيًا مع الشرف، وإليك لماذا لم يصغِ إليها، لماذا لم يمنحها حق الطعن ولم يصفح عنها، ولم يفعل ما كان من الممكن لكل رجل يحب زوجته أن يفعله. لا يحب عطيل إلاَّ نفسه كعاشق ومتيَّم، ما كان راسين، الكاتب المتكلِّف قد سماه تدلُّهَهُ وفخاره. فبالنسبة له هي ليست بشرًا حتى، لقد شيَّأها، إنها تمثاله الصغير، باربي، دميته. على أية حال، هذا ما حاولتُ أن أثبتَه، وربَّما أكون قد نلت شهادتي في الدكتوراه كمكافأةٍ على جرأتي البسيطة».

تناولت جرعة من نبيذ تينياللو، ثم تقوَّست وأحاطت عنقه بذراعيها وشدَّته إلى صدرها.

لقد بارحت المأساة مخيِّلتهما.

بعد سنوات، كان البرفسور سولانكا واقفًا تحت دفق ماء الدوش الساخن كي

يتدفَّأ بعد نزهته الطويلة في يوم ماطر، وسط الأحراج المتفرِّقة، متظاهرًا بأنه أبَّهي أبله. ارتداد أطروحة إيليانور ضدها ظلمٌ فادح، كان من الممكن له أن يوفِّره عليها بارتياح! كيف تجرَّأ أن يقنِّع مسكنته في هذه الكبائر الشكسبيرية؟ هل كان يتجرَّأ فعلاً أن يحذو حذو مغربي البندقية والملك لير؟ أن يقارن خفاياه المتواضعة بخفاياهما؟ غرور كهذا كان بالتأكيد دافعًا لطلاق مرض. إنما كان في هذا أيضًا لفٌّ ودوران. لم تكن إيليانور تريد الطلاق، حتى الآن كانت تريده أن يرجع إليها. «أنت تعرف تمامًا ـ سبق أن قالت ذلك أكثر من مرَّة ـ أنك لو قرَّرت الرجوع عن تلك الحماقة التي أنت ماضٍ فيها، لصار كل شيء على ما يرام. إني لا أتحمل مكابرتك». وكانت هذه هي المرأة التي هجرها! لو كانت فيها نقيصة، فهي عدم قيامها بلحس قضيبه. (كان يمقت أن يُلْمَسَ على أعلى جمجمته وهو يمارس الحب). لو كانت فيها نقيصة، لكانت هذه النقيصة أنها تمتلك حاسَّة شمٍّ مرهفة تمنحها الإحساس بأنه كان يُفسدُ كل البيت بإنتاناته (لكنه فورًا، وعلى الغالب كان يبدأ بالاغتسال) لو كان فيها عيب، فهو أنها كانت تنفق دون حساب، وهي سمة طبيعية مذهلة لدى امرأة ـ نردِّد العبارة ثانية، ولدت وفي فمها ملعقة من ذهب. إن كانت فيها نقيصة فهي أنها عوَّدت نفسها على أن تكون متماسكة، وقد كان بمقدورها أن تقرقع بالمال الوفير في عيد الميلاد، المال الذي لم تكن تجني سوى نصفه من الأهالي خلال سنة. إن كانت فيها نقيصة فهي أن حبَّها الأمومي قد أغشى على بصرها عن كل ملذّات العالم، بما فيها رغبات سولانكا، كي نكون صادقين. إن كانت فيها نقيصة فهي أنها كانت تريد المزيد من الأولاد، ولا تريد شيئًا آخر، حتى ولو كان ذهب السعودية كله.

الأعجب بين الأمهات، رحيمة، تمتلك ملكة الخيال، الأحب والأكرم بين الصاحبات، ليست ثرثارة بالضرورة، لكنَّها مفحِمة في طروحاتها (لقد استبان ذلك منذ مكالمتهما التليفونيَّة الأولى). وخبيرة لا بالطبخ والخمور فحسب، بل أيضًا بعلم النفس الإنساني. ابتسامة من إيليانور ـ ماسترز كانت بمثابة مجاملة

لطيفة ورقيقة، وصداقتها كانت بمثابة مكافأة. كانت تنفق بيسر، وماذا بعد؟ لقد ألفى آل سولانكا أنفسهم أثرياء فجأة، بفضل الشهرة العالمية شبه المفزعة، لدمية ذات ابتسامة متغطرسة، وموهوبة بقدر كبير من اللامبالاة، دمية أخذ الأميركيون يصفونها بكلمة مختصرة صرعة، وكان أسمعان الذي وُلِدَ بعدها بثمانية أعوام يبدو تجسيدًا لها مفعمًا بالأسرار، أشقر بعينين غامقتين، وطبع بمنتهى العذوبة، على الرغم من أنه كان صبيًا حقيقيًا تشغل باله الرَّمَّاشات العملاقة، والمجدلات الضاغطات، والمركبات الفضائية، والقطارات، مولع بعناد بترديد قول كازي جونس: أستطيع أن أقوم بذلك، أستطيع أن أفعل ذلك، (لقد فعلتِ ذلك، لقد قمتُ به، وبفيلة السيرك لعبة جامبو، كان من يرى أسمعان يحسبه فتاة وهذا دون شك بسبب جمال رموش عينيه الطويلة، بل ربَّما أيضًا لأنه كان يستدعي إلى ذاكرة الناس أوَّل إبداع لوالده: الدُّمية المعمَّدة باسم سيرڤليت.

في نهاية أعوام الستينيات، ملَّ البروفسور سولانكا الحياة الأكاديمية: ضيق أفق، منازعات داخلية، ريفية قطعية.

«سنأكل جميعنا الهندباء البرية من جذرها، في يوم أو آخر، لكنَّ جامعة الآلماماتر ستحضِّرها لك على شكل سلطة، صرَّح لإيليانور، مضيفًا، من غير المجدي كما اتضح)كوني مستعدَّة للفقر)».

ثم، وأمام انذهال أصدقائه، إنَّما برضا زوجته المطلق، استقال من وظيفته في الكليَّة الملكية في كامبردج ـ حيث كان يقوم بأبحاث عن تطورات فكرة مسؤولية الدولة إزاء المواطنين، وعن تلك الموازية، أو المتعارضة مع «الأنا الأعلى» ـ وراح يستقرُّ في لندن في (هاي بوري هيل، حيث يبلغ صراخ ملعب آرسونال مداه). بعد ذلك بقليل انخرط في التلفزيون، إيه أجل، ما سبَّب له احتقارًا حسودًا، كما كان باستطاعة المرء أن يتوقع، لا سيَّما عندما أوصت إليه الـ B.B.C. لشراء مسلسلة ذات جمهور عريض، من أجل برامج نهاية السهرة،

تتحدَّث عن تاريخ الفلسفة، ويكون أبطالها دمى البروفسور سولانكا الشهيرة المثقَّفة التي صُنعتْ بعنايته.

كانت الكأس مملوءة، ما كان انحرافًا من الممكن تقبُّله لدى زميل محترم، صار جنونًا لا يحتمل عند مارق جبان، ومغامرت سِرْفلت صارت موضع سخرية المثقفين من كل الطبقات حتى قبل أن يشاهدوها. ثم بُثَّ البرنامج، وخلال أقل من ثلاثة أشهر، وأمام الاندهاش الكبير والأذى الذي لحق به من ثالبيه. فقد كفَّ عن تقديم المتعة المقدَّسة لنخبة مرهفة كي يصبح تقليديًا. بجمهور من المعجبين الشباب بشكل مقبول، صارت تزداد أهميته أكثر فأكثر إلى أن خلص إلى معرفة الرِّسامة، شاغلاً الشرفة المطموع بها لما هو أبعد من الـ .T.J، عندئذ عرف الانبهار الرائع لمكافأة الزمن.

في الكلية الملكية، كان من المعلوم، أن مليك سولانكا كان قد زار ـ وهو في سنته الخامسة والعشرين، وأثناء إقامة له في آمستردام ـ كي يحاضر في الدين والسياسة في معهد ميَّال إلى اليسار وممَوَّل من فابرجي ـ زار متحف ريجك موزيوم، وافتُتن أمام واحد من أهم كنوزه، إنها بيوت الدمى ذات المساكن الداخلية القديمة المرمَّمة بمنتهى الدِّقة التي كانت تعطي صورًا فذّة للحياة الهولندية الخاصة عبر الأزمان. لقد كانت بثلاثة جدران مشقّقة، كما لو أن قذائف قد عصفت للتو بواجهتها أو لكأنها أشبه ما تكون بمسارح جاء حضوره ليكمِّلها.

لقد كان جدارها الرابع. كل شيء بدا له منمنمًا في آمستردام: فندقها على الهيرانغراست، منزل آنّا فرانك، السورانيات الخارقة الجمال. لقد كان في مشاهدة الحياة الإنسانية مصغَّرة إلى أبعد الحدود والمختزِلة في دمية ما يخلب اللب، أرضت النتائج الشاب سولانكا وقليل من التواضع في أبعاد المغامرة الإنسانية كان ضروريًا. كان من الصعب الرجوع إلى الرؤية القديمة «الصغير جميل» تمامًا مثلما أعلن لتوه تشوماشر، بمجرَّد هذا التقلب العقلي الحاصل.

ويومًا بعد يوم، كان إعجابه بمنازل دمى متحف ريجك موزيوم يهتز، كانت هذه هي المرة الأولى في حياته التي يتصور فيها تقديم شيء من صنع يديه. منذ ذلك، أصبح يفكِّر بالمقصِّ والصمغ، والإبر، والخرق، كان يتخيل أوراقًا مزوَّقة وأقمشة تنجيد، صار يحلم بملاءات أسرَّة، ويصمم تجهيزات صحية، فجأة وبعد عدة زيارات، بدا له جليًّا أن مجرّد بيوت لا ترضيه، لا بدَّ لمساكنه الخيالية من أن تكون آهلة بسكانها.

لا أهميَّة لها وهي خاوية. إلاَّ أن بيوت الدمية الهولاندية، وعلى الرغم من أنها كانت جميلة وعلى طراز منمَّق، وبمستوى القدرة على فرش وتزيين خياله ـ كانت تجعله أخيرًا يفكِّر في نهاية العالم، بكارثة أرضية. ربَّما سيكون بمقدورها لو حصل ذلك، أن تترك المباني سليمة بعد أن تكون قضت على كل ما يتنفَّس على الأرض. (لقد حصل هذا قبل سنوات عديدة عند اختراع هذا الانتقام الجامد المتفوِّق على الحي، القنبلة الهيدروجينية). ما كادت تخطر في باله هذه الفكرة حتى أخذ المكان يثير اشمئزازه. لقد تخيَّل مستودعات المتحف مليئة بأكوام هائلة من الجثث المنمنمة: طيور، حيوانات، أطفال، خدم، كوميديين بورجوازيات، ونبلاء. غادر متحف ريجك موزيوم، ولم تطأ قدماه بعدها إطلاقًا مدينة آمستردام. عند عودته إلى كامبردج، شرع فورًا في بناء عالمه الصغير. وعن البداية كانت بيوت دميته ثمرة لرؤية شخصية محضة. فبادئ ذي بدء كانت خيالية، بل أسطورية، استكمالات مستقبلية أكثر من كونها غوصًا في الماضي. كان منمنمو البلاد المنخفضة قد وصلوا بها إلى الكمال، هذه الحقبة «الآثار المستقبلية العلمية» لن تدوم طويلاً. استوعب سولانكا سريعًا فائدة العمل بمكر شديد، كمصارعي الثيران العظماء، مستخدمًا وسائل حياته الخاصة وحاشيته المباشرة وبواسطة كيميائية الفن، لجعلهم غرباء ـ فكرته التي سيكون من الممكن لإيليانور أن تشبِّهها «بفصَّال حقيقي، بفتيل اشتعال» قد آلت في النهاية إلى مجموعة دمى. مثقفين، منشقين على الغالب في لوحات صغيرة.

برتراند راسل يَضْرب بمقمعة رجال الشرطة أثناء قتال كييرغاراد[1] وهو ذاهب إلى الأوبرا في وقت استراحته كي لا يظن أصدقاؤه بأنه كان يجدُّ كثيرًا: مكيافيللي الذي أُخضع إلى التنكيل بالهويّ، سقراط المفضَّل لدى سولانكا يتجرَّع الشوكران الذي لا مناص منه، وهناك غاليلي برأسين وأربع أذرع: الأول يتمتم بالحقيقة، وذراعاه المخبأتان في ثنيَّات ثوبه تخفيان النموذج المصغر للأرض التي تدور حول الشمس والوجه الآخر المطرق والنَّادم تحت نظرة الرِّجال القاسية في ثوب الرُّهبانية الأحمر مستدركًا قوله الذي جاهر به، بينما كانت ذراعاه الأخريان تتمسَّكان بورع بنسخة للكتاب المقدَّس، أخذت هذه الدمى تنشط لأجله. ليس وحدها فحسب. بل الباحثة النّهمة التي ابتكرها لتكون المحاول المتلفز الذي يمثِّل الجمهور، الدُّمية التي تنتقل في الزمن، سِرْڤليت، والتي صارت إثر ذلك نجمًا تلفزيونيًا، بيعت منه آلاف النسخ في العالم قاطبة.

سِرْڤليت، السليمة النيَّة البريئة العفوية الساذجة والمثالية مع ذلك، بطلة الحقيقة في رداء التقنُّع، مسافرته الصغيرة، الشَّعثة الشعر، التي كانت ترتحل وهي تحمل في يدها وعاء التسوُّل إلى أقصى شمال اليابان، سِرْڤليت الواهية، الوقحة والمقدامة التي تهتم بالمعرفة من أعماقها. وتحلم باكتساب حكمة قوية، وشخصيَّة محرِّضة أكثر من كونها تابعة مجهَّزة بآلة تنقّل ضمن الزمن كانت تربك كبار العقول في كل الأزمان إلى أن كانوا يبوحون باعترافات مذهلة.

فروائيُّ باروش سبينوزا المفضل، مثلاً هرطقي القرن الثامن عشر لم يكن غير ب. ج. وودهاوس، تطابق مذهل بالطبع، بما أن الفيلسوف الخالد، والقهرمان الحيوي، روجينال جيڤس، كان سبينوزا، (سبينوزا الذي قطع أربطتنا، وجعل الإله يكفر بدوره كإله مالكي دمى، مقتنعًا بأن الوحي لم يكن حدثًا متوضعًا

(١) أديب وفيلسوف من مواليد كوبنهاغن فلسفته تعتبر الوجودية الأولى.

فوق التاريخ الإنساني، بل يقع حتى في صميمه. سبينوزا الذي لم يرتدِ القمصان أبدًا، ولم يضع ربطات العنق غير اللائقة). كان من الممكن لعقول مغامرات سرڤليت العظيمة أيضًا أن تظهر ناتئة ضمن الزمن: لقد كان المفكِّر العربي ـ الإيبيري (الوليد بن رشد). كنظيره اليهودي ميمون تمامًا نصيرًا كبيرًا لفريق يانكي[1].

لمرة واحدة مضت سِرْڤليت بعيدًا جدًا. عندما كانت تستجوب غاليلي على طريقة مذيعات الأخبار المبتذلة السوقية، لقد عرضت للرجل العظيم رأيها المدموغ بخيبات أملها.

«أيّها المتعهِّر، لو أني وضعت في موقف كهذا، لما كنت لأذلّ، قالت باحتدام وهي تنحني نحوه، لو أنَّ بابا حاول أن يجبرني على الكذب، لَشَنَنْتُ عليه ثورة ضروسًا، لكنت أشعلت النار في كوخه الخشبي، لجعلت مدينته القذرة تصير إلى رماد».

لقد شُطبت المسبَّات فعلاً قبل العرض ـ فمتعهر صارت «قذر» ـ لكنَّ المشكلة لم تكن هنا. حرق الفاتيكان ـ هذا ما كان فيه تجاوز للحدود بالنسبة لسِرْڤليت في نظر مديري الإذاعة وتكبَّدت سِرْڤليت وللمرة الأولى توبيخ الرقابة السرِّي.

لم يكن في وسعها أن تفعل شيئًا هناك سوى أن تهمس، ربَّما مع غاليلي «هي أيضًا تدور، وأنا مستعدَّة لإضرام النار فيها. . .».

عودة إلى خانة الكامبردج. حتى محاولات «سوللي» سولانكا الأولى، محطاته الفضائية، أبنيته السكنية على طراز سلَّة المنطاد، من أجل الاجتماعات

---

(١) اسم منحه الإنجليز إلى مهجري مستعمرات إنجلترا الجديدة للثوار، ثم منحه الجنوبيون إلى الشماليين ثم صار لسكان الولايات المتحدة الأنغلوساكسونيين. وابن رشد الإيبيري نسبة إلى شبه جزيرة إيبيريا.

على سطح القمر، كانت تنمّ عن مزايا الابتكار وسعة الخيال، اللَّذين كانا بحسب الرأي الذي يتضمن غاية خفية لمختصٍّ بالأدب الفرنسي، كان يقوم بدراساته عن ؟ڤولتير «كانا غائبَيْن بشكل لا بأس به» عن أعماله الجامعية.

أضحكت هذه اللدغة كل المدعوين المتجمعين.

«غائبان بشكل لا بأس به» إنه أسلوب لعبة البريدج الكاوي، مزاحة سطحيَّة ومهينة في الوقت نفسه، مَرِحَة وجديَّة بشكل رهيب. لم يعتدْ البروفسور ـ سولانكا إطلاقًا على تلك التهكمات التي لشدِّ ما تجرحه، كان يتظاهر بأنه لا يرى إلاَّ جانبها المضحك، وهنا كانت تكمن السِّمة التي كان يتشاطرها، بشكل يدعو للغرابة مع مهاجمه الفولتيري ذي الاسم المحيِّر ـ كريستوف واترفورد واجدا، المدعو «غودول» ـ والذي عقد معه صداقة كانت بعيدة الاحتمال. لقد استسلم واترفورد واجدا لأسلوب المحادثة هذا، مثل مليك سولانكا تمامًا ـ تحت ضغط ازدواجيتهما الضارية، لكنه هو أيضًا لم يكن يشعر ضمنها بالارتياح إطلاقًا.

كان سولانكا يعرف ذلك، فلم يحفظ له ضغينة إذن على جملته (غائبان بشكل لا بأس به) وفي المقابل فإنه لم ينسَ ضحك المدعوِّين.

لقد كان غودول مرحًا، مشحوذًا مثل إيتون، ضيِّق الشهرة في نادي إهي لانغهام، نصف بولوني مخشَّن، ابن الرجل عصامي، وهو زجَّاج ماهر مُدَغْبَل، يتحدث ويأكل ويشرب كسوقي، لقد اغتنى من الترجيج المضاعف وتزوَّج زواجًا تارًّا بشكل مذهل، جلب السخط على أهل زوجته من الطبقة العالية ـ «صوفي واترفورد تزوَّجت بولاك»[1].

كانت له هيئة كهيئة روبرت بروك، المشعة بنبل، تفسدها وجنتان غائرتان، ويمتلك خزانة ثياب من سِتَر التويد، وحاشده، وسيَّارة مكشوفة، إنّما لم يكن

(١) فارس بولوني عمل في خدمة فرنسا في القرن الثامن عشر.

لديه أية صديقة صغيرة. في حفلة تعارف راقصة للمستجدين من طلاب الفصل الدراسي الأول، تمنَّعت شابات جيل الستينات الوقحات عن الرقص معه، منتزعات منه هذا التظلم:

ـ «لماذا كل شابات كامبردج على هذه الدرجة من الغلاظة؟».

ـ لأن معظم الرِّجال مثلك، أجابته المدعوة أندريه أو شارون أمام الكافتيريا، أراد أن يلعب دور المزرِّكين من الطلاب القدامى الذين يعاكسون الطلاب المستجدين، قدَّم لفتاة وجبته من النقانق هناك في الأعلى هي واحدة من آل سابرينا أونيكي اعتادت على طرد المعجبين غير المرغوب فيهم. لذعته دون أن تضحك أو أن ترمش بعينيها: «يتفق أنني لا آكل من بعض الحيوانات».

لا بدَّ من الاعترافا بأن سولانكا نفسه قد تجنَّى على غودول بمضايقته أكثر من مرة بأمور تافهة، ففي يوم تسلم الشهادات، وخلال صيف عام ١٩٦٨ المتفجر، وعندما أفلتا لأنفسهما العنان كي يحلما بالمستقبل وهما متزيِّنان ومنتشيان ومحاطان بذويهما المنتشرين في ساحة الجامعة الرئيسية المعشوشبة، كشف غودول عن نيَّته المذهلة بأنه سيصبح روائيًا «مثل كافكا ربَّما»، قال ذلك بشرود، وهو يبتسم ابتسامة طبقة النبلاء العريضة، ابتسامة كابتن فريق الهوكي، التي ورثها عن أمه، والتي عجز الألم والفقر والحيرة عن تكديرها، والتي تبرز بطريقة نافرة تحت ما ورثه عن أبيه، حاجبيه المحدَّبَيْن السوداوَيْن اللذَيْن ينَّمان عن كل أنواع الحرمان الذي قاساه أسلافه في مدينة لودزا غير المحمية جيدًا. «في الخندق. لم تكن الآلة تفيد بشيء. غضب. شيء من هذا النوع».

كتم سولانكا ضحكة مجنونة، وقال في نفسه، هل من الممكن لهذا التضارب الذي يقابل تلك الابتسامة وذينك الحاجبين، لتلك الملعقة الفضية الإنجليزية وذاك القدح البولوني، لذلك التمثال الذي أُبدِعَ في نحته على طراز كرو بيلا دوڤيل الذي يبلغ طوله مترًا وثمانين سنتيمترًا، أمّه، ودبَّابة الاقتحام المدحرجة ذات الوجه المسطّح، أبيه، هل من الممكن لهذا أن يكون وسطًا

مناسبًا كي تنتشر بذرة وتتفتح. ربما؟ ربّما كانت هذه هي الشروط المناسبة لولادة هذا النغل غير المحتمل، كافكا إنجليزي! «أو، بخلاف ذلك، فإننا سنستطيع ربَّما أن نتصور ضاحية أكثر نفعية، وادي الصبايا. هناك الوسط المعتدل، في منتصف الدرب بين إنسان متوحش ومشذَّب. معظم الناس ليسوا نوابغ. لا تقل العكس يا سوللي، إنهم يريدون فعلاً أن يُشجَّعوا قليلاً. كما أن المسألة أيضًا ليست مسألة تأييد لأصحاب الصدارة من الكتاب أمثال تولستوي وبروست. والكتب الصغيرة لا تسبب الشقيقة. بل والكبيرة الكلاسيكية ـ المعدلة ـ المطابقة لذوق العامة. إن عطيل الذي يجسِّد المغربيَّ قد التبس بشكل لا يقبل التفسير. ما رأيك بذلك؟». لا لزوم لشيء من ذلك بعد ـ في نشوته وهو ثمل لكثرة ما أفرط في شرب شامبانيا آل واترفورد الرائعة ـ لم يكن أهله قد قدَّروا أنه من المفيد مغادرة بومباي والمجيء من أجل حضور تسلُّم شهادات الديبلوم وقد أفرط غودول بإلحاحه عليه كي يقدِّم له الكأس إثر الكأس ـ كان سولانكا يحتجُّ بإصرار على طروحات كريستوف العبثية، مترجيًا واترفورد كي يوفِّر على العام دفقه الأدبي.

«حسن، ربَّما سأصبح أنا مخرجًا تلفزيونيًا، وحينئذ سنذهب عمَّا قريب لنستقر جنوب فرنسا، لا بدَّ أنهم بحاجة إلى مخرجين هناك».

كان مليك سولانكا ميَّالاً إلى هذا الطائش غودول، لأنه من جهته كان قادرًا على القيام بهذه المخارج وأيضًا بسبب الصدق والكرم اللذين كان يخفيهما خلف صخبه المزعج المنتفج، ثم إنه كان مدينًا له بمعروف كبير. لقد أصيب سولانكا وخلال ليلة صقيع من خريف عام ١٩٦٥ وحيث كان في مسكنه في ماركيت هيل الكلية الملكية بنوبة حصر نفسي. كان عمره ثمانية عشر عامًا. قضى نهاره في الجامعة في حالة من الخوف العنيف المفاجئ، كان عاجزًا عن مغادرة سريره، وشياطين كانت تتراقص أمام عينيه في كل مكان. كان المستقبل يبدو له شدقًا واسعًا على وشك افتراسه، تمامًا مثل كرونوس الذي افترس

أطفاله. والماضي كانت روابط سولانكا مع عائلته تتآكل حقًا ـ لم يكن الماضي يبدو له سوى إناء مشروخ. لم يعد يملك إلاّ هذا الحاضر الذي لا يطاق، والذي اكتشف فيه أنه غير قادر على التكيف معه تمامًا. فكان الأهون عليه أن يمكث في سريره متدثّرًا بغطائه. في غرفته العصرية والغريبة، بمنجورها الخشبي الأبيض، ونوافذها ذات الإطار المعدني، ظل متمترسًا خلف كل ما ينتظره وراء الباب. كان يسمع أصواتًا، لكنه لم يكن ليجيب أبدًا. كان يسمع وقع خطًا، عند الساعة السابعة مساءً، صوتًا لم يكن يشبه أي صوت آخر، ـ صوتًا أكثر حزمًا وأرستقراطية، يتطلب جوابًا أهاب به.

«هل من الممكن لواحد أن يكون أضاع حقيبته الضخمة التي تحمل اسمًا أجنبيًا يقيم في غير بلده؟». وعند هذه المفاجأة الرهيبة استجاب سولانكا. نهار الكسل المرعب هذا انتهى بهذا الشكل. وكانت هذه هي بداية سنوات الجامعة. وكقبلة أمير بدّد صوت غودول الهادر ذلك السحر.

كانت أشياء سولانكا قد أودعت خطأً في سكن بيس هيل كرَيْس الذي لم يكن قد صار بعد إلى غودول الذي انتزع الشيطان من سولانكا وساعده على رفع حقيبته وجرِّها إلى غرفته، ثم صحب صاحب الحقيبة التعس إلى مطعم الجامعة كي يتعشَّيا فيه بعد أن تناولا زجاجة بيرة. في ما بعد، كان الاثنان يصغيان وهما جالسان بجوار بعضهما بعضًا إلى عميد الكلية الملكية المتألق وهو يبين لهم سبب وجودهم في كامبردج: «من أجل ثلاثة أشياء: التفكير! التفكير! التفكير». وخلال سنوات المستقبل سيتعلمان ربما «في غرفة زملائهما، وهم يغنون أخيلة بعضهم بعضًا». أكثر ما سيتعلمانه ربما في قاعة الدراسة أو الصف، ضحكة المستخف ذلك. . واترفورد واجدا التي كانت أشبه ما تكون بالنهيق آه ـ ها ـ ها ـ ها قطعت الصمت المحيِّر الذي عقب تلك الملاحظة. عشق سولانكا هذه الضحكة الفجَّة.

لم يصبح سولانكا روائيًا ولا مخرج تلفزيون. لقد كتب أطروحته، وقدم

امتحان الدكتوراه ووجد نفسه أخيرًا يفكِّر في منصب، بانتهاز الفرصة بالبشاشة الممتنَّة لرجل حسم مسألة مستقبله نهائيًا.

لمح سولانكا غودول عندئذٍ من خلف قناع الولد اللامتطرِّف، الشاب الذي يحاول الهروب بكل ثمن من العالم الذهبي الذي ولد فيه.

حاول سولانكا أن يخترع لنفسه كتعويض، أمًا مزهوَّة وسيدة مجتمع، وأبًا غليظًا متوحشًا، لكنَّ خياله خانه، كل الأهلين الذين وقع عليهم كانوا يبدون رائعين ويعبدون ابنهم. إنما لا بدَّ لـ (واترفورد واجدا) من أن يكون عرف اليأس، فكان يتكلم، عندما يكون ثملاً، عن منصبه في الكلية الملكية ضمن حياة بائسة «إنه الشيء الوحيد الذي أملكه» وهو الذي يملك الكثير بحسب أحد المعايير السائدة. كان يمتلك سيارة، ومنزلاً عائليًا في رويهامبتون، وأموالاً في الاستثمان وحق الدخول إلى Tatler تاتلر.

لقد نصحه سولانكا بشيء من القسوة، الأمر الذي ندم عليه في ما بعد، بألا يتمرَّغ بهذا القدر لاستدرار الشفقة على ذاته. توتَّر غودول، معبرًا عن رأيه، ثم انفجر في ضحكة جافة آها ـ ها ـ ها ـ ها. ولم يعد يتطرَّق بعد إلى موضوع شخصي طيلة سنوات.

ظلت طبيعة قدرات غودول الفكرية لغزًا كاملاً في نظر عدد من زملائه: اللغز غودول. غالبًا ما كان يبدو غبيًا ـ وإلى حين سموه نينوش، ثم دُبَّ سِرْڤليت الأبدي، لكنَّ كل الكامبردجيين حكموا على هذا اللقب بأنه لقب ظالم ـ ومع ذلك، فإن إزجاءه الجامعي قد أكسبه تقدمًا. فأطروحته عن ڤولتير التي مكَّنته من نيل الدكتوراه، وكانت وسيلة بوَّأته مجده المستقبلي، كان فيها دفاع كُلِّي عن بانغلوس ـ وفي ذات الوقت عن ذلك التفاؤل المفرط والخيالي الجدير بليبنز البدايات وعن اعتناقه المتأخر للسكينية[1] المفرطة. كان يسير في عكس

(١) السكينية: مذهب تصوفي يقول إن الحب المحصن يوصل إلى الفناء في الله في يسر، ويولِّد في النفس سلامًا مطلقًا يغنيها عن العبادات أو عن طقوس أُخرى.

تيار العصر المحلي، والجماعي، وملتزمًا من الناحية السياسية بالعصر الذي كتب فيه ما سيكون منه، في نظر سولانكا وآخرين، شيئًا مزعجًا جدًا. قدَّم غودول سلسلة من المحاضرات بعنوان «شذّب حديقته» قلة من أساتذة كامبردج كانوا يستطيعون استقطاب جمهور مماثل. فالشبان أو على الأصح، صغار الشباب (لأن غودول وعلى الرغم من أنه كان يبدو كملاكم، لم يزهد في شبابه) الذين كانوا يأتون كي يشاغبوا عليه وكي يضجّوا ساخرين منه، كانوا يخرجون وقد ازدادوا تعقلاً وتفكيرًا، مفتونين بطبيعته العذبة من أعماقها، وبعينيه الزرقاوين البريئتين. وهذه الثقة الملازمة له بأنه سيكون مفهومًا، هي التي انتزعت سولانكا من خوفه الأولي.

الأزمان تتغير. ذات يوم من سنوات السبعينات، تسلل سولانكا إلى وسط القاعة التي كان صديقه يحاضر فيها. ما أثّر به عندئذ، كان استمرارية طروحات غودول، والطريقة التي كان صوته يجمّدها فيها وهو يتحكم بنبرة صوته في مفارقة شبيهة بالزقزقة طورًا وطورًا بنبرة العرَّاف. من كان ينظر إليه كان يرى غندورًا لبقًا متشرّبًا بما يسمونه روح العصر. وإذا ما أصختم السمع إليه فلسوف تسمعون شيئًا آخر تمامًا: صرامة بشتروفانية[١] عميقة.

«لا تثقوا بشيء، أليس كذلك، كان غودول يعلن إلى الثوريين اليساريين المقذعين، وإلى من أَرْخَوا شَعرهم، المتزينين باللؤلؤ، وهو يلوِّح بنسخة قديمة من رواية «كانديد» هذا ليس ترَّهة. كل شيء موجود هنا. هذا ما تتحدث عنه الكتب الجيدة. فالحياة كما هي لن تشهد أيَّ تحسن. إنه خبر مريع، أنا أعلم، إنَّما ها أنتم قد أعلمتم على الأقل. هذا لن يتغيَّر إطلاقًا. فقابلية اكتمال الإنسان. ليست إلاَّ هرجة مَثلتها الإله».

قبل عشر سنوات من الآن، حينما كانت تبدو في زاوية من الطريق كل أصناف الطوباويين والماركسيين والهيبين، حينما كان الازدهار الاقتصادي والتوظيف

---

(١) نسبة إلى بشتروف الروسي.

الكامل يمكّن البحّاثين من الشباب من إطلاق العنان إلى استيهاماتهم البلهاء، والبرّاقة الهامشية أو الثوروية النزعة، كان يودُّ لو كان بإمكانه أن يلنِّش[1] نفسه بنفسه، أو أن يخلد على الأقل، إلى صمت السخريات. لكنهم كانوا في إنجلترا بعد إضراب عمال المناجم، القائم على أن أسبوع العمل ثلاثة الأيام. ثمة إنجلترة متصدِّعة، لكأنها صورة لحوار لوكي في غودوت. لقد كان الإنسان العظيم يرى بعده المصغَّر والمتضائل، وحيث كان العصر الذهبي للتفاؤل ـ عندما كان أفضل العوالم الممكنة على وشك الولادة ـ يتلاشى بعجل.

كانت الرؤية الصامدة التي أخذها غودول عن بانغلوس ـ تمتَّعوا في هذا العالم، دون أن تطالبوه بأكثر من ذلك، لأن هذا هو كل ما تملكون، وبالتالي فإن: الابتهاج واليأس هما مصطلحان متبادلان ـ قد «أخذت تجد صدى» سولانكا نفسه كان متأثرًا بذلك، فحينما كان يبذل كل ما بوسعه ليصوغ فكرة عن المشكلة الأزلية للسلطة والفرد، كان يحصل له أحيانًا أن يحسَّ بتأثير صوت غودول عليه.

كان العصر عصر دَوْلانية[2] وكان واترفورد واجدا من مكنه جزئيًا من العواء مع الذئاب. ليس بوسع الدولة أن تجعلكم سعداء، ولا أن تواسي قلبًا مهشمًا: الدولة تراقب المدرسة، إنما هل بإمكانها أن تعلِّم أطفالكم حب القراءة؟ ألستم أنتم الأَوْلَى بهذه المهمة؟

لقد أُوجد نظام الضمان الاجتماعي، إنَّما ماذا كان يستطيع مقابل النسبة المئوية العالية للناس الذين كانوا يذهبون لاستشارة طبيبهم في الوقت الذي لم يكونوا فيه بحاجة إلى ذلك؟ كانت هناك إعانة بناء، لكنَّ علاقات حسن الجوار لم تكن تعني الحكومة أبدًا.

---

(١) اللِّنشْ: عقاب بلا صفة أو قانون على غرار القاضي لنش.

(٢) دولانية: نظرة سياسية تدعو إلى مدِّ سلطة الدولة وصلاحياتها على الحياة الاقتصادية والاجتماعية قاطبة.

الكتاب الأول لسولانكا والذي عنوانه «ما نحن بحاجة إليه» والذي كان يعالج الأوضاع المتغيرة في التاريخ الأوروبي في مشكلة الدولة ضد الفرد، قد هوجم من قُطْبَيْ السياسة المتطرِّفَيْن، ووصف على إثر ذلك بأنه أشبه ما يكون بنصوص أولية لما أتوا على تسميته بالتاتشرية. سلَّم البروفسور سولانكا، الذي كان يمقت مارغريت تاتشر، بالحقيقة الجزئية لهذا الاتهام. فالمحافظة التاتشرية كانت الثقافة المعاكسة التي انعطفت بكل شيء: كانت تتقاسم انعدام ثقة جيلها إزاء أدوات السلطة وتستخدم لغتها الرَّافضة كي تحطِّم أقطابها القديمة الحاكمة. لا بإعطاء السلطة إلى الشعب، أيًّا كان معنى هذه العبارة، بل إلى شبكة من الأثرياء الذين تضخَّمت ثروتهم. لم يُفِدْ من هذا الاقتصاد إلاَّ الانتهازيون، وكانت هذه هي غلطة أعوام الستينات. لقد كانت هذه الأفكار إلى حد كبير، وراء القرار الذي اتخذه سولانكا بالعزوف من عالم الفِكر. لقد صار كريستوف واترفورد واجدا على درجة من النجومية. وغدا الجامعيون ذوي نفوذ وهيبة. كان انتصار العلوم لا يزال في بطن الغيب، بينما كانت الفيزياء في حالة من الميتافيزيقية، وعلم الأحياء المجهري وليس الفلسفة سيقتحم مسألة الإنساني الواسعة؛ كان النقد الأدبي في أوج أناقته، وكان عمالقته يمسحون القارات استعدادًا للسفر كي يتبختروا أمام جمهور عالمي يزداد اتساعه. كان غودول يتنقل عبر العالم بحركات مدروسة برأسه، فتتشعث خصلات شعره التي ابيضَّتْ قبل الأوان مثل بيتر سيلرز في كريستيان الساحر. مندوبون متحمسون كانوا يحسبونه أحيانًا الفيلسوف الفرنسي الشهير جاك دريدا، لكنه كان يرفض هذا الشرف بابتسامة البريطاني الذي يحب أن يتعايب، بينما كان حاجباه البولونيان يتقطَّبان كاحتجاج على الإهانة. لقد كان العصر الذي ولدت فيه صناعتا المستقبل الكبيرتان. ستحل صناعة الثقافة خلال العقود المقبلة محل صناعة الإيديولوجيات التي أصبحت «بدائية» على الشكل الذي كان عليه الاقتصاد وستظهر مصطلحات جديدة لمفوَّضي الثقافة. مصدر جديد لمعجم المهارات، سيكرَّس لعمليات كبرى من التحديد، والاستعباد، والتعديل، والاضطهاد

والجدل القائم على ثنائية خطر/ إهانة. وإذا ما كانت الثقافة هي العلمانية الجديدة للكوكب، في حين كانت الشهرة هي دينها الجديد ـ وكانت صناعة الشهرة، أو على الأصح الكنيسة ـ تعطي تفعيلاً وافرًا إلى كنيسة جديدة تمامًا، إلى تبشير حقيقي لغزو الأقاليم الجديدة، بمراكبها الضجَّاجة من السلولوبيد، وصواريخها الشعاعية الكتودِيَّة، ووقيدها المكربن الجديد من أصل ضوضائي، ومصطفوها مسيَّرون إلى النجوم. ومن أجل الاستجابة إلى متطلبات الإيمان الجديد الغامضة، إذا كان ذلك كانت هناك حاجة من وقت إلى آخر، إلى قرابين إنسانية، إلى انطلاقات كانت توقَفُ بعنف.

كان غودول واحدًا من أوائل الإيكاروسات[1] الذين كان عليهم أن يُحبسوا فيها. نادرًا ما رآه سولانكا في عصره الذهبي، إن الحياة تفرقنا بوقاحتها الفجائية بشكل ظاهر، وعندما نهز رؤوسنا، مثلما يفعل المرء وهو يخرج من حلم يقظة، فإن أصدقاءنا يكونون قد أصبحوا غرباء: «لا أحد هنا إذًا يعرف المسكين ريب ڤان وانكل؟» سأل بصوت شاكٍ، بل لن يعرف بعد من يكون. هذا ما حصل بالرغم عن زميلَيْ الجامعة القديمين. كان غودول يقضي كل وقته تقريبًا في أميركا، فثمَّة منبر أقيم من أجله في برنستاون. تبادلا في البداية اتصالات هاتفية، ثم بطاقات بريدية في أعياد الميلاد أو في أعياد ميلاديهما. وأخيرًا كان الصمت. إلى أن جاءت أميركيَّةٌ، في مساء صيفي كامبردجي يفوح عطره، من عام ١٩٨٤، وحيث كانت العمارة القديمة تستحق رواية أكثر من أي وقت مضى، جاءت تطرق بمطرقة باب شقة البروفسور سولانكا، التي كان يشغلها ي. م. فورستر سابقًا، فوق بار الطلاب. كانت تدعى بيري بانكوس، قصيرة القامة، سمراء، ذات جاذبية جنسية بنهديها الكبيرين، شابة لكنها لا توحي بأنها طالبة لحسن الحظ. وفي الحال كان لكل هذا تأثير حسن على المكتئب سولانكا الذي كان يبرأ من أول زواج له دون أولاد، وإيليانور ماسترز لم تكن قد دخلت حياته بعد.

---

(١) Icares إيكارس: طائر أسطوري تخلَّص من سجنه بأن صنع جناحين وطار بهما.

«وصلنا كريستوف وأنا إلى كامبردج البارحة، قالت له بيري بانكوس. نحن الآن في غاردن هاوس، أو بالحري في بيت العزبة».

هو في مشفى أدوانبروك. لقد قطع أوردته البارحة مساءً. كان في منتهى الاكتئاب وطلب أن يراك. هل من الممكن أن أشرب شيئًا؟ دخلت وحكمت على كل ما رأته في الشقَّة. المنزل صغير بكنه مهيب، أشباه البشر يعتلون كل مكان، صور داخل البيت بل وأخرى في الخارج أيضًا، فوق أثاث البروفسور سولانكا، في كل الزوايا صور رقيقة ومبهمة، ذكورية وأنثوية، صغيرة وهائلة في الوقت نفسه، لقد أتقنت بري بانكوس تبرجها، إنما بإفراط، وجمَّدت أجفانها برموش اصطناعية سوداء وارتدت لباسًا مثيرًا، طقمًا قصيرًا يشد قامتها، حذاء كعب مسمار. وتبرُّجها ليس تبرُّجًا عاديًا بالنسبة لامرأة أقدم عشيقها على محاولة انتحار. لكنها لم تحاول أبدًا تسويغ مسلكها. كانت بيري بانكوس اختصاصية صغيرة في الأدب الإنجليزي وكانت تحب أن تضاجع نجوم وسطها الذي يضيق أكثر فأكثر. كانت هاوية لحب المصادفة ما تني تقع في مغبَّات (أرامل، انتحارات) لكنها كانت شوَّاكة، دعبة، وتحسب نفسها مثلنا جميعًا، على أنها شخص مقبول، بل جيد. بعد أوَّل كأس من الڤودكا ـ كان البروفسور سولانكا يحتفظ دائمًا بزجاجة في الثلاجة ـ قالت ببرود: «إنه انحطاط قوي سريري. لست أدري ما عليَّ أن أفعل. إنما ليس من شأني أن أهتم بمن هم في خطر من الرِّجال. أنا لست ممرِّضة. إني أفضل الرِّجال الذين يديرون أعمالاً».

بعد إفراغ الكأس الثانية قالت:

«أظن أنه كان صبيًّا بكرًا عندما التقينا. هل تصدق؟ لم يرد الاعتراف بذلك طبعًا. لقد أكَّد لي أنه كانت مزواجًا في بلده. مما انكشف على أنه غير صحيح. وإذا تكلمنا عن الناحية المادية فأنا لست نوعًا من سارق».

بعد الكأس الثالثة قالت: «كل ما كان يهمه أن يُمصَّ أو أن أستدير بمؤخرتي، ما لم يكن يزعجني، حسن في النهاية. أنا متعودة على ذلك بسبب مسلكي.

ولد بُهرْجاتْ. هذا ما يحرض الرجال ذوي الجنسية المضطربة. تستطيع أن تصدقني، أنا خبيرة بذلك».

عند الكأس الرابعة قالت:

«بمناسبة الجنسية المضطربة، أيها الأستاذ، رائعة دماك».

يتفق أنه كان جائعًا، إنما ليس إلى هذه الدرجة، فرافقها بلطف إذن إلى باراد كينغس، وضعها في تاكسي. رمقته من خلف الزجاج بنظرة غشاها الكحول والحيرة، ثم التفتت، أغمضت عينيها ورفعت كتفيها برفق.

مثلما ستريدين. علم فيما بعد أن بيري بانكوس كانت مشهورة بأسلوبها في الوسط الأدبي العالمي. من الممكن للمرء أن يكون مشهورًا بأي شيء كان في أيامنا هذه، كما هي الحال عليه لديها.

في صباح الغد ذهب ليرى غودول، ليس في المشفى بل في بناء قديم من الآجر، ذي واجهة مرمَّمة، وسط حديقة واسعة خضراء ومورقة، يبعد قليلاً عن تروينغتون رود: نوع من قصر ريفي للمصابين بأمراض عضالة، كان غودول يدخن سيجارة أمام النافذة، يرتدي بيجاما مخطَّطة بالأبيض، تحت ما يشابه روب ديشامبر كان يملكه منذ كان طالبًا، ثوبًا باليًا ومتسخًا، ربَّما كان يمثّل دور مادة تحولية. كانت هناك أربطة حول معصميه، وقد بدا أكثر إرهاقًا، أكبر سنًّا، لكن ابتسامته المتعبة، الأرسطوطاليسية، كانت ترتسم على شفتيه بوضوح.

حدَّث سولانكا نفسه بأنه لو تسنَّى لمنغَّصاته الخاصة أن تجبره على وضع هكذا قناع، لكان عليه ومنذ زمن بعيد أن يكون هنا مضمَّد الرَّسغين.

«الدردار المتطفل، قال غودول وهو يشير إلى أرومات أشجار الدردار، خدعة لا تُحتمل. دردار إنجلترا العجوز، لن تُبعث فيه الحياة إطلاقًا».

«لن تُنْشأ العِظَام من جديد. لم ينبس الأستاذ سولانكا ببنت شفة. إنه لم يأتِ إلى هنا كي يتحدَّث عن الأشجار. التفت نحوه غودول، وفهم».

«لا تثقوا بشيء وأنتم لن تُخيِّبوا» أليس كذلك، همس وقد بدا مرتبكًا كطفل صغير، كان علي أن أصغي إلى محاضراتي.

لكنَّ سولانكا كان مصرًّا على ألاَّ يردّ بجواب. عندئذٍ وللمرة الأولى منذ سنوات عديدة يوقف غودول طرحه الإيتوني القديم.

«هذا مرتبط بالألم. قال ببرود. لماذا نتألم جميعنا كثيرًا. لماذا ليس هناك أكثر من الألم. لماذا لا نستطيع إيقافه. نستطيع أن نبني سدودًا، لكنها سرعان ما ترشح، وتتهدم من ثم بكل بساطة. وهذا لا يعني أحدًا غيري. أقصد، أجل، هذا يعنيني، لكنه يعني العالم أيضًا. أنت المُشتمَل. الواقع إنه قائم دون نهاية. ليقتلْنا. أقصد ليقتلْني أنا.

ـ يبدو هذا مجرَّدًا قليلاً، جازف بالقول برفق البروفسور سولانكا.

ـ أجل، حقًا».

كان التغير مفاجئًا. لقد كُشِفَ عن المجمَّدين من جديد.

ـ «آسف لأني لم أكن ابن بجدتها. ليس من السهل أن تكون مخلوقًا كسِرْڤليت».

ـ أرجوك، اروِ لي كل شيء. طلب البروفسور سولانكا.

ـ هذا هو الأسوأ. ليس هناك ما يقال. ما من سبب مباشر وغير مباشر.

أنت تستيقظ ذات يوم وتجد نفسك لم تدخل في صلب حياتك.

أنت تعلم ذلك. حياتك لم تعد تنتمي إليك جسدك ليس. . . . كيف تجعل نفسك تشعر بقوة هذه الظاهرة؟ لم تعد لك، ولم يعد هناك إلا الحياة، التي تستمر تلقائيًا. أنت لا تملكها. لا علاقة لك بشيء منها. هذا كل شيء.

إن ذلك لا يبدو خطرًا جدًا، لكن صدقني، لقد حصل هذا كما لو كنتَ تنوِّم أحدًا تنويمًا مغناطيسيًا، وتقنعه بأن هناك كومة فرشٍ ضخمة تحت نافذته، وبذلك لن يجد أي سبب يمنعه من القفز.

ـ لقد عرفتُ هذا على الأقل في أهونه، قال البروفسور سولانكا مذعنًا وهو يعود بتفكيره إلى ذلك اليوم المشهود في ماركيت هيل منذ زمن بعيد.

وكنت أنت من انتزعني من ذلك.

الآن جاء دوري كي أردَّ لك الصنيع.

هزَّ الآخر رأسه.

«إنها ليست خدعة يتخلص منها المرء هكذا. إني أخشى ذلك».

لقد هوَّل الاهتمام بالشهرة أزمة غودول الوجودية كثيرًا.

فكلما كان يلمع كشخصيَّة، كان يقلُّ إحساسه بنفسه كإنسان. أخيرًا آثر اعتزال أروقة الجامعة التقليدية.

انتهت كل تلك المطاعنات في كريستيان الساحر.

انتهت كل تلك الخروقات، ومندفعًا بقراره الحديث، استقلَّ الطائرة الميمِّمة شطر كامبردج، مع المقلِّدة المعجبة بيري بانكوس، هذه الفراشة الجنسية الوقحة ظنًّا منه أنه يستطيع الاستقرار معها، وبناء حياة مستقرَّة من خلال علاقتهما. وهاكم ما توصَّل إليه.

سينجو كريستوف واترفورد واجدا من ثلاث محاولات انتحار أخرى. ثم قبل انسحاب سولانكا مجازيًّا من الحياة، وهو يودِّع من كان يعزُّهم وكل الأشياء الغالية عليه، كي يجري إلى أميركا مع دمية بين ذراعيه ـ طبعة أولى محدودة من سِرْڤليت بحالة يرثى لها، وثياب منتَّفة، وجسد تالف ـ مات غودول ميتة فظيعة، ثلاثة من شرايينه كانت مسدودة وقسطرةٌ بسيطةٌ كانت كافية لإنقاذه، لكنه رفض الخضوع لأي عمل جراحي. وتلك هي شجرة دردار إنجليزية تهوي، مما لعب إذن دور المفجِّر إذا ما كان المرء ينزع إلى هكذا تفسيرات، في تحول البروفسور سولانكا. هذا الأخير عاد بتفكيره في نيويورك إلى زميل دراسته المتوفى، فاتضح له أنه كان قد اقتدى بغودول في

كثير من الأمور: في بعض أفكاره، بل أيضًا في «العالـم التوسطي» و«في أميركا»، و«الأزمة».

كانت بيري بانكوس واحدة من الأوائل اللواتي أدركن الرِّباط الذي كان يوحِّد بينهما، عادت ثانية إلى سان دييغو، مسقط رأسها، وأخذت تدرّس منذ ذاك في جامعة منزوية نتاج بعض النقاد والأدباء الذين عاشرتهم جسديًا. بانكوس ١٠١: هذا هو الاسم الذي أطلقته على متنزهها المشجَّر.

وبصدامية أكثر من أي وقت مضى. كتبت في واحدة من بطاقات المعايدة السنوية، التي لم تتوان أبدًا عن إرسالها إلى البروفسور سولانكا: «هذا هو عملي الناجح الذي أزدهي به بالنسبة للنخبة، خير ما ورد في لائحة جوائزي».

كتبت مضيفة شيئًا لاذعًا:

«لم يردْ اسمك فيها، أيها الأستاذ، أنا لا أستطيع أن أجول في نتاج أدبي لرجل أجهل كثيرًا أي المبادرات يفضل».

كانت دائمًا ترفق مع أمنياتها في العام الجديد وبشكل يتعذر تفسيره نسيجًا مخمليًا رسم عليه خلد ماء، فيل بحر، دب قطبي.

كانت إيليانور تفرح دائمًا بهذه اللعب الواردة من كاليفورنيا.

«بما أنك لم تودَّ مضاجعتها، فسرَّت له زوجته، فهي لا تستطيع أن تعتبرك كعشيق لها، إنها تحاول أن تكون أمك».

[2]

في الشقة المريحة التي استأجرها من الباطن في الـ أبره ويست سَيْدْ وهي شقة عالية في طابقين، سقفها مكسو بتلبيسات رائعة، ومكتبة كانت تحكي مطوّلاً عن أصحابها، كان مليك سولانكا يرتشف كأسًا من الزانفاندل جيزرڤيل الأحمر وهو ينتحب. كان هو من قرَّر الرحيل في الحقيقة، لكنه مع ذلك كان يتأسف على حياته الماضية، وعلى الرغم مما استطاعت أن تقوله إيليانور عبر الهاتف، فإن القطيعة كانت متعذِّرة الترميم.

لم يكن سولانكا يعتبر نفسه كجبان أو كمنفّس، ومع ذلك فقد انسلخ من جلده أكثر مما تنسلخ الأفعى. لقد خلف وراءه وطنًا، عائلة، وليس زوجة واحدة فقط بل زوجتين، والآن طفلاً. كانت هفوته تكمن بأنه لم يكن يرى في هذا الخروج خروجًا عاديًا.

الحقيقة القاسية، كانت، دون شك، بأنه لم يكن يتصرف بما يخالف الطبيعة، بل بما يتفق مع أوامرها المفروضة عنوة، هكذا كان يرى نفسه وهو يقف عاريًا أمام مرآة الحقيقة المرَّة.

أجل، كـ بيرّي بانكوس، كان يحسب نفسه رجلاً صالحًا، النساء كنَّ يَظْنُنَّ ذلك أيضًا. متكهنات بأنه يحمل داخله حسًّا ضاريًا بالالتزام الذي نادرًا ما كان يمتلكه الرجل العصري. غالبًا ما كنَّ يستسلمن لشعور الحب، وينذهلن حالاً ـ أولئك النسوة الحذرات جدًا، الفطنات جدًا! ـ من السرعة التي كنَّ يلقين بأنفسهن فيها في مياه الهوى العميقة. وهو لم يكن ليخيبهنَّ. كان يظهر لطيفًا، متفهمًا، كريمًا، متألقًا، مرحًا، يانعًا وعشيقًا رائعًا لا عيب فيه. سيدوم هذا،

كنَّ يحدِّثن أنفسهنَّ، لأنهنَّ كنَّ يريْن بأنه كان يفكر بالطريقة نفسها. كنَّ يشعرن بأنفسهنَّ محبوبات، ومعشوقات محاطات بالأمان. كان يؤكد لهنَّ الواحدة تلو الأخرى ـ أن الصداقة عنده هي بمثابة روابط عائلية، والأقوى من الصداقة هو الحب. كان هذا رائعًا. فجأة كن يسهيْن عن التيقظ ويستسلمن للانجراف في كل الأمور الهنيئة، دون أن يساورهنَّ شك بذلك الالتواء الخفيِّ الذي كان يحدث داخله، بذلك المكباح الرهيب لإنكار الحقيقة، إلى أن جاء اليوم الذي انكسر فيه، وحيث كان التقيؤ ينبجس من معدته متحديًا صفَّين من الأسنان. لم يريْنَ اقتراب النهاية إلاَّ عندما فات الأوان.

زوجته الأولى سارا، التي كانت موهوبة بسعة الخيال لخَّصت الأمر كالتالي: «لقد كانت حاله كمن كان يعمل على قتل نفسه بضربات الفأس». «مشكلتك»، قالت له سارا باحتدام حام، في آخر مشادة جرت بينهما، هي بأنك لست عاشقًا إلاَّ بقذارات دماك. أنت لا تكون مرتاحًا إلاَّ في عالم منمنم جامد. عالم تستطيع أن تبنيه، أن تهدّمه، وتستعمله، تجعله آهلاً بنساء لا يملكن استجابة، نساء، أنت لست بحاجة إلى مضاجعتهن. إلاّ إذا صنعتهنَّ بشقوق من خشب، من كاوتشوك، بغايا بشقوق لا تثقب، تسقسق عندما تثقبها كبالونات. هل لديك حريم من الدُّمى الصورية، قياس طبيعي مخبَّأة في مكان ما من ورشتك، سيعثرون عليها يومًا. عندما سيأتون للقبض عليك لأنك كنت تتعدى ربَّما على مشقِرة، ذات ثمانية أعوام، فقطَّعتها إربًا، دمية متحركة صغيرة ومسكينة لعبت بها قبل أن تتخلَّص منها؟ سيجدون فردة من خفِّها في دغل وسوف يبثون وصفًا لشاحنة عبر التلفاز، وأنا سأكون أمام جهازي، إذ لن تكون أنت على قيد الحياة، وسأقول في قرارة نفسي، تبًّا له! إنها هي التي كان يجرجر فيها قذاراته من الألعاب من مكان إلى آخر عندما يذهب إلى اجتماعاته المنحرفة كي يلعب لعبة «أريك ما لي إن أريتني ما لكَ».

سأكون الزوجة التي لم يسبق لها أن اشتبهت بشيء على الإطلاق. سأكون

الزوجة المغفَّلة التي ستطلع على التلفاز وتحسب نفسها مرغمة على الدِّفاع عنك كي تدافع عن نفسها شخصيًا بكل بساطة، عن نفسي وعن بلاهتي الغريبة لأنني أنا من اخترتك في نهاية المطاف.

فكَّر: ليست الحياة إلاَّ هيجانًا ـ جنسيًا، أُوديبيًا، سياسيًا، سحريًا عنيفًا ـ يرفعنا إلى أعلى ذرى القمم، ثم يدفعنا إلى أسفل الهاويات.

من الهيجان وُلدت الحقيقة، والإلهام، والإبداع، والهوى، بل العنف، والألم، والدَّمار المحتوم، وتبادل الطِّعان الذي لم يسبق لأحد أن شهد له مثيلاً.

ترقص تشايڤا رقصها الهائج كي تخلق وكي تهدم أيضًا. أما الآلهة فلا أهمية لها. كانت سارا الغاضبة عليه أشدَّ الغضب تمثِّل الروح الإنساني بأكثر أشكاله نقاءً، والأقلَّ مَشْرَكةً. هذا هو ما نحن عليه، ونقنِّعه مشذَّبًا داخلنا ـ الوحش الإنساني المريع القابع فينا، الربُّ ـ الخالق، المُمجَّد المتعالي، المدمِّر ذاتيًا وبلا عائق.

نرفع بعضنا بعضًا إلى ذرا الفرج.

نفسِّخ بعضنا بعضًا دون رحمة.

كانت تدعى لير، ساراجان لير، تربطها بالكاتب قرابة بعيدة، رسَّامة مائية، إنما لم يكن لديها أي أثر لحسِّ العبثية الفائق الوصف الذي كان يتسم به إدوارد لير. أيَّة رغبة لمعرفة سارا لير التي تعرف الكثير والكثير من الأشياء! بعضهم كان يجدها دميمة حتى القماءة، لكنها بالنسبة لي، كانت أجمل جوريَّة بين الورود. هذه الأشعار المنمَّمة، لم تكن لتنتزع منها ولو ظلَّ ابتسامة. «تخيَّل كم من الأشخاص استظهروا لي هذه الأبيات نفسها، وإنك لن تغفر لي عدم تأثري». كانت تكبره سنًا بزهاء عام وكانت تكتب أطروحتها عن جونِس والرواية الجديدة. في شقَّته الكائنة في الطابق الثاني في شيسترتان رود، دفعه «الحب» ـ الذي كان يبدو له استعاديًا، أبقى من الخوف، كان كل واحد منهما يتمسَّك

بصدّارة إنقاذ الآخر كي لا يغرقا في عتمة وحدة عمرهما البالغ بضعة وعشرين عامًا ـ إلى تصفُّح رواية فينيغانس ويكي لجيمس جُوْيْس مرات ومرات وإلى تصفح نصوص ساروت[1] وآلان روب غرِيّيه[2]. بُتور. عندما كان يرفع عينيه بحزن عن الرُّكام الهائل لجملهم الطويلة والغامضة، كان يجدها جالسة في الكنبة الأخرى بوجهها المقرَّن الجميل كوجه شيطان ماكر. جميلة المستنقعات بعيني شيطان كان عاجزًا عن فك رموز تعبيرهما. لعلَّه كان تعبيرًا عن الاحتقار.

لقد تزوَّجا دون أن يأخذا وقتهما في التفكير وأحسَّا في الحال بأنهما وقعا في فخِّ غلطتهما. ومع ذلك فقد مكثا معًا طيلة عدة سنوات بائسة في ما بعد، عندما قصَّ سيرة حياته على إيليانور ماسترز، فإن سولانكا قد صوَّر زوجته الأولى على أنها كانت تلك الطائشة المبدَّلة في حبها والتي كانت ستبدل موطنها الأول.

«لقد عقدت أمرها مبكرًا جدًا على ما كانت ترغب أشدَّ الرغبة فيه. قبل أن تستوعب حتَّى أنها على ذلك المستوى من المقدرة». لقد كانت سارا الممثلة الجامعية الشهيرة لجيلها، التي عزفت من ثم عن كل شيء مخلِّفة وراءها جمهورًا أو خلفية سخيّة، دون كلمة أسف. في ما بعد، كان عليها أن تصرف النظر كليًا عن أطروحتها، وأن تجد لنفسها وظيفة في الإعلان، كي تخرج من شرنقتها كمدَّعية أدب، لتمد جناحيها، جناحي فراشة رائعين.

لقد حصل هذا بعد وقت وجيز من انفصالهما. لدى علمه بالأمر، استشاط سولانكا غضبًا، كل قراءاته المثابرة كانت من أجل لا شيء! وليس القراءات فحسب وبسببها هاج أمام إيليانور. لقد رأيت «العام الماضي في ماريانبانْد» ثلاث مرات في اليوم! قضيتُ كل عطلة نهاية الأسبوع في محاولة فهم لعبة

---

(١) أديبة فرنسية.

(٢) شاعر نمسوي.

أعواد الثقاب السيئة التي كانا يلعبان بها. «لن تستطيعي الربح، أنت تعلمين ـ إنه ليس لعبًا إذا لم يكن للإنسان أن يخسر».

ـ أوه، أستطيع أن أخسر، لكنني لا أخسر إطلاقًا يا لها من لعبة! بفضلها ما أزال، أتذكر، فهي فرَّت إلى بلد الفتنة، حيث فيه إن لم تكن كذلك، إن لم تحرقْ فإنك تُحرق. هيا! أوب انطلقوا. أنا مركون هنا في الممرات الكريهة للرواية الفرنسية لأعوام الستينات، بينما هي تتبختر كالطاووس في جملتها في جيل ساندر في الطابق التاسع والأربعين من مبنى في الجادة السادسة وتكدِّس ثروة.

ـ أجل، لكن لا تنس أنك أنت من هجرها. لمَّحت إيليانور. لقد وجدت لنفسك واحدة أخرى، قايضت بها سارا: تركتها تسقط كجورب عتيق. لم يكن من اللائق بك أن تتزوَّج منها، على ما يظهر، وهذا هو عذرك الوحيد. إنه السؤال الكبير الذي طرحته عليك ملكتك لير عن الحب والذي لا جواب له: إنما أين كان عقلك إذن؟ ومن ثم فقد كان هذا صندوق اللقطاء الذي أسقطتك فيه، بحسب ميثولوجية لاثالكيري فانوزيْيْن على طريق هاري[1] لـ . . . لم أعد أعرف لأي مؤلف».

كانت تعرف جيدًا من كان المقصود، لكن الاثنين كليهما كانا يعشقان اللعب بهذه اللعبة. «ذاك المفشَّل رومونغج، قال مبتسمًا، وقد عاد إلى هدوئه من جديد لقد كانت مسعفته حينئذٍ في واحدة من معزوفاته الحزينة لثلاث فرق، ووشار سترمان، وبعد هذا أرسل إليها برقية.

«كُفِّي أرجوك عن كل علاقة جنسية قبل أن تفكِّري مليًّا في الرباط العميق الذي يجمعنا بداهة» ـ في الغد باف، مجرَّد تذكرة سفر إلى ميونيخ، واختفت

---

(١) ميثولوجية جرمانية: آلهة أنثوية، رسولات إله الحرب ومضيفات اللواتي يصحبن الأبطال الأموات إلى خلود الفردوس.

في الغابة السوداء طيلة سنوات. لكنها لم تكن سعيدة. أضاف، إنها لم تجد سعادتها، هل فهمت». عندما هجر سولانكا إيليانور ـ فإنها قد أضافت ملاحظة مرة إلى هذه الأفكار.

«في الواقع، كان بودي لو أعرف روايتكما للقصة، قالت أثناء محادثة هاتفية متعبة. بما أنك كنت بكل بساطة، وهذا منذ البداية، مجرَّد قذر فاقد الإحساس». بينما كان ذاهبًا ذات مساء إلى معرض كيسلاوسكي الاستعادي في لانكولن بلازا، حاول مليك سولانكا أن يرى حياته الخاصة كجناح من الوصايا العشر. لفيلم قصير عن الهجر. ما هي الوصايا التي كان من الممكن لقصته أن تمثِّلها أو ـ كي نتحدَّث مثل اختصاصيي معرض كيسلاوسكي الذين يستحضرون المراحل السابقة؟ كانت هناك وصايا عديدة ضد خطايا الترك. الشهوة، الزنى، الفسق، كل هذا حلَّت عليه اللعنة. إنما هل هناك نواميس ضد خطايا الإهمال؟ ابنك لن تتخلَّى عنه أبدًا». وبهذا الشأن فإنك لن تبدِّل في حياتك دون سبب يقبله العقل، أيها النبيل، وما وجدته للحظة، مناسبًا هو غير مناسب. غير مناسب بصراحة ماذا تظن؟ هل تستطيع أن تقوم هكذا بكل ما يلائمك؟ لا، إنما قل أيها الأبله من تحسب نفسك؟ وعلى أي هضبة في أميركا أنت تلعب؟ آه يا سيد، قل يا سيد أو، آه يا رجل قل يا رجل».

بالتأكيد كانت سارا لير في المدينة، فكَّر فجأة، لا بدَّ من أن تكون قد حصلت، وقد راكمت سنيَّها الخمسين، على مركز جلب لها الثراء، وأعمال وفَّرت لها الغنى، وخطًّا مباشرًا لحجز طاولة عند بارتيس أونوبي، ومنزل للإقامة الموقتة على الشاطئ من أجل قضاء عطلة نهاية الأسبوع لنقل في آمازاغيت، الحمد لله، لا بدَّ لها من أن تكون تطير فرحًا! إذ إنهم قد كرَّسوا وقتًا طويلاً جدًا كي يشهدوا فوز العلنية المطلق. في أعوام السبعينات، ولمَّا كانت سارا قد أقلعت عن حياتها الجدية من أجل حياة طائشة، فإن عملها لم يعد بعد يدعو إلى الاعتزاز، كانت تتحدث عنه لأصدقائها بصوت خافت وهي مطرقة

الرأس. كانت العلنية وسيلة غشٍّ للغش، العدوة الشهيرة للحقيقة بشكل يدعو إلى الغم، فكرة مرعبة في ذلك العصر ـ لقد كانت الرأسمالية في حالتها الخام المتاجرة بالأعمال كانت نذالة. الآن كل العالم ـ كتابًا مشهورين، رسامين كبارًا، مهندسين، رجال سياسة ـ يريد أن يكون مساهمًا فيها. كان مدمنو الخمر التائبون يمجِّدون مزايا ماء الحياة. كل العالم وكل شيء صار للمتاجرة.

صارت اللوحات الإعلانية الضخمة ترتصف متسلّقة بجبروت واجهة المباني ككينغ كونغ، والطامة الكبرى أنهم كانوا يحبونها، عندما كان سولانكا يشاهد التلفاز، كان يخفض صوته أثناء الوقفات الإعلانية، لكنه كان واثقًا من أن الآخرين كانوا يرفعونه حتى آخر مدى له. كانت فتيات الدعاية ـ إيستر، بريجيت، إليزابيت، هالي، جيزيل، بترا، إيزيس، أفروديت، كاتي أكثر إثارة للرغبة من ممثلات المسلسلات التي كُنَّ يقطعنها. تبًّا، حتى رجال الدعايات ـ مارك، ڤاندرلو، ماركو سشانكانبرغ، ماركوس أورليوس، مارك، أنطوان، ماركي مارك ـ كانوا مثيرين ومرغوبين أكثر من ممثلات المسلسلات، وزد على ذلك عرض حُلُم أميركي على درجة من الجمال المثالي حيث تكون فيها كل النساء شوبين، وكل الرِّجال مارك بعد إنجاز المهمَّة الأولية القائمة على بيع البيتزا، والبزالات قياس ٤ × ٤، وهذا كثير. هذا لا يُحدَّد حتّى ناهيك عن الإدارة المالية وعن الإشارات المكرَّرة والمختصرة الجديدة للنقاط ـ الفواصل فإن الدعايات كانت تخفّف آلام أميركة، آلام رأسها، بطنها، أحزانها، عزلتها، ألم الطفولة المبكرة، والسنَّ المتقدمة، ألم أن نكون أبًا، وأن نكون ابنًا، ألم أن تكون ذكرًا وأن تكون أنثى، ألم النجاح وألم الفلاح، ألم المصارع السليم، وألم الجاني الخطر، الكآبة والوحدة والجهل، قلق كبريات المدن ووجع السهول المقفرة الخفي والمدوِّخ، ألم الإرادة دون أن يعرف المرء ما يريد، ألم هذا الفراغ الذي يعوي في صدر كل فرد نصف واعٍ، ليس مدهشًا أن صارت العلنية شعبية. لقد كانت تحسِّن الأشياء. إنها ستبيِّن الصراط المستقيم الذي يُسار على هداه. إنها لن تكون في عداد المشكلة بل ستجد الحلول.

لقد صادف أن وجد صاحب مكتبة كان يسكن في بناية البروفسور سولانكا بالضبط. كان يضع حمّالات بنطال حمرًا ويرتدي قمصان هاتوِيْ، ويدخن الغليون. لقد برز في عصر ذلك اليوم نفسه. أمام صندوق البريد، في الممر، ملوِّحًا بمدرجة تصاميم (ما هي الخصوصية التي يتَّسم بها انعزال الأستاذ سولانكا كي يحس جيرانه بأنهم مجبرون على المجيء لتعكيره؟).

مارك سكايووكر كوكب تاتووان.

هاكم أيها الأبناء ما كانت ستقوله رُبَّما بيرِّي بانكوس. لم يكن سولانكا يعير اهتمامًا على الإطلاق لهذا الشاب ذي عقدة الفراشة والنظّارات، الذي لم يكن يمت بأية صلة إلى المحارب جودي. هو نفسه المهووس العتيد بأفلام الخيال العلمي، كان يجد سلسلة حرب النجوم تدعو إلى الرِّثاء. لكنه كان قد تعوَّد على نقد الفرادة النيويوركية. لقد تعوَّد أيضًا على إسقاط كلمة «بروفسور» عندما كان يقدِّم نفسه، كان التعوُّد يزعج الناس، واتباع الشكليات كان فيه تضليلهم بشكل تدريجي. إلاَّ أنه كان في بلد المصغَّر. حتى المخازن والمطاعم كانت تطالب بالتعاشر، وحسبه أنه كان يستطيع أن يذهب من ناصية الطريق إلى بيت راندي، إلى بيت بانِّي، وجوزي، وغابرييلا، وڤيني وفريدي وروبِّر، لقد خلف وراءه وطن المفردة[١]، والتورية اللامحدَّد، الأمر الذي كان على الأرجح شيئًا حسنًا.

عند هانا «إكسسوارات طبية»، كان من الممكن الدخول وشراء مشدّ صدر أحمر ماركة مازيكتومي، والدقيق عن الوصف كان يعرض في الواجهات البللورية بحروف كبيرة حمر يبلغ ارتفاعها ثلاثين سنتيمترًا. وعليه فإن سولانكا أجاب منذهلاً بالاستعانة بهذا اللقب المفضوح. عند ذلك كشَّر سكايووكر وقال:

---

(١) أرض محجوزة في بعض البلدان للسكان المحليين.

«هل أنت يهودي؟».

لم يفهم سولانكا العبارة، واعترف بذلك معتذرًا.

«أوه أنت لست كذلك إذن، أوضح سكايووكر رأيه، ظننت ذلك بسبب سوللي، ومن ثمَّ أيضًا، أرجو المعذرة، بسبب أنفك».

اتضح عندئذ معنى هذه الكلمة المجهولة في هذا الجدال الجديد الذي جرَّ سؤالاً مهمًّا امتنع سولانكا عن طرحه: هكذا إذن، لديكم يهود على كوكب تاتو وان؟ «فُرِجَتْ، لقد فهمت، أنت إنجليزي، تابع سكايووكر (لم يقحم سولانكا نفسه في أفكار المستعمرات والمهاجر الدقيقة). كانت ميلا قد قالت لي ذلك، أسعِدْني، وألقِ نظرة إلى هناك». كانت ميلا على ما يبدو إمبراطورة الشارع الشابة، لقد انتبه سولانكا إلى ترخيم اسميهما بانزعاج: ميلا، مليك، عندما ستتبيَّن المرأة الشابة ذلك، فسيكون بمقدورها أن تتحدَّث إليه بالتأكيد. سيجد نفسه ربَّما مضطرًا لأن يتحدث بما هو بديهي، يعني أنه لا معنى للأصوات وأن المسألة هي مجرَّد مجانسة لم يكن ينجم عنها أي شيء، لاسيَّما أية علاقة إنسانية حتى. فضَّ الإعلاني الشاب مصمَّماته وبسطها على طاولة رواق المبنى. «أودُّ أن تعطيني رأيك بصراحة، وضّح سكايووكر، إنها دعاوة من أجل صورة مجتمع». كان من الممكن للمرء أن يرى على صفحتين مناظر شاملة لمدن مشهورة لحظة الشفق، بدرت من سولانكا الذي لم يعرف أية ردَّة فعل يتبنى، حركة مبهمة.

«المفتاح، قال سكايْووكر بإلحاح. هل يدور؟».

كانت كل الصور قد التُقِطت بالطريقة نفسها. الشمس لا تغيب أبدًا عن الصحافة الأميركية العالمية. اتحاد الصناعة المصرفية.

«جيد، هذا جيد، قال سولانكا دون أن يعرف إن كان هذا جيدًا، جيدًا جدًا، بين بين، أو عدم. من الملموس، أن كوَّة صحافة أمريكية تفتح على الدوام في مكان ما من العالم، إذن كان لا بدَّ للتوكيد من أن يكون صحيحًا، إنما ما هي

مصلحة لندني بأن يعرف أن المصارف لا تزال تفتح في لوس أنجلوس؟ احتفظ بهذه الفكرة لنفسه، وتباهى بعبارة أَمَلَ بها أن تكون حصيفة ومستحسنة. لكنَّ سكايْووكر كان ينتظر من البديهي أكثر من ذلك». «من ناحية البريطانيين، هل تعتقد بأن الإنجليز سيشعرون بأنهم قد شُتِموا؟ قال مجازفًا».

كان السؤال مفاجئًا إلى أبعد ما يمكن. وسولانكا بدا مذعورًا.

«بسبب الإمبراطورية البريطانية. أقصد التي لا تغيب شمسها إطلاقًا. وهذا ما أردت أن أتأكد منه دون سوء نيَّة، لا يمكن لهذا المفتاح أن يؤخذ على أنه سبّة لماضي بلدكم المجيد. شعر سولانكا بانزعاج عميق يتصاعد فيه. أحسَّ بالحاجة الماسَّة لقدح هذا الرجل وكل يعسوبيَّاته الأغبياء، لسبّه بل لأن يكيل له صفعة محكمة. كان عليه أن يبذل كل ما بوسعه كي يسيطر على نفسه وبطريقة نِدِّيَّة، هدأ من روع الشاب متَّخذًا وضعية لمَّة داڤيد أو حيلفي: حتى زعماء الإنجليز الحمر الوجوه، لم يكونوا ليجازفوا بأن يُسْتفزوا بهذه العبارة المبتذلة. ثم اندفع إلى بيته سريعًا، أغلق بابه وقلبه يخفق، أسند ظهره إلى الجدار، أغمض عينيه، تنفَّس الصعداء وهز رأسه، أجل، لقد كان في هذا الوجه السيئ لهذه البيئة الإفرنجيَّة الجريئة: مشدُّ الصدر الخاص ماركة مازيكتومي ـ هذه الحساسية الثقافية المفرطة، هذا الخوف شبه المرضي من الشتم. وكسائر الناس فقد كان في الصورة، لكنَّ المشكلة ليست هنا. المشكلة كانت: من أين يأتي كل هذا الغضب؟ لماذا كان يؤخذ بغتة وعلى الدوام بفورات استِعار كانت تمحقُ إرادته تقريبًا؟

أخذ حمَّامًا باردًا، ثم بقي ممدَّدًا في عتمة غرفته لساعتين، بينما كان المكيف والمروحة السقفية يفعلان فعلهما كي يتغلَّبا على الحرارة والرطوبة.

ضبط نفسه ولجأ إلى تقنيات تصوير سينمائي كي يسترخي. تخيَّل الغضب كشيء محسوس ذي ثلاثة أبعاد، شيء رخو، قاتم، ومختلج، حدَّدها ذهنيًا في مثلث أحمر. الأمر على ما يرام. إيقاعه المفؤود يعود إلى خطه العمودي. أدار

تلفاز الغرفة، غول عجوز، مدوٍّ مفرقع، يرقى تاريخه إلى عهد تقني سابق، وشاهد قاذف الرمح الدوك، تكوَّر الرامي إلى أن لامس أنفه ركبتيه، ثم انفضَّ كسوط. حتى في هذا الفصل الكئيب من السنة في ضاحية برونكس فإن هيرناندز كان يستوحي الهدوء.

اقترف البروفسور سوالانكا غلطة بأن ألقى نظرة على CNN حيث كانت إيليان من هنا، إيليان من هناك. كان البروفسور سولانكا معذَّبًا من هذه الحاجة الأبدية للطواطم. ولد صغير انتُشل من الماء كانت أمه قد غرقت، وفي الحال ثارت الهستيرية الدينية وصارت الأم المرحومة شبه مريم عذراء جديدة، فشوهدت إعلانات تطالب إيليان: خلصينا.

التعبُّد، الذي ولد من مبحث أبالسة ميامي الذي لا مفرَّ منه ـ والذي سيفترس بحسبه، الإبليس كاسترو، هانيبال آكل لحوم البشر سيفترس كاسترو الولد نيئًا، وسينتزع روحه الخالدة وسيبتلعها دافعًا إياها ببضع حبات من الفول وكأس من النبيذ الأحمر ـ لن يتأخر في أن يولد من الكهنوت الخذروف المتشيْطن الذي استحوذت عليه وسائل الإعلام رُسِّم بابا إيلانيسمو، وابنته ماريستايسيس «باضطرابها العصبي»، أصبحت النموذج نفسه للممجَّدة التي ستترقب من يوم إلى آخر، معجزات لدى هذا الولد ذي السبعة الأعوام.

لقد كانت المسألة مجرد مسألة صيَّاد. قديسون بالطبع أذاعوا الكلمة الصالحة. المصوِّر الذي كان يعيش في غرفة إيليان، مديرو القنوات الذين كانوا يناقشون العقود، الناشرون الذي يتصرَّفون بذات الطريقة، CNN نفسها وكل طواقم التلفزيون الأخرى مع هوائياتها الرمزية وفروعها. لقد حوَّل الولد إلى طوطم آخر في كوبا. ثورة محتضرة، ثورة عجائز ملتحين، كانت تلوِّح بالولد كشاهد على شبابها الذي عثرت عليه في هذه الرواية، أصبحت إيليان التي خرجت من الماء خرافة للخلود.

فيدل، هذا العجوز الناكث كان يتفوَّه بخطابات لا نهاية لها متزيِّيًا بقناع

إيليان، ولزمن طويل، فقد مكث الأب، جان ميغل غونزاليز في بيته، في كاردوناس، مسقط رأسه، لا يتكلم إلاَّ ما ندر. لقد صرَّح بأنه كان يريد أن يرى ابنه ثانية. ما كان مأمونًا وكافيًا دون شك متسائلاً عمَّا كان عليه أن يفعل إذا ما جاء أعمامه وأبناء أعمامه للتوسط بينه وبين أسمعان، كسر سولانكا القلم فورًا إلى اثنين، وغيَّر القناة كي يعود إلى مباراة كرة سلة، لكنَّ الأوان قد فات. فربَّما أن الدوك نفسه، اللاجئ الكوبي لن يكون متفقًا مع سولانكا. صار عقله الذي كان أسمعان سولانكا وإيليان يلتبسان ويمتزجان فيه في حالة من غليان جديد، وصار يذكِّره بأن لا حاجة لأي قريب لأن يضع نفسه بينه وبين ابنه في ظرفه الخاص هذا. لقد قام بهذه القطيعة دون أي تدخل خارجي، وبما أن الغضب الواهن كان يتصاعد داخله، فقد هرع مرَّة أخرى إلى تقنيَّاته التي تحقِّق له الإعلاء[1]، ووجَّه غضبه على دريئة خارجية، على أهالي ميامي المخرَّبين إيديولوجيًا، والذين حولتهم التجربة إلى ما كانوا يمقتونه أشدَّ المقت. فالتسلط جعل منهم متعصبين في الرأي. كانوا يعنِّفون الصحافيين، ويشتمون محترفي السياسة المختلفين عنهم. ويلوِّحون بقبضاتهم عند معبر السيارات. كانوا يتحدثون عن غسل دماغ مؤذٍ، إنما من الواضح أن أدمغتهم كانت درِنة.

«ليس غسلاً بل توسيخًا! أخذ يصرخ سولانكا على شرف الرامي الكوبي في التلفاز، لقد غرَّمتم أنفسكم بأنفسكم بتوسيخ الدِّماغ. وهذا الطفل البائس على أرجوحته والذي نخرته مئات أخطام الكاميرات، ماذا تقولون له عن أبيه؟». لقد مرَّ ثانية في الأطوار نفسها: الارتعاشات، القلب المتهيِّج، النَّفثة القصيرة، خيبة الأمل، الزفرات الليلية، الإبصار. ما من أدوية. لقد امتنع عنها وتجنَّب الأطباء النفسانيين. كان باستطاعة قاطع الطريق توني سوبرانو أن يذهب لاستشارة محلل نفسي، ماذا بإمكان هذا أن يغيِّر، ليس في هذا إلاَّ تلفيق. قرَّر البروفسور

---

(١) الإعلاء: مصطلح فرويدي للدلالة على عملية تحويل طاقة الميول المكتسبة واستنفادها في ميادين أخرى.

سولانكا أن يجابه إبليسه بمفرده. فالكيمياء والتحليل النفسي كانا ضربًا من ضروب الغش. ويجب لهذا أن يحصل ـ إذا ما كان لا بدَّ له أن يخرج من هذه المبارزة منتصرًا، إذا كان لا بدَّ للشيطان الذي استحوذ عليه من أن ينطرح أرضًا وأن يُحبس في جهنم ـ بينهما هما الاثنين دون أن يفصل بينهما فاصل في معركة قاتلة، وبأيدٍ عزلاء.

كان الوقت ليلاً، عندما قدَّر مليك سولانكا أنه بحالة تتطلب منه مغادرة الشقة. وفيما كان مزعزعًا مع أنه يتظاهر باللامبالاة، ذهب إلى المعرض الاستعادي كيسلاوسكي. ليته كان محاربًا ڤيتناميًا قديمًا، ليته كان مراسلاً صحافيًا يملك القليل من الخبرة، ربَّما كان من الممكن لسلوكه أن يكون قابلاً للفهم بسهولة. كان جاك رينيهارت، الشاعر الأميركي ومراسل الحرب الذي عرفه منذ عشرين عامًا، يحيل جهاز الهاتف إلى ألف قطعة، عندما كان يرن أثناء نومه، كان عاجزًا وبشكل منهجي، عن الإقلاع عن ذلك، ولم يكن يفعل ذلك إلاَّ وهو نصف واعٍ. كان من المفروض بجاك ألا يشتري جهازًا جديدًا، لكنه كان يتقبل قدره. كان متضرِّرًا ويعتبر نفسه سعيدًا إذا ما بقي الأمر يقتصر على هذا الحد، لكنَّ الحرب الوحيدة التي عرفها البروفسور سولانكا كانت وجوده والوجود قد بدا رؤوفًا بالنسبة إليه. كان يملك المال، وما يعتبره الناس أسرة مثالية. زوجته وابنه كانا استثنائيَّيْن، مع ذلك، فقد ألفى نفسه وسط الليل، في مطبخه، يعتمل كل اشتهاءات القاتل، قاتل حقيقي وليس مجازيًا. لقد صعد حتى الطابق، مزوَّدًا بسكين، وللحظة رهيبة مكث مسمَّرًا أمام جسد زوجته النائمة. ثم ذهب ينام في غرفة الضيوف. عند الصباح الباكر حزم حقائبه، واستقلَّ أول طائرة مغادرة إلى نيويورك دون أن يترك أي تبرير. ما حصل بعد ذلك كان قابلاً للتفسير. كان بحاجة لأن يضع حدًّا على الأقل، بينه وبين ما أوشك على القيام به، الآنسة ميلا إمبراطورة شارع الغرب ٧٠. كانت تدنو من الحقيقة أكثر مما كانت تتصور. الحقيقة التي ما كان يجب أن تعرفها إطلاقًا.

كان مصطفًا في الطابور أمام السينما، تائهًا في أفكاره، عندما رنَّ صدى صوت ذكوريٍّ خلف أذنه اليمنى، صوت مرتفع بشكل فاضح، ساخرًا من الآخرين، مفرغًا حياته المسلوبة ليس من صاحبته فحسب بل من الرَّتل كله، من المدينة كلها، كما لو كان من الممكن لهذا أن يكون يعني كل العالم؛ أن تعيش في ميتروبولي كان يعني أن تعرف أن الاستثنائي مُتفش كما الصودا بلا سكر. كان الشذوذ هو المعيار المتفتِّق كحبَّة بوشار. «وانتهى بي الأمر بأن ناديتها وقلت لها: مرحبًا/ يا رجل/ وهي: أتريد أن تعرف من يكون الذي يتعشى في هذه اللحظة بالذات، هنا، في ترودو كڤيل، من ذاك الذي يذوق لأول مرة فطيرة أمك؟ حسن، إنه الأب بابا ليس إلاَّ. بابا نويل في طرف الطاولة حتى، حيث ابن عرس، الأفعى والدك كان يأتي ليحط مؤخرته المسهلة لتوه. أقسم أمام الإله! لا لكن صدقًا، إنها الساعة الثالثة بعد الظهر وهي أضحت حائرة. هذا ما قالته العاهرة كلمة كلمة! بابا نويل وأنا. بالطبع يا أمي، وماذا يصنع يسوع الصغير؟ فأجابت: يقولون الرب، أيها الولد، لتعلم أن السيد المسيح منشغل بالسمكة، حسن، إني شديد الإرهاق، فقلت عندئذ: سلامًا يا أماه، خير السلام على هؤلاء السادة، ألهُوا جيدًا».

وطوال الوقت الذي تحدَّث فيه الشاب كانت تُسمَعُ الضحكة المروِّعة لامرأة آه ـ آه ـ آه ـ ها في هذه المرحلة من فيلم لوودي آلن (فضلاً عن ذلك فإن مسرحية ماريس ونساء كانت قد أديرت في الشقة التي كان يستأجرها سولانكا). سينخرط هواة السينما في المحادثة، وبتحيز منطلقين فيها من نوادرهم الشخصية، كي يجاروا ـ أوكي يبزُّوا ـ تلك التي أتوا على مباغتتها ذاكرين سوابق من مفاجأة الداخلية تلك الأم المجنونة، والمندفعة مستمدة من فيلم السينمائي السويدي بيرغمان الأخير، وأوزو، وسِرْك. في فيلم لوودي آلن» أو ربَّما من تاريخه سيكون هناك غرمايِّي أو دوباك شوربا، سينبثقون ربَّما من عجيرة نبات في آنية وسيسرِّبون تعليقًا معسولاً وممحَّصًا. حالة الأم الحرجة ستكون موضوع تأمل سريع وكئيب من جهة وودي ـ أكانت ذهانية طيلة النهار،

أم أثناء ساعات الوجبات؟ أي دواء كانت تأخذ؟ هل محاذير الدواء كانت ظاهرة على الزجاجة؟ ما الذي كان يجب استنباطه من واقعة أنها كانت على وشك أن تتبناها بنفسها بهيئة شخصيَّتين بارزتين وليس بواحدة؟

ما كان سيكون رأي فرويد في هذا المثلث الجنسي الغريب! ماذا تنبئنا عن هذه المرأة حاجتها المماثلة لعلب الهدايا وللخلاص الأبدي؟ ماذا تنبئنا عن أميركا؟ وإذا ما كان هناك شخصان فعلاً في الغرفة معها، فبمن كان يتعلق الأمر؟ بقاتلين فارّيْن ربما متواريَيْن في مطبخ هذه المرأة المسكينة الغارقة في الوحل؟ هل كانت تخاطر فعلاً؟ وإلا ألن يكون علينا أن نواجه بعقل متحرر بقدر ما نحن مفكرون الاحتمال ـ على الأقل في مستواه النظري ـ بأن معجزة حقيقية ومزدوجة قد حصلت؟ في هذه الحالة أي هدايا سيطلب يسوع من بابا نويل؟ وإذا كان ابن الرب، كما هو متفق عليه، مشغولاً بالتونا، فهل سيكون هناك ما يكفي من الفطيرة المحشوَّة كي يذهب معها؟

إلى كل هذا، كان ماريل هيمانغوي ربَّما سيبدي التفاتة كئيبة، لكنها ثابتة؛ ثم في رمشة عين سيصير الأمر منسيًا إلى الأبد. في فيلم لوودي آلن، أحد المشاهد كان سَيُدار بالأسود والأبيض، هذا النمط الأكثر خيالية قد انتهى لأن يعني الواقعية والتمامية والمهارة. لكنَّ العالم ملوَّنٌ ولو كان هذا أقل وضوحًا في الأفلام. التفت مليك سولانكا فجأة كي يحتج، فألفى نفسه في مواجهة ميلا ومعها الوقح المفرط في وقاحته قائد المئة. إن التفكير بها جعلها تظهر. خلفهم قد مكثوا ـ مسندين ظهورهم، منحنين، مقرفصين، مقوَّسين ـ على سائر تقسيم الشرفات اللامبالي. لقد كانوا رائعين. اعترف سولانكا، وقد استبدلوا لباسهم النهاري الموحَّد بطراز مختلف تمامًا ينم عن أناقة كلاسيكية وألوان جذابة، لباس كلاسيكي صيفي، إنه كزيِّ كلڤين[1] كلان الأبيض والأحمر بلون

---

(١) كلڤين: الفرنسي ذو المذهب اللاهوتي البروتستانتي.

المغراة، وكانوا جميعًا يضعون نظّارات على الرغم من أن الوقت كان ليلاً، كانت مضاعفات الإرسال تنقل علنية. كانت فيها مجموعة من مصّاصي الدماء الأنيقينْ. وبفضل سلسلة بوفي فإن مصاصي الدماء كانوا يتغلفون بالكرتون ـ تنتظر طلوع الفجر على كثيب مع رِيْ ـ بان. من نسي نظارتيه ينشُّ مع بزوغ أول شعاع من أشعة الشمس، ورفاقه كانوا يقهقهون، مكشِّرين عن أسنانهم المعوجَّة عندما كان يتشظّى تمامًا. آه ـ آه ـ آه ـ آه.

حدَّث البروفسور سولانكا نفسه بأن ميلا وجماعة شركتها كانوا ربَّما مصاصي دماء، وإنه اقترف غلطة إذ جاء دون حماية إلاَّ إذا كان هذا يعني أنه هو أيضًا مصاص دماء، لاجئ، هارب من الموت قادر على تحدي قوانين الزمن. . . خلعت ميلا نظارتيها الشمسيتين وتفرَّسته بهيئة مستفزَّة. فتذكر في الحال بمن كانت تذكره.

«عجبًا إذن، لكنه السيد غابرو، من يريد أن يترك وشأنه». قال بخبث قائد المئة الأكمد، كي يفصح عن أنه كان مستعدًا للتضارب على العجوز المتصدِّئ البروفسور سولانكا، فيما إذا تجرَّأ هذا على المقاومة. لكن سولانكا كان أسير نظرة ميلا.

«هذا إذن، قال هذا إذن. لكنها سِرْفْليت. إنها دميتي». قال سولانكا.

وجد قائد المئة العملاق الملاحظة معتمة وبالتالي مشبوهة. كالمغزى الذي تنمُّ عنه عبارة سولانكا. كان شيئًا آخر غير متوقع: نوعًا من غلٍّ، بل من عدوانية، شيئًا كان من الممكن له أن يكون نوعًا من ازدراء.

«إننا نتمالك أنفسنا. يا غروتا. قالت الشابة الخشنة، واضعة راحة كفِّها على صدر سولانكا وموجِّهة إليه دفعة مؤلمة، فقد سولانكا نتيجتها توازنه واصطدم بالجدار.

لكن المرأة الشابَّة نادت كلب حراستها.

«لا قيمة لذلك إيدي، أؤكد لك، كل شيء يسير على ما يرام».

في اللحظة نفسها أخذت الفتاة تتقدم سريعًا لحسن الحظ، اندفع مليك سولانكا بسرعة إلى الصالة، جلس على مسافة بعيدة من مصاصي الدِّماء. بما أن الأنوار كانت تنطفئ، فقد رأى العينين الخضراوين والثاقبتين تحدِّقان به بشدة من طرف الصالة الآخر.

[3]

قضي الليل متسكِّعًا في الخارج، دون أن يتوصل إلى إيجاد السَّكينة، حتى في أعمق أعماق الليل، وحتى في الصباح الباكر أيضًا عندما أفاقت المدينة. الليل الحقيقي لم يأتِ بعد. لم يكن يتذكر خط سيره الصحيح، وكان يتبادر إليه أنه قد اجتاز المدينة ثم عاد عبر برودوِيْ أو ضواحيها، لكنه كان يتذكّر الجلبة غير المعقولة لدوي أبيض وأسود وملوَّن. كان يتذكر الأصوات الراقصة لصور مجرَّدة أمام عينيه المحاطتين بالزرقة والمخضَّبتين. كانت بدلته المبلَّلة بالماء ترخي بثقلها على كتفيه، لكنه باسم اللياقة، مثلما تقتضي أحيانًا الأمور، لم يخلعها، ولم يخلع قبعته أيضًا. كان لغط المدينة يتزايد كل يوم تقريبًا، إلاّ إذا كان هذا نتيجة حساسيته التي تتهيَّج جراء هذا الضجيج بشكل موجع. كانت شاحنات القمامة الشبيهة بحشرات نبات وردان العملاقة، تجوب المدينة مدوِّية. ومن حيث هو، كان يستطيع أن يسمع صفَّارة الإنذار، شارة الخطر، بوق المركبات الكبيرة الثاقب التي كانت ترجع إلى الوراء، إيقاع موسيقى لا يحتمل. كانت الساعات تنقضي، وشخصيات كيسلاوسكي لم تكن لتبارحه أبدًا. ما هي البواعث التي كانت وراء أفعالنا؟ أخوان تباعدا عن بعضهما بعضًا، وعن أبيهما المرحوم، وأضاعا رشدهما تقريبًا من أجل مجموعة من الطوابع النفيسة؟ رجل كان ينبئ أنه ضعيف وأنه لم يكن يستطيع أن يتحمل فكرة أن المرأة التي كان يحبها، كانت تحيا حياتها الجنسية من دونه. إننا جميعًا سخرية الألغاز وما نبرح نلمح وجوهها المقنَّعة، لكنَّ سلطانها يدفعنا دفعًا إلى الأمام، نحو الظلمات أو النور. ولمَّا كان يتوغل في طريقه، فإن الأبنية حتى، كانت تكلمه بأسلوب حكام الكوكب، المفخّم، المفعمين بثقة مطلقة.

كانت مدرسة القربان المقدَّس تقوم بالتبشير باللاتينية المنقوشة على الحجر: Parentes Catholicos Hortamur Ut Dilectae Proli Suae Educationem Chrestianam Et Catholicam Procurant. صلة الرحم الكاثوليكية. تلذَّذ بالتربية الكاثوليكية المسيحية الموالية. لم يهزَّ هذا الطرح أيَّ وتر حسَّاس لدى سولانكا، بجانب ذلك تمامًا كان هناك شعار سُطِّرَ بحروف من ذهب على واجهة دوميل الآشورية المهيبة: كم كان العالم سيصير جميلاً لو كان بمقدور الحب الأخوي أن يقارب بين البشر! منذ ثلاثة أرباع قرن على الأرجح، وضعت حجر الأساس لنقل لهذا المبنى النيويوركي الصارخ الجمال، بطراز فينيقي دون أن يشكِّل تنافرًا صوريًا بين تناقضات مجازات الإغريق ومجازات ما بين النهرين. هذا الاستيلاء المشين على مخازن الإمبراطوريات البائدة، هذا الصهر في بوتقة واحدة أو هذا التهجين للدول القديمة، كان الدليل الحقيقي لقوى متواجهة.

كان Pytho (بيتو) هو الاسم القديم للدلفيَّة التي خرجت من الثعبان Python «بيتون» الذي كان يقاوم أبولون وكانت تجترح المعجزات باسم أبولون، دلفيّة الكاهنة والنبيَّة بفوراناتها وانجذاباتها. لم يكن سولانكا يستطيع أن يصدق أنه هذا هو المغزى الذي قصده المؤسسون: مكرَّس للاختلاجات ونوبات الصرع. ولا يمكن لبناء ملحمي بهذا الشكل أن يكون مخصّصًا لممارسة الشِّعر الوضيعة (تلجأ القصيدة الدلفية إلى التفعيلة السداسية المقاطع). كان لا بدَّ لهم من أن يكونوا قد فكَّروا دون شك في وجود إسناد أبولوني أكثر عمومية، في أبولون في تجسداته الموسيقية والرياضية معًا. منذ القرن السابع قبل العصر البدائي، كانت الألعاب البيتارية[١] تعتبر واحدًا من أكبر المهرجانات الإغريقية بأسرها، التي تقام كل ثلاثة أعوام في الدورة الأولمبية، وإلى جانب الألعاب الرياضية

---

(١) الألعاب البيتارية: مهرجان إغريقي كان يقام في دلفي كل ثلاث سنوات تكريمًا للإله أبولون.

هناك، فقد وجدت ألعاب موسيقية، فكانوا يخرجون مشهدًا أيضًا للعراك الضاري بين الإله والثعبان. شذرات من هذا الحدث تناهت إلى مسامع هؤلاء الذين بنوا هذا المذبح المخصَّص إلى معرفة نصفية، إلى إيمان صار الجهل المحميُّ بمتراس الدولار بإحكام يحسبه حكمة. هيكل أبولون الوحش ـ هتف في سره البروفسور سولانكا ـ إلى الجحيم أيتها الحيلة الأثرية الغامضة!

أكبر إلهة أسطورية كانت تحاصره من كل الجهات: أميركا في ذروة سلطتها الشَّرهة الهجينة. أميركا التي قصدها كي يمَّحِيَ فيها، كي يتخلَّص من كل رباط، بل أيضًا من كل غضب، من كل خوف ومن كل ألم. افترسيني. تضرَّع الأستاذ سولانكا بصمت. افترسيني يا أميركا ودعيني وشأني.

على الرصيف، مقابل قصر دلفيَّة الآشوري المزيَّف، ينتصب التمثال الذي يفضي إليه بيت المقهى النمسوي الذي فتح أبوابه للتو. هناك كان من الممكن له أن يجد التايمز والهيرالد تريبيون المثبَّتَيْن على قضبان من خشب. دخل سولانكا، شرب فنجانًا من القهوة المعقدة، واسترسل مسلوب اللُّبِّ باللعبة التخلّقيَّة الأبدية الأكثر وقتيَّة في المدن. كان من الممكن لهم أن يحسبوه، ببدلته الكتَّانية، وقبَّعته التي كانت في حالة يرثى لها، واحدًا من روَّاد مقهى هاولكا دوروتَيْرغاس المفلسين، لا أحد في نيويورك يولي إلى ذلك عناية ونادرة هي العيون التي تصدمها رهافة القارة العجوز. فياقة ليِّنة لقميص أبيض لطَّخته البقع، وخفَّافة كستنائية قذرة، ولحيةٌ كثّة غير مشذبة (غير معتنى بها وغير مدهونة قليلاً بمرهم تجميل) لم تكن تبدو ناشزة هناك. حتى اسمه، عندما كان يضطر لإعطائه كان يصدى بصدى غامض ملتبس، يا له من مكان، فكَّر. بلد نصف حقائق، نصف أصداء يهيمن على الكوكب تقريبًا، ويغرس في قلبك نظرته الزمرُّدية الخضراء.

اقترب سولانكا من طاولة التاجر. ومن معجنات ڤيينوار الغريبة الموضوعة في الثلاجة البللورية، لقد نسي اسم الكاتو الشهي ساشر، فضل أن يطلب بدلاً

عنه قطعة من فطيرة لانزرتورت. وقد لفت إليه النظر كجاهل جهلاً مطبقًا بالإسبانية، مما اضطره إلى أن يشير بإصبعه وبغيظ إلى الفطيرة التي اشتهاها، فاستطاع عندئذ أن يتذوَّق وأن يقرأ.

لم تكن الصحف اليومية تتحدث إلاً عن التقرير الذي نشر أخيرًا عن الجينوم البشري. كانوا يصفونه على أنه أفضل ترجمة حتى اليوم لـ «كتاب الحياة العظيم»، جملة كانت تستخدم بأشكال شتى من أجل وصف الكتاب المقدَّس والرواية، حتى لو لم يكن ذلك الإشعاع البسيط يمت بصلة إلى كتاب، بل هو على الأرجح لغز رمزي إلكتروني منظم على الإنترنت، معجم رموز كتب بأربعة حموض أمينية، بيد أن البروفسور سولانكا لم يكن يفهم شيئًا من الرموز، ولم يسبق له إطلاقًا أن نجح بتعلم لغة الجلاّدين، ولا حتى الإشارات بالأيدي أو المورس المتوفى اليوم، ما خلا ما كان يعرفه كل الناس من هذا dit dit dit، da، da، dit، da، dit، dit نداء SOS، في الاتجاهين. كل الناس كانوا يعقدون آمالهم على المعجزات التي ستنجم عن انتصار الجينوم. الأطراف الإضافية مثلاً التي سيستطيعون تركيبها كي تندفع أمام البوفيه، من أجل تقليص المشكلة القائمة، كي تأتي لهم بصحن وبكأس من الخمر وهم يأكلون في الوقت نفسه، لكنَّ أمرين كان سولانكا يعلمهما علم اليقين وهما أولاً، أن الاكتشافات التي قاموا بها قد جاءت متأخِّرة جدًا كي تكون بالنسبة إليه نوعًا من نجدة كائنة ما كانت. وثانيًا، أن هذا الكتاب ـ الذي قلب كل شيء، الذي غيَّر الطبيعة الفلسفية لوجودنا، الذي يتضمَّن تغيرًا كميًا واسعًا في معرفتنا لنفسنا، بحيث إنه أصبح تغيرًا نوعيًا نتيجة ذلك أيضًا ـ سيبقى بالنسبة لنا كتابًا متعذر القراءة أبدًا.

لو أن الكائنات الإنسانية كانت تتَّفق على أن هذا المستوى من الفهم محظور لاستطاعت على الأقل أن تواسي بعضها بعضًا وهي تحدِّث نفسها بأن الجميع يتقاسمون هذا الجهل المطبق نفسه. الآن وقد عرف سولانكا أن إنسانًا ما، في

مكان ما يعلم ما لن يستطيع هو أن يعلمه أبدًا، زد على ذلك أنه تيقن من أن تلك المعرفة الجديدة كانت على درجة كبيرة من الأهمية الحيوية، فقد أحسَّ بضيق كئيب، وبغضب أحمق مكبوت، وتملكه الشعور بأنه مجرَّد يعسوب أو نملة، كما لو كان واحدًا من آلاف هؤلاء العمال الذين برزوا في أفلام شارلي شابلن، أو فريتز لانغ، هؤلاء المجاهيل المذمومين لأنهم حطَّموا عظامهم تحت عجلة المجتمع، في حين أن معرفة محبوسة كانت تضطهدهم دون رحمة. كان للعهد الجديد قياصرتُه الجدد وهو سيصير عبدًا لهم.

«سيدي، سيدي».

امرأة شابة كانت تقف أمامه، قريبة قربًا مزعجًا، ترتدي تنورة ضيقة نيلية، تصل حتى الركبتين، وقميصًا أبيض طويلاً، وقد شدَّت شعرها الأشقر كليًّا إلى الخلف.

«سأطلب منك الانصراف يا سيدي».

طاقم المتجر الإسباني كان يبدو متوتّرًا ومتأهبًا للتدخل. كان البروفسور سولانكا متحيِّرًا فعلاً.

«هل من مشكلة ستقع آنستي؟.

المشكلة حاصلة، وليست ستحصل سيدي، وهي أنك تكلَّمت بفظاظة، بكلام بذيء، وبصوت مرتفع. ولأنك تكلَّمت بسرعة وبطريقة مقرفة، إن كان يجوز لي أن أقول، كنتَ أنت المشكلة. تفضَّل بالخروج الآن، من فضلك».

أخيرًا فكَّر، بينما كان يستعدُّ للانصراف موليًا الأدبار، أخيرًا لحظة صدق. لقد كانت هناك واحدة نمسوية على الأقل، نهض، التف بمعطفه وهو محدَّب، سدَّد حسابه الذي لم يصفِّه مع المرأة. المحاضرة الغريبة لتلك الأخيرة كانت عصيَّة على الفهم. عندما كان لا يزال ينام مع إيليانور كانت تلومه على الشخير. كانت تهزُّه وهو بين النوم واليقظة وتقول له اقلب على خاصرتك. لكنه كان واعيًا، كان يريد أن يحدِّثها؛ كان يستطيع أن يكلِّمها، وبالتالي، فلو

أن أدنى ضجيج بدر منه لكان سمعه هو أيضًا. بعد لحظة كانت تكفُّ عن تعذيبه فكان ينام بعمق إلى أن جاء اليوم الذي لم يعد يجد فيه إلى النوم سبيلاً. لا، ما من شيء من هذا بعد. ما من شيء من هذا الآن، الآن وحيث أصبح يقظًا على الدوام، وحيث كل أنواع الأصوات كانت تنقضُّ على أذنيه.

أمام بيته، عامل كان على اسقالته يطيِّن واجهة بنايته، كان الرجل يزعق لزميله الذي كان يدخن «بِيْدِيْ» بأوامر ومزاحات فاحشة بلغة بنجابية فجّة، في الحال اتصل مليك سولانكا إلى آل Jay «جايْ»، أصحابه، وهم مزارعون أغنياء متخصِّصون في الزراعة البيولوجية وكانوا يقضون صيفهم في شمال الولاية وسط فاكهتهم وخضراواتهم، وتذمَّر بشدة، فجلبة كهذه كانت لا تطاق. كان الإكراء مشروطًا بأن الأعمال لن تكون خارجية فحسب، بل صامتة. زد على ذلك فإن دورات المياه كانت سيِّئة الصرف. بقايا غائط كانت تطفو عندما كانت تسحب طرَّادة الماء.

نظرًا لحالته، فقد انغمس في بلبلة متَّسقة تمامًا، ولم يخفِ مشاعره على السيد جِايْ صاحب الشقة الدَّمث والأبله، الذي عاش فيها ثلاثين عامًا من السعادة مع زوجته «آدا»، وربى أطفاله في هذه الغرف، وعلَّمهم كيف يكونون نظيفين حتى في هذه الحمامات نفسها. السيد جايْ الذي كانت له نشوة خالصة في كل يوم قضاه ضمن هذه الجدران. لم يكن بود سولانكا أن يسمع شيئًا. فشدُّ الطرَّادة مرة ثانية كان بإمكانه أن ينهي المشكلة، اعترف بذلك، إنما لم يكن هذا مقبولاً، كان لا بدَّ من استدعاء سبَّاك وبسرعة.

لكنَّ السبَّاك، كسائر عمال المبنى البنجابيين كان طلق اللسان. كان جوزيف تشيلينك رجلاً قد بلغ الثمانين من العمر. هزيلاً وناشفًا. ذا شعر كثٍّ أبيض كأنه عولج بالإنتثينيوم وأسنانه الأمامية كأسنان أرنب. عبر العتبة، منتعشًا بنوع من كبرياء دفاعية تدفعه إلى تدارك أي انتقاد.

«لا تقولوا لي شيئًا، آ! ربَّما ستحسبونني عجوزًا جدًا، وربَّما لا، أنا لم أقل

إني أقرأ الأفكار، لكنني أفضل سبَّاك من الممكن أن تجدوه في الساحل، وأعمل حسب الأصول، أدعى تشيلينك (لفظ كل هذا بلهجة اليهودي الثابت والمجتث). اسمي يضحككم؟ اضحكوا إذن. السيد سيمون يدعوني المتقشف تشيلينك، والسيدة آدا تدعوني تشيلينك الناشف، ويستطيعون أن يدعوني تشيلينك البسمارك، إني أسخر من هذا فعلاً. إنه بلد حر. لكنني من خلال مهنتي ما أفتأ أشيع المرح. الفكاهة في اللاتينية تعني زهرة في العين إني أستشهد فقط بهاينريش بول[1]، الحائز جائزة نوبل لعام ١٩٧٢، في اختصاصه أعترف بأنه كان مفيدًا، أمَّا في عملي فلن يسع هذا إلاَّ أن يقع في أخطاء. هل عيناي جامدتان؟ لا أملك أكياس تبغ في عدلي، لكنني أعمل سريعًا. وأجرتي تسدَّد لي سريعًا أيضًا. أنتم تتابعونني.

مثلما قال التشوازززْ في فيلم «أريد أن أرى مالاً».

أتظنون أُنه بعد صراع مرير لإصلاح خرق تتسرب منه المياه في غواصة نازية، أتظنون أني أعجز عن إصلاح أداتكم الصغيرة؟

سبَّاك أفلت له اللجام. إنه طفاح الكيل، فكَّر سولانكا. الذي أحسَّ بالإرهاق فجأة، وهو لم يكلّ بعد.

كانت المدينة تلقِّنه درسًا. وكان من المستحيل التخلُّص من المتطفِّلين، من الضجيج. لقد عبر المحيط كي يخلِّف حياته وراءه. جاء إلى هنا التماسًا للصمت، فلم يجد إلاَّ لغطًا أفظع من ذاك الذي بارحه. مذ ذاك صار الضجيج داخله. وصار يخاف الدخول إلى الغرفة التي وضع فيها الدُّمى. هل كان من الممكن لها أن تأخذ في التحدُّث إليه. هل كان من الممكن أن تدبَّ فيها الحياة وتأخذ بثرثرة لا نهاية لها، إلى أن يجد نفسه مرغمًا على إخراسها نهائيًا. إلى أن يجد نفسه مرغمًا بدافع خلود الحياة، بدافع رفضه العنيد للتهاون، بسبب

(١) كاتب وشاعر ألماني.

ضوضاء الأصوات المتنافرة التي لا تطاق للألفية الثالثة، على انتزع رؤوسها الرديئة.

التنفس. قام بتمرين تنفسي بطيء، جيد جدًا. سيتقبَّل ثرثرة السبَّاك كما لو أن المسألة كانت مسألة عقاب. الارتضاء بذلك سيعزِّز ربما تواضعه ورباطة جأشه. كان أمامه سباك يهودي هرب من معسكرات الموت وهو يغوص في ماء البحر. لقد أمَّنت له مواهبه حماية من طاقم البحرية، طاقم فوَّض أمره إلى يوم الحساب. عندما أصبح حرًّا، انتقل إلى أميركا، مخلِّفًا وراءه، أو بالحري ـ حاملاً معه ـ أشباحه. لقد روى تشيلينك القصة ألف مرة وأكثر حتى أن الجمل كانت حاضرة والإيقاع موزونًا.

أترككم تتخيلون سبَّاكًا مع بحرية إن هذا مضحك قليلاً. وأكثر من ذلك فأنتم تعرفون التهكُّم. التعقيد النفسي. لا حاجة لأن أقدِّم لكم تقريرًا. ها أنذا أمامكم، عشت حياتي وما أزال أعيشها، أليس كذلك؟

لا بدَّ أن سولانكا كان مسلِّمًا بأنها حياة جديرة برواية. حياة من الممكن أن تنتج فيلمًا بميزانية متوسطة. داستن هوفمان، ربَّما في دور السبَّاك، ومن في دور قبطان البحرية إذن؟ كلاوس ماريا برانداور، روجر هوار. إنَّما من الممكن للدورين أن يليقا بممثِّلَين شابين نسي سولانكا اسميهما. هواية السينما التي كان يزدهي بها صارت تتوقف مع العمر «عليك أن تدوِّن هذا كتابةً وأن تترك المشروع للمناقشة ـ قال لشيلينك وهو يتكلم بجدية إنه كما يقولون تصور قوي. تصالب بين U-571 وقائمة شاندلر. ربما سيكون كوميدية ذات حدين ككوميديا بينايغني. لا، أقوى من بينايغني، لنقل.

«المنتزه اليهودي Judaid Park» توتَّر شيلينك، لكنه قبل أن ينقل التفاتته المجروحة إلى الحمَّامات ألقى على سولانكا نظرة حزينة ومشمئزة».

«ليس الأمر هزلاً قال. مثلما أخبرتك سابقًا، إني أتأسف أن أقول لك: أنت رجل عديم الاحترام».

لقد وصلت الشغَّالة البولونية ويزلاوا إلى الطابق الأرضي لتوها. إنها في المطبخ. لقد كانت مقدَّمة كجزء من إيجار الباطن، كانت ترفض أن تكوي الملابس، وتترك خيوط العنكبوت في الزوايا، وبعد انصرافها كان في إمكان المرء أن يخطَّ أخدودًا ضمن الغبار المتراكم على غطاء المدخنة، جانبها الإيجابي، كان طبعها الدَّمث وابتسامتها العريضة التي تكشف عن لثَّتها، لكنك إذا ما أبديت لها تعاطفًا، أو حتى إذا لم تقم بشيء من ذلك فإنها سرعان ما كانت تسترسل في قصصها. قدرة خطيرة من المستحيل كبتها على رواية الحكاية. ويزلاوا امرأة كاثوليكية ورعة، وجدت إيمانها يتزعزع بعمق نتيجة قصة حقيقية بجلاء، رواها زوجها الذي أخذها عن عمِّه الذي أخذها عن صديق فاضل جدًا كان يعرف اسم الشخص المعني، قصة زيزارد الذي ظل لسنوات عديدة السائق الخاص لدى البابا، كان هذا بالطبع قبل أن يختاره بكرسيِّه البابوي. عندما أزفت ساعة الانتخاب، فإن زيزارد قد صحب بابا المستقبل عبر كل أوروبة، أوروبة التي كانت عند ملتقى أمرين، وعلى تخوم تبدلات كبيرة. آه يا للتفاهم الذي كان بين الرَّجُلَيْن ويا لبساطة أفراحهما وهمومهما في هكذا رحلة سياحية! انزوى رجل الكنيسة مع نظيريه والسائق انتظر. أخيرًا شوهد الدُّخان الأبيض يتصاعد وصرخات من كان محظوظًا باختياره بابا رجَّع صداها، ثم ظهر كاردينال يرتدي الأحمر، نزل بتؤدة سلَّمًا عريضًا من حجارة صفرٍ، يمشي بانحراف قليل كشخصيَّة فيلم من أفلام فيلليني عند أسفل الدرج تمامًا. كان السائق المتلهِّف ينتظر في السيارة الصغيرة ذات الزجاج المغشّى.

اقترب الكاردينال من السائق، مجفِّفًا عرقه، ونافخًا وجنتيه، كان ريزارد أنزل زجاج النافذة بالطبع بحسب القصة، فاستطاع الكاردينال إذن أن ينقل إليه رسالة البابا البولوني الجديد:

«أنت مطرود».

سولانكا الذي لم يكن كاثوليكيًا، ولا مؤمنًا، ولا مهتمًا بهذه القصة حتى ولو كانت صحيحة فعلاً، ولا مضطَّرًا للتأكد من صحتها، ولا راغبًا بأن يحكم الصراع مع شيطان الشك الذي يأخذ الآن بتلابيب نفس ويزلاوا الخالدة، ولو كان الأمر يرجع إليه، لفضّل ألاَّ يحدِّثها إطلاقًا، ولو يراها مرَّة تغدو وتروح في الشقة تنظفها بشدة أو تحفها وتجعلها قابلة للسكن، ثم تنصر لغسل الغسيل وكيِّه وطيِّه، لكنَّ القدر، وعلى الرغم من كل نفقات إيجار الباطن التي تصل إلى ثمانية آلاف دولار شهريًا وشغَّالة مؤمنة، قد قسم له مغامرة كريهة. لم يكن يملك أية رغبة في إبداء رأيه في الفردوس المشكوك فيه جدًا من ويزلاوا، لكنها لم تكفّ عن العودة إلى هذا الموضوع.

كيف ألثم فتحة حبر أعظم كهذا، إنه واحد من خاصتي، لكنَّ الإله العظيم، أرسل كاردينالاً هكذا، بمنتهى الطيش كي يصرفه، وإن لم يكن هذا مع الحبر الأعظم، فمع كهنته، وإن كان هذا مع الكهنة فكيف سيكون إذن الحصول على الاعتراف والمغفرة. بذلك تكون قد انفتحت تحت أقدامي أسوار جهنَّم المفتعلة. كان البروفسور سولانكا الذي أخذ صبره ينفد يهدِّد يومًا بعد يوم بالانفجار. كان يفكِّر بأن يقول لويزلاوا بأن الفردوس مكان لا يعرف مفتاحه السري إلاَّ أقطاب نيويورك. احترامًا للروح الديموقراطية فإن قلة من الفنانين دخلوها هم أيضًا؛ كانوا يقدِّمون أنفسهم وهم يبرزون بلباقة إبانة توقيرية، إبانة هؤلاء الذين يعرفون جيدًا أنهم حصلوا على ترضية استثنائية كانت المظهر المنذهل لذلك الحشد من أصحاب الدخل المحدود التي تدعم تكفيره أصحاب الامتيازات المتقزِّزة وتكفيره المالك طبعًا. وبما أن قوانين العرض والطلب كانت على ما كانت عليه، فقد كان من غير المحتمل أن تحاذي يومًا السعداء المصطفين، ضمن أروقة الشخصيات والمراقي الغارقة في شمس الخلود. لكنَّ سولانكا امتنع عن قول كل هذا بل الأكثر منه أيضًا. كان يفضِّل أن يلفت انتباهها إلى نسيج العنكبوت وإلى الغبار، دون أن يتلقى في المقابل إلاَّ ابتسامتها

المعهودة التي تكشف عن لثَّتيْها وحركة رقص بولوني شعبي مبهمة. «إني أعمل بالنيابة عن السيدة جايْ منذ زمن طويل. . .».

لقد كان هذا الجواب في نظر ويزلاوا يكسح كل الانتقادات. بعد أسبوعين أمسك سولانكا عن كل ملاحظة، كان ينفض قميص المدخنة بنفسه، يزيل خيوط العنكبوت، ويضع قمصانه في مصبغة التنظيف الصينيَّة الرائعة في جادة كولومبوس. لكنَّ نفسَ ويزلاوا ـ نفسَها الوهمية كانت مستمرة من وقت إلى آخر باقتضاء وصيَّتها اللامبالي.

توجه سولانكا، الذي بدأ يشعر بدوار غنم خفيف نتيجة لقلة النوم ولتهيُّج في دماغه، إلى غرفة نومه. من خلفه وعبر الريح الرطبة الكثيفة، كان من الممكن له أن يسمع ثرثرة دُماه التي غدت حيَّة، كل واحدة تقصُّ على الأخرى قصة الأحداث التي أدَّت إلى أسرها في هذا المكان، قصة خيالية كان سولانكا قد اخترعها لكل واحدة منها. فالدمية التي لم تكن تملك ماضيًا كان سعرها بخسًا، وما هو حقيقي بالنسبة للدمى هو حقيقي أيضًا بالنسبة للكائنات البشرية. كان هذا هو ما يحضره المرء معه عندما كان يعبر البحار والحدود والوجود: ذخرنا القليل من الحكايا الصغيرة ومن الارتدادات ومن خصوصيَّاتنا، الذي عاش ذات يوم. نحن قصصنا، وعند موتنا سيصوَّر خلودنا، احتمالاً، في قصة أو في أخرى.

كانت تلك هي الحقيقة الكبرى التي أولاها سولانكا ظهره. كانت بالتحديد «ماضيه» الذي كان يريد تحطيمه. ما جدوى أن يعرف المكان الذي جاء منه، أو من هجر أمَّه عندما كان سولانكا الصغير يحبو، مبيحًا له منذ نعومة أظفاره، أن يتصرف في سنوات لاحقة، على النحو نفسه.

إلى الجحيم يا أسلافه، ويا أيتها الضغوط على جمجمته وهو طفل صغير، يا أيتها الأقنعة، ويا ضعف الأمهات، ويا ديدمونة المجرمين ويا كل هذا الإرث التافه من الدم ومن القبيلة. لقد جاء إلى أميركا، كما سبقه إلى ذلك الكثيرون

كي يتلقى البركة الجزيرية للقديس إلياس، وينطلق ثانية من الصفر.

عمدني يا أميركا، سمّيني بوذا، شيب، أو سبايك.

إرميني في فجوة الذاكرة ودثّريني في لا وعيك الجبار.

خذيني في مغامرتك وضعي لي قبعتي، قبَّعة ميكي.

هبي أني لست عالم تاريخ، بل رجلاً دون تاريخ. سأجتثُّ لساني من جذره وسأتكلم لغتك الهجينة. قطّعيني إلى تفعيلات، اجعليني رقمًا، احمليني بعيدًا.

إذا ما كان الماضي هو هذه الأرض المريضة العجوز، فكوني أنت يا أميركا صحني الطائر، احمليني إلى أقاصي الفضاء. فالقمر ليس ببعيد.

لكنَّ نوافذ غرفته لم تكن محكمة الإغلاق، إنها لا تستطيع أن تمنع التاريخ من الدخول.

ـ ماذا كان سيفعل سول وغِيْفريد[1] ـ «لقد أصبحت كأس ستانْليْ الحجري للزوجات السبايا في عصر كانت فيه الزوجات الغنائم بمشاعية آل بروش بالوما دو وودي» ـ ماذا سيفعلان الآن وقد لم يعد هناك إلاَّ ٤٠ أو ٥٠ مليون دولار...؟ مرحى إن موفي بوتر آشتون حامل!... وإنه «بالوما هو فينغ وودي من كان صاحبًا ملازمًا مع J.S» «ياتزاك» بيرولمان في جيبسون بيتش؟ في ساغابوناك؟ هل كنتم على إطلاع بالنسبة لغريفان ولعظيمته وجميلته دَهْلْ؟... كيف هذا، تنوي نينا طرح عطر؟ لكنها هرمة جدًا يا عزيزي بحيث أن لها رائحة نتنة!... ميغ ودونيز، يتجادلان منذ أن انفصلا كي يعرف من سيمتلك لا الملفَّات الإلكترونية فحسب بل، أيضًا الشيخة الروحية. ما تكون إذن في نظر هوليوود تلك الممثلة التي عملت على إثارة إشاعة أن تتويج هذه أو تلك نجمة سينمائية يقوم على منطلقات سحاقية تشترك فيها شخصية الاستديوات

---

(١) أول ملك عبري: ١٠٣٠ ـ ١٠١٠ ق. م.

المهمة؟ . . . هل قرأتم آخر كتاب لـ «كارن الهزال كجمال»؟ . . . اللوتس، آخر حانة عصرية رفضت .T.O سامبسون من أجل رقصة ميلاده الجاوية[١]! .

ليس إلاَّ في أميركا أيها الشبَّان ليس إلاَّ في أميركا يرى المرء هذا! نام، وضع يديه على أذنيه ونام البروفسور سولانكا وهو لا يزال في بدلته الكتَّانية البالية .

(١) رقصة شعبية عنيفة الحركات.

[4]

استيقظ عند الظهيرة على رنين الهاتف. كان جاك رينيهارت مخرِّب الأجهزة الهاتفية يدعو الأستاذ سولانكا للمجيء إلى عنده في بيته من أجل مشاهدة مباراة ربع النهائي لليورو ٢٠٠٠، على التلفاز، بين هولندا ويوغوسلافية، لبَّى مليك الدعوة مما شكل مفاجأة كبيرة لكليهما.

«سأكون مسلوب اللب لرؤيتك تخرج من جحرك، قال جاك رينيهارت. أمَّا إذا كنت تنوي تشجيع الصرب، فابقَ في بيتك».

أحسَّ سولانكا بالانتعاش، وبالحاجة لرؤية صديق، فحتى في أيام التقهقر هذه كان يشعر بهكذا احتياجات. ربما يكون بإمكان قدِّيس في هيملايا أن يستغني عن مشاهدة كرة قدم في التلفاز. لم يسبق لسولانكا أن كان بصفاء القلب هذا. خلع بدلته المدعوكة، استحم، ارتدى ثيابه بسرعة وأومأ إلى تاكسي. عندما نزل من السيارة أمام بناية رينيهارت، اندفعت امرأة تضع نظارات شمسية لتوبِّخه. للمرة الثانية ومنذ يومين يتملكه شعور محيِّر بمعرفة هذه المجهولة. عادت إليه ذاكرته في المصعد: كانت باربي الثرثارة التي صار اسمها المرادف المعاصر لقذارة الخيانة.

«الجلاَّد آڤال».

أوه، تبًّا، يا مونيكا! إني ما أني ألتقيها هنا، من قبل كانت نو آمي كابَل، كورتِنيْ لا؟، آنجيلينا جولي. الآن ولاَّعة السجائر.

أهكذا تسير الحياة في المحلَّة؟

سنوات ورينيهارت يحاول الحصول على الطَّلاق، لكنَّ زوجته كانت تشنُّ

عليه حملة معاكسة. كانا زوجين متناقضين تناقض الأبنوس مع العاج، هي فاترة، شاحبة، ممشوقة وهو نحيف لكنه أسود كالفحم، أفرو ـ أميركي مفرط الحيوية، صياد مائي وبري، دليل نزهات عطلة نهاية الأسبوع، عدَّاء ماراتون، مولع بالجمباز، لاعب تينس وحديثًا وبفضل تايغر وودز لاعب غولف مهووس. منذ اليوم الأول لارتباطهما، كان سولانكا يتساءل عمَّا ستكون عليه حال رجل حُبِيَ بطاقةٍ كهذه مع امرأة بهذه البلادة.

لقد تزوَّجا بشكل مفاجئ في لندن ـ فضَّل رينيهارت أن يؤسس حياته خلال سنواته في الحرب خارج أميريكا ـ وفي قصر كُسِيَ بالخزف والفسيفساء خصيصًا من أجل المناسبة وكان مؤسسة تآزرية تستخدم كمصحٍّ من أجل إعادة تأهيل المرضى المختلّين عقليًا. لقد ألقى شاهدُهما مليك سولانكا بمحاضرة أسيء تفسيرها من حيث الظاهر ـ في لحظة انخراط فيها في محاكاته لـ C.W. فِيلْدْز الشهير، لقد شبه مخاطر الزواج بتلك المخاطر التي يجازفون بها «عندما يقفزون من طائرة تطير على ارتفاع ألف قدم، ويحاولون الهبوط على حزمة هشيم يابس». لكنها انكشفت أخيرًا على أنها وثيقة القتلة بالموضوع. إلاَّ أن سائر أصدقاء الزوجين لم يقدِّروا برونيسلاوا حق قدرها في نقطة أساسية: لقد كانت تمتلك قدرة العلقة اللَّصوق.

«على الأقل لم ينجبا أطفالاً. فكَّر سولانكا، عندما بدت شكوكه التي شاطره إياها الجميع مسوَّغة. كان يتذكر مكالمة أسمعان الهاتفية:

«إلى أين ذهبت يا بابا، أين أنت؟» ـ فكَّر بنفسه، لقد مرَّ على ذلك سنوات. فعلى الأقل لم يكن لدى رينيهارت ما يدعوه إلى الانشغال بألم طفل عميق ومعذَّب». لقد أساء رينيهارت معاملتها. وهذا لا ريب فيه. وكردَّة فعل على الزواج فقد اتخذ لنفسه عشيقة. وأمام صعوبة المحافظة على رباط عرفي فقد انغمس في الخيانة وعندما طالبته عشيقتاه بتنظيم حياته، كل واحدة تلحُّ عليه من أجل الانحياز إلى صفها، فإنه لم يجد شيئًا يفعله أفضل من أن يدسَّ امرأة ثالثة

في سريره الصاخب والغاص بساكنيه أصلاً. ربما لم تكن ولاّعة السجائر بمستوى هذا الاستبدال العاطفي. بعد مرور سنوات على هذا الدوران المتحرك السريع وبعد أن غادرت بارك هولاند إلى ڤيلاج ويست فان برونيسلاوا ـ إنما ماذا حلّ بهؤلاء البولاك جميعهم كي ينبثقوا دون انقطاع في أماكن مختلفة؟ غادرت شقة هودسون ستريْت، ورفعت قضيّة إلى المحاكم كي ترغم رينيهارت على أن يوفر لها حياة رفيعة المستوى في فندق فخم من لوبرا إيست سايد، M.X. على البطاقة.

وبدلاً من الطلاق فقد أخبرته وبلهجة معسولة بأنها ستحيل ما تبقّى من حياته إلى جحيم وتجعله وبتأنٍّ يدفع الثمن غاليًا «ولا تُعوِزْني إلى المال يا عزيزي، وإلاّ فلسوف أكون مجبرة على محاربتك بما هو أعزُّ شيء لديك».

كان الخمر والطبخ هما أعز شيئين لدى رينيهارت. كان يمتلك ڤيلا صغيرة بطابقين في سبرينغ، ومستودعًا مجهزًا بقبوية خلف الحديقة، ومؤمنة بمبلغ يجعلها ترقى إلى مستوى بيت ريفي أنيق حيث أثمن حاجة فيه هي موقد طبخ بستّة رؤوس. كان رينيهارة حينئذ ذواقة، مضغوطًا عنفيًا، كانت ثلاجته تبقى مليئة بهياكل الطيور التي ستصير إلى حساء سائل، وبرّاده مزدحمًا بأشهى الأطعمة الفاخرة. ألسنة قبّرات، خصى طيور آلامُّو، بيوض الزواحف. أمّا عندما تحدّث سولانكا، يوم زفاف صديقه، إلى أم وأخت رينيهارت عن لذائذ مائدته الشهية فإنَّ الحيرة والاندهال ألمّا بالمرأتين.

«جاك طاهٍ؟ جاك ابني؟ سألت أمه وهي تشير إليه بحالة مشكّكة، إن جاك لا يقدر على فتح علبة فاصولياء، إن لم أشرح له كيف تدار فتّاحة العلبة».

«جاك الذي أعرفه، أضافت أخته، لا يستطيع غلي ماء في قدر دون أن يحرقه».

«جاك الذي أعرفه، جزمت أمه بلهجة حاسمة، لا يستطيع العثور على المطبخ دون أن يَدُلّه كلب الضرير على الطريق».

كان من الممكن لجاك هذا أن ينافس حينئذ أشهر طبَّاخي العالم. حدَّث نفسه سولانكا منذهلاً أخيرًا من موهبة الفرد «التطابقية»، هذا التحول الذاتي بذاته، الذي يزعم الأميركيون أنهم يشتهرون به أو على أنه من أبرز سماتهم.

وفي هذا زيف. يدرج الأميركيون بادئة لغوية تدفع خصوصيتهم في كل مكان: حلم أمريكي، نقش أثري أميركي، متعهَّد أميركي[1]، تحليل نفسي أميركي، طرب أميركي. لكنَّ كل العالم يمتلك هذه الأشياء، فأنا لا أظن أن إضافة بادئة قومية يعمِّق معنى الكلمات. تحليل نفسي إنجليزي، نقش أثري هندي، متعهِّد أوسترالي، حلم مصري، طرب فرنسي. رغبة أميركا في أمركة الأشياء، في نسبتها إلى نفسها، كانت الدليل على شعور غريب بالخطر، كانت فيها علامة الرأسمالية الأكثر ابتذالاً. بتهديدها لذخائر رينيهارت الكرمية كانت برونيسلاوا أجادت التصويب. لقد كفَّ عن تجواب البلاد أثناء حرب ما، وبدلاً من ذلك، أخذ يؤلف ضروب الوصف في الجبابرة الخارقين، في المشاهير العظماء، وفاحشي الثراء للأسبوعيات والشهريات الممتازة. كل شيء ورد فيها ضمن محلياته: قصص حبهم، عقودهم، أولادهم الشَّغبون مآسيهم الشخصية، خدمهم الثرثارون، اغتيالاتهم، عملياتهم الجراحية، مآثرهم العظيمة، أسرارهم الخسيسة، ألاعيبهم، مشاداتهم، ممارساتهم الجنسية، نذالاتهم، كرمهم، سائسوهم، متسكعوهم، سياراتهم. كفَّ أيضًا عن كتابة الشعر، درَّب نفسه على كتابة الروايات التي توافق هذا العالم الوهمي الذي كان يحكم العالم الحقيقي، كان يقارن موضوعه دائمًا بموضوع Suétone «سويتونيوس»[2].

«إنها سِيَرُ قياصرة اليوم، في قصورهم، اعتاد أن يقول إلى سولانكا وإلى كل من كان يريد أن يستمع إليه كائنًا من كان. إنهم يضاجعون أخواتهم، ويغتالون

---

(١) متعهَّد: فتى عشيق تتعهَّده امرأة أكبر سنًا منه.

(٢) مؤرخ روماني عاش بين عامي ٦٩ ـ ١٢٥ بعد الميلاد. كاتب «حياة القياصرة الاثني عشر».

أمهاتهم، ويجعلون من خيولهم شيوخًا. لقد تأزمت الحالة بشكل خطير في القصور. إنَّما ماذا تعلمون أنتم فإذا ما كنتم في الخارج، إذا ما كنتم إناسًا من الشارع، إذا ما كنتم بالتالي مثلنا نحن الآخرين، عندئذ تحسبون أن القصور هي فعلاً قصور. وأن المال والسيادة موجودان خلف هذه الجدران. عندما يفرقعون بأصابعهم يا رجل، فإن الأرض ولا أقول غير هذا، تتوقف عن الدَّوران. الآن وأنا أكتب عن المليارديرية ضمن سباتها، أو عن غلمان الأثرياء الذين يغتالون آباءهم، الآن قد رفعت الكلفة بيني وبين «الفضيَّات» فإني أرى حقيقة الأشياء أفضل مما أراها في عاصفة الصحراء أو في سارايیڤو تحت رقابة المتصدِّين للأعداء: وصدقني أن كل شيءٍ هو بذات السهولة بل وأسهل من أن تمشي على لغم رديء وتتطاير متشظِّيًا».

لكن سولانكا وفي كل مرة كان ينخرط فيها صديقه في خطبة قصيرة، كان يكتشف لديه علامة نفاق متعاظمة.

كان جاك قد عرف الحرب ـ كمخبر صحافي يساري أسود مشهود، ولَّد له استقصاؤه الملحوظ عن العنصرية حشدًا لاحقًا من الأعداء ـ وقاسى مع الآخرين المخاوف نفسها التي عبَّر عنها كاسيوس كلاي قبل عشرين عامًا من الآن؛ الخوف لا سيَّما من الرَّصاصة في الظهر، الرَّصاصة الغادرة التي من الممكن أن تطلق من معسكره كما كانوا يقولون. خلال السنوات التي تلت، امتلك جاك في المقابل الدليل المتناقل دون انقطاع لنزوع الجنس البشري المأسوي إلى تجاهل مفهوم التضامن العرقي: السود ضد السود، العرب ضد العرب، الصرب ضد البوسنة والكروات، يوغوسلافيا السابقة، العراق، إيران، رواندا، أفغانستان، أنواع الإبادة في تيمور الشرقية، المذابح بين الطوائف في ميتروت[1] وفي آسَّام[2]، الكارثة الإنسانية المتجدِّدة اللامبالية بالعرق. في

---

(١) مدينة في الهند.

(٢) ولاية في شرق الهند.

لحظة محدَّدة نجح في عقد روابط صداقة ضيِّقة مع زملائه البيض في الولايات المتحدة. تغيَّرت هويَّته. لقد قطع صلة قرباه وصار أميركيًا بكل بساطة. لقد فهم سولانكا الذي كان سريع التأثر بهذه التواطؤات الخفية لتلك الدَّمغات المكرَّرة، كان ذلك التحول يحتدم عند رينيهارت نتيجة خيبة أمل كبيرة، بل نتيجة غضب مُوجَّه ضد ما كان العنصريون البيض سيسمونه بطيب خاطر (خاصته) وإن هكذا غضبًا قد ارتد بسهولة تجاه ذاته. احترز جاك من أميركا، تزوَّج من بيضاء وناور في مجالس المحافظين التي لم يكن العرق فيها «مشكلة» قانونية، فكلهم تقريبًا كانوا بيضًا ـ عند عودته إلى نيويورك، وهو منفصل عن برونيسلاوا، استمرَّ في معاشرته لهؤلاء اللواتي كان يسميهنَّ «اليمامات البيض» مضيفًا في الحال «يمامات المدينة البيض، إيه يا سيدي» كانت الفورة تسيء إخفاء الحقيقة.

أصبح جاك حينئذ الأسود الوحيد الذي كان جاك يعرفه، ومن المحتمل سولانكا الوحيد ذا البشرة الغامقة. كان رينيهارت من تخطَّى الرتل.

وربَّما كان الآن يتخطَّى رتلاً آخر. كانت المهنة الجديدة تفتح له أبواب كل القصور، وكان هو يعشق ذلك. أخذ يكتب عن هذا الوسط الذهبي بخبث، بارعًا في الاصطياد، كان يرذِّل بفظاظته، بعماه، ببلاهته، بسطحيَّته لكنَّ الدعوات الصادرة عن آل وارن ـ دستون وعن آل روس بوفيه، وشويلر، وآل فويبرج، وڤان بوران، وكلان، وعن إيڤانا أوبالبرغ ـ سبيد ڤوغل ومارلاي بوكِن كاندِل ما تني تتوافد عليه. لأن الرجل الشهم كان تعسًا وجميعهم كانوا يعرفون ذلك. لقد كان خادمهم الزنجي، وكانوا يحبون أن يكون بينهم. حدث نفسه مليك سولانكا ـ كحيوان أليف ـ «جاك رينيهارت» كان اسمًا مجرَّدًا بشكل نفعي من كل مفهوم أسود، لم يكن فيه ما يشير أبدًا إلى أنه من منبذ السود، على شاكلة توبَّاك، وڤوندين وآفيرغيه، أو راهتز شييد (لقد كان العصر الذي كانت تتبارى فيه الرابطةِ الأفرو ـ أميركية في ابتكارية وإبداعية إملائيَّتين في الأسماء).

لم يكن الناس، ضمن القصور، معمَّدين بهكذا أسماء. لم يكونوا ينادون الرِّجال ببيغجي، هامر، تشاكويل، سنوب، أودري، ولا النساء بببيبا، لوفِتيْ، أود. نَيْس. ما من كونتا كونتي أو تشازنيْ في أروقة أميركا المذهَّبة. حيث كان من الممكن، أن يُلقَّب رجل هناك بمغوي النساء، أو فحل الخيل على سبيل الإطراء الجنسي، حيث كان من الممكن أن يُعثر وسط النساء على نماذج كبيرة دبلين، وبروك، هورن وحيث كل ما كان يُشتهى كان يغوي تحت ملاءات الساتان، خلف باب الغرفة السفلية التي انفرج بابها قليلاً.

أجل، النساء بالطبع، كانت النساء مخدِّر رينيهارت، ونقطة ضعفه، وقد كنَّ في «وادي الصبايا» لا في جبل، في إفريست الصبايا، «القرن الأسطوري للوفرة النسوية». ليأتين ويعبرن دربه، فتياته كريستي، كريستي، كريستان، وكريستيل، أولئك العملاقات اللواتي كنَّ يجعلن كل الكوكب يُحلِّق في استيهامه، واللواتي كان حتى كاسترو ومانديلا سيكونان سعيدين بوقفة معهن. ليأتين للقائه، ورينيهات سيخرُّ راكعًا (أو سيمطُّ قائمته). تحت تلك الطبقات العديدة لظاهر رينيهارت البرَّاق المتمدِّن كانت ترقد تلك الحقيقة الرهيبة. لقد كان مطوَّقًا، ورغبته في أن يتقبَّلوه في نادي البيض كانت سرًّا عاتمًا لم يكن يستطيع أن يبوح به إلى أحد وحتّى إلى نفسه دون شك. والحال كذلك، فهناك ثمَّة أسرار تؤجِّج غضبه ـ ضمن هذه الطبقات تنتشي بذرة الغضب.

كان جاك يدَّعي عبثًا أنه منيع، دون أن يُسقِط القناع أبدًا، وسولانكا كان واثقًا من أنه كان يرى استعار ناره الملعونة، في نظرة صديقه المتوهِّجة كجمرة. لقد لزمه وقت طويل، حتى سلَّم بأن هيجان جاك المكبوت كان مرآة غضبه هو نفسه.

لقد كان دَخْل رينيهارت السنوي آنذاك يبلغ السقف الأعلى لسلسلة أرقام ستة، لكنه كان يزعم نصف مازح أنه كان خالي الوِفاض تمامًا. لقد أنهكت برونيسلاوا ثلاثة قضاة، وأربعة محامين، مسفرة بذلك عن موهبة تماثل موهبة

جارندايس، شخصية البيض/ هذه لديكينز المتمرِّسة بمماحكات لا نهاية لها ـ بل عن عبقرية هندية، فكَّر سولانكا ـ من أجل الإعاقة والإمهال القضائيين. كانت تعتز بذلك اعتزازًا جنونيًا (بالمعنى الحرفي للكلمة). لقد اعتادت على إفساد وتأزيم الأمر ـ وك كاثوليكية ممارسة صالحة، فقد صرَّحت لرينيهارت بادئ الأمر بأنها لن تطلب الطلاق حتى ولو كان هو الشيطان المجسد نفسه. كان الشيطان، وضَّحت لمحاميها، قصيرًا، أبيض، يرتدي معطفًا طويلاً أخضر، له ضفيرة، وينتعل حذاءً ذا كعب عال، وكان أشبه ما يكون بالفيلسوف عمانوئيل، لكنه كان قادرًا على اتخاذ أي شكل، عمود دخان، لمعان مرآة، زوج في منتهى الاحتداد من عرق أسود. «إن انتقامي من إبليس، صرَّحت إلى المحامين المنذهلين سيكون في إبقائه أسير زواجي». في نيويورك، وحيث أسباب الطلاق الشرعية كانت محدودة ومعيَّنة بصرامة، حيث إن الطلاق دون خطيئة غير ممكن، فإن رينيهارت لم يكن يمتلك فرصة إعلانه مقاومة زوجته. لقد حاول الإقناع، الرشوة، والتهديدات، وهي صمدت ولم تبدأ بأية ملاحقة قضائية. أخيرًا رفع دعوى واجهتها ببرود مذهل، وقرار مدهش، شبه صوفي. لقد كان من الممكن لضراوة مقاومتها الباردة أن تدهش غاندي. لقد تخلَّصت بعشر سنوات من «نوبات» نفسية وفيزيولوجية تكرارية، كان من الممكن لأسوأ رواية عاطفية أن تصوِّرها على أنها مبالغة، وكانت مذنبة بإهانة القضاء في المحكمة سبعًا وأربعين مرَّة، دون أن تُجرَّ إطلاقًا إلى السجن، بسبب تردُّد رينيهارت في جرجرتها أمام المحاكم.

لقد كان ينال جزاءه إذن، وهو في سنته الخامسة والأربعين على الخطايا التي اقترفها قبل عشر سنوات من الآن. لكنه كان مستمرًا في تملُّقه لليمين ولليسار ويمتدح كرم المدينة «بالنسبة لعازب يمتلك بضعة دولارات في المصرف وينزع بشكل فطري إلى الابتهاج وقطعة الأرض هذه المسروقة من قبيلة آل مانهاتو التي هي عبارة عن مرتع للصيد مثالي».

لكنه لم يكن عازبًا، وكان بإمكانه مثلاً في أحد عشر عامًا أن يعبر الحدود، وأن يقيم في ولاية كونِكتيكوت، حيث الطلاق بلا خطيئة موجود، أو أن يلتمس الأسابيع الستَّة أو السبعة اللازمة كي يقيم مسكنًا شرعيًا في نيڤادا وأن يفصم العقدة الغوردية.

بيد أنه لم يفعل شيئًا من هذا. لقد أفضى إلى سولانكا ذات يوم، وهو جذلان قليلاً، بأن عقدة كانت هناك، على الرغم من التشكيلة الواسعة للمغازلات التي كانت تقدِّمها المدينة للرجل المستغرق.

«معهنَّ، يصبح وعلى الفور لا بدَّ من الكلمات الرَّنَّانة التي لا يحتملها المقام. قال متذمِّرًا. لا يزال رزينًا، عميقًا وثابتًا. إن لم يكن هناك ولهٌ مفضوح فلا أهمية لذلك. وهاكَ لماذا هنَّ دائمًا وحيدات. لا يوجد تحت تصرُّفهن ما يكفي من الرِّجال. لكنهنَّ يتمنَّعن عن تملِّي واجهات المخازن، إن لم يكن هذا من أجل الشِّراء، إنهن لا يتقبَّلْنَ مجرَّد فكرة الاكتراء في زمن مشطور. إنهن ذوات عاهات. أقول لك، إنهن يسعين للشراء في حين أن السوق في ذروة الغلاء، لأنهنَّ يعرفن أن الأسعار ترتفع باستمرار».

بحسب رواية الوقائع هذه، فإن طلاق رينيهارت الصعب المنال، كان يترك له متنفسًا، ويوفر له فرصة. كانت النساء يضعنه تحت التجريب، لأنه كان جميلاً وجذابًا، إلى أن تخور عزائمهنَّ من طول الانتظار.

بيد أن طريقة أخرى كانت هناك لتحليل الموقف. فهناك حيث كان رينيهارت يقضي معظم الوقت، في قمة جبل السكر المتجلد هذا، في قمة هذه الماسة الضخمة كالريتز، كانت له الغلبة؛ من اللحظة التي وقع فيها في الفخ وهو يشتهي ما يرقى إلى السماء، أخذ يتزعزع. لقد صار ألعوبتهنَّ، وفي مثل هذه الحالة، فإن الفتيات يلعبن بألعابهن، لكنهنَّ لا يتزوجنها، إذن، ونتيجة لأنه نصف متزوج، وأسير طلاق طويل الأمد، فقد كان من ذلك بالنسبة لرينيهارت وسيلة يخدع نفسه بها. لم يكن على رتل الانتظار أن يكون مؤثرًا بهذا القدر

وحيدًا يتقدم به السن، أصبحت أيامه معدودة. مرشح لا يجوز انتخابه، بحسب مصطلحات آكلات الرِّجال الظالمة.

مليك سولانكا الذي يكبر رينيهارت بعشر سنوات، والمكبوت أكثر منه بمئة مرة كان يرقب وباندهاش حسود الطريقة الذكورية المحضة التي كان رينيهارت يسيّر مركبه فيها بوقاحة. فالبلدان التي تعيش حربًا، النساء، الرياضات الخطيرة، وجود بأسره نُذِر للنشاط. حتى قصائده التي ركنها مذ ذاك في خزانة الحائط كانت تحمل البصمة الرجولية لتِدْ هوغز. غالبًا ما كان يتملك سولانكا الإحساس، وعلى الرغم من السنين التي فرَّقتهما بأنه هو التلميذ ورينيهارت المعلم. ولم يكن يَسَعُ من يصنع الدُّمى إلاَّ أن ينحني أمام ذاك الذي يبحر في سفينته الشراعية أو يقوم بسقوط حر، أو بقفز مرن، ذاك الذي كان مولعًا بارتياد كلية هامتر مرتين في الأسبوع كي يصعد ويهبط وهو يعدو دورات الدَّرج الأربعين. فأن يكون المرء صبيًا حقيقيًا ـ إنما كان في هذا ملامسة لماضيه المحرَّم ـ كان فنًا لم يمتلك سولانكا حقّ التمكن منه كليًا.

لقد سجَّل باتريك كلويفرت هدفًا للهولنديين. هبَّ سولانكا ورينيهارت واقفين بوثبة وصرخا وهما يرُجّان زجاجات مشروبهما من البيرة المكسيكية. ثم قرع الباب وأعلن رينيهارت بشكل ارتجالي:

«آه، في الواقع، إني عاشقٌ، اقترحت عليها أن نلقتي. أرجو ألا يزعجك هذا».

لم يكن شيء يدعو إلى المفاجأة في هذا التصريح. في الوقت المحدَّد كان يشير إلى قدوم من كان رينيهارت يسميها خفية (النادلة الجديدة) أمَّا التالي فقد كان فيه خروج عن المألوف.

«إنها واحدة من مواطناتك، سرَّب له، وهو ينهض ليفتح الباب. من الشتات الهندي. مئة عام من العبودية. في عام ١٨٩٠ ذهب أسلافها ليعملوا كعمَّال أرِّقاء في جزيرة ماذا كانت تُسمَّى؟ آه نعم، ليلِّليبوت لليوبي بلوفوسكي إنهم

يتولون الآن إنتاج قصب السكر ولولاهم لانهار الاقتصاد. لكنك تعلم ـ كيف يتم هذا في كل مكان يذهب إليه الهنود، الناس، لا يحبونهم، نعم إنهم يعملون كثيرًا ويلازمون بعضهم بعضًا ومتغطرسون جدًا. اسأل أيًا كان. اسأل عيدي أمين».

في التلفاز، كانت البلاد المنخفضة تلعب كرة قدم راقية، لكنَّ المباراة فجأة صارت في غير محلها. لقد وجد مليك سولانكا ومن مسافة بعيدة أن المرأة التي دخلت صالون رينيهارت لتوها هي أجمل امرأة هندية ـ بل أجمل امرأة ـ رآها في حياته. وبالنسبة لتأثيرات حضورها فقد بدت زجاجة الدوز إيكوايز التي كانت في يده اليسرى كمصل اللبن. فلا بدَّ أن سطحِ الأرض يحتوي بالتأكيد على نساء أخريات طولهن أقل من ١٨٠ سنتيمترًا بقليل، وشعرهنَّ الأسود يتهدَّل حتى خصورهن، فكَّر سولانكا. ولا بدَّ أنه كان بإمكان المرء أن يلتقي في مكان آخر بهكذا عيون رمادية دخانية، وشفاه مكتنزة وأعناق ممشوقة، وسيقان طويلة. لا بدَّ من أن نساء أخريات لهنَّ نهود مشابهة وبعدئذ؟ لقد استشهد بأغنية بلهاء من أعوام الخمسينات، حيث كانت برناردين، تُنْشَدُ في واحدة من لحظاتها الأكثر تجنيحًا، ينشدها مطرب أمها المفضل، الكاثوليكي المحافظ بات ـ بون: «لو لم تكن كل واحدة من قسماتك شيئًا محيِّرًا، لكانت الطريقة التي تستجمعينها بها سحرًا». تمامًا. فكَّر سولانكا هذا هو تمامًا، فكَّر البروفسور سولانكا وهو غارق. إنه هذا. فوق مرفقها الأيمن بالضبط، كانت هناك ندبة بطول ٢٠ سنتيمترًا على شكل تعرُّجات. عندما رأت أنه لاحظها، تكتَّفت في الحال، ووضعت يدها اليسرى على الندبة، دون أن تنتبه إلى أن هذه الأخيرة قد جعلتها تبدو أجمل أيضًا، مكمِّلة حسنها إذ أضافت عليه عيبًا جوهريًا. لقد أنها قابلة للانجراح، وأنه كان من الممكن لهذا الحسن أن يتهشَّم في لحظة، إن ندبتها لم تعمل إلاَّ على تقوية حضورها وعلى جعلها رائعة بالأحرى ـ تبًا، فكَّر سولانكا. أي نعتٍ بالنسبة لمجهولة.

الجمال الجسدي المطلق جعلها دفقًا من نور، لقد صارت شعلة مشعة وسط عالم قاتم. ما جدوى الاستبطان في تلك الظلمات المحيطة، طالما كان من الممكن تأمل تلك الشعلة الرؤوف؟ لماذا التكلم، الأكل، النوم، العمل، وأمام المرء هذا الألق؟ ما جدوى أن يفعل المرء شيئًا سوى أن ينظر إليها طيلة حياته البائسة؟ نورُ نورٍ. بجمالها الذي كان يزوبع في الحجرة ككوكبة ملتهبة، كان يحدِّث نفسه، بأنه لو كان تسنى له أن يجسِّد امرأة أحلامه المثالية، لو تسنى له أن يلمس مصباحًا سحريًا، لكان ما تمناه هو ما يراه يمثل أمامه الآن، في الوقت نفسه، كان يتخيل نفسه مع ڤينوس السمراء تلك ويترك قلبه المقفل حتى اللحظة ينفتح، ويتذكر فجأة ذات مرة، أنه كان يقضي وقته في محاولة النسيان، شاكرًا رينيهارت من أعماقه لأنه ابتعد عن تلك اليمامات البيض: فحجم الحفرة، الثغرة التي خلَّفتها قطيعته مع ماضيه القريب والبعيد، هذه الفجوة لا يمكن إلاَّ لحب امرأة كهذه أن يردمها. ألم قديم وخفي تأجَّج داخله، ألم لا بدَّ له من علاج.

«أنا آسف على ذلك، يا رفيقي، قال صوت رينيهارت الفائر الحي، لكأنه صوت قادم من نهاية الكون. إن لها تأثيرًا على معظم الناس. لا قصد لها في ذلك، فهي لا تستطيع تحييده. هاكِ رفيقي العازب مليك لقد زهد في النساء إلى الأبد. مثلما تستطيعين أن تلمحي ذلك بوضوح».

جاك يمجن كثيرًا ـ عقَّب سولانكا ـ إنه يبذل ما بوسعه كي يعود إلى الحياة من جديد. «إنه لمن حظِّنا أن تكون الحال هكذا بالنسبة لنا نحن الاثنين. قال أخيرًا، وهو يتصنَّع ابتسامة، وإلاَّ لكان عليَّ أن أتعارك معك من أجلها عراكًا فظيعًا إن لم يكن أكثر».

ها هو الترخّيم يعاودك. نَيْلا، ميلا. الرغبة تلاحقني، وترشقني بقوافٍ لكأنها إنذار.

لقد كانت منتجة لأفضل شركة من شركات الإنتاج المستقلة، وتهتم بشكلٍ

أساسي بالأفلام الوثائقية المتلفزة. في تلك اللحظة بالذات كانت تقدِّم برنامجًا ذا صلة وثيقة بجذورها. لم يكن الوضع سريعًا في ليللوبوت[1] بلوفوسكي. أوضحت نيلا، في الغرب، كان الناس يعتبرون هذه الجزيرة كفردوس لبحار الجنوب، مناسبة لقضاء شهور العسل، ولمغامرات العاشقين، لكنَّ الوضع كان حرجًا. كانت العلاقات بين الهنود الليللوبوتيين والرابطة المحلية العرقية للإيلبيين الذين كانوا لا يزالون يشكلون غالبية السكان تفسد سريعًا. بغية لفت الانتباه إلى هذه المسائل، قرر ممثلو الأحزاب المعارضة معًا تنظيم تظاهرة من أجل يوم الأحد المقبل في نيويورك، كان لا بد لهذه التظاهرة من أن تكون مقيدة إنما حامية، وأن تتبع خطَّيْ سير متباعدين جدًا، حتى ولو كانت تهدِّد بانبثاق مصادمات عنيفة. قرَّرت نيلا نفسها المشاركة فيها.

بينما كانت تتحدث عن الاضطرابات السياسية التي كانت تزداد خطورة في هذه البقعة الصغيرة الواقعة في المتقاطرات، لاحظ سولانكا أنها كانت تصطلي، ما من شيء كان يبدو تافهًا بالنسبة للجميلة نيلا التي كانت لا تزال شديدة الارتباط بجذورها، وقد حسدها سولانكا على ذلك.

قال رينيهارت بولدنته المعهودة:

«رائع! سنمضي جميعًا. أجل ستسير في الرتل من أجل شعبك يا مليك أليس كذلك؟ أو على أية حال فإنك ستسير في الرتل من أجل نيلا».

لهجة رينيهارت كانت لهجة هازلة. لقد أخطأ الحساب.

رأى سولانكا وجه نيلا يتوتر، وحاجبيها يتقطَّبان. الأمر ليس لعبة.

«بلى، قال سولانكا ـ وهو ينظر في عينيها ـ سأتظاهر».

استقروا كي يعودوا إلى المباراة. أهداف أخرى تتالت: ٦ للبلاد المنخفضة

---

(١) Lilluput: بلدان خيالية في «رحلات جوليفر» لسويفت. أناسها أقزام طول الواحد نحو ست بوصات.

ورمية متأخرة لا جدوى فيها كمؤاساة ليوغوسلافية. كانت نيلا نفسها منخطفة إذ أن الفريق الهولاندي قد لعب بشكل رائع.

لكأنها كانت ترى في اللاعبين السود، لولا روح المنافسة، ولولا التواضع المزيَّف أشقاءها في البهاء.

إن أبناء سارابيڤوا، قالت، وقد حدست دون أن تدري تأملات الشاب مليك سولانكا في آمستردام منذ زمن بعيد، هم الشاهد الحيُّ على صوابية المزج العرقي. انظروا إليهم. إدجار دايڤد، كويڤيرت، ريدكارد، آلان، وقديمًا رود، وغوليت العظيم. كلهم أجانب مستوطنون. أمزجوا كل العروق وستحصلون على أجمل الأشخاص في العالم. إني أنوي السفر قريبًا إلى سورينام، أردفت دون أن تتوجه إلى شخص محدد.

استلقت على الكنبة، فرمت جرائد اليوم، وهي تلقي بساقٍ طويلة مغطَّاة بالجلد على مرفق الكنبة. العنوان الغامق في الجريدة استرعى انتباه سولانكا. «القاتل بقطعة الإسمنت» لا يزال يثير الدهشة، وفي الأسفل كتب بحروف أصغر: من يكون ذلك الإنسان ذو القبعة إذن؟

في الحال بدَّل كل شيء. انقضّت الشياطين من النافذة المفتوحة وأعمته. فتلاشت بشاشته ومزاجه الصافي وطعم إثارته. عندما شعر بنفسه يرتجف، هبَّ واقفًا بعجل.

ـ ماذا، صفّارة الضربة النهائية تُعلنُ وأنت تنهار؟ مليك، يا صديقي هذا ليس لائقًا في الواقع.

لكنَّ مليكًا اكتفى بأن هز رأسه واتجه إلى الباب. من خلفه تناهى صوت نيلا وهي تتحدث عن العنوان البارز. لقد التقطت الجريدة لتوها.

«النذل. لقد اعتُبرت القضية منتهية. وما كان عليه أن يتحمل تبعاتها بعد، قالت. اللعنة، لن ينتهي هذا إطلاقًا. وهاكم هذا يعود من جديد».

[5]

«سيطهِّر الإسلام الشوارع من هؤلاء السائقين الرُّعَّن الكفرة الكلاب! صرخ سائق سيارة عامة في وجه سائق سيارة سياحية يزاحمه. سيطهر الإسلام كل هذه المدينة من هؤلاء القوادين الكلاب من جنسك، ومن جنس زوجتك اليهودية العاهرة!».

هكذا استمرَّت الشتائم طوال طريق الجادة العاشرة.

«يا مغتصب وخائن أختك منذ الطفولة، نار جهنَّم التي أعدها الله لك ولحطام عربتك الزنديقة بانتظارك!... يا سليل الخنزير الزنديق آكل البراز، عد إلى ذلك ثانية لترى، والمنتصر جهاد سيهصر لك خصيتيك في قبضته التي لا نجاة منها!». لقد انتزعت تلك الشتائم مليك سولانكا من اضطرابه الداخلي، وهو يسمعها تُنطَقُ بلهجة شديدة بلغة الأوردو.

كان صمته يقلق علي ماجنو. ماجنو تعني المحبوب. كان المحبوب الذي نحن بصدده، والمخالف للقانون شابًا وسيمًا، طويلاً ونحيفًا لم يتجاوز الخامسة والعشرين وبموزة مثيرة للغريزة الجنسية على نمط التراڤولتا، كان يعيش هنا في نيويورك، حيث أنعم عليه بعمل ثابت، فلماذا هو ثائر إذن إلى هذا الحد؟

وجد سولانكا جواب هذا السؤال.

عندما يكون المرء صغيرًا جدًا على مراكمة لكمات تجربته، يكون من الممكن له ـ كما الناسك ـ أن يختار كيفية تجبير آلام عالمه. في الحالة المغيَّبة، وفيما كان يطول أمد سيرورة السلام بشكل مرهق في الشرق الأوسط، وفيما كان الرئيس

الأميركي يخرج متلهِّفًا إلى فتح ثغرة كي يعزِّز شرعيته المثلوبة، ويستعجل باراك وعرفات للمشاركة في مؤتمر قمة كامب دايڤيد فإن الجادة العاشرة كانت تؤخذ على أنها هي المسؤولة عن عذابات فلسطين. كان عليٌّ إمَّا هنديًّا أو باكستانيًا، لكنه كان متشبعًا بروح جماعية مضلَّلة بالتضامن الذهاني الإسلامي المزمن الجامع. فكان ينسب مصائب العالم الإسلامي إلى كل السائقين النيويوركيِّين. بين شتيمة وأخرى، كان يتحدث عبر الهاتف النقَّال مع خاله ـ «أجل يا خال، أجل، بحذر طبعًا. أجل لقد كلَّفت السيارة المال. لا يا خال. بلى مهذب دائمًا. ضع ثقتك بي يا خالي. أجل إنها السياسة المثلى. أعلم».

وبما أنه كان يسأل سولانكا بارتباك أيَّ الشوارع يسلك، كان هذا أول أيام عمله في الشوارع المتأزمة، فقد كان مذعورًا جدًا. بدا سولانكا المضطرب لطيفًا جدًا معه، لكنه قال له وهو ينزل في ساحة شيرمان سكوير:

«لتقلِّل من هذه البذاءات، هذا ممكن، ألا توافقني يا علي ماجنو؟ اخفض صوتك، سيكون لهذا أن يسيء إلى بعض الزبائن، حتى ولو كانوا لا يفهمون».

«أنا يا سيدي؟ شتائم يا سيدي؟ متى حصل هذا؟ غريب».

«على طول الطريق. وضح سولانكا كل ما حصل وبآخر مدى يبلغه الصوت، «سوقي»، «يهودي»، اللازمة الاعتيادية. فالأوردو، أضاف بالأوردو، كي يضع الأمور في بيِّنة، هي لغتي الأم».

تضرَّج وجه علي المحبوب حتى عنقه. ورمق سولانكا بنظرة هلعة وساذجة.

«بما أنك أيها الصَّاحب تقول هذا، فإنه صحيح، إني لم أعِ ذلك».

عيل صبر سولانكا، وهو يحاول أن يفضَّ المسألة:

«لا بأس، إنه هيجان السلوك، لقد انجرفت. لا أهميَّة لذلك».

طالما كان في برودِويْ، كان علي المحبوب يقول بلهجة قلقة، لهجة من يتمنى على الآخر أن يستوعبه:

«ليس هناك أي قصد من ذلك، أيها الصاحب. أنا لا أذهب إلى الجامع حتى. ليبارك الله أميركا. حسن؟ ما هذه إلى كلمات».

أجل، الكلمات ليس أفعالاً. اعترف سولانكا المتهيِّج. مع ذلك فمن الممكن للكلمات أن تصبح أفعالاً، إن بإمكانها إذا ما نطقت في المكان المناسب والوقت المناسب أن تزحزح الجبال، وتقلب العالم.

لكن حسن، هِمْ، فإن جهل الإنسان بما يفعل ـ فصل الأفعال عن الكلمات التي تعرِّفها. كان اعتذارًا مقبولاً ظاهريًا. إن في قول المرء «لم أكن أقصد ذلك» انتزاعًا لكل معنى سيئ من أعماله السيئة. على الأقل على طريقة المحبوبين. عليٌّ هذا العالم. هل كان الأمر ممكنًا جهارًا؟ لا. لا. إن هذا مستحيل كثيرون كانوا يحسبون بأنه من الممكن لتوبة نصوح أن تكفِّر عن جريمة، بدون هذه الدهشة الذَّهول أيضًا. اعتذار لا يكاد يمكن قبوله، هو توكيد محضٌ وبسيط على جهل لا يمكن تمثيله حتى على مقياس الندم التدريجي. راع سولانكا أن وجد نفسه في هذا الشاب المغفَّل ماجنو: في سورته كما في نقائصه، لكنه، هو، لم يكن يسعى لالتماس الأعذار.

في شقَّة رينيهارت، وقبل أن يفرض عليهما قدوم نيلا ماهاندرا تغيير الموضوع، كان يحاول، أن يتحدَّث إلى رينيهارت، محاولاً أيضًا تقليص رقعة اضطرابه، عن هذا الغضب الإرهابي المريع الذي ما كان يكفُّ عن أسره كرهينة.

هزَّ جاك الذي استغرقته المباراة رأسه بهيئة ساهمة.

«أنت تعلم جيدًا. إنك سريع الغضب ـ قال له، وبعد ذلك تعود إلى رشدك أليس كذلك؟ هل تتذكر عدد المرَّات التي اتصلت فيها مع أناس كي تقدم اعتذاراتك؟ ـ اعتذارات مليك سولانكا الكاملة ـ لطالما فكَّرت بأنه من الممكن لها أن تؤلف رواية رائعة. مع الحشو ربَّما، إنَّما بنهاية هزلية».

قبل سنوات من الآن، كان آل سولانكا قد أقاموا في ڤيلا سبرينغس مع رينيهارت

و«خادمته» وهي فتاة جميلة من الجنوب تعود بنسبها إلى لوكوت مونتان في ولاية تينيسي حيث كانت وقعت المعركة الشهيرة «فوق الغيوم» أثناء حرب الانفصال ـ والتي كانت الليمة الجنسية لـبوتي بوب، لقد كان رينيهارت يناديها بلطف «روسكو»، وهو شخصية لوكوت مونتان الذي اشتهر كلاعب تنيس ممارس، صاحب العضلات ووسكوتِيْنَرْ، علمًا بأنها كانت تمقت هذا اللقب بشكل واضح. لم تكن الڤيلا كبيرة، لذا كان عليهما أن يقضيا فيها أقلَّ وقت ممكن.

ذات يوم، وبعد قضاء جلسة مطوَّلة وسط الناس في ملهى إيست هامبتون، أصرَّ سولانكا أن يقود هو السيَّارة تحت وابل من المطر. لقد كانا متكوِّرين من الخوف. فقال له رينيهارت بمنتهى اللطف:

«مليك، في أميركا يسير الناس بسيَّاراتهم على الطريق الآخر». انفجر سولانكا مغتاظًا من الإهانة التي نالت من مواهبه كسائق، توقَّف وأجبر رينيهارت على العودة مشيًا على الأقدام تحت ذلك المطر الساقط «لقد وجدت ذلك المساء واحدًا من أروع اعتذاراتك، ذكّره جاك، علمًا بأنك لم تكن قادرًا على تذكر ما كان يمكن لهذا أن يكون».

ـ أجلن همس مليك، إنما لديَّ الآن ثقوب سود دون أن أفرط في الشراب. سورات الغضب تكون بدرجة مختلفة تمامًا.

كان صدى صرخات الجمهور يرجِّع في التلفاز، جاذبًا انتباه رينيهارت الذي لم يسمع الاعتراف.

«ومن ثم، أردف رينيهارت بعد بضع لحظات، أنت تدرك جيدًا ما يبذله الأصدقاء من جهود للابتعاد عن بعض الموضوعات في حضورك. سياسة الولايات المتحدة الأميركية في أميركة الوسطى مثلاً، سياسة الولايات المتحدة الأميركية في آسيا الجنوبية الشرقية، في الواقع، إن الولايات المتحدة بشكل عام أصبحت موضوعًا محظورًا منذ سنوات، إذن فأنا لم أندهش عندما قَرَّرت المجي لتريح مؤخرتك في الجلوس في حضن الشيطان العظيم بالذات.

أراد سولانكا وقد علق في الفخ أن يجيب: أجل، لكنَّ الظلم ظلم، وبسبب هذه السلطة الأميركية العاهرة، هذا التضليل الأميركي الفاحش العهر، فإن كل أنذال السياسة يتخلَّصون من. . . .

«وها أنت ذا تعيد الكرَّة! نبَّهه رينيهارت، أنت تنتفخ إلى حد الانفجار. أحمر غامق، ثم بنفسجي، ثم أسود تقريبًا. الأزمة القلبيَّة وشيكة الوقوع.

هل تعلم ما نسمي هذا فيما بيننا؟ التَّسَلْنُكْ. تناذر مليك الصيني. إنه انصهار نووي رديء ما تقدمه لنا هنا. وبعد ذلك، يا رفيقي، فإنني أنا من ذهب إلى كل تلك الأماكن ـ حتى وأتى منها بالأخبار السيئة، لكنَّ هذا لا يمنعك من أن تشتمني بسبب جنسيَّتي، والتي هي، في نظرك المريض، تجعل مني المسؤول عن كل الأعمال الدنيئة التي اقتُرِفت باسمي، اللعنة إذن». لا شيء أسوأ من عجوز أبله، علي المحبوب وهو نفسه كانا متشابهين، فكَّر سولانكا في ضغثٍ.

إنهما يختلفان عن بعضهما بفروق طفيفة سطحية تمامًا في الألفاظ والتربية. لا، لقد كان هو الأسوأ، لأن عليًا، لم يكن إلاَّ ولدًا مبتدئًا في مهنته، بينما هو، سولانكا كان يستحيل إلى شيء مرعب، أو، ليس من المستحيل، إلى شيء لا يمكن ضبطه. سخرية مُرَّةٌ، ارتكاساته القديمة القتالية، انفجارات بداهته الهزلية، كانت تعمي أصدقاءه حتى عن التبدل الكبير، عن الفساد البشع الذي يحدث الآن هذه المرة كان الذئب موجودًا فعلاً، لكنَّ أحدًا لم يكن يريد أن يسمع عواءه. ولا جاك حتى. «قل إذن، دندن رينيهارت مبتهجًا، أتذكر أنك طردت فلانًا من بيتك ذات مرة، لأنه ذكر فيليب لاركان عرضًا؟ اللعنة إذن. أنت تقول إنك كنت مهذَّبًا مع جيرانك؟ يا هُوْ، إنك تتحدث عن قصة».

كيف كان من الممكن لمليك أن يتحدث إلى رفيقه الجذل عن رفضه لذاته؟ كيف يقول له إن أميركا هي الوحش الكاسر الكبير وأنا جئت كي ألقي بنفسي في شدقه؟ كيف كان من الممكن أن يقول له: أنا السكين في العتمة، أنا خطر على من أحبهم؟

كانت يدا سولانكا تحكانه. حتى بشرته كانت تفضحه. هو الذي كان جلده أطرى من إليتيّ الطفل الرضيع، ومن كان يذهل النساء اللواتي كنَّ يعاكسنه في عهده المدلل، قد أخذ يتعذب من حكَّةٍ بشعة في ذروة جمجمته وفي يديه. وكان هذا مزعجًا جدًا بالنسبة له. لقد صار جلده أحمر، وأخذ يتغضَّن ويتشقَّق. لم يسبق له أن استشار طبيبة جلدية. قبل أن يهجر إيليانور التي كانت مصابة بالأكزيما على الدوام، نشل لها حبابتين من مرهم من الهيدروكورتيزون، ومن صيدلية الزاوية اشترى عبوة كبيرة من مرهم صناعي معطر، وخضع إلى استخدامه عدة مرات في اليوم. لم يكن سولانكا يؤمن كثيرًا بالأطباء. وبالنتيجة فإنه كان يعالج نفسه بنفسه، فابتُلي بالحكة.

لقد كنَّا في عصر العلم، لكنَّ الطب لا يزال في أيدي البدائيين والجلادين. ما كان يعلِّمكم إياه الأطباء هو ما كان امتدادًا لجهلهم. في صحيفة الأمس تحدَّثوا عن طبيب استأصل خطأً رحم امرأة حامل. لقد عنَّفوه. كان الحدث تافهًا بحيث أنه ذُكر ضمن مقطع في الصفحات الاجتماعية هذا ما كان عليه حال الأطباء: الكلية النتنة، الرِّئة المريضة، العين اللاَّمة، المولود التالف، وكله خطأ. لا قيمة لواحدة.

الصحافة: كانت في متناول يده دائمًا ـ بعد نزوله من سيَّارة علي المحبوب، اشترى بوست، دايلي نيوز، ثم توجه إلى بيته، متّخذًا خط سير تائه، موسِّعًا خطاه، كما لو كان يريد تجنب شيء. إيلان دو جينيرز. كانت الإعلانات تعلن بأنها ستنتقل إلى مسرح باكون. كشَّر سولانكا. لا بدَّ أنها ستغني أغنيتها الشهيرة: الهرمونات. هذا ما يجعلني كئيبة. ستكون الصالة غاصة بالنساء اللواتي سيصرخن «إيلان نحن نحبك». وفي وسط مشهدها الحزين، ستتوقف، ستنحني، ستضع يدًا على قلبها وستقول إلى أي مدىً هي متأثرة وقد صارت رمز المهن.

أثنوا عليَّ. شكرًا، شكرًا، أثنوا عليَّ قليلاً، إيه انظري يا آنا، لقد صرت

أيقونة. وو، هذا ما جعل العامة متأثرة للغاية... لقد قدَّم العلم اكتشافات خارقة، قال سولانكا. علماء لندن برهنوا على أن «الجزيرة المتوسطة» هي المنطقة من الدِّماغ المسؤولة عن الاستشعارات». وقسم سانغولات المرتبط بالمرح، كان هو مقر الحب، أيضًا علماء ألمان وبريطانيون زعموا أيضًا أن قشرة الدِّماغ الجبهية مسؤولة عن الذكاء، كان الدم يتدفق في تلك المنطقة عندما كانوا يطلبون من خنازير الهند الإراديِّين حل ألغاز معقَّدة. قولوا لي أين يوجد الشوق؟ في الرأس أم في القلب؟ قال شكسبير... وفي أي مكان من الدِّماغ تساءل البروفسور سولانكا النّفور ظاهريًا يوجد مقرُّ الغباء؟ أنتم أيها العلماء، في أية جزيرة وفي أية قشرة دماغ يتزايد التدفق الدموي عندما يصرخ أحدهم لغريبة عنه تمامًا: «أحبك»؟ وما رأيكم بالنفاق؟ لنفكر في الأمور الجدية. هزَّ رأسه، أنت تسعى إلى منفعتك بالموارية أيها الأستاذ، أنت تكشف في ذلك عن خفّة ومهارة، إنما يكفيك أن تضع المسألة نصب عينيك، لنلجأ إلى الغضب. موافقون؟ لننتقل إلى فحش الهيجان، الذي يقتل بشكل جدي. قل لي أين يولد الاغتيال. يده تمسك الجرائد بتشنُّج، كان مليك سولانكا يجري في الشارع الثاني والسبعين دافعًا المارة. في كولومبوس انعطف إلى اليسار، وركض بسرعة في منتصف الطريق مسافة عدة أمتار قبل أن يتوقف أخيرًا حتى هناك كانت المحلاَّت تحمل أسماء هندية: بومباي، بوند تشيري، كل شيء كان يتسابق كي يذكِّره بما كان يحاول أن ينساه ـ أي مسكنه، فكرة المسكن العام، ومسكنه الخاص ـ ليس في بوند تشيري في الواقع، إنما في بومباي بالتأكيد. ذهب إلى بار يحمل اسمًا مكسيكيًا مشهورًا للغاية، طلب كأسًا من التاكيلا، ثم كأسًا أُخرى. وأخيرًا كانت ساعة المتوفِّيات. متوفَّاة الليلة السابقة، وسابقتيها، كانت أسماؤهن: ساسكيا «سماء» تشوَيْلَرْ، التي كانت الأولى، والاثنتان اللتان سبقتاها: لوران مويبريدج كلين، وبيلاندا بو كن كانديل. وكانت أعمارهن: تسعة عشر عامًا، عشرين، وتسعة عشر عامًا. كانت لديه صور لهنَّ. انظروا إلى ابتسامتهن: إنها ابتسامة السيادة. قطعة من الإسمنت أطفأت تلك الأنوار.

كان من المستبعد عن تلك الفتيات أن يعشن حياة فقر، لكنهن صرن مفتقرات إلى الدرهم. ما من شك بأن «سماء» كانت تستحق التفاتة، بطولها البالغ مترًا وخمسة وسبعين سنتمترًا. من عالم ذي شرفة، كانت تتحدث ست لغات، وتذكرك منهجيًا بكريستي برانكليْ في دور فتاة المهمَّات السهلة، كانت مولعة بالقبَّعات الكبيرة وبمشاهير الخياطين، كان من الممكن لأي كان أن يتعقبها ـ جان بول، دوناتيللا. درَيْس، توم فورد قد ركع، لكنها كانت من جبلة خجلة ـ مما كان يدلُّ على أنها كانت متباهية بطبعها، وعضوًا أساسيًا ضمن هذه السلالة النخبة التي كانت تعتبر خيَّاطي السيدات خياطين، وتعتبر عارضي الأزياز كبغايا ـ بالإضافة إلى ذلك فقد قامت بدراستها في جوِيَّار دسكول في عطلة نهاية الأسبوع الماضي، كانت متعجِّلة في الذهاب إلى سوث هامبتون وكانت مضطرة لأن ترتدي شيئًا أنيقًا، إنَّما لم يكن الوقت يسمح لها بالانتقاء، فتحدثت إلى صديقتها مصمِّمة الأزياء إيميلا بوشن عبر الهاتف، وطلبت منها بكل بساطة أن ترسل لها تشكيلة أزيائها. واغتنت لدى عودتها بشيك قيمته ٤٠٠٠٠٠ دولار.

«أجل صرَّحت إيميلا في روش لقد وصل الشيك يوم أمس».

لقد كانت فتاة رائعة، دمية حقيقية. لكن الأعمال أعمال. أعتقد. سنفتقدها أيَّما افتقاد. أجل، ستدفن في سرداب دفن العائلة، في أبهى مكان في المقبرة، أمام جيمس ستيورات تمامًا. كل الناس سيتواجدون هناك ضمن إجراء أمني مشدَّد. سمعتهم يقولون إنهم يريدون دفنها بثوب زفاف. يا للإكرام. ستكون رائعة، هي من كان من يمكن لها أن تبدو رائعة حتى في الأسمال. صدقوني. أجل إنني أنا من ستُلبسها، تريدون أن تضحكوا؟ يا لها من حظوة أيضًا؟ سيجري هذا في نعش مفتوح وستستدعي من أجل ذلك نخبة: هـ. سالي من أجل تسريح شعرها، رافاييل من أجل تبريجها، وهرب من أجل التصوير، وأمها من ستعنى بكل شيء، هذه المرأة الجلمود، ما من دمعة نزلت من

عينيها. لقد أتمَّت الخمسين، ومن العجيب أنها لم تقع جُثَّة هامدة، إنما عذرًا، لا تشيعوا هذا فلا ضير في ذلك».

الوارثات يحرمن من الميراث، والأسياد يصبحون ضحايا. هاكم إلى أين وصلت الحال. كل هذه التربية صارت إلى هباء! لأن ساسكيا لم تكن وهي في عامها التاسع عشر عالمة باللغات، عازفة بيانو، ستاخونوفيَّة المعابر فحسب، بل كانت أيضًا فارسة محنكة، رامية رمح تأخذ على عاتقها فوز الفريق الأولمبي، سبَّاحة أعماق، راقصة أسطورية، طاهية ماهرة، موهوبة بالرسم، ومضيفة كيِّسة لسلالة أمها، مغنية للبيل كانتو، وبالنظر إلى شبقية ابتسامتها المتصنعة جهارًا في المجلة، ولتمرسها أيضًا في مجالات أخرى، فقد كانت الصحف الهتيكة تهتم بها لكنَّها لم تتجرأ على التعليق على ذلك أبدًا في نصٍّ كامل. كانت تكتفي بنشر صور لعشيق ساسكيا لاعب البولو برودوِيْ مارساليس الثالث، والذي كان القرَّاء المخلصون يعرفون عنه شيئًا واحدًا على الأقل: كان زملاؤه في اللعب يلقبونه بالدَّبوس بسبب بنيته الخاصة.

حجر قذفت بمقلاع، ولد ضال، فانتصرت على العصفور الصغير ووندي. والحال كذلك، فإنَّ كل ما ذكر عن سماء تشاويْلَرْ، كان ينطبق على باندب كاندل، وعلى ران كلان. الثلاث كنَّ رائعات، نحيفات، شقراوات، موهوبات بشكل فائق وصار مستقبل أسرهن يتوقف على إخوتهن المنتفخين ثقة بالنفس. لقد دُرِّبت أولئك النسوة كي يُتْقِنَّ أصول عشيرتهن. طرازها وطبقتها.

وإذا ما حكمنا على ذلك من خلال مظهر الذكور المعسر يصبح من السهل تقدير فداحة خسارتهم.

نحن الرجال نستطيع أن نذير الثروة، كانت تنضح وجوههم الصامتة والحزينة حدادًا، لكنَّ بناتنا، هنَّ من جعلننا على ما نحن عليه. نحن القارب وهنَّ المحيط، نحن المركب وهنَّ التيار، من سيقول لنا بعد الآن ما يجب أن يكون؟ ومن ثم فقد كان هنالك هذا الهم: من ستكون التالية من كل البنات اللواتي تسنى

لنا أن نقطفهنَّ كتفاحات الذهب الهسبريد[١] من غصن بعينه، من هي التالية التي تتعرض لها الدودة القاتلة.

دمية حقيقية. لقد نُذِرَتْ أولئك الشابات كي يصرن غنائم، جوائز أوسكار باربي الموهوبة مع توابعها، كي نتناول تعبير إيليانور ماسترز سولانكا ثانية. كان من البديهي أن ينتفض أهل طبقتهن ضدَّ هذه الميتات الثلاثية، كما لو أن رصائع مطموغًا بها، أو كؤوسًا ذهبيةً أو فضيةً اختفت عن أعمدة ناديهم الخاص. كانوا يزعمون بأن جماعة سريَّة من الشبان الأغنياء والمنتشرين باسم م. م. ـ المتوحِّدون المقنَّعون ـ كانوا يفكِّرون بإقامة اجتماع عند منتصف الليل كي يرثوا صاحباتهم العظيمات المعبودات، «ماتيه» مارساليس، أندرس «فحل الخيل»، أندريسِّين ـ الذكر المتأورب لمول كاندل الذي يدير مطعمًا ـ وميدفورد (ديسكو)، صاحب لورا كلان المنحل، سيكونون على رأس الباكين. بما أن م.م. كانت جماعة سرية فإن كل أعضائها كانوا ينفون وجودها ببلاهة، ويرفضون تأييد الشائعات التي بحسبها ستبلغ طقوس الحداد ذروتها من خلال رقصات مختلطة كان المشاركون فيها، المطليون برسوم مزيَّفة، سيسبحون عراةً في شاطئ خاص. في مارثاز ڤينييارد، بعد ذلك ستقدِّم المرشَّحات إلى طبقة المتجاملات جلسة موسيقية حميمية. كانت المتوفَّيات الثلاث، وأخواتهن اللواتي ما زلن على قيد الحياة، يعكسن بذلك التعريف الذي أعطته إيليانور لديدمونة.

لقد كنَّ غلالاً وسلعًا. ومن الآن فصاعدًا فإن عطيل القاتل، سيجوب الشوارع محطِّمًا، ضمن الحالة المعنية، ما لم يكن يستطيع تملكه، لأن عدم التَّملُّك هذا كان إهانة لشرفه في هذه الرواية الألفيَّانية للمسرحية الشهيرة، لقد قتلهنَّ لا لخيانتهنَّ، بل لعدم نفعهن، أو ربَّما يكون قد حطَّمهن بكل بساطة،

---

(١) Hesperides : الآلهة الصغيرات حارسات بستان التفاح الذهبي (ميثوإغريقية).

كي يستوفي من افتقارهن إلى الإنسانية ومن هشاشتهن، من كونهن دمى تافهة. لأنهنَّ لم يكن بشرًا إلاّ من حيث الشكل، إنهن دمى عصرية، مُمَكْننة، مبرمجة آليًا، لا نماذج بسيطة لعهد مراد من جديد، بل مسوخ كاملة للكائنات البشرية.

في البدء، لم تكن الدمية شيئًا بذاته. بل تصورًا. قبل أن يصنعوا الدمى الأولى من الخروق بكثير، كانت الكائنات الإنسانية تصنع دمى تمثل المراهقين والأطفال. وكان من الخطورة أن تترك دميتك تقع بين يدي أحد سواك؛ من كان يتملكها كان يستولي على عنصر أساسي من شخصك، التجسيد النهائي لهذه الفكرة كان بالطبع الدمية الفودوية، الدمية التي كان من الممكن لأحد أن يغرزها بالدبابيس كي يطاول الشخص الذي كانت تمثله بالأذى، الدمية التي كان من الممكن أن تلوي رقبتها من أجل قتل كائن حي، ضمن مسافة، بفاعلية الطريقة التي يستخدمها طاهٍ مسلم مع فرخ دجاج. ثم جاءت صناعة الأشياء المتماثلة فقطعت الصلة بين الإنسان والدمية، فصارت الدمى نفسها لِيم بعضها بعضًا. لقد غدت استنساخات، نسخًا متوالدة، دون شخصية، موحَّدة الشكل. صار كل هذا حينئذ يتغير إلى جديد إن رصيد سولانكا المصرفي يعكس تمامًا رغبة الرجل العصري بامتلاك دمى ليست ذات شخصية فحسب، بل ذات فرادة، كأن لدى دماه ما يقال.

إنما هاكم، لقد صار بود النساء الحقيقيات أن يكنَّ دمى، وأن يتخطّين الحدود ويتشبهن باللعب. مذ ذاك أصبحت الدمية هي الأصل والمرأة هي الصورة. / هذه الدمى المتحركة/ هذه العرائس من دون خيوط، لم تكن مزوَّقة من الخارج فقط: خلف مظاهرها الفائقة التأنق، داخل هذا الجلد الشفاف جدًا حشوة من البراغيث الاستجابية المبرمجة مسبقًا إلى أقصى درجة، لقد جُمِّلت وألبست بدَلات بمهارة فائقة بحيث لم يعد فيها أي مكان للإنسانية المسوَّدة.

كانت سِيْيل، وباندي وران يمثِّلن بذلك آخر طور في تحول تاريخ الدمى الثقافي. لقد ساهمن في إزالة أنسنتهن، وتحولن إلى مجرَّد طواطم لطبقتهنَّ،

هذه الطبقة التي كانت تحكم أميركا التي كانت بدورها تحكم العالم، وبقدر ما كان التهجم ينهال عليهن، إذن، كان هذا يعني، لمن كان يعنيهم ذلك، التهجم على الإمبراطورية الأميركية العظمى وعلى السلام الأميركي نفسه.... جثة في الطريق، فكَّر سولانكا وهو يعود إلى الواقع، أشبه ما يكون بدمية محطَّمة.... أوه من سواه كان لا يزال يحمل اليوم هذا النوع من الأفكار؟ هل بقي في أميركا واحد يحمل في رأسه مفاهيم قبيحة ومغلوطة بهذا الشكل؟

إنكم استجوبتم أولئك النساء الصغيرات، أولئك الحسناوات العظيمات، والواثقات من أنفسهن، واللاتي كدَّسن الشهادات بدرجات الشرف، وكنَّ يقضين عطل أواخر الأسابيع في اليخت، أميرات عصرهن ذاك بليموجاتهن[1] الجذابة، ومآثرهن الحميدة، وحياتهن المرتجفة، وفرسانهن الرائعين المغرمين والمدجنين، الذين كانوا يتعاركون من أجل نيل الحظوة لديهن، لكنَّ أجبنكنَّ بأنهنَّ كن متحررات أكثر من أي امرأة في العالم، في أي بلد أو عهد كان، وأنهن لم يكنَّ منتميات إلى رجل أبًا كان أو عشيقًا أو قوَّادًا.

لم يكنَّ دمى لأحد، بل نساء مستقلات، لقد استغللن مظهرهن، جنسيتهن، أسرارهن: الجيل الشاب الأول من النساء الذي كان يمسك بزمام الأمور فعلاً، لسن إماء، ولا أسيرات للنظام الأبوي القديم، ولا متشيِّعات إلى النسوية المحضة المتصلبة التي هزَّت أسوار البارب البلو الأسطورية (اللحية الزرقاء). لقد كان بإمكانهن أن يكنَّ نساء أعمال، وبنات طائشات، عميقات وسطحيات، جديات ومستخفات، وأن يكن كذلك بطريقتهن. لقد كنَّ يملكن كل شيء ـ التحرر، الجاذبية الجنسية، المال ـ وكنَّ مولعات بذلك. ثم جاء أحد ليسلبهنَّ كل شيء، وهو يضربهنَّ بعنف على القذال، كانت الضربة الأولى من أجل صرعهن، والضربات الأخرى من أجل قتلهن. من قتلهنَّ إذن؟ وإذا ما كان

---

(١) حكاية لبيرولت.

التجريد من الأنسنة يهمكم فإن القاتل لم يكن إذن إلاّ الغول الذي كان عليكم أن تحوشوه. المسؤول عن سلب الأنسنة هذه، كان هو القاتل بقطعة الإسمنت، خائر القوى في البار وليس هنَّ. وأمام كأس التيكيلا، طمر البروفسور سولانكا وجهه الغارق بالدموع بيديه. كانت ساساكيا «السماء» تشويْلَرْ تعيش في شقة واجهة السقف ضمن ما كانوا يسمونه «أبشع مبنى في جادة ماديسون»، مبنى قبيح جدًا من الحجر الأزرق مقابل مخزن آرماني، ومزيته الوحيدة، بحسب قول «سماء» كانت بأن مكالمة هاتفية كانت تكفيها كي يعرضوا لها كل الفساتين في الواجهة البلورية، التي كانت تستطيع أن تتفحَّصها بواسطة المنظار. كانت تمقت شقة أهلها الوقتية القديمة تلك في مانهاتان. كان آل تشاويلر يعيشون بحرية، في محال محمي بأسوار وسط مشهد رائع بالقرب من شابا كوي في ولاية نيويورك، وكانوا ما يفتؤون يتذمرون لأن آل كلينتون قد اشتروا حديثًا منزلاً في القرية. إن «سماء» التي كانت تحب أن تطمئن أهلها، أعلن مارساليس برادلي: هيلاري لن تمكث لزمن طويل. «إن حملتْهُ على ذلك، فلسوف تذهب لتستقر في واشنطن العاصمة وفي غابة ومتنزه سينات». و«إن خسرت فلسوف تفرُّ أيضًا بأسرع ما يمكن». بغية ذلك، كانت «سماء» تريد أن تتخلص من شقة ماديسون، وأن تقيم في الحي المتفرِّع عن تريبيكا، لكنَّ المجلس النقابي كان قد رفض ثلاث مرات على التوالي الشارين الذين عرضتهم عليه. ولم تكن «سماء» تكفُّ عن الاحتجاج على المجلس: «إنه يغصُّ بالسيدات العجائز المرفلات في أنسجتهنَّ البراقة ككنبات محشوة، وكي يتسنى لكم أن تكونوا في عدادهن فلا بدَّ لكمْ أنتم أيضًا من التنكر في رياش».

من المتفق عليه أن البناية كانت تنعم أربعًا وعشرين ساعة على أربع وعشرين ساعة بوجود حارس. وبواب البناية الليلي العجوز آبي غرين، ذكر أن الآنسة تشوايلر، وفي اليوم المقصود، عادت بثيابها كأميرة، بعد سهرة تسليم الجوائز الموسيقية: «كان لمايّيه حق الدخول إلى ذلك العالم» ـ عند حوالى الساعة الواحدة والنصف، لقد تركت المسمى مارساليس مغاظًا بشكل باد للعيان أمام بيتها.

«إنه لم يكن مسرورًا، أجل هوذا. علَّق غرين واتجهت بأسى نحو المصعد. صعد غرين معها. «خسارة أنك لا تسكنين إلا في المرابع، قلت لها ذلك كي أحملها على الابتسام لأنني كنت سأسرُّ بمشاهدتك لوقت أطول».

بعد ربع ساعة استقلت المصعد ثانية.

«كل شيء على ما يرام يا آنستي؟ سألها آبي».

ـ «أوه أجل، أظنُّ ذلك. ياه، بالتأكيد يا آبي، قالت، بالتأكيد».

ثم خرجت وحدها. كانت لا تزال في فستان حفلتها الساهرة ولم تعد إطلاقًا.

عثر على جُثَّتها بعيدًا عن بيتها، بالقرب من مدخل نفق مايدتوين، التحري الذي بحث عن ساعات لوران وباندي كانديل الأخيرة، أثبت أنهما هما أيضًا قد عادتا متأخرتين، وأنهما لم تدعا عشيقهما يصعد، ثم إنهما قد أُخرجتا بعد وقت قصير. كما لو أن تلك الفتيات قد زهدن بالحياة وذهبن إلى موعدهن مع الموت.

لم يُسْرقْ أي شيء من ساسكيا أو من لوران أو بيلاندا، لا خواتمهن ولا أقراطهن ولا أساورهن، لم يكن بالمستطاع اكتشاف دافع القتلة إلى القتل، لكنَّ الصديقات الثلاث تحدَّثن عن عسَّاس عرضي. في الأيام الثلاثة التي سبقت موتهن، كانت المرحومات قد أشرن إلى ذلك، وجود مجهول يعتمر قبعة القش، كان «يتخفى بشكل يدعو إلى الاستغراب».

«من الممكن أن نقول إن «سماء» قد أُعدمت؛ أدلىَ بذلك مارساليس المكتئب وهو يدخن السيجار، أثناء لقاء صحافي معه في ملحق ڤاينيَّارد هاڤن. لكأن أحدًا حكم عليها بالإعدام ونفذ ذلك ببرودة أعصاب».

[6]

نبأ رحيل سولانكا المفاجئ، خلق ما يشبه ذبذبة في حلقة أصدقائها. كل زواج يتحطَّم هو بمثابة اختبار لهؤلاء الصامدين. كان مليك سولانكا مدركًا أنه قد فجر في هذه المدينة ردَّة فعل تجلت في سلسلة من الأسئلة، أسئلة سرية وبيِّنة تدور حول ساعة تناول الفطور، في غرف النوم، وفي مدن أخرى أيضًا: هل هنالك خلاص من ذلك؟ أجل، إنما كيف؟ هل هنالك أشياء لم تقوليها لي؟ هل سأصحو يومًا لأسمعك تقولين لي خدعة ستجعلني أحسب أني تقاسمت السرير مع غريب؟

كيف يمكن للغد أن يصوِّب الماضي، كيف للأسبوع القادم أن ينسف الخمس، العشر، الخمس عشرة سنة الماضية؟ هل أنت ضجرة؟ هل هي غلطتي؟ هل أنت ضجر؟ هل أنت أضعف مما كنت أتصوَّر؟ هل هو؟ هل هي؟ هل الجنس؟ الأولاد؟ هل تريد أن نرأب كل هذا؟ هل هنالك شيء علينا أن نرأبه؟ أما زلت تحبني؟ وأنا، تبًّا، أما أزال أحبك؟

هذه الهموم التي كان أصدقاؤه يعتبرونه مسؤولاً عنها بشكل لا مفر منه كانت تعاوده على شكل أصداء. على الرغم من تحذير سولانكا الشديد، فإن إيليانور كانت تعطي رقم هاتفه في مانهاتان إلى كل من يطلبه كائنًا من كان. كان الرجال يشعرون بأنفسهم مضطرين، أكثر من النساء إلى الاتصال به كي ينتقدوه. كان مورغان فرانز الناشر البوذي لحقبة ما بعد الهيبية والذي كانت إيليانور معاونته قديمًا، أول من اتصل به. كان مورغان كاليفورنيًا وتجنَّب الواقع الأميركي بأن

استقر في بلومسبيوري. إنما دون أن يتوصل إطلاقًا إلى التخلص من لكنته لكنة هيفت ـ آشبيوري الفاترة.

«إن هذا لم يسرَّني أبدًا، صرَّح على الهاتف إلى مليك، وهو يبالغ في مط حروفه الصوتية كي يشدِّد على التعبير عن استيائه، كما أنني زيادة على هذا، لا أعرف أحدًا يسره ذلك، إني أجهل لماذا أقدمت على ما أقدمت عليه يا رفيقي ونظرًا إلى أنك لست أبله ولا وغدًا، فإني أفترض أن لك أسبابك أليس كذلك؟ لا بدَّ أنها أسباب مقنعة بالتأكيد، إني لا أشك بذلك، في نهاية الأمر ماذا تريدني أن أقول لك، إني أحبك هل تعرف ذلك؟ أحبكما أنتما الاثنين، أما بالنسبة للخطة، فلا يسعني إلا أن أقول لك إني أحسُّ بكثير من الغضب تجاهك». كان سولانكا يتخيل جيدًا الوجه المتأرجن لصديقه الملتحي، وعينيه الغائرتين وهما ترفَّان من السخط.

كان فرانز يتمتع بعفوية أسطورية، ـ «ليست هناك أكثر برودة من مورغان» ـ كانت هذه هي لازمته ـ لذا فقد كان هذا الغضب العنيف مدهشًا. لكنَّ سولانكا حافظ على هدوئه، ولم يتردَّد بأن يكشف له وبطريقة صادقة وباتّة عن مشاعره «منذ ستة أو سبعة، أو ثمانية أعوام، ولين تقضي وقتها في الاتصال بإيليانور وهي تذرف الدموع لأنك كنت ترفض أن تمنحها طفلاً، وماذا تعلم أنت؟ لقد كانت لك أسبابك، كان لا بدَّ لك من أن تعيش دائمًا مع خيبتك العميقة بالجنس البشري، وإنك بشأن الأطفال، قد آثرت الحل المستنكف. وأنا أيضًا، يا مورغان، قد شعرت في تلك الآونة بحنق شديد تجاهك. كنت أرى لين ترتدُّ إلى القطط من أجل التعويض عن طفل، وإن هذا لم يكن يسرُّني، وأنت ماذا تدري؟ إني لم أتصل بك إطلاقًا كي أوبخك وكي أسألك ما هو حكمُ المذهب البوذي تجاه هذا الموضوع لأنني كنت أحدِّث نفسي بأن لا شأن لي بما يحصل بينك وبين زوجتك، وأنها كانت حياتك الخاصة طالما أنك لم تكن تذيعها، أو على أية حال طالما أنه لم يكن في هذا إلاَّ أنك حطَّمت معنوياتها فقط، وليس

عظامها، أرجو أن تسعدني بأن تحسِّن ما بحالك، فبإمكاني أن أدينك مثلما تدينني، وإنها على أية حال شؤوني الخاصة.

وكانت بذلك نهاية صداقتهما القديمة، ثمانية أو ربما تسعة أعياد ميلاد قضياها عند بعضهما بعضًا بالتناوب، إنها نهاية السكر السوقي، الألغاز، المحبة، اتصلت به لين صباح الغد، لتقول له إن أقواله لا تغتفر.

«اعلم، أرجوك، أضافت بصوتها الفيتنامي ـ الأميركي الرَّقيق والمنمَّق جدًا، إنك لم تعمل بهجرك إيليانور، إلا على التقريب بيننا، مورغان وأنا. إيليانور قويّة، وستستأنف سريعًا تنظيم حياتها عندما ستسلِّم بحرمانها منك. سنستمر كلنا بدونك، أنت من ستندم على استبعادنا في حياتك يا مليك، أنا حزينة من أجلك».

إنه لمن المستحيل للمرء أن يفضي أو أن يفسِّر حتى إلى أحد ما يعني أن يكون قد لوَّح بسكينه فوق زوجته وابنه النائمين. هكذا سكين جريمة هي شرٌّ من جريمة تقوم على الاستعاضة عن طفل يثغثغ بسنُّور ذي شعر طويل. لم يكن بمقدور سولانكا أن يشرح كيفية وسبب هذا التصرف المبهم المرعب.

«هل هو سكين ما أراه هنا، وُجِّهت قبضته نحو يدي؟ لقد ألفى نفسه هناك، كما مكبث، ووجد السلاح أيضًا هناك، من المستحيل أن ينساه أو أن يمحوه من الشريط وحقيقةُ أنه لم يغرز السلاح في قلبيهما لم تكن تجعل منه بريئًا. فالتلويح بالسكين بهذا الشكل، والتماسك هذا كان أكثر من قرار. مجرم، مجرم!

طالما كان يتفوَّه بألفاظ قطيعته القاسية عبر الهاتف مع صديقه القديم كان يحس بريائه، ويتقبل بلا تذمر عتاب لين. كان قد تخلَّى عن كل حقوقه في الاحتجاج، يوم مرَّ بإبهامه في العتمة على طول الشفرة، التي كان يتفحص حدَّة قطعها. لقد صار السكين مذ ذاك قصته، فجاء إلى أميركا كي يكتبها.

لا! بل يائسًا، كي يمحوها. ليس من أجل أن تكون، بل كي لا تكون. لقد فرَّ إلى وطن الإبداع العفوي، وطن مارك تشايْووكر الإعلاني جودي ذي

الحمَّالات الحمر، الوطن الذي كانت روايته المعاصرة والنموذجية هي رواية إنسان كان يعيد خلق ذاته ـ هو، ماضيه، قمصانه واسمه جنى ـ بدافع الحب؛ وهنا في هذا البلد لم يكن متمكِّنًا من أساطيره أبدًا، كان ينوي أن ينتقل إلى الطور الأول لتغير البنية بسواها، أي أنه صار يطبق على نفسه مذ ذاك المصوَّرات المتجانسة التقنية التي لجأ إليها بمنتهى القسوة مع النساء المتوفيات ـ «الإلغاء القطعي» للمنهج القديم. في مكان ما في السجل الحالي كانت تستتر علة. آفة قاتلة بالكمون. سيكون لا بدَّ من المباشرة في تهديم الأنا فعلاً. وإذا ما توصل إلى تنظيف الجسم كله فإنه سيكون من الممكن للعلّة نفسها أن تؤول إلى السلَّة. بعد هذا، ربما سيفكّر ببناء إنسان جديد. كان يدرك بذلك أن المسألة كانت مسألة طموح عجيب غير قابل للتحقيق إذا ما اتُّخذ على محمل الجد، بالمعنى الحرفي وليس بالمعنى المجازي للكلمة. بيد أنه كان يفكر في ذلك بمعناه الحرفي بالبلاهة التي بدا ذلك عليها. فأي حل آخر، علاوة على ذلك كان لديه الاعترافات، الخوف، الافتراق، الشرطة، المنفى، عار الطلاق، السجن؟ كان يبدو أن لا مفرّ من ذلك السلَّم الذي يودي إلى الجحيم. والحال كذلك فإن أسوأ جحيم هو الذي خلَّفه وراءه: لقد كان الشفرة الحامية التي حطَّمت نفس ابنه إلى الأبد. كان قد اكتسب في تلك اللحظة المأسوية اطمئنانًا شبه ديني، في القدرة على الهرب، الهرب سينقذ الآخرين منه ويخلِّصه هو من الهلاك، سيذهب إلى حيث لا يعرفه أحد، وسيغرق في ذلك المجهول. ذكرى بومباي ـ الـ محرَّمة ـ خطرت في باله فجأة ذكرى يوم من عام ١٩٥٥ الذي صار فيه السيد ڤانكات ـ الصيرفي الكبير الذي كان ابنه شاندرا أعزُّ صديق لمليك ـ سانيازا، لقد هجر عائلته إلى الأبد، عندما أتم الستين. وقد ارتدى وزرة كوزرة غاندي، متزوِّدًا بهراوة خشب ووعاء للتسول.

كان مليك لا يزال يقدِّر السيد ڤانكات الذي كان يعاكسه وهو يطلب منه أن يلفظ وبشكل سريع اسمه المتعدِّد المقاطع والمتدرِّج، بالهندية الجنوبية: بالاسوبرامانيام ڤانكاتراڤان.

«هيا يا بني، أسرع، كان يحثُّ مليكًا، بينما كانت لغة هذا الصغير تتعثر عند المقاطع، ألا تودُّ أن تحمل اسمًا ساحرًا كهذا؟».

كان مليك سولانكا يسكن في الطابق الثاني من مبنى يدعى نورڤيل في ميتوولز إيستات ليس بعيدًا عن وردان رود. وكان آل ڤانكات يشغلون الشقة المقابلة في ذات الطابق، وتظهر عليهم كل أمارات الأسرة السعيدة. حالة كان مليك يشتهيها كثيرًا. في ذلك اليوم تُرِكَ بابا الشقَّتين مفتوحين. كان الأولاد متراصين بتكدُّر حول الراشدين المضنين بينما كان السيد ڤانكات يخرج إلى الأبد من حياته الماضية. من داخل شقة آل ڤانكات كان يتعالى صوت عجوز. ٧٨ برجًا متداعيًا: أغنية «الآنك بوتس»، الفرقة المفضّلة لدى السيد ڤانكات. مشهد السيدة ڤانكات وهي تنتحب على كتف أمها تألّم له مليك من أعماقه.

وبينما كان الصيرفي يختفي، صرخ له مليك فجأة:

بالاسوبرامانيام ڤانكاتراڤان!».

ثم أخذ يردِّد ذلك بشكل أسرع وأقوى إلى أن لم يعد في هذا إلاَّ غمغمة صارخة بالاسوبرامانيام ڤانكاتراڤان، بالاسوبرامانيام ڤانكاتراڤان، بالاسوبرامانيام ڤانكا تراڤان، بالاسوبرامانيام ڤانكاتراڤان، بالاسوبرامانيام ڤانكاتراڤان، بالاسوبرامانيام ڤانكاتراڤان، بالاسوبرامانيام ڤانكاتراڤان، وبهيئة وقور، توقف الصيرفي، كان رجلاً قصيرًا، وجهه مزوَّى، وعيناه مشعَّتان. «أحسنت اللفظ، وسرعتك مدهشة أيضًا، قال: ولأنك كرَّرت بذلك خمس مرات دون أن تخطئ، فسوف أجيبك عن خمسة أسئلة، إن كان بودِّك أن تطرحها عليَّ».

ـ «أين أنت راحل؟ إني راحل التماسًا للمعرفة، وإذا أمكن للسلام».

ـ لماذا لم ترتدِ بدلتك؟ «لأنني تركت عملي».

ـ لماذا تبكي السيدة ڤانكات؟ «عليها تطرح هذا السؤال».

ـ متى ستعود؟ «هذا الرحيل يا مليك، رحيل بلا عودة».

ـ وشاندرا؟ «سيفهم ذات يوم».

ـ ألن تفكِّر بنا بعد؟ «إنه السؤال السادس. لقد تجاوزت ما يحق لك. كن مهذبًا يا بني، لتكن رفيقًا صالحًا لصديقك».

بعد أن هبط السيد ڤانكات الهضبة حاولت أمه أن تشرح له فلسفة «سانيازا، هذا القرار الذي اتخذه رجل زهد بكل المنافع الدنيوية والعلاقات الإنسانية للانقطاع عن الدنيا، من أجل الاقتراب من الإلهي قبل أن تأذن ساعة الرحيل».

كان السيد ڤانكات قد رتَّب أموره جيدًا، لن تكون عائلته بحاجة إلى شيء. لكنه لن يعود أبدًا لم يفهم مليك معظم الأمور التي شرحت له، لكنه فهم جيدًا ما كان يقصده شاندرا، عندما كسر فيما بعد، في ذلك اليوم نفسه، أسطوانات فرقة آلانك بورتس التي كانت في حوزة والده. «إني أكره المعرفة! والهدوء أيضًا. فعلاً إني أكره الهدوء كثيرًا!».

عندما يقلِّد كافر قرارات المؤمنين فإن النتيجة توشك أن تصبح مبتذلة وخرقاء في الوقت نفسه. لم يلبس البروفسور مليك سولانكا مئزرًا، ولم يأخذ وعاء التسوُّل، وبدلاً من أن يفوِّض أمره إلى مصادفات الطريقة وحسنة الغرباء، فقد ذهب إلى نيويورك بصفته رجل أعمال، باختصار، لقد أقام في فندق لويل Lowell الباذخ، اتصل بسمسار عقاري وسريعًا حصل على فرصته، ووُفق بشقة استأجرها إيجار الباطن في سيدويست، وعوضًا عن الذهاب إلى مانوس أليس سبرينغس، أو ڤالاديڤوستوك، فإنه حطَّ على أرض مدينة لم يكن غريبًا فيها تمامًا، ولم تكن بالنسبة له مجهولة كليًا، كان يجيد لغتها، ويعرف طبائع أهلها. لقد تصرَّف دون تفكير وقد ألفى نفسه يربط حزام كرسي في طائرة قبل أن يطرح على نفسه حتى أدنى سؤال. ثم تقبَّل ذلك القرار الناقص والمحرِّض وهو يلج الطريق التي كانت تجره قدماه عليها بشكل تلقائي، دون أن يناقش نفسه في ذلك.

سانيازا في نيويورك، سانيازا بمسكن رائع من طابقين، وبطاقة اعتماد. إن في هذا بذاته تناقضًا، وعلى الرغم من طبيعة المفارقة فإنه كان سيلاحق هدفه. هو أيضًا كان ينشد الطمأنينة والسلام. كان لا بدَّ له من أن يرفث أناه الماضية، وأن يدفنها إلى الأبد. لا يحق لهذه الأنا أن تُبعث من مدفنها كشبح يتشفع له هذه الأيام. إنما لا يمكن للمرء أن يتأمل فيما هو وراء الإخفاق إذا كان لا يزال يبحث عن النجاح. فجايْ غاتسبي، الفذين الأفذاذ قد انتهى هو أيضًا إلى الإخفاق في نهاية المطاف؛ لكنه قبل أن ينهرس، كان قد عاش حياة أميركية نموذجية، استثنائية، رخيَّة وذهبية. استيقظ في سريره ـ كان بكامل لباسه، أنفاسه تعبق بالكحول ـ دون أن يدري كيف ومتى وصل إلى هناك استولى الخوف عليه، ليلة غامضة أخرى، متطفلون على شريط الفيديو.

إنما كما في المرات السابقة، لم يكن هناك دم على يديه أو على ثيابه، ما من سلاح خفيٍّ معه، ولا قطعة من الإسمنت حتى. انتصب مترنِّحًا، أمسك بجهاز التحكم عن بعد، وأفلح في رؤية نهاية الجريدة المتلفزة. لم يكونوا يتحدثون عن قاتل بالإسمنت، ولا عن الرجل ذي القبعة القش، ولا عن وريثة حسناء مغتالة، ولا عن دمية مهشَّمة. خرَّ ثانية في سريره. لاهثًا، سريع الأنفاس، ثم خلع حذاءه الذي انتعله في المدينة، وشدَّ الغطاء على رأسه، مفعمًا بتحفز مبرح. لقد تذكر هذا الخوف. فمنذ زمن بعيد، وفي مهجع الكامبردج، كان قد عجز عن النهوض وعن مواجهة حياته كطالب مرة أخرى، كان الذعر وأبالسته ينقضون عليه من كل الجهات، كان مثلومًا من الأبالسة، يسمع أجنحتها تصفِّق قربه كأجنحة الخفافيش، ويشعر بمخالبها المؤذية تنقفل على عرقوبيه كي تجرَّه إلى قاع هذا الجحيم الذي لم يكن يؤمن به، والذي كان ما يني ينبثق في أقواله وفي عواطفه، وفي هذا الجزء الذي يفلت من رقابته. هذا الجزء المتنامي منه والذي صار مجنونًا، ينزلق من بين يديه الواهنتين. . .

أين يكون كريستوف واترفورد ـ واجدًا عندما يكون بحاجة إليه؟ هيَّا تعال يا

غودول، أطرق الباب، وجرَّني بعيدًا عن شفا هذه الهاوية الفاغرة، لكنَّ غودول لم يكن لينزل على الأرض تحرسه الملائكة.

ليس هذا، فكَّر سولانكا باضطراب، إنه لم يقطع كل هذا الدرب كي يصل إلى ذلك، لا لهذه المشجاة مشجاة جيكل وهايد، لا لهذه الساغا[1] التي تدعو إلى الرِّثاء. ما من أثر قوطي كان يظهر على طراز هندسة بناء حياته، ولا لعالم مجنون، ولا معوَّجة تجيش بالغليان، ولشراب المحبة الشيطاني الذي يمسخكم. لكنه الخوف، الرعب الفظيع الذي لم يكن يفارقه. اندسَّ تحت غطائه أكثر. كان يشمُّ رائحة الطريق على ثيابه. لم يكن هناك أي مَعْلَم يربطه بالجريمة. إنه لا يشكل هدفًا لأي تحرٍّ. كم هناك من الرِّجال الذين يعتمرون قبعات القش صيفًا في مانهاتان؟ مئات، على الأقل؟ لماذا كان يتعذب إذن؟ بسبب السكين. فالسكين جعل كل هذا ممكنًا، ومن ثم فقد كانت هنالك ظروف: ثلاث ليالٍ أفلتت من ذكر ثلاث نساء مغتالات. كان هذا التزامن يتطلب الصمت القهري الذي كان يتطلبه السكين في الظلام. إنما لم يستطع أن يتصرف كما لو أن ذلك لم يكن. كانت هناك أيضًا تلك السبحة من الكلام البذيء التي لفظت دون علمه في ملهى موزارت. لم يكن هذا كافيًا كي تجرّمه محكمة، لكنَّه كان هو قاضي نفسه وكانت هيئة المحلفين في مداولة. شكل رقمًا وهو كدر النظر، وانتظر كي يفرغ المجيب الآلي من مقدِّماته التي لا تنتهي كي يستطيع الاستماع إلى رسائله. لديك واحدة! ـ رسالة جديدة ـ رسالة جديدة.

رنَّ عندئذ صوت إيليانور. هذا الصوت الذي وقع في حبه منذ زمن بعيد.

«مليك، أنت تقول بأنك تريد أن تنسى نفسك. أظن أن هذا قد حصل آنفًا. تقول إنك لا تريد أن تبقى عبد غضبك. أظن أنه لم يسبق للغضب أن سيطر

---

(١) الساغا: حكاية تاريخية أو ميثولوجية من الأدب الإسكندنافي.

عليك بهذا القدر أبدًا. وإذا أنت نسيتني فأنا أتذكرك. أتذكرك قبل أن تذر هذه الدمية حياتك وحياتي في الريح. كنت سابقًا تهتم بكل شيء. كنت أعشق هذا. كنت مبتهجًا وكنت تغني غناء رديئًا بشكل رهيب، وتنتحل أصواتًا مضحكة. لقد علمتني أن أحب لعبة الكريكت. أريد أن يحبها أسمعان أيضًا. أتذكر رغبتك في أن نعرف في كل واحد جانبه الأفضل، وأن تجابه الأسوأ دون خداع. أتذكر حبك للحياة، حبك لابنك ولي، أنت هجرتنا، أما نحن، فإننا لم نهجرك، ارجع يا حبيبي، أرجوك عد إلى البيت».

كلمات بسيطة، شجاعة مؤثرة، لكنَّ الفجوة الكاملة كانت لا تزال هناك. متى تحدَّث إلى إيليانور عن الغضب والنسيان؟ هل من الممكن أن يكون قد عاد ثملاً وأراد أن يفصح عن نفسه. ربَّما يكون قد ترك لها رسالة. وكان هذا جوابها عليها. وهي، كما دائمًا، كانت تسمع أكثر ممَّا كان يقول بكثير. لقد كانت تسمع خوفه. نهض مجهدًا، خلع ثيابه وخلد إلى النوم. كان يحضِّر قهوته عندما لاحظ أن الشقة كانت خاوية، لا سيَّما وأنه يوم من الأيام التي أتى فيها ويسلاوا لتقوم بأعمال المنزل. لماذا لم تكن هناك؟ شكَّل سولانكا رقمها. «نعم»؟ كان هذا صوتها فعلاً.

«ويسلاوا؟ قال: معك البروفسور سولانكا. ألم يكن عليك المجيء للعمل اليوم؟».

خيّم صمت طويل.

«أيها الأستاذ، أنت طردتني، طردتني، لماذا؟ لا لشيء، بالتأكيد أن تذكر، وكلماتك، لم يسبق لي في حياتي أن سمعت هذه الكلمات عند شخصيَّة راقية. لذلك فقد انتهى هذا بالنسبة لي. حتى الآن وأنت تهتف لي. أنا لا أستطيع المجيء».

أحد كان يتكلم بالقرب منها، صوت أنثوي، ويسلاوا تماسكت من جديد وأضافت بعزم شديد: «لكنَّ راتبي منصوص عنه في عقدك. وبما أنك طردتني

ظلمًا فإنني سأستمر في قبض المال. لقد تحدَّثت إلى مالكي البيت وهم متَّفقون معي. هم أنفسهم سيتحدثون قريبًا معك. أنت تعلم، أنا أعمل منذ أمد بعيد لدى السيدة جايْ».

أعاد مليك سمَّاعة الهاتف إلى مكانها، دون أن يقول شيئًا.

أنتِ مطرودة. كما لو كان هذا في فيلم. إنه الكاردينال بثوبه الأحمر، ينزل الدَّرجات المذهَّبة كي ينقل رسالة وداع البابا. السائق امرأة تنتظر في سيارتها الصغيرة، وعندما انحنى الرسول الظالم على نافذتها، كان له وجه سولانكا.

لقد رُشَّت المدينة بمبيد الطفيليات الآناڤيل. بضعة طيور قادمة من إيزلانداستاتان قد صُرعت بالفيروس الذي يدعى النيل الغربي، وهو نوع من التهاب الدِّماغ، ولم يكن العمدة يريد أن يعرِّض الناس للخطر. كلهم كانوا متيقظين:

خطر، البعوض! ابقوا في منازلكم مساءً. البسوا أكمامًا طويلة! وأثناء الرَّش أغلقوا النوافذ، وأقفلوا المكيِّفات!

أيَّة راديكالية في التدخل، على الرغم من أن أي كائن إنساني لم يصب بالمرض منذ بداية الألفية الجديدة. (بعد ذلك، أشاروا إلى بضع حالات، لكن ما من دمية واحدة) جَبُنَ الأميركيون أمام المجهول، هذا التعويض الذي كان لا يزال يثير ضحك الأوروبيين «سيارة تحدث اليوم فرقعة في باريس، كانت تود أن تقول إيليانور سولانكا ـ إيليانور الكائن البشري الأقل شرًّا في العالم وفي الغد ملايين من الأميركيين يلغون عطلهم».

كان سولانكا قد نسي قصة مبيد الطفيليات هذه، ومشى ساعات تحت وابل المطر هذا المسمَّم بشكل غير ملموس. لقد أوشك أن يعزو فقدان ذاكرته الموقت إلى المستحضر الكيماوي، أصيب مرضى الربو بتشنُّجات، وزعموا أن سرطانات البحر كانت تموت بالآلاف، وكان علماء البيئة قد اجتهدوا رئاتهم من فرط الكلام والصراخ.

لماذا ليس هو؟ لكنَّ شرفه الفطري كان يمنعه من الاستهزاء بذلك العلاج. فمصدر تلك المشاكل كان بالتأكيد من منشأ حيوي لا كيماوي.

إن كان هذا ما سمعتِه يا عزيزتي ويسلاوا، فلا بدَّ له إذن من أن يكون صحيحًا.

لكنَّك تعلمين أني لا أعي...

جوانب من سلوكه كانت تفلت بأسرها من رقابته. ولو أنه ذهب لاستشارة اختصاصي لكان التشخيص دون شك بأنه نوع من إيماء «لو كان رينيهارت مكان برونيسلاوا، لعاد فرحًا من التشخيص. ثم لعثر على أحد يجره إلى العدالة».

لقد تجلَّت له رؤيا بأن انهيارًا (إعياء! اكتئابًا) «هو بالتحديد ما كان يبحث عنه كل هذا الوقت. كل هذا الهذيان كان ناتجًا عن إعياء ذاته»! أمَّا وقد كفَّت بعض حلقاته المتسلسلة تاريخيًا عن الاتصال فيما بينها ـ أمَّا وقد صار مفككًا أو بحصر المعنى ضمن الزمن فلماذا كان مصدومًا؟ انتبه إلى ما ترغبه يا مليك، تذكر أقصوصة و.و. جاكوب. قصة قائمة القرد. لقد جاء إلى نيويورك كما المسَّاح في رواية قصر كافكا: في التهافت، في التطرُّف، فريسة لأمل غير قابل للتحقيق. لقد وجد لنفسه مأوىً مريحًا أكثر من مأوى المسَّاح الفقير بكثير، منذ ذاك أخذ يجوب الشوارع ممنيًّا نفسه بأن البلد[1] الأصلي سيشفيه ربما! هو طفل المدائن. ليته فقط يتوصَّل إلى لقاء قلبه السحري، قلبه المحجوب والهجين. سقط هذا الاقتراح الخيالي للمجموعة[2] الاتصالية حوله: كانت الأمور تظهر خاضعة للمنطق، حسب قوانين الاحتمال والانسجام الداخلي العميق للحياة المدنية، في حين أن كل شيء لم يكن إلاَّ لغزًا في واقع الأمر. لكنه ربما لم يكن الوحيد، الذي كان عليه أن يرى شخصيَّته تتقصَّف في الهزيمة، خلف

---

(١) الدولة بالنسبة لمستعمراتها.

(٢) مجموعة عناصر متجانسة في الميسور الانتقال باستمرار من واحدة إلى آخر فيها.

واجهة هذا العصر الذهبي، عصر الرَّخاء، كانت تناقضات وإنهاكات الغربي، أو لنقل الشخص الإنساني في أميركا، تشتد وتتفاقم. ربَّما كان هذا التفتيت الهائل ملموسًا في مدينة المجوهرات الثمينة والأرمدة الخفية، في عصر المُتعيَّة هذا والخوف الفردي.

ثمة تغيير في الوجهة كان ضروريًا، فالقصة التي وضعت بدايتها، لم تكن إطلاقًا القصة التي بُدِئ فيها. أجل سيبدأ حياته من الصفر. سيلحم مزلاجاته الأنوية. هذه التغيرات في داخله، والتي كان يبحث عنها، سيتحدَّاها بنفسه. لقد انتهى الحيدان الذي يبعث على الغثيان. كيف استطاع أن يقنع نفسه بأنه كان من الممكن لذلك المرسى أن ينقذه.

من غوثام هذه، حيث فيها كان جوكرز، وبانغوانز يسارعان من دون باتمان، «أو من دون روبن حتى»، كي يحبطا مشاريعهم، هذه الحاضرة المبنيَّة في كريتونيت، التي لم يكن يتجرَّأ أي سوبرمان أن يطأها، حيث أُوقع الثراء في يد هؤلاء الذين كانوا يستأثرون به، وبمتعة التلذُّذ بالسعادة إذ كان الناس يعيشون أنماط حياة منعَّمة، بحيث إن الحقائق الخشنة للوجود الخشن قد صارت صقيلة ومزيَّنة، وهامت الأرواح البشرية لزمن طويل جدًا في أطول عزلة: بحيث يكون من الإنصاف بذلك، أن تستطيع ملامسة ذاتها أيضًا. هذه المدينة التي كانت الكهرباء الأسطورية فيها تغذي حواجز الكهرباء التي رفعوها بين الرِّجال، بل بين الرجال والنساء أيضًا؟ لم يكن سقوط روما يرجع إلى ضعف جيوشها، إنما إلى أن الرومان قد نسوا ما كان يعنيه أن يكون المرء رومانيًا. أليس جائزًا أن روما الجديدة تلك كانت أكثر قروية من ضواحيها، وأن هؤلاء الرومان الجدد قد أهملوا ما كان يجدر أن يقيموا له اعتبارًا وعلى أي نحو؟ أكانت كل الإمبراطوريات على ذات القدر من عدم الجدارة أم هذه لم تشذب جيدًا بشكل خاص؟ ألم يكن هناك شخص بعد، وسط هذه الفعالية المضطربة، وهذا الامتلاء المادي، يعنى بسبر القلب والعقل؟

يا أميركا الحلم، أكان لا بدَّ للبحث عن الحضارة من أن ينتهي إلى الزّبالة والتفاهات، عند روي روجرز، وبلاتيت هوليوود، مع ولايات أميركا اليوم، المتحدة العظيمة، في جشع الألعاب المتلفزة أو في التَّلصُّصية يومًا إثر يوم، أو في كرسي اعتراف ريكي وأوبراه، وجيري الأبدي، التي يتذابح ضيوفها بعد البرنامج؛ أو في رجيع كوميديات خرقاء مصمَّمة من أجل حضور من المراهقين الذين كانت ضحكاتهم القميئة والهوجاء تثب إلى الشاشة الفضية؛ أو على موائد ڤونجيريشتان وجان جورج، وآلان دوكاس الصعبة المنال؟ ماذا حلَّ بذلك البحث عن المفاتيح السِّرية التي كانت تفتح أبواب المجد؟ من هدَّم مقرَّ السلطة كي يستعاض عنه بصفٍّ من الكراسي الكهربائية، آلات الموت الديموقراطية التي كان من الممكن لكل من كانوا فيها، أبرياء ومجرمين ومتخلِّفين عقليًا أن يموتوا بجانب بعضهم بعضًا؟ من بلَّط الفردوس كي يقيم عليه موقفًا للسيارات؟ من صوَّت لصالح جورج بوش وآل غور ـ تكس؟ من أخرج شارلتون هيوستن من قفصه، ثم تساءل لماذا غلمان عملوا على قتل أنفسهم؟ لوغريل يا أميركا؟ أنتم أيها الغاليدس اليانكيِّين[١]، اللانسُلُوْتس السُّوديسْت[٢] يا مغنيّ وممثِّلي المذابح الشعائرية، الشاعرية ماذا فعلتم بالطاولة المستديرة؟ لقد شعر باضطراب يتصاعد داخله، ولم يفعل أي شيء لطرده. أجل لقد فتنته أميركا؛ أجل هيَّجه ألقها، كما سلطتها العارمة، والآن لقد صار في خطر وكان لا بدَّ لما كان قاومه عندها، من أن يقاومه في داخله أيضًا. لقد لجأ إلى اشتهاء ما كانت تَعِدُ به ولا تعطيه أبدًا: كل العالم صار اليوم أميركيًا، أو مؤمركًا على الأقل: الهنود، الإيرانيون، الأوزبكستانيون، اليابانيون والليليبيانيون جميعهم. أميركا كانت

(١) Yankees: اسم أعطاه الإنجليز للسكان المهاجرين الثائرين، ثم أطلقه أنصار الولايات الجنوبية على أنصار الولايات الشمالية ثم أطلق على السكان الأنغلوساكسونيين في الولايات المتحدة.

(٢) Sudiste: أنصار الولايات الجنوبية في حرب الانفصال ١٨٦١ ـ ١٨٦٥.

حلبة ألعاب العالم، قانونه، حكمه، وكرته. حتى معاداة الأمركة، كانت أمركة مقنَّعة، لأنها كانت تعترف بأن أميركا كانت المباراة الوحيدة المعلن عنها، وأن المسألة الأميركية هي القضية الوحيدة الجارية. وككل إنسان إذن؛ فقد شق طريقه وقد ركَّز عَمْرته كمتوسل جثا أمام مأدبة، لكنَّ هذا لا يعني أنه كان عاجزًا عن النظر في عينيها.

كان آرثر قد أخفق، وإيسكاليبر قد أُهلك، ومورد ريد المخيف كان ملكًا. وعلى عرش كاملوت كانت تجلس ملكته مُرجان.

كان البروفسور سولانكا فخورًا بمهارته العملية. حاذقًا كان يعرف كيف يرفأ ثيابه بيديه، ويكوي قميص السهرة. فعندما بدأ بصناعة دُماه الفلسفية تمامًا، كان قد عمل لبعض الوقت عند خياط في كامبردج كي يستطيع أن يصنع بنفسه الملابس التي سترتديها تلك الأقزام المعدومة الذكاء الدِّماغي، ولباس الدمية سِرْڤليت الرسمي المفرَّغ أيضًا. فمع ويسلاوا أو مندونها كان يستطيع إدارة المنزل. وفي المستقبل سيطبِّق مبادئه المنزلية على حياته الداخلية.

دلف إلى الشارع ٧٠ وعلى كتفه كيس غسيل المقصرة الصينيَّة البنفسجي. لدى وصوله إلى جادة كولومبوس سمع فجأة هذا المونولوج:

«هل تتذكر زوجتي السابقة إرأن، أُم تيْس، ياه، الممثلة. لا سيما أنها تحوم حول الحانات في هذه اللحظة. وأنت تعرف ذلك؟ إننا نلتقي بشكل غريب أليس كذلك؟ بعد أن كنت اعتبرتها كعدوَّة خلال سنتين، ثم كانت لي معها وخلال خمس سنوات أخرى علاقات أقلَّ معاناة لكنها مع ذلك سيئة بدأت أطلب منها المجيء إلى عندي مع تيْس. تفضل تيْس أن تكون أمها موجودة. وهاك ذات مساء. . . ياه لقد تمَّت بذلك الخطة فعلاً و«هاك ذات مساء». وفي لحظة نهضت، ومضيت أجلس على الكنبة بجانبها، بدلاً من البقاء في كنبتي المعتادة في الطرف الآخر من الحجرة. أنت تعلم، شهوتي لها لم تكن تلاشت بعد، لقد كانت متوارية تحت كثير من الخدع الأخرى، تحت ثلاثة

أطنان من الغلّ كي أقو لك كل شيء، وفجأة فاضت هذه الشهوة. بم! تلاطم أمواج حقيقي، وكي أكون صادقًا، من ذلك كان قد تراكم الكثير خلال السنوات الأربع هذه، أقصد من الرغبة، وربما أن الغلَّ قد شحذها قليلاً. فجأة صارت أقوى من ذي قبل بشكل لا يمكن للعقل أن تصوّره. إنما حسن، هاك الخطة. أدركتها في الكنبة، وحصل ما حصل. بعد هذا قالت لي: «أتعرف عندما اقتربت مني، لم أكن أعرف إن كنت ستضربني أم ستعانقني».

«أظن أنني، أنا أيضًا لم أكن أعلم ذلك جيدًا».

الرجل عبَّر عن فكرته للتو بشيء من التحفظ، كان متخلِّعًا في مشيته، وشعره الأجعد أشبه ما يكون شكل المنشور السنوي، أربعينيًا، وكان ينزه كلبًا مبرقعًا. لقد استغرق سولانكا لحظة كي يرى أُذينة الهاتف عبر طفاوة الشعر الأحمر. في هذه الأيام. نحن جميعًا ـ فكَّر سولانكا ـ أشبه ما نكون بهؤلاء السكيرين، أو هؤلاء البلهاء الذين يفشون أسراهم في كل جهات العالم وهم يتسكَّعون. كان أمامه المثال المدهش لهذا الواقع المعاصر المفكَّك الذي كان يشغل تفكيره، حيلة المتكلف الذي لم يكن يوجد في هذه الآونة إلاَّ ضمن المجموعة الاتصالية الهاتفية. ـ ثمَّة صوت ـ معاصر. كان يجهل تمامًا أنه كان يبوح من خلال المجموعة الاتصالية الهاتفية الأخرى، مجموعة الشارع ٧٠ بكل أسراره إلى مجهولين. كان سولانكا يعشق هذا الجانب من نيويورك: هذا الإحساس بأن يُوَبَّخ المرء من خلال قصص الآخرين، بأن يمشي كشبح في مدينة محجوبة في صميم قصة لم تكن بحاجة إليه كشخصية، إنها ازدواجيَّة الرجل أمام زوجته، فكَّر سولانكا: من خلال الزوجة، افهموا أميركا، ربَّما أنا أيضًا ما أزال أتوجه نحو الكنبة.

صحف اليوم حملت له راحة بال غير متوقَّعة. كان عليه أن يشعل التلفاز متأخرًا، وأن يفوِّت عليه التطورات الجديدة للتحري في الاغتيال الثلاثي باندي، بان، سماء، بقلب خال من أي هم استطاع أن يقرأ أن المفتِّشين ـ ثلاث

مفوَّضيات كانت تعمل معًا ـ قد استجوبوا العشاق الثلاثة للتو. لقد أُفرج عنهم ولم يُعْثَر حتى اللحظة على أي عنصر اتهام، لكنَّ رجال الشرطة أبدوا حزمًا ونصحوا الشُّبان بألا يتجولوا على الكوت دازور وآسي دي سيْد إيست، مصادر مجهولة وموثوقة أوردت أن فرضيَّة «السيد قبعة» كانت مستبعدة على الغالب، مما كان يدعو إلى التفكير بأن الشبان الثلاثة قد اختلقوا هذا العسَّاس الغامض اختلاقًا: «ماييه» و«إِتالون» و«ديسكو» في الصورة مذعورين. لقد قرن المعلِّقون الاغتيال الثلاثي غير المبتوت به دون توانٍ باغتيال نيكول برادن سامبسون، وبموت الصغير جونييت رامِسيْ «في هكذا قضايا، جزمت مقالة افتتاحيّة، يكون من المناسب أن تضطلع دوائر مختصة بالتحقيق».

«هل أستطيع أن أتحدَّث إليك؟».

عندما عاد إلى بيته، نشوان من الانفراج، كانت ميلاً تنتظره على السُّلَّم، وحيدة، إنما مع دمية سِرْڤليت بين ذراعيها، تغيُّر حالتها كانت مدهشًا انتهى تخلُّع مقاتِلة الشوارع، تَصَنُّع إلهة. الطريق المكدَّمة. أمامه كانت امرأة خجلة وساذجة بنجمين في عينيها الخضراوين.

هذا ما قلته إلى سينوش، أهذا فعلاً أنت؟ أأنت البروفسور سولانكا؟ وسِرڤليت من إبداع البروفسور سولانكا؟ أنت من اخترعها ومنحها الحياة. قل إذن! مع أنني أملك كل أشرطة المغامرات، فإن والدي وبمناسبة عيد ميلادي الحادي والعشرين قد ذهب إلى مجمَّع وأهداني السيناريو الأصلي لحقبة غاليلي أنت تعلم، قبل أن يجبروك على إثارة الشتائم؟ إنه ثروتي الثمينة. قل لي بأني لم أخطئ، وإلاَّ فإنني سأصبح مدعاة للسخرية وسمعتي ستشنَّع إلى الأبد. حسن هي مشنَّعة على أية حال، أنت لا تستطيع تخيُّل ردَّة فعل إيدي، وآخرين عندما سيعلمون أنني كنت أصوِّب إلى هنا مع دمية، لا لكنني أستحلفك!» مقاومة سولانكا الفطرية، والمزعزعة من قبل بسبب مزاجه الصافي انتهت بأن ارتخت أمام هكذا بانفعال.

«أجل، قال مسلِّمًا، أجل إنني أنا هو فعلاً».

أطلقت صرخة حادة، ووثبت ماسَّة إياه تقريبًا.

«غير ممكن، صاحت، وهي غير قادرة أن تتوقف عن الحجل غير ممكن! أوه يا إلهي!.

يجب أن أقول لك أيها الأستاذ إنك عظيم فعلاً. وسِرْڤليت التي اخترعتها، هذه، هذه الصغيرة اللذيذة، إنها كمن يدرك وسواسي الأعظم منذ ما يقارب العشر السنوات! إني أتفحَّصها بدقة. وكما استطعت أن ترى ذلك، فهي إلهام إبداعي الشخصي، (مدَّت يدًا). ميلا، ميلو. لا تضحك، في البدء كان ميلوزيڤيك، لكن أبي كان يريد اسمًا يستطيع ترديده كل الناس. وفي النهاية، فنحن في أميركا أليس كذلك؟ لنهجيء مي ـ لا ـ مي ـ لو (بالغت في مطِّ المقاطع، كشَّرت، ثم ابتسمت).

ربَّما سيقولون، لست أدري، إنه ماركة سماد، أو حبوب ربما.

وطالما كانت تتكلم كان يحسُّ بالغضب القديم يتورَّم داخله. بسبب حنقه الظمئ على سِرْڤليت الذي بقي ضمنيًا ومتعذِّر الوصف طيلة هذه السنوات. لقد كان الخنق نفسه الذي جرَّه مباشرة إلى حقبة السكين... بذل قصارى جهده كي يسيطر عليه. لقد كان في أول يوم لطوره الجديد. اليوم، لن تكون هناك غمامة حمراء ولا خطبة فاحشة، ولا فقدان ذاكرة ولَّده الذعر. اليوم سيواجه الشيطان وسوف يطرحه أرضًا، تنفَّس الصعداء، وقال لنفسه، تنفَّس.

كانت ميلا تبدو قلقة.

«أيها الأستاذ، هل أنت على ما يرام؟».

امتثل سريعًا. أجل، أجل، وأردف سريعًا:

«تفضَّلي بالدخول، أرجوك. لديَّ قصة لا بدَّ من أن أقصَّها عليك».

الفصل الثاني

[7]

أوليات دُماه، التماثيل الصغيرة التي أنجزها في الآونة الأولى بغية جعل منزله آهلاً بالسكان كانت من الورق الأبيض الطري، بما في ذلك ملابسها، ثم لوَّنها بعد ذلك، الثياب الفاقعة الألوان، والوجوه القوية العضلات. إنَّما بتقاطيع معبِّرة ببيان هنا وجنة امرأة منتفخة بغية التصدي لألم الأسنان، وهناك بعض التجاعيد التعبيرية في زاوية عين كائن ناطق كي توحي بالضحك. لقد خسر إثر ذلك كل حصَّته في البيوت، إذ كانت الشخصيات التي أبدعها تنتشر في قوامها وفي تعقيدها النفسي. منذ ذاك صار يستخدم الصلصال، الصلصال الذي به خلق الله الإنسان الذي لم يكن موجودًا. تلك كانت مفارقة الحياة الإنسانية: خالقها كان وهميًا. أما الحياة فكانت حقيقة. كان يعتبرها كشخصيَّات وهمية مستقلة. فعندما أعطاها وجهًا صارت في نظره حقيقة تمامًا كهؤلاء الناس الذين كان يعرفهم، لكنه وبمجرَّد أن كوَّنها، وعرف قصتها تركها عن طيب خاطره تعيش حياتها: أيادٍ أخرى كانت تستطيع أن تنقّلها أمام كاميرات التلفاز، مهرة آخرون كانوا يستطيعون قولبتها وتصويرها.

لم يكن يهتم إلاَّ بشخصيَّتها وبتاريخها. فاللَّعب بالدمية لم يكن من إرابته.

كان لا بدَّ للوحيدة من هذه الخلائق التي وقع في حبها ـ الوحيدة التي رفض أن يعهد بها إلى أيدٍ أخرى من أن تحطِّم قلبه. كانت المقصودة بذلك طبعًا هي سِرْڤليت سِرْڤليت. في البداية دمية، ثم عروس تُحرَّك بالخيطان، ثم شخصية في أفلام كرتون، وبعد ذلك ممثِّلة، وأحيانًا منشِّطة جدالات، لاعبة جمباز، وراقصة باليه أولى، في مرَّات ظهورها التلفزة الأولى، في نهاية السهرة، التي لم يكن أحد ينتظر منها شيئًا عظيمًا، كانت تلبي تقريبًا رغبات مليك سولانكا. كان الموضوع يتعلق بأسفار في الزمن، مع سيرڤي «Cervy» في دور المريدة وفلاسفة حقيقيون بمثابة أبطال. لكن مديري القناة قد استجلوا الموضوع منذ أن عرضت السلسلة في الجزء الأول من السهرة وحكموا على النسخة الأصلية بأنها مثقَّفة رعناء جدًا. كانت سِرْڤليت هي النجم التلفزيوني وقرَّروا أن لا بدَّ للبرنامج الجديد من أن يكون متجورًا حولها. وبدلاً من أن ترتحل على الدوام، كان لا بدَّ لها من أن تمتلك مسكنًا وأخصامًا معتدلين. كانت تلزمه قصة حقيقية أو بالحري كتيبة من العاشقين، مما سيمكن كوميديِّي هذه الأيام من الشباب المرموقين من المشاركة في السلسلة إنما دون أن يملكوها، لا سيَّما أنه كان يفترض بها أن تكون كوميدية: كوميدية ذكية، كوميدية دماغية، فعلاً، حيث لا بدَّ من أنها ستثير ضحكًا، بل ضحكًا ساخرًا. سيجعلون سولانكا يعمل مع كتاب السيناريوات من أجل تكييف فكرته مع الجمهور العريض الذي ستخصَّص له من الآن فصاعدًا.

هذا هو كل ما يبتغيه فعلاً، أليس كذلك؟ التأثير على أكبر عدد من الناس.

فأيَّة فكرة لا تتطور سيكتب لها الموت. تلك هي حقيقة الحياة المتلفزة.

وهكذا أقامت سِرْڤليت في منزلها الجديد في شارع «أمَّهات الأدمغة» في مدينة «الخليَّة العصبية مع عائلة بأسرها وزمرة من الرِّفاق الأمناء المثقَّفين الرعن. كان لديها أخ بدين يدعى «رأس»، وفي نهاية الطريق، هناك مخبر

علمي يدعى «صندوق الدِّماغ» ونجمة سينمائية بل جنسيَّة وآفة «العبقرية فيرلوبيز» كانوا يعملون بمثابرة، وكلما كانت الكوميدية تنتشر بين العامة، كان يرتفع مؤشر التَّنصُّت بسرعة، وسرعان ما بزَّ شارع الأدمغة مغامرات سِرْڤليت، وشغل المكان المهم لزمن طويل. فما كان من سولانكا إلاَّ أن يرضخ للمحتوم. صرف النظر عن البرنامج، لكنَّ اسمه بقي مذكورًا في مقدِّمة الفيلم، واطمأن إلى أن حقَّه المعنوي كان محفوظًا، وفاوض على نسبة عالية من الفوائد المشتقة. لم يعد باستطاعته مشاهدة البرنامج. لكنَّ سِرْڤليت ذُهِلَت لرؤيته خارجًا.

لقد انفصلت سِرْڤليت عن خالقها إذ كبرت. فصارت منذ ذاك في قياسها الطبيعي بالمعنى الحرفي، فصار طولها يربو على طول سولانكا ببضع سنتيمترات، وصارت تتدبَّر أمورها بنفسها. لقد استعملت كروبنسون كروزوْ، وشارلوك هولمز، وفرانكشتين على العمل الذي كانت سليلته، وتمتَّعت بالحرية الاعتبارية النسبية. صارت منذ ذاك تروِّج للمستحضرات في التلفزيون، تدشِّن سوبرماركيتات، وتقدِّم الخطب في نهاية المأدبة، وتبعث الحياة في الألعاب المتلفزة. عندما شارف شارع أمهات الأدمغة على نهايته، كانت سِرْڤليت قد صارت شخصيَّة تلفزيونية مستقلَّة تمامًا. كان لها خطابها المتفاخر الخاص، وظهورها في المسرحيَّات الكوميدية الشعبية، لقد سارت في الرتل على أنها ڤيڤيان ويستوود، ووجدت نفسها تُلامُ من قبل آندريه دوور كين، كونها قلَّلت من شأن النساء ـ «على النساء المفكِّرات ألاّ ينحطِطنَ إلى مستوى دمى»، ومن كارل لاغرڤيلد كونها خَصَتِ الرِّجال («ماذا ينتظر رجل حقيقي من امرأة حُبِيَتْ بمفردات لغة، إن كان لي أن أقول ذلك، تفوق مفرداته؟»). لقد وافق كاتبا هذين النقدين وبوساطة أعضاء فخريّيْن مساعدين على التعاون مع كتلة الدراسة الفكرية عن «سِرْڤي» الكتلة المعروفة في الـ B.B.C. باسم الخلية الرَّمادية. كان أول فيلم من السلسلة (ب) التي أخرجت سِرْڤليت يمثل الكبوة الأولى، لقد أخفق إخفاقًا رهيبًا، لكنَّ الجزء الأول من مذكراتها (!) الذي ما كاد يعلن عنه

حتى انطلق بسرعة إلى مقدِّمة أفضل مبيعات (الأمازون)[١]، إذ بلغت نسخه المبيعة قبل نشره ببضعة أشهر إلى ربع مليون نسخة مشتراة سلفًا. ويعود الفضل في ذلك إلى متحمسين هستيريِّين أرادوا أن يكونوا الأوائل في اقتنائه. هذا الجزء بعد نشره حطَّم الأرقام القياسية، فتلاه الجزء الثاني، ثم الثالث، وأخيرًا الجزء الرابع، أي بمعدَّل جزء كل عام، بيع منها أكثر من خمسين مليون نسخة في العالم قاطبة بحسب التقديرات الأكثر حصافة. لقد أصبحت سكارليت أوهارا الدَّمى، وحياتها أصبحت نموذجًا لملايين الفتيان - بداياتها المتواضعة، سنواتها الحرجة، انتصاراتها الحماسية؛ ويا لشدَّة بأسها في مواجهة الفقر والشدائد، يا لفرحها عندما جعل منها القدر واحدة ممَّن اصطفاهن! - في عداد هؤلاء كانت إلهة شارع ٧٠ الغربي الباردة، تفخر لأنها كانت ذات اعتبار (حياة خيالية، فكَّر سولانكا. قصة وهمية، نصف حكاية، نصف أسطورة من طراز أبراج وتنّينات، نصف ساغا، تنزع إلى تصوير البؤس، رُوِيَتْ كاملة من زنوج على موهبة وضيعة! لم تكن هذه هي الحياة التي تخيَّلها، لم يكن لهذا أية صلة بالماضي الذي حلم به بكثير من الفرح والاعتزاز. سِرْفليت الجديدة هذه كانت غاضبة. كل ما فيها كان ينطق بالمكر: السيناريو، الحوار، الشخصية، خزانة الملابس وحتى الدماغ. في مكان ما وسط وسائط الإعلام، كان يوجد قصر IF الذي احتجزت فيه سِرْفليت حبيسة، في مكان ما كانت توجد دمية بقناع من حديد).

ما كان خارقًا في نجاحها، كان شموليَّتها، أحبَّها الصبيان مثلما أحبتها البنات، والصغار كما الراشدون. كانت تتجاوز فلوق اللغات، والعروق والطبقات الاجتماعية، وصارت بخيار مطلق، العشيقة المثالية والصديقة الحميمة، وقدوة المعجبين بها. صُنِّف أول جزء من مذكراتها في باب الوثائق. وقرار تدوينه، كما هي الحال بالنسبة للأجزاء الأخرى، في فئة القصَّة الخيالية لاقى معارضة كبيرة من القرَّاء، ومن ملاك الأمازون معًا. لم تعد سِرْفليت

---

(١) موقع للبيع على الانترنت.

تمثالاً، كما كانوا يزعمون، بل ظاهرة، لقد لامستها العصا السحرية فجعلتها حقيقية.

وبرعب متعاظم كان مليك سولانكا يتابع كل هذا من بعيد، فقد كانت هذه المخلوقة، المولودة من خياله، والمستخلصة من أسمى ما في ذاته، وسليلة بالغ كدِّه، تتحول أمام ناظريه إلى واحد من هؤلاء الغيلان ذوي الشهرة الصَّارخة والذين كان يمقتهم من أعماقه. إن سِرْقليت الأولى والتي صارت المرحومة من الآن فصاعدًا، قد كانت مفكِّرة بشكل واقعي، وقادرة على مقاومة إراسموس[١] أو شوبنهاور[٢]. لقد كانت جميلة وساخرة لاذعة، لكنها كانت تعيش في عالم الأفكار، وتتطوَّر ضمن التصوُّرات.

كانت هذه النسخة المعدَّلة والمنقَّحة، والتي فقد رقابته عليها منذ زمن طويل، تملك ذكاء شامبانزي يربو قليلاً على المتوسط. ويومًا بعد يوم، كانت تصير إلى مخلوق عالم لهو مصغَّر، فكانت أشرطة الڤيديو كليب الموسيقية التي كانت تسجِّلها، تتجاوز في فسقها الملتهب أشرطة مادونا ـ أجل، لقد كانت تسجِّل أسطوانات حينئذ ـ إن بدايات ظهورها في الأشرطة كانت أكثر خلاعة من عروض واحدة ٩٠ ـ ٦٠ ـ ٩٠. وقد ارتدت مزقة قماش حمراء، ثبَّتتها بدبابيس مؤنبيه. لقد كانت لعبة فيديو وبنت مستترة، والحال كذلك، فقد صارت المسألة تتعلق على الأقل ضمن طريقة عرضها الخاص، بامرأة كان رأسها مستترًا كليًا ضمن رأس دمية مجسدة. مع ذلك، فإن كثيرًا ممَّن يطمحن إلى النجومية كنَّ يتصارعن لنيل الدور حتى ولو أن الخليَّة الرَّماديَّة ـ التي صارت على أهمية كبيرة تجعل الـ B.B.C. ـ وقد جهَّزت مؤسستها الخاصة التي لن تلبث ميزانيتها أن تتعدى حدود المليار دولار ـ جعلتها توصي بأعلى مستوى

---

(١) Erasmus: هولاندي (١٤٦٩ ـ ١٥٣٦) عالم بالآداب القديمة. معتنق مذهب الأنسنة الفلسفي ـ له مديح الجنون.

(٢) Schopenhauer: فيلسوف ألماني (١٧٨٨ ـ ١٨٦٠)، صاحب مذهب التشاؤم.

من السرية، لم يُبَحْ إطلاقًا بأسماء النساء اللواتي كنَّ يجسّدن سِرْڤليت، حتى ولو كانت هناك وفرة من الشائعات. فالصور المنتقَصة التي كانت تلتقطها الصحف الأوروبية والأميركية للمشاهير من دون موافقتهم كانت تؤكد أنها تستطيع أن تعيِّن هوية هذه الممثلة أو عارضة الأزياء تلك من خلال الصفات الأخرى غير الوجهية التي كانت سِرْڤليت تبرزها باعتزاز شديد.

شيء مدهش، فهذا الوجه الجديد على شكل كوز الصنوبر، الذي حل لتوِّه محل رأس سِرْڤليت الجديد المطليّ بالحلباب لم يفقدها أي نصير، بل وفَّر لها بدلاً من ذلك جماعة واسعة من المعجبين البالغين. لا شيء كان يعيقها بعد، كانت تقوم بمؤتمرات صحافية تعلن فيها عن إنشاء مؤسستها الإنتاجية الخاصة وعن إصدار مجلة، ستقدم فيها نصائح في التجميل، وصفحات «ميول» والثقافة المعاصرة الجارية ستعالج ضمن إبداع سِرْڤليت الغني، كانت تنتقل حتى إلى قنوات أميركية تلفزيونية. فقد ظهر عرض مسرحي في برودوِيْ ـ لقد كانت في مفاوضات مع العاملين الأساسيين في صناعة الموسيقى، هذا العزيز تايم، وذلك العزيز إيتالون، وتلك العزيزة كاميرون، وبالطبع ذاك العزيز، ذاك العزيز جدًا أندراو ـ وفيلم ضخم ذو ميزانية هائلة كان قيد الدِّراسة. سوف تتحاشى العقبات والضجيج المسبق للفيلم السابق، كي تنبثق وبشكل تلقائي مذكَّرات أكثر رواجًا.

«سِرْڤليت ليست مجرد باربي سبايس، مطواعة ـ عجيبة» أعلنت للناس ـ لقد أخذت تتحدث عن نفسها مستخدمة ضمير الغائب هي ـ «والفيلم الجديد سيكون إنسانيًا جدًا، وبإدارة رفيعة. مارتي، وبوبي، وبرِد، وغوايني، ومِغْ، وجوليا ونيكول كلهم معنيون؛ والحال كذلك أيضًا بالنسبة لجوني، وبوفي، وميدي، وروبي، وميك. أعتقد بأن كل الناس بحاجة إلى سِرْڤليت هذه الأيام.

فوز سِرْڤليت اللامحدود. فجَّر بشكل لا مفرَّ منه كل أنواع التعليقات والتحليلات. لقد سخروا من ابتذالية الوسواس الذي استحوذ على معجبيها. لكنَّ كتَّابًا مسرحيين نوابغ قد ذكَّروا بتقليد التقنُّع القديم، بأصوله الإغريقية

واليابانية: «الممثل المقنَّع محرَّر من الاستوائية ومن الرَّتابة، جسده يعرف حريَّات جديدة وملحوظة. فالقناع يفرض كل هذا. للقناع فعله». كان البروفسور سولانكا يبقي على كل تحفُّظاته، متمنِّعًا عن المجيء للإفاضة بالحديث عن مخلوقه المعتوق في كل مرَّة كان يُطلب منه ذلك. لكنه لم يكن يستطيع أن يرفض عائدات المال ـ لم تكن الجُعالات[1] تتوقف عن تضخيم حسابه في المصرف. كان الجشع يعرِّضه للشبهة والتعرُّض للشبهات يمنعه من توضيح فكرته ولأنه لم يكن يمتلك حق فقد الدجاجة ذات البيوض الذهبية، بواسطة عقد، فقد كان لا بدَّ له من اجترار أفكاره ممسكًا عن الإدلاء بأي رأي، متجرِّعًا مر مظالمه الكثيرة. عند كل مبادرة توفيقيَّة جديدة، مُوَجَّهة من قبل هذه الشخصيَّة المبتَدَعة أصلاً بمزيد من عنايته وحيويَّته كان غضبه العاجز يتعاظم.

لقد وافقت سِرْفْليت ـ زعمًا في محلَّه هالو! ومقابل عشرة ملايين دولار ـ على فتح أبواب بيتها الريفي إلى قرائها، والذي هو من حيث الظاهر، عبارة عن عمارة قديمة يرقى تاريخها إلى عهد الملكة آنا، والواقعة غير بعيد عن أمير الغال في مدينة غلوسيستر. ذهل مليك سولانكا الذي كان يستمد إلهامه من متحف ريجك موزيوم. من وقاحة تلك المناورة الأخيرة. ستصبح هذه المنازل الجميلة إذن حكرًا على تلك الدمى المتغطرسة، بينما ستتابع البشرية عيشها في هذه المساكن الضيِّقة؟ ظلم هذه الظاهرة ـ أو السقوط الأخلاقي بحسب ما يرى ـ كان يقضُّ مضجعه؛ إنما، ولأنه يأنف أن يغرق في الإفلاس، فقد كبح لسانه ورضي بالمال القذر. خلال عشر سنوات، ومثلما كان من الممكن لآرغوا فونكل، أن ينفخ في بوقه المكبِّر، فقد راكم جبلاً من القرف من نفسه ومن الحنق. كان الغضب يهوي عليه كواحدة من منحوتات هولْزِيْ. فـ سِرْفْليت، ابنته قد أصبحت عملاقة ثائرة تجسِّد مذ ذاك كل ما كان يحتقره، وتطأ تحت

---

(١) م. جعالة: مبلغ يدفع إلى كل مؤلف أو مخترع عن كل نسخة أو سلعة مبيعة من كتابه أو اختراعه، (نوع من ضريبة).

قدميها الضخمين كل المبادئ السامية التي كانت تنسبها إلى نفسها؛ بما فيها، وهذا مسلَّم به، مبادئ سولانكا.

«لقد صمدت الظاهرة سِرْڤليت في أعوام التسعينات، ولم تكن تبدو واهنة في هذه الألفيَّة الجديدة. أصبح مليك سولانكا مرغمًا على التسليم بالحقيقة المرعبة فأخذ يمقت سِرْڤليت. أثناء ذلك الوقت، لا شيء ممَّا ابتكره كان يبدو ناجحًا. وبقي مستمرًا في سيره على نهج منتجي أفلام الرسوم المتحركة البريطانيين المحظوظين، إنَّما بشخصيات أخرى وسيناريوات أخرى. لكنَّ تصوراته وللأمانة، لم تكن مع أو من دون لذعات مبطَّنة ـ مناسبة لروح العصر. لقد صار في نظر الصنعة الفنيَّة أسوأ من مجرَّد عجوز».

لقد صار زيًّا باطلاً. فأثناء اجتماع كان يدرس فيه عرض لفيلم رسوم متحرِّكة طويل عن مكياڤيللي، بذل كل ما بوسعه كي يتحدَّث بلغة القضايا الجديدة. كان الفيلم سيسخِّر بالتأكيد حيوانات مجسَّمة، مصوَّرة في شكل بشري كي يجسِّد النماذج البشرية الأصلية «هناك موضوع فعلاً! قال متحمِّسًا بشكل أخرق». إنه عصر فلورنسة الذهبي! المدوساتُ بكل بهائها! ـ قطط أرستقراطية قابلة جدًا للتجسيم! القطَّة ڤيسبوكسي! أجمل قطَّة في العالم، القطة التي خلَّدها كلب ڤينيسيه كانشيليي. ولادة ڤينوس السَّنورية. صقر الربيع المبرغث! في ذلك الزمن، ركب أميركو فيسبوتشي خياله، سحلية البحار العجوز تلك كي يكتشف أميركا! ساڤونا رولاند، جرذ الكنيسة الذي أضرم نار المحرقة بالأباطيل! وفي وسط كل هذا فأرة، لكنها ليست فأرة على طريقة ديزني: إنها مسألة فأرة اخترعت السياسة الواقعية، الفأرة المسرحية اللامعة، القارض الشهير، الجرذ ـ العشَّار الذي نجا من تنكيل القط الأمير وحلم وهو في منفاه بعودة مشرِّفة. . .».

لكنَّ الموظف الإداري للدائرة المالية قاطعه فجأة، وهو شاب بدين يكاد لا يتجاوز الثالثة والعشرين.

«فلورنسة، إنها رائعة الجمال، قال. إني أعشقها حقًا، وماذا قلت، ميكايلو مكيافيللي؛ من الممكن لهذا أن يكون موافقًا. لكنَّ ما تقترحه ـ هذه المعالجة ـ اسمح لي أن أقول لك ذلك بكل وضوح، إنها بكل بساطة غير جديرة بفلورنسة، ربما أنها ليست اللحظة المناسبة ـ بالنسبة إلى عصر نهضة عمَّه الرَّخاء».

كان من الممكن له، أن يشرع في الكتابة، لكنه لم يكن يمتلك الحماسة لذلك، فطبع القدر المحتوم، والطريقة التي تملكها الأحداث كي تجعل المرء يتنكَّب الدرب قد تأكَّلَتْه، فما عاد الآن صالحًا لشيء. حياته الماضية فارقَتْه إلى الأبد، والعالم الجديد الذي خلقه انزلق من بين أصابعه. لقد أصبح جيمس مايسون، النجم الساقط الذي كان يفرط في الشرب، والذي كان يمضي من إخفاق إلى إخفاق، بينما كانت تلك الدُّمية المصنَّعة تفوز بالنجومية في دور جودي غارلاند. مع بينوكشيو كانت هموم جيبيتوت تتلاشى عندما كانت الدمية المتحرِّكة الشيطانية تتحول إلى ولد حقيقي. وكانت تلك هي اللحظة التي كانوا يبدأون فيها مع سِرْڤليت ومع غالاتي. كان البروفسور سولانكا الثمل والغاضب يتفوَّه بلعنات ضدَّ ابنته العاقَّة والمشبوهة: لتغرب عن ناظري، لتنصرف! تبًا لها من عاقة. إني سئم منك، أنا لا أعرفك، واسمي لن تحمليه أبدًا. لا تحلمي برؤيتي، ولا تلتمسي بركتي. ولا تناديني إطلاقًا يا أبتِ.

لقد هجرته بكل أحوالها، ومخططاتها الإجمالية، بتصاميمها، بلوحاتها، في تكاثرها اللامحدود وتطوراتها التي لا تحصى: ورق، خِرق، خشب، بلاستيك، سليولويد، شريط كاسيت وفيلم؛ ومعها توارى حتمًا تعبير ثمين من ذاته. لم يبادر هو شخصيًا إلى طردها. كانت إيليانور هي من اضطلعت بذلك، كانت إيليانور ترى معالم الأزمة ترتسم ـ كانت ترى العينين المحتقنتين بدم الرجل الذي كانت تحبه، الكحول، التسكع ـ فأبلغته بصوت عذب: «تغيَّب اليوم، وأنا سأعنى بذلك». لقد أرجأت مهنتها كناشرة، عندما صار أسمعان

مهنتها الوحيدة التي كانت بحاجة إليها إلى حين، لكنها كانت طامحًا جدًا، ولم تكن تنوي التوقف عند هذا الحد. لقد أخفت عنه ذلك أيضًا، مع أنه لم يكن مغفَّلاً، ويعلم ما كان يعنيه هذا، عندما كان مورغان فرانز وآخرون يتحدثون معها هاتفيًا لمدة نصف ساعة تقريبًا. لقد كانت مرغوبة، وكان هو يدرك ذلك، كل العالم ما عداه كان مرغوبًا، لكنه كان يستطيع ردَّ اعتباره التافه، فهو أيضًا لديه ما يجب أن يتخلَّى عنه، حتى لو كان الأمر لا يتعلق إلاَّ بهذه المخلوقة المنافقة، هذه الخائنة، هذه، هذه، الدمية.

غادر المنزل في اليوم المحدَّد، وجرى بكل سرعته إلى هامبستيد هايت ـ كانا، يسكنان منزلاً واسعًا بمدخلين في ويْلوْ رود، وكانا يستمتعان بامتلاك خلنج، كنز شمال لندن هذا، رئتها، كان أمام منزلهما. في غيابه رزمَت إيليانور البيوت والدَّمى بعناية، وأودعت الكلَّ في مستودع الأثاث، كان يفضِّل أن يودي بهذا البازار إلى مكبِّ هايغبوري، لكنه تهاون في هذه النقطة بالذات أيضًا. كانت إيليانور مواظبة، وتمتلك ذوقًا عاليًا في ترتيب الوثائق، وبما أنه كان هو من ألقى عليها بهذه الأعباء، فقد تلقَّى انتقاداتها وهو يلوِّح بيده كما لو كان يكشُّ بعوضة ولم يناقش أبدًا. مشى ساعات تاركًا لموسيقى الخلنج أن تهدِّئ غضبه، مستسلمًا إلى وجيب ممرَّاته وأشجاره، وفي نهاية النهار إلى أنغام حفلة موسيقية صيفية في فناء إيڤنغ باكوست. عندما عاد لم تكن سِرْڤليت موجودة أو تقريبًا. لأن إحدى الدَّمى، وخلسة عن إيليانور، قد حبست أنفاسها في درج مزدوج في مكتب سولانكا وأقامت فيه. عندما رجع إلى المنزل، وجده خاويًا، بل مقفرًا تمامًا، كما يكون حال بيت بعد موت طفل. وانتاب سولانكا الإحساس بأن السنَّ قد تقدَّمت به عشرين أو ثلاثين سنة. منقطعًا عن صنائع شبابه المتحمس، وجد نفسه وحيدًا في زمن لا يرحم. لقد سبق لواترفورد واجدا، أن تحدَّث إليه عن هكذا إحساس قبل أعوام من الآن في أدينبروك:

«ستصبح الحياة ـ ماذا أقول ـ مُستنفَذَة. ستلاحظ أنك لا تملك شيئًا، أنك لم

تعثر على مكانك، لم تفعل سوى أنك سخَّرت الأشياء لبعض من الوقت. العالم الجامد يسخر منك: سترحل يومًا، لكنَّ اليوم سيبقى هناك. ليس عميقًا جدًا ما أقوله لك الآن سوللي، إنه شيء من فلسفة وينِّي لورسون، أعلم، إنَّما المسألة ليست مسألة موت طفل، بقدر ما هي مسألة قاتل.

كرونوس الذي افترس ابنته. لقد كان قاتل ولده الذي اختلقه، إنه ليس من لحمه ودمه. بل من حلم كلمة. مع ذلك، فإن طفلاً واقعيًا كان موجودًا، وأغضبته أحداث النهار: قدوم شاحنة الترحيل، ملتزمي النقل، رواح وغدوُّ الشخصيات المزيَّفة المنتظم».

«أنا قدَّمت مساعدتي يا أبي. قال أسمعان وهو يستقبل والده. أنا ساعدت في رزم سِرْڤليت».

كان يرطن في لفظ بعض الحروف: هذا هو تمامًا. فكَّر سولانكا. لقد التهمتْ حياتي. «أجل، أجاب بهيئة ساهمة، أحسنت».

إنّما كان لدى أسمعان شيء آخر لا بدَّ من أن يقوله:

«لماذا توجَّب عليها أن ترحل يا أبي؟ قالت ماما إنك أنت من كان يريدها أن ترحل».

أوه، ماما قالت هذا، لا بأس، شكرًا يا ماما، وسدَّد نظره نحو إيليانور، فرفعت هي كتفيها.

«صدقًا لم أكن أعرف ما أقول له، عليك أنتَ أن تشرحَ له».

في برامج الأطفال، ومن خلال أفلام الرسوم المتحركة، وطرق القصِّ السمَّاعية لمذاكراتها الأسطورية فإن سِرْڤليت المتلوِّنة قد ملكت قلب طفل هو أصغر من أسمعان الذي لم يكن وهو في عامه الثالث، بالغ الصغر فيقع في عشق الأيقونة المعاصرة الأكثر إغراءً. كان من الممكن لـ «سِرڤي» أن تقصى عن منزل ويلو رود، إنَّما هل من الممكن استئصالها من قلب ابن مبتكرها؟

«بودي لو تعود. قال أسمعان برباطة جأش. أريد سِرْڤليت».

سيمفونيَّة، هامبستيد هيت، أخلت مكانها إلى مشادات الأسرة الشقاقية، فأحسَّ سولانكا بالغيوم تتكدَّس فوقه فجأة.

«لقد آن وقت رحيلها» قال وهو يأخذ أسمعان بين ذراعيه.

كان الولد يتخبَّط على صدره، مستجيبًا لا شعوريًا ـ مثلما يفعل الأطفال ـ إلى مزاج والده المتعكِّر.

«لا، ضعني! ضعني!».

كان مستهلكًا ومتأفِّفًا كسولانكا تمامًا.

«أريد أن أشاهد شريط بيديو» طلب، ڤيديو. «أريد أن أشاهد شريط بيديو لـ سربُليت».

مليك سولانكا المتخبِّط نتيجة لاختفاء وثائق «سِرْڤليت، ولنفيها إلى جزيرة «إيلب» للدمى، وهي مدينة على البحر الأسود، مشابهة لتلك الموحشة، المخصَّصة لرمي الألعاب العتيقة التي لم تعد هناك حاجة إليها، وجد نفسه غارقًا، على غير ما كان يتوقع ـ في حالة شبيهة بحالة حِداد، وأحسَّ بتهيُّجيَّة ابنه كتحدٍّ لا يمكن تقبُّله.

«لقد فات الأوان، كن عاقلاً» قال له، وأسمعان الذي ارتمى على سجَّادة الصالون أثناء عودته لجأ إلى حيلة جديدة: سيل من دموع التماسيح، قاهر جدًا، وسولانكا الأكثر صبيانية من ابنه، والذي لا يملك عذر سنِّ الثالثة انقضَّ على إيليانور.

«أظن أنها طريقتك في معاقبتي. ولأنك أردت أن تبرِّئي نفسك من كل هذا، فإنك لم تجدي إلاّ أن تقولي له ذلك. لماذا تسخرينه في خدمتك؟ لا بدَّ أنني كنت مصيبًا بالشك بأن متاعب كانت تنتظرني. وأنك ستسترسلين في هذا النوع من التلاعب المستتر.

ـ أرجوك، لا تكلِّمْني هكذا أمامه. قالت وهي تأخذ أسمعان بين ذراعيها، «لقد فهم كل شيء».

لاحظ سولانكا أن الولد قد كفَّ عن تخبُّطه عندما صحبته أمه إلى النوم، على العكس تمامًا، لقد طمر رأسه خلف عنقها الطويل.

. . الحقيقة، تابعت بصوت رزين، أنني وبعد نهار كامل من العمل من أجلك، حدَّثتُ نفسي بغباء على ما يبدو، كنت أحسب أننا سنستطيع استغلال هذه اللحظة كي ننطلق من الصِّفر. أخرجت من الثلاَّجة فخذ خروف، تبَّلتُه بالكمون، وكلَّمت الزَّهَّار، أوْ يا إلهي. أيَّة مغفَّلة أنا، كي يرسل لي السَّلبوت. سوف تجد ثلاث زجاجات من التينيانِللو على طاولة المطبخ. واحدة من أجل المتعة، الثانية من أجل العنف، والثالثة من أجل السرير. ربَّما يذكِّرك هذا بما كنت أقول. لكنني أظن أن الأوان قد فات كي أفرضَ عليك عشاءً رومانسيًّا على ضوء الشموع مع زوجتك التي شاخت وفقدت مفاتنها».

لقد تباعدا، كل منهما عن الآخر، هي مستسلمة لشغفها في تجربة الأمومة التي وجدت فيها الغبطة التي كانت ترغب في تذوقها ثانية، وهو المضمحلُّ في ضبابات الإخفاق، والقرف من الذات الذي كان المشروب يضخِّمه قليلاً كل يوم. لكنَّ الزواج بقي صامدًا يعزِّزه حلم إيليانور بشكل أساسي، وأسمعان، أسمعان الذي كان يعشق الكتب، ومن كانوا يستطيعون أن يقرِئوه طيلة ساعات؛ أسمعان من كان يطلب من مليك أن يبرُمه وهو في أرجوحة الحديقة كي يستطيع أن يدوِّم في الاتجاه المعاكس كمجنون؛ أسمعان الذي كان يحط على كتفيِّ والده كعصفور، خافضًا رأسه عندما كان ينتقل به من حجرة إلى أخرى «إني منتبه يا بابا!». أسمعان من كان يلعب الطُّمَيْمة وهو يختبئ تحت ملاءات ووسائد سريره، من كان يحاول أن يغني: roch around the tot, rock around the clock وخاصة، خاصة، أسمعان الذي كان يقفز في مكانه كان مغرمًا بالقفز على سرير والديه المؤطَّر بقطائفه المخمليَّة.

«أنظر إلي!» كان يهتف ـ انزُر إلي ـ «إني أقفز بشكل رائع فعلاً! إني أعلو وأعلو في القفز!».

لقد كان تجسيدًا لحبهما الصَّبوي القديم المضطرب، عندما كان تعويذة حياتهما، كان مليك وإيليانور يستطيعان أن يلوذا بوهم سعادة عائلية بكر. لكن التصدُّعات كانت تظهر أحيانًا جهارًا، وشتائم مليك المستمرة، مليك الذي كان يجد الإهانات في كل شيء، كانت تزعج إيليانور أكثر بكثير مما كانت تظهره، حتى في قساوتها: «وهو من لُقِطَ في فخٍّ لولب هابط، كان يتهمها باللامبالاة».

ذات مرة، وهما يرقدان في مضجعهما، تذمَّرت بصوت خافت، كي لا توقظ أسمعان الذي كان يغفو على فراش بجانبهما، من أنه لم يحصل لمليك إطلاقًا أن قام بالمبادرة؛ فأجابها بأنها، هي من لا تبالي بالجنس إطلاقًا إلاَّ في فترة الإباضة، وفي تلك الأثناء بالذات كانا يتشاجران: أجل، لا، من فضلك، لا أستطيع، لماذا، لأنني لا أملك الرَّغبة بذلك، أمَّا أنا فإنني بأمسِّ الحاجة إلى هذا، حسن، أنا أبدًا، لكنني لا أريد لهذا الصبي الصغير الفاتن أن يبقى وحيدًا مثلي، وأنا لا أريد بعد أن أصبح أبًا مرَّة أخرى وأنا في هذا العمر، سأكون بلغت السبعين عامًا من العمر، عندما سيبلغ أسمعان العشرين، ثم كان يعقب ذلك سيل من الدموع والملامات، وغالبًا ما كان سولانكا يخلص لأن يقضي باقي ليلته في غرفة الضيوف.

إخطار إلى الأزواج، فكَّر بمرارة:

«اضمنوا أن تكون غرفة الضيوف مريحة، لأنها ستكون غرفة نومكم، يا نارجيلاتي، عاجلاً أم آجلاً.

كانت إيليانور تنتظر وهي متوتِّرة رده على اقتراحها بإِحياء سهرة هادئة بين متحابّيْن. كان الوقت يمضي بطيئًا، وساعة القرار تقترب. كان بمقدوره لو كانت تتوفر لديه الرغبة والذكاء، أن يقبل دعوتها، وعندئذ، أجل كانت السهرة ستكون جميلة: وجبة مغذية، وربَّما كانا، إذا لم تنوِّمه زجاجات التينيانيللو

الثلاث وهو في هذا العمر، سيمارسان الحب كما في عهدهما البعيد. لكنَّ الدودة من حينها قد صارت في الثمرة، ورسب في امتحانه.

«لا بدَّ أنك في الإباضة، أفترض ذلك» قال، فأدارت هي وجهها كما لو أنها قد تلقَّتْ صفعة. «لا» كذبت، ثم قالت وهي تقبل قدرها:

«حسن أجل، هذا ما أنا عليه. لكن هل هذا غير ممكن، أو، بلى، على الأقل ليتك تدرك إلى اية درجة أنا أرغب بـ، أوه، إيه ثم صهٍ، ما جدوى ذلك» ابتعدت بأسمعان وهي غير قادرة على حبس دموعها.

«سأنام بمجرَّد أن أحضنه، حسن؟ قالت ودموع غضبها تنهمر، افعل ما تشاء. لكن لا تترك الفخذ في الفرن. أخرجه واطمِرْه في سلة المهملات». وبما أنها كانت تصعد السلَّم، وأسمعان بين ذراعيها، فقد سمع صوت الطفل الخافت القلق والمضني.

«بابا ليس غاضبًا». قال أسمعان كي يطمئن نفسه بنفسه وكي يطمئناه. كان يلفظ غاضبًا لفظًا عاديًا.

«بابا لا يريدني أن أنصرف».

وحده في المطبخ، أخذ الأستاذ سولانكا يشرب، كان الخمر لا يزال لذيذًا ومثملاً، لكنه لم يكن يشرب من أجل المتعة. أنزل الزجاجات الثلاث بأناة، وحينئذ خرجت الأبالسة زاحفة من مختلف منافذ جسده، وهي تقطر من أنفه، وترشح من أذنيه، مغتنمة أصغر فتحة كي تفلت وتنتشر، بعد الزجاجة الأولى أخذت ترقص على بؤبؤَيْه، على أظافره، وتلفُّ ألسنتها الشرهة والخشنة حول مزدرده، وتوجه طعنات رماح إلى أعضائه التناسلية. لم يعد سولانكا يسمع سوى غنائها القرمزي الذي مُهِرَ ببصمة كره مرعب وثاقب. لقد كفَّ عن الإحساس بالشفقة تجاه نفسه يعتمل غضبًا رهيبًا ومدمِّرًا. عندما عزم على الزجاجة الثانية وأخذ رأسه يترنَّح بفتور قبَّلته الشياطين بألسنتها المشطورة، ولفَّت بأذنابها على قضيبه الذي دغدغته ثم ضيَّقت عليه. ولدى سماعه كلماتها

البذيئة، أحسَّ بشراسته الجديدة ترتدُّ دون هوادة نحو المرأة الغافية في الطابق، غير بعيد عنه، نحو تلك الخائنة التي أَبَتْ أن تحطِّم عدوَّته ونمسيسته[١]، الدُّمية، التي حقنت دماغ ابنها بسُمِّ سِرْڤليت، موجِّهة الطفل ضد أبيه، هذه المرأة التي وضعت حدًا لحياتها الهادئة إذ فضَّلت هوسها بطفل لم يتكوَّنْ على زوجها الموجود في الحقيقة، زوجته، هذه العاصية وخصمه بامتياز.

تدحرجت الزجاجة الثالثة، نصف الملأى على طاولة المطبخ التي أعدَّتْها من أجل اثنين بشكل فائق الجمال، غير متردِّدة في وضع الغطاء القديم من الدانتيل، مع أجمل فضيَّاتهما وكأسي نبيذ من الزجاج البوهيمي: انساح السائل الأحمر على الدَّانتيل النَّفيس، فتذكر ذلك الفخذ الملعون. عندما فتح باب الفرن، اجتاح الدخان الحجرة في الحال، تفجرت سحب الدخان في السقف، وصوت جهاز الإنذار بالخطر صار أضحوكة الشياطين. وكي يضع حدًّا لذلك، كان لا بدَّ له من أن يسحب كرسيَّ المطبخ ويصعد فوقه وهو يتمايل كي ينتزع بطاريات هذه الآلة الشنيعة، هذا حسن، هذا حسن، لكن الشياطين وبعد أن استمر في تعطيلها، استمرت في عواءاتها الجذلة. كان المطبخ لا يزال عابقًا بالدخان، يا للساقطة كان بإمكانها أن تهتم بذلك على الأقل، وكي يخرس هذا الصراخ في رأسه، هذا الصراخ الشبيه بسكين، بسكين ينغرز في دماغه، في أذنه، في عينيه، في بطنه، في قلبه، ألم يكن بإمكان تلك الوغدة أن تخرج الفخذ وأن تضعه هنا تمامًا، على دفة الفَرْمْ، بجانب مشحذ السكاكين، والشوكة الكبيرة، والسكين الكبير، سكين الفرم، السكين.

كان المنزل كبيرًا جدًا، بحيث إن إشارة الإنذار بالخطر لم توقظ لا إيليانور ولا أسمعان، الذي انضم إليها في سريرها، الذي هو سرير مليك أيضًا. أنت تتحدثين عن إنذار خطر مفيد. لكن لا إني أقسم لك. وعندئذ، كان يقف

---

(١) نمسيسة Nemsis: إلهة الثأر عند اليونان.

أمامهما، سكين يهتز في يده وسط العتمة. لم يكن هناك أي جهاز إنذار ينذرهما بالخطر المحيق بهما. أي جهاز. كانت إيليانور تنام على ظهرها، فمها مفتوح قليلاً. وشخير خفيف يخرج من منخريها. وأسمعان ملتوٍ على شكل ملعقة قبالتها، ينام ملء جفونه ببراءة واطمئنان. كان أسمعان يتمتم بمقاطع حروف يتعذر فهمها، ونغمة صوته الرقيق التي تفسح لنفسها دربًا عبر غواءات الشياطين كانت تعيد أباه إلى صوابه. أمامه كان يرقد ابنه الوحيد، الإنساني الوحيد تحت سقفه الذي يدعو إلى الإيمان بأن العالم كان وطن العجائب، وأن الحياة جميلة، وأن اللحظة الحاضرة كانت كلية، وأن المستقبل لا نهاية له، ولا حاجة للمرء لأن يشغل باله به، ما دام الماضي كان غير مجدٍ، وأنه لحسن الحظ قد اختفى تمامًا، وأنه، هو الطفل، المدثر في معطف ساحر الطفولة النبيل كان محبوبًا بطريقة يتعذر وصفها وكان في أمان.

ارتعب مليك سولانكا، ماذا كان يفعل أمام هذين النائمين، مع، مع سكين، إنه لم يكن من النوع الذي يمكن له أن يقوم بشيء مماثل، لقد تحدثوا عن هكذا أشخاص في الصحافة المثيرة، عن رجال همجيين، ونساء ماكرات ذبحن أولادهن الصغار، وأكلن جداتهن، عن قتلة لا مبالين، عن محبي تعذيب الأطفال، عن منحرفين غارقين في العار، عن أزواج أمهات مرذولين، عن قردة يادرتالية منقرضة بلهاء وعنيفة، لم يكن هؤلاء إلا مجرد بدائيين وبرابرة، هؤلاء كانوا أشخاصًا مختلفين تمامًا، لا وجود لأي أحد من طبيعتهم في ذلك البيت، وبالتالي فإنه لم يسعه هو، مليك سولانكا، البروفسور القديم في الكلية الملكية في جامعة كامبردج إلا أن يجد نفسه يمسك في قبضته السكرى أداة موت وحشية D.F.Q.C. وعلى أية حال، فإنه لم يسبق لي إطلاقًا أن عرفت كيف يقطع اللحم. إيليانور، إنك أنت من كنت تتولين دائمًا القيام بذلك. الدمية، فكر وقد هزه جشأ مخمور. طبعًا إنها خطيئة تلك الدمية الشيطانية. لقد طرد كل تناسخات تلك الشيطانة، لكن واحدًا منها بقي. لقد اقترفت غلطة. فرت من خزانته، تسللت من خلال أنفه، أعطته السكين ودفعته إلى القيام بمهمته الدامية

لكنه كان يعلم أين كانت تختبئ. ولا يمكن لها أن تفلت منه. استدار البروفسور سولانكا على عقبيه، وغادر الغرفة، وهو متأنيًا والسكين في يده. لو أن إيليانور فتحت عينيها بعد خروجه، لما عرفت شيئًا عن ذلك؛ لو أنها رأته يبتعد، وخمنت هذا، لكانت وحدها من عرفت ذلك.

في الخارج كان شارع ٧٠ غارقًا في العتمة. كانت سرNemsisليت، عندما فرغ من كلامه مضجعة على ركبتيه. ثيابها منتفة وممزقة، وكل كان بإمكانه أن يميز الأمكنة التي أحدثت فيها السكين حزوزًا عميقة في جسمها.

«حتى بعد أن طعنتها بالخنجر، أجل، كنت عاجزًا عن التخلي عنها. لقد ضممتها إلى صدري طوال رحلتي إلى أميركا».

كانت دمية ميلا تتفحص بصمت نظيرتها المهانة.

«هاك، لقد قلت لك كل شيء، مع أنك لم تسألي الكثير عن ذلك.

جزم سولانكا أنت تعلمين كم كان لهذا الأمر الكريه أن يعمل على تحطيم حياتي».

كانت عينا ميلا ميلو الخضروان تتقدان. اقتربت وأخذت يديه بين يديها.

«لا أظن شيئًا من هذا. قالت، حياتك ليست محطمة. هيا، أيها الأستاذ فما هذه إلا دمى».

[8]

«أحيانًا، لديك تعبير، يذكرني بوالدي قبل أن يموت، قالت ميلا ميلو التي لم تكن تدرك، ضمن لا مبالاتها، التأثير الذي كان من الممكن لهذه الجملة أن تحدثه على سولانكا. . كان هذا غامضًا، غموض صورة ارتجفت يد مصورها قليلاً. روبن ويليام في ذلك الفيلم الذي لا يزال فيه مشوش الوضوح، ذات يوم، سألت والدي عما كان يعنيه ذلك التعبير، فقال لي بأنه كان تعبيرًا لشخص قضى كثيرًا من الوقت مع كائنات إنسانية أخرى، نحن محكومون بالعيش مع الآخرين، كان يقول، إنه سجن شاق، وأحيانًا تصبح بحاجة إلى الهروب من هذا السجن، لقد كان كاتبًا، بالحري شاعرًا، وكاتبًا مسرحيًا أيضًا، لم يتسن لك أن تسمع به. في صربية الكرواتية كانوا يعتبرونه أكثر من جيد، رائعًا فعلاً في الواقع، وواحدًا من أفضل الجديرين بجائزة نوبل، كما يقول الفرنسيون، لكنه لم يتلق الجائزة إطلاقًا. هو لم يعمر طويلاً، لكن صدقني كان طيبًا، بصلته الوثيقة مع الطبيعة، بمشاعره إزاء الأقدمين والفولكلور: لقد كان فريدًا من نوعه. شياطين صغيرة تنبثق من بين الأزهار. كنت أعاكسه، إني أفضل الزهرة من قلب الشيطان كان يجيب. ذكرى نهر عابر براق يسير بطيئًا في قلب الشيطان. لا بدَّ لك أن تعرف بأن الدين كان مهمًا بالنسبة له. كان يعيش جل وقته في المدينة، لكن روحه كانت في الهضاب. نفس هرمة، هكذا كان الناس ينادونه. لكن قلبه كان فتيًا، هل تعلم أيضًا؟ صبي ساعٍ فعلاً. ولجلِّ الوقت. لا أعلم ماذا كان يفعل. لم يعط حريته مطلقًا. وكانوا يضايقونه. لقد سكنا في باريس لسنوات، بعد أن كان قد انشق عن تيتو. ارتدت المدرسة الأميركية حتى سن الثامنة، أو التاسعة تقريبًا، ولسوء الحظ فقد توفيت والدتي عندما كان لي

من العمر ثلاثة أعوام، ثلاثة أعوام ونصف، إنه سرطان الثدي، وهكذا فلم يكن بمقدورنا أن نفعل شيئًا إزاء ذلك. لقد قتلها سريعًا وبشكل مؤلم. رحمة الله على روحها. باختصار، كان يتلقى رسائل من الوطن، وكنت أنا من يفضها له، على الصفحة الأولى لرسالة لم أعد أعرف ممن، من أخته، أو من أحد آخر، كان يوجد هذا الختم الذي يقول: «هذه الرسالة لم تراقب» آه وسط أعوام الثمانينات. رافقته إلى نيويورك من أجل حضور ذلك المؤتمر الشهير نادي N.E.P.: المؤتمر الذي كان يشمل كل تلك المهرجانات، واحد في معبد «داندور» في متحف متروبوليتان، وآخر في شقة سول وغايفريد ستانبرغ، لم يستطع أحد أن يقول أيهما كان أكثر اعتبارًا، كان نورمان ميلر قد دعا جورج تشوتز إلى مخاطبة دار الكتب الحكومية، وفي الحال قاطع، الأفارقة الجنوبيون الحدث لأنه مؤيِّدًا للتمييز العنصري وقد تمنع الأشخاص القائمون على حماية وأمن تشوتز عن السماح لسول بجلوي بالدخول لأنه نسي بطاقة دعوته، الأمر الذي جعل منه إرهابيًا محتملاً، فتدخل ميلر أخيرًا. لا بد أن بيلوي كان يعشق هذا!

احتجَّت الكاتبات، لأن المشاركين كانوا كلهم تقريبًا رجالاً، كانت سوزان سونتاج أو نادين غورديمر من اعترضت، لقد قالت نادين أو سوزان، نسيت أيهما، إن الأدب لم يكن موظفًا مؤيدًا للمساواة بين الجنسين وأظن أن سانثيا أوزيك قد اتهمت برونو كرايسكي بعدائه للسامية في حين أنه كان على الصعيد (أ) يهوديًا وعلى الصعيد (ب) الرجل السياسي الأوروبي الذي استقبل اللاجئين اليهود الروس، وكل هذا لأنه استقبل عرفات مرة واحدة. إن هذا يعني إذن أن إيهود باراك وكلينتون هما أيضًا معاديان عُجُزِيَّان للساميين، أليس كذلك؟ أقصد في كامب ديڤيد، سيكون في هذا أمية المعاداة للسامية، باختصار، فإن أبي قد تكلم أيضًا، كان للمؤتمر في نهجه عنوان خلبي «قدرة الكاتب المبدعة مقابل قدرة الدولة المبدعة»، بعد ذلك قال أحدهم، نسيت من يكون، بريتانباس أو أوزي، أو سواهما، بأن الدولة لا تملك قدرة مبدعة، وأبي رد بالعكس، إنها

لا تملك القدرة المبدعة فحسب، بل تملك أيضًا روح الفكاهة، ومضى إلى أن ضرب مثلاً عن هزلة أبدعتها الدولة، إذ روى قصة الرسالة التي لم تراقب، كنت أنا أيضًا هناك وسط الجمهور، مفتخرة للغاية لأن كل الناس كانوا يضحكون، إذ أنني أنا في الواقع من فضت الرسالة، حضرت معه كل أدوار الانعقاد، وبالطبع كنت مجنونة بالكتاب، كنت ابنة كاتب، ولا شيء في حياتي كان يعلو على الكتب. كان رائعًا بالنسبة لي أن تركوني أحضر كل شيء، مع أنني لم أكن بلغت سن الرشد بعد، كان رائعًا أيضًا أن رأيت والدي محترمًا جدًا وسط أقرانه، زد على ذلك فقد التقيت هناك كل تلك الأسماء التي كانت تتحرك أمامي بقضها وقضيضها، دونالد بارثيلم، غانترا غراس وجيسلاو ملوز، وغراس بالي، وجون يوبديك، كل العالم، إنما في النهاية كان لأبي ذلك التعبير الغريب، الذي لديك مثله أنت، لقد تركني مع الخالة كيتي. إنها ليست خالتي الحقيقية، كان لأبي ولها مغامرة، من نوع الدقائق الخمس، كان لا بد لك من أن تراه مع نساء، فهو رجل جنسي بيدين ضخمتين، وشاربين كثَّين، كأنه ستالين، أظن، كان ينظر النساء في عيونهن، ويأخذ بالتحدث إليهن عن الحيوانات الحائلة، عن الذئبات مثلاً، لقد أتقن الدور، وهن وقعن تحت تأثير سحره، أقسم لك بأن النساء كن يقفن في الطابور، كان يذهب إلى غرفته ورتل من المصطفات ينتظرن دورهن، رتل حقيقي كما في السينما، وأجمل النساء اللواتي كان من الممكن للمرء أن يتخيلهن، كانت ركبهن ترتجف من الرغبة. من حسن حظي أني كنت مولعة بالقراءة، ومن ثم فقد كان هناك تلفاز أميركي لبعض من الوقت، فكنت إذن أمكث قريرة العين في الغرفة الثانية. مع ذلك فقد كانت تراودني الرغبة دومًا بأن أخرج من غرفتي وأسأل أولئك النسوة اللواتي كن ينتظرن دورهن مطولاً في مكانهن أليس لديكن شيء أفضل من ذلك تقمن به؟ إن الأمر يتعلق بطعمها، ابنة الكلب، فلا تضعن وقتكن. ياه، لم أكن قادرة على جرح مشاعر الناس، لقد كبرت سريعًا، أظن لأننا كنا دائمًا أبي وأنا، دائمًا هو وأنا، في خلاف العالم. باختصار إذن فإنه كان يحب الخالة كيتي فعلاً، كان لا

بد لها من أن تكون قد أتقنت فن الإصغاء، وكان عليها كتعويض أن تهتم بي طيلة أسبوعين، سيقوم أبي خلالهما برحلة طويلة إلى الأبالاش، مع أستاذين آخرين على ما أعتقد. كان يحب القيام برحلات طويلة كي يتطهر من جرعاته الاجتماعية، وكان يعود دائمًا بتعبير آخر، أكثر جلاءً، هل فهمت؟ كنت أسمي هذا حالته الموسوية. موسى الذي هبط من الجبل بالوصايا العشر، ما عدا أنها كانت عند والدي قصائد. وكي نوجز إذن، فإنه لم يمض أكثر من خمس دقائق على انقضاء تصومعه في الجبل، حتى عرضت عليه وظيفة في جامعة كولومبيا، فرحلنا نهائيًا إلى نيويورك، مما راق لي كثيرًا بالطبع، أما هو، فكما أسلفت كان واحدًا من أبناء الريف، وأوروبيًا صلبًا، مما جعل ذلك شاقًا بالنسبة إليه لكنه كان قد عود نفسه على العمل في أية ظروف كانت، وعلى أن يأخذ من الحياة ما كانت تعطيه إليه. حسن، كان يشرب كيوغوسلافي حقيقي، ويدخن مائة لفافة في اليوم تقريبًا وكانت عنده مشاكل في القلب، وكان يعلم بأنه سيموت شابًا ربما، لكنه اختار غزيرة البقاء الذاتي لحياته.. كما في الزنجي النرجسي سأعيش إلى أن أموت. وكان هذا ما فعله، كتب أشياء رائعة، كان مقدسًا، مدخَّنًا كعامل إطفاء، يشرب أفضل أنواع الكحول، ثم حدثت تلك الحرب المهلكة. ودون أي توقع صار إلى ذلك الرجل الذي لم أكن أعرفه، هذا.. هذا الصربي.. أنت تعلم، كان يحتقر ذلك الرجل الذي كان يدعوه ميلوزيفيتش الآخر. فكان مما يمقته أن يحمل نفسه اسمه ولهذا فقد غيره. كي يفرق بين ميلو الشاعر وميلوزيفيتش الإنسان الفاشي القذر. بعد ذلك، كان هناك الجنون جنون مستقبل يوغوسلافية السابقة، إنه لم يتحمل تصوير الصرب على أنهم مخربون مع أنه كان متفقًا في المجمل على التحليل الذي قاموا به عن طبيعة عمل وتخبطات ميلوزيفيتش في كرواتيا أولاً ثم في البوسنة إثر ذلك بقليل، لقد اضطرم قلبه نتيجة لكل الخطاب المعادي للصرب، وفي نوبة جنون صمم على أن واجبه كان يقضي بالعودة من أجل تجسيد صغير الوطن الأخلاقي، أنت ترى، لكأنه ستيفان دودالوس، في مصهر نفسه التي كانت

تختزل إسهابات الثرثرة أو كأنه سولجنيتسين[1] صربي. لقد طلبت منه أن يوقف هذا السيرك، ومهما يكن من أمر فقد كان سولجنيتسين، إن لم يكن ممسوس ولاية فيرمونت العجوز الذي كان يحلم بأن يصبح نبيًا في وطنه الأم روسيا، لكن أحدًا، بعد أن عاد إلى أرض الوطن، لم يرد الإصغاء إلى كلامه القديم المكرر حقًا لا ينبغي عليك أن تفعل ذلك يا أبي، نهجك الخاص، هو النساء، لفائف التبغ، الكحول، الجبال والعمل، العمل، العمل، ما كنا نتصوره هو أن تترك هذه الأشياء تقتلك، حسن، وأن تتجنب ميلوزيفيتش وجُرَّاريه، ناهيك عن القنابل. لكنه لم يصغ إلي، وبدلاً من أن يتوقف عند أحكام اللعبة المعيَّنة، فقد قفز إلى طائرة ووجد نفسه هناك وهو في حمأة غضب. هذا هو ما كنت قد بدأت بقوله لك، لا تحدثني عن الغضب، فأنا أعلم ما يمكن له أن يفعل.

أميركا، وبسبب سلطتها المطلقة تخر خوفًا؛ إنها تخاف غضب العالم، تعطيه اسمًا آخر: الحسد، أخيرًا هذا ما كان يقوله أبي، إنهم يظنون أننا نريد أن نكون بدائلهم، كان يقوله بعد بضع كؤوس مترعة، لكننا فعلاً فعلاً قد خرجنا عن طورنا، ولا حول لنا في ذلك بعد. أنت ترى، كان يعلم ما كان هذا، إنه الغضب. لكنه أغفل كل ما كان يعلمه، وتصرف كأبله تمامًا. لأن الغضب وبعد زهاء خمس دقائق من هبوطه على أرض بلغراد ـ أو ربما بعد خمس ساعات، خمسة أيام، حسن، لا أهمية لذلك ـ مزقه إلى ألف مزقة، وإنهم لم يجدوا من قطع جسده ما يكفي لملء علبة. إنها قصص دميتك صدقًا أيها الأستاذ، تبًا دعني أفرح».

كان الطقس قد تغير. والقيظ الذي أنبأ عن بداية الصيف لم يدم. كان هناك الكثير من الغيم ومن المطر أيضًا. وكانت النهارات التي تبدأ بحرارة مرتفعة تأخذ تميل إلى البرودة فجأة حالما تنتهي فترة الظهيرة، فتجعل الصبايا اللواتي

---

(١) كاتب روسي ولد ١٩١٨.

يرتدين الثياب الصيفية يرتجفن، وكذلك الحال بالنسبة للرجال العراة الجذوع الذين كانوا يجوبون السنترال بارك على مزاليجهم ذوات العجلات، وقد وضعوا تلك الأحزمة الجلدية الغريبة المشبوكة على صدورهم، كمِسحٍ نسّاك إراديين في أسفل صدَّاراتهم. على وجوه هؤلاء المواطنين كان البروفسور سولانكا يلمح مخاوف جديدة؛ فالأشياء التي كانوا يهدأون إليها في فترات صيف اصطيافية، ووقود رخيص من دافيدون وأورلاندو هيرناندز، كل هذا أخذ يهم إلى السقوط. طائرة كونكورد تحطمت في فرنسا، فظن الناس أنهم يرون جزءًا من أحلام مستقبلهم، ذلك المستقبل الذي ربما سيكسرون فيه القضبان التي تحبسهم خلفها، هذا المستقبل الخيالي الذي ربما سيتحررون فيه من كل قيدٰ، يتفجر متشظيًا بشكل مرعب.

العصر الذهبي، لا بد من أن ينتهي هو أيضًا، مثلما انتهت العصور المشابهة ضمن الديمومة الإنسانية. ربما كادت الحقيقة تبدأ بشق دربها وسط وعي الناس، لكأنها الرذاذ الخفيف الذي تتساقط قطراته على ياقات معاطفهم المطرية المرفوعة كخنجر صغير يندس في زرد ثقتهم. في هذه السنة للانتخابات الرئاسية، كانت الثقة الأميركية هي عملة التبادل، لم يكن من الممكن أن يشك بوجودها. وكان الحكام ينسبون الفضل في ذلك إلى أنفسهم، وكان معارضوهم لا يعترفون لهم بهذا الفضل واصفين الازدهار على أنه فعل إلهي، أو على أنه من فعل غريانسبان، مدير المصرف المركزي الأميركي. لكنها فطرتنا، كائنة ما كانت، الارتياب القابع في صميم ما نحن عليه، الارتياب بذاته، الإحساس بأن شيئًا لم ينقش في الحجر، وبأن كل شيء يتفكك، مثلما كان يردد ماركس دائمًا، في مزبلة الأفكار العظيمة، في تلك القديسة هيلانة المفكرة التي نفي إليها، فكل ما هو جامد يتبخر في الهواء. في هذا المناخ المعمم، أين كان من الممكن لمخاوفنا أن تعشش؟ مم كانت تتغذى؟ ربما من أنفسنا، فكر سولانكا فطالما كان الدولار يهيمن كسيد، وأميركا تروض العالم، كانت الاضطرابات النفسية والانزياغات من كل الأنواع تترعرع مبتهجة جدًا.

فباسم هذه الخطابة المدعية لأميركا أعيد طلاؤها بالذهب من جديد، أميركا موحدة، أمريكا هذه بوظائفها الجديدة البالغة اثنين وعشرين مليون وظيفة وبأعلى نسبة من الملاكين العقاريين عبر كل الأزمان، ومع هذا الائتمان الأميركي الكبير للموازنة، والعجز الأدنى ومعايير البورصة المتصاعدة، كان الناس مجهدين، كانوا يقرقعون ولا يتكلمون إلا عن ذلك طوال النهار مستعينين بكميات كبيرة من الكليشيهات المزركشة.

عند الشباب، ورثة الرخاء، كانت المشكلة أكثر خطورة؛ كانت ميلا تحمل تربيتها الباريسية الابتدارية المتطرّفة، وتتحدث عن اضطراب معاصريها بازدراء. كل الناس خائفون، كانت تقول، كل هؤلاء الذين تعرفهم كانوا يحاولون عبثًا أن يتظاهروا بالبشاشة، لكنهم كانوا يرتجفون من داخلهم، ولا أهمية تذكر لأنهم كانوا أغبياء. كان الارتباك أسوأ أيضًا، «لم يكن الصبيان يعرفون لا متى ولا أين يلامسون البنات، والبنات لا يكدن يفرقن بين الرغبة والتعدي، المغازلة والعنف، الحب والاغتصاب». عندما كان كل ما يلمسنه شيئًا كان أو كائنًا بشريًا يتحول إلى ذهب، مثلما كان الملك ميداس[1] قد تعود أن يفعل في تلك الحكاية الأخرى، حيث كان لا بد للمرء من أن ينتبه إلى ما كانت تعبر عنه، لقد انتهوا جميعًا إلى أن أصبحوا غير قادرين على لمس أي شيء كان، أو أي كائن بشري كان.

كانت ميلا هي أيضًا قد تغيرت في تلك الأزمنة الأخيرة، لكن التحول في مثل حالتها، كان يمثل برأي البروفسور سولانكا تحسنًا معتبرًا بالنسبة إلى الفتاة الصغيرة غير المسؤولة التي كانت تتقمص شخصية أنصاف المغنيات اللواتي يراهقن متأخرات. وكي تبقى ميلا مع عشيقها الرياضي المدلل في المدرسة ـ والذي وصفته لسولانكا على أنه «ليس نبراسًا، لكنه لطيف جدًا». والذي لا

---

(١) ملك من آسية الصغرى عاش في القرن الثامن قبل الميلاد، كان يحول كل ما يلمسه إلى ذهب.

يمكن لامرأة ذكية ومثقفة إلا أن تكون خطرًا ومبعدًا بالنسبة له، فقد عزمت على أن تكون متيقظة. ليس تمامًا. وهذا مسلم به: لقد نجحت في نهاية المطاف، في جر صديقها الصغير وسائر الزمرة إلى معض كيشلاوسكي الاستعادي، مما يعني أنهم لم يكونوا بلهاء بالقدر الذي كانوا يبدون عليه، أو أنها كانت تمتلك إذن على قدرات على الاقناع أقوى مما كان يظن سولانكا. يومًا بعد يوم، كانت تتحول في نظر سولانكا إلى امرأة فطنة مرهفة العقل. أخذت تزوره في أية ساعة كانت؛ حتى في الصباح الباكر ـ كي تجبره على تناول الفطور ـ كان معتادًا على عدم أكل أي شيء قبل المساء، وهي عادة كانت تصفها «بأنها بربرية تمامًا، وسيئة للغاية»، فأخذ هو بالتالي يتعلم أسرار حساء الشعير والنخالة الخشنة، ويتناول حبة فاكهة مع قهوته كل صباح أو خلال ساعات بعد الظهر الحارقة المخصصة عادة للعلاقات غير المشروعة، لكنها لم تكن تبدو بأنها تفكر في الحب. كانت تعوِّده على بعض الملذات البسيطة: شاي أخضر بالعسل، فسح في سنترال بارك، تأمل الواجهات البللورية «أستاذ، الموقف خطير، لا بد لنا، وفوريًا من اتخاذ إجراءات دراكونية من أجل إكسائك بالشكل اللائق» ـ ارتياد القبة الفلكية الاصطناعية حتى. كان يمكث معها في مركز الانفجار العظيم، حاسر الرأس، وبوضعية مسترخية، منتعلاً أول خفافة رياضية امتلكها منذ ثلاثين عامًا، وقد تملكه الإحساس بأن له عمر أسمعان ـ أو ربما أكثر قليلاً ـ وأن أمه ترافقه.

التفتَتْ نحوه، انحنت قليلاً، لقد كانت أطول قامة منه بخمسة عشر سنتيمترًا على الأقل، لأنها كانت تنتعل حذاءً ذا كعب عالٍ، وأخذت وجهه بين يديها.

«فُرِجَتْ أيها الأستاذ، ها أنت على خط الانطلاق من جديد. وعلاوة على ذلك فأنت لائق الهندام. تشجع أيها الصبي اللطيف. جميل أن يرجع المرء العداد إلى الصفر». من حولها، مرحلة جديدة من الزمن كانت تبدأ. وهكذا فقد بدأ كل شيء: بم تطايرت الأشياء متشظية. لم يكن المركز يقاوم أبدًا لكن

ولادة الكون كانت مجازًا (يِيْشْ) وهميًا. وما تلا ذلك لم يكن إلا مجرد الفوضى التي وصفها. كانت المادة تلتحم بالمادة، وكان الحساء الأولي يتكثف. ثم انبثقت النجوم، والكواكب، والأجسام وحيدة الخلايا، والأسماك، والصحافيون، والديناصورات، والمحامون والثدييات. الحياة. الحياة. انهض يا فينينغان[1]. انتصب يا فاين ميك كؤول. وأنت يا بلوم اللين الدماغ.

كانت تأتي أيضًا من أجل التحدث، وكأن الحياة قد بعثت فيها من خلال رغبة عميقة في التبادلية. كانت تعبر حينئذ عن نفسها بصدق واندفاع شبه مرعبين، دون أي احتراس. إنما لم يكن في مناجاتها شيء من التضارب، إذ لم تكن تلك الحالات من المناجاة ترمي إلا إلى الصداقة. سولانكا الذي فهم طرحها، استمد منه سكينة كبرى، فهو غالبًا ما كان يخرج من هذه المحادثات مهتديًا وقد قطف خطفًا، إن صح التعبير، مقتطفات من الحكمة.

أتبار من المتعة كانت تركن في كل مكان تقريبًا. لكأنها ألعاب مهملة في ثنايا خطابها. هذا، بينما كانت تفسر لسولانكا مثلًا، لماذا رماها واحد من أصدقائها القدامى الصغار، الأمر الذي لم تكن تستطيع أن تصدقه:

«لقد كان مكتنزًا بالمال، وهذا ما وضعه أمام مشكلة. في حين أنني وفي ذلك العمر، لم أكن أملك الوحدة».

الوحدة؟ أحدهم ـ جاك رينيهارت ـ كان قد وضَّح إلى سولانكا بأن الكلمة كانت تعني أعضاء الرجل التناسلية ضمن بعض الأندية الأميركية التي تؤمن بالتفوق الذكوري على المرأة، إنما لم يكن لغياب هذه الأشياء أن يؤدي بميلا إلى السقوط. كانت ميلا تشرح له الكلمة، كما لو كانت تتوجه إلى طفل بليد الذهن، لكنه وديع. معتمدة لهجة مرشد المعتوهين، هذه اللهجة التي سمعها سولانكا تتبناها من وقت إلى آخر عندما كانت تتحدث إلى إيدي.

---

(١) شخصية من رواية ووك للكاتب جايمس. جويس.

«وحدة يا أستاذ تعادل مائة مليون دولار».

لقد ذُهل سولانكا بالجمال الذي باح بهذه الحقيقة. إنه بداية عصر المليون سانتيم: السعر الحالي كي يقبل أحدهم في شانزيليزيه الولايات المتحدة. تلك هي حياة الشباب في أميركا الألفية الثالثة التي بدأ لتوها. أن يحكم على فتاة ذات جمال استثنائي وعلى قدر كبير من الذكاء بهذا الشكل الضرائبي، كان يكشف فقط إلى أي مدى كانت المعايير الأميركية ـ صرح سولانكا إلى ميلا باستهجان كبير ـ تتجاوز في مادة الحب، أو أضعف الإيمان، في مادة الجنس، أسعار العقارات».

«نِعْمَ ما قلت يا أستاذ» أجابت ميلا، ثم انفجر الاثنان ضاحكين، ضحكًا لم يكن سولانكا سمعه منذ عهد بعيد، ضحك شباب أطلقوا له العنان.

لقد أدرك أنها عملت منه واحدًا من مشاريعها. خصوصية ميلا كانت بأنها كانت تجمع وتصلح الأشخاص الذين طاولهم التلف. وعندما سألها عن ذلك أجابت بمنتهى الصراحة:

«هذا هو ما أجيد القيام به. أصلح الناس. بعض الأشخاص يرممون البيوت، أما أنا، أعيد الجدَّة للناس».

لقد كان في نظرها أشبه ما يكون ببيت عتيق، أو على الأقل بتلك الشقة القديمة التي استأجرها إيجار الباطن في اللوبَرْ ويست سايْد، هذا المكان الجميل الذي لم يضف إليه أي تجديد منذ أعوام الستينات والذي أصبح يعيي النظر. لقد أعلنت أن ساعة تجديد كل شيء قد حانت، الواجهة كما الداخل.

«حسن، بما أننا لن نثبت إسقالة تعج بالدهانين البنجابيين الصاخبين والمتخلفين الذين يدخنون بيديس». أجاب.

«لقد أنهى عمال المبنى عملهم بنجاح. لحسن الحظ، ولم تعد هناك إلا الحلبة الملازمة لشوارع مدينة كبيرة. لكنَّ تلك الجلبة صارت تبدو مذ ذاك خافتة».

رفعت ميلا الحجاب عن أصدقائها، مصاصي دماء شارع ٧٠، الذين لم يعودوا في نظر سولانكا مجرد بنائين يركِّبون الحجارة المنحوتة. لقد أثرت عليهم، وكانت تفخر بنجاحها الذي كان نجاحهم هم أيضًا.

«لقد كلف هذا وقتًا ـ كانوا يحبون نظاراتهم المدرسية فعلاً، وبنطلوناتهم المخملية القذرة. أما الآن، فلي الشرف بتوجيه عصابة المجانين المتفرعة في نيويورك. وعندما أقول مجانين أيها الأستاذ، فأنا أقصد عباقرة. هؤلاء الصبية المفرطي البرودة، وعندما أقول البارد فأنا أعني الجهنمي.

هل هو الفيليبان من نشر فيروس I Love You ـ أحبك؟ دعني أضحك. لقد كان هذا دونيًا، أما أنا فأحدثك عن بلاط العظماء، وتأكد، لو أن هؤلاء الغلمان قذفوا بيل غايت بفيروس لأمضى ما تبقى من عمره في العطاس. إن أمامك نوعًا من سيَّافين يوقعون الخوف في قلب إمبراطور اشر، مقنعين طفقوا يعملون في حركة منظمة من أجل حماية سلامتهم، كي ينجوا من تيقظ إمبراطورية آل دارث ڤادور الأسود ومول الأحمر. آه، أجل صحيح. أنت لا تحب حرب النجوم لنقل إذن إنهم كألعوبات أحميهم من سورن الرب الأسود ومن أشباح عقدته فرزودون، وبيلبون وسام غارميجي، ومن كل جمعيته الأخوية إلى اليوم الذي سنهدم أو نحرق فيه مقر قيادته العامة في جبال الظل: لا تحسبني مازحة. لماذا كان «غات» يخاف من منافسيه وقد سحقهم جميعًا. هؤلاء ليسوا أرقّاء. لقد صفّاهم، مما جعل الكوابيس تلاحقه، من أن ينزل طفل صغير في منطقة نفوذه اكتشافًا جهنميًا. نوع من خدعة سترسل الصديق «بيل» ربما إلى الزنزانات المظلمة. وهاك لماذا هو مستمر في افتداء الناس مثلنا، إنه مستعد لأنه يخسر اليوم بضعة ملايين بدلاً من أن يخسر مليارات يوم غد. ياه، إني متفقة مع المحاكم، يجب شطر إمبراطورية ميكروسوفت إلى اثنتين، وخير البر عاجله. في غضون ذلك، سنملك مشاريعنا. أنا؟ نادني، «يودا» إني أتكلم بالمقلوب، وبالمقلوب أفكر. أستطيع أن أقلب «أنت» رأسًا على عقب. هل تظن أن القوة

ستكون معك؟ إنها أقوى في داخلي فعلاً. جزمت وقد كَفَّتَ عن تغيير صوتها بسخف. اختصاصي هو الإدارة. وأيضًا المبيع والتسويق والدعاية. إنها عواقب وليست حالات نفس. حسن؟ ماذا تسمي جماعتي مصاصي الدماء؟ إنهم فنانون ومبدعون. عناكب شبكة الأنترنت، وإننا الآن في سياق إيجاد مواقع حتى من أجل ستيف مارتان، وآل باتشينو ومليسا إيثيريدج، ووارن بيتي، وكريستينا ريكسي، وويل سميث، ودوني رودمان، وماريون جون، وكريستينا آغويليرا، وجينيفير لوبيز، وتود سولوندز و NSYNS الأمر جدي، أليس كذلك؟ إننا في الداخل فعلاً، Com Ed، فيريزون، بريتاتيش، تليكوم، نوكيا، قناة إضافية، منذ أن صار الأمر يتعلق بوسائل الإعلام. إن هذا قريب جدًا. فنحن موجودون.

هل ما يلزمك هو مثقّفون؟ إن رجالي ما يفتأون يتلقون دعوات من بوب ويلسون، من مسرح تاليا وهامبورغ، ومن الغلام الجريء روبيرت. لقد سبق وقلت لك ذلك: إنهم مرمَّقون. إنها شريعة الغرب اليوم يا أستاذ، وهم، هم العصابة المقيدة بقيد البازي. أحب. بوتش، ساندانس وكل الصبية الفاسدين. أنا أعمل بحسب دالتون، وأنا من يسيِّر المركب».

إنه إذن لم يقدرهم حق قدرهم. لقد كانوا فتيانًا عباقرة ما عدا إيدي. كانوا جند انقضاض تكنولوجية المستقبل الذين كان يغذي منهم أهم ظنونه، ما عدا إيدي مرة أخرى. لكن إيدي، كان المشروع الذي يمثل ذروة طموح ميلا ميلو «قبل مجيئك أنت» «ومن ثم قالت، فإنه لديكما، أنت وإيدي أكثر ما تتصور من النقاط المشتركة».

كان إيدي يمتلك قدرة تحرُّك مكَّنته من الابتعاد بلا مشقّة عن محلته المنعزلة، مسقط رأسه، والوصول إلى جامعة كولومبيا، وبدقة أكبر إلى سرير ميلا ميلو، باعتباره واحدًا من أكبر الأمكنة المرغوبة في سوق مانهاتّن العقارية ولا أهمية في النهاية إلى أية مسافة ستنجح في قذف الكرة. إنك لا تستطيع قتل الماضي. في الماضي وفي بلوك سيتي، في ولاية اللاكرامة عاش إيدي طفولة مأسوية

فظيعة. قدمت ميلا إلى سولانكا وصفًا عن محركي القضية الأساسيين بهيبتهم التي جعلتهم أشبه ما يكونون بالتماثيل الإغريقية. كان هناك ريمون عم إيدي، بطل فيتنام الذي مكث متخفيًا طيلة سنوات في كوخ في «يونابومبر» وسط الجبال المشرفة على المدينة، والذي كان يقوم نفسه على أنه غير جدير بالحياة الاجتماعية، بسبب نفسيته الممزقة. ريمون فورد، كان نزوعًا إلى سورات غضب عنيفة، كان من الممكن لها أن تتفجر في ذلك المكان المعزول بسبب صوت شاحنة تسير خلف الوادي، أو بسبب سقوط شجرة، أو غناء عصفور. وكان هنالك «محتاله الماكر، الذي يصدر فحيحًا كالأفعى»، أخوه «توب» ميكانيكي ووالد سيودي إيدي، مقامر، يدعو إلى الرثاء، سكير رديء أيضًا، ومتملص كبير، وغدره بحياتيهما. وأخيرًا كانت هناك جودي كارڤَرْ، والدة إيدي التي كفت عن معاشرة بابا نويل ويسوع الصغير. وكانت تمضي إلى الجبال كل أسبوع، مدفوعة بكرمها، إلى أن نجحت. بعد خمسة عشر عامًا. وحيث كان عمر إيدي عشرة أعوام، بالعودة بالمتوحد إلى المسكن.

كان إيدي، في الوقت نفسه، يهاب، ويوقر عمه الأشعث النتن، كانت المسافات التي توصل إلى كوخ «ريمون» ترتسم وسط تجارب وذكريات طفولته الأكثر عظمة وأهمية. «لقد كانت جديرة بفيلم سينمائي» كان يقول.

(بعد عيد ميلاده الخامس، بدأت جودي تصطحبه على أمل إعادة ريمون، بأن تجلو له المستقبل، ومعتمدة على دماثة طبع إيدي، كي تستميل قلب المتنسِّك). عندما كانا يتسلقان الهضاب، كانت جودي تغني أغاني قديمة لآيو غوثري وكان إيدي يرافقها في الغناء:

«في يوم مضى أفقتُ. حدثت نفسي بأني سأذهب لأرى ريمون، نهضت عندئذ ورحت أرى ريمون، لكن كل ما قاله لي هو: لا أريد خداعًا، ما أريده بالضبط، هو أن أقوم بجولة على الدراجة النارية...». إنما ليس ريمون هذا نفسه من كان المقصود. لم يكن لدى ريمون الذي نحن بصدده هارلي، ولم

تكن هناك أليس بمطعم أو بدونه. كان يقتات بالفاصولياء، وبالدرنيات، وبالتأكيد أيضًا بالحشرات والميكروبات، افترض إيدي، وبالأفاعي الملتقطة بأيدٍ عزلاء، وبالنسور التي كان يقبض عليها وهي محلقة في طيرانها. كان ريمون هذا غريب الأطوار كمجنون، وكانت أسنانه كخشب متعفن نتن، ونفس يمكن له أن يرديك قتيلا وأنت على بعد اثنتي عشرة خطوة منه، ومع ذلك فقد ظل الـ ريمون الذي كانت جودي كارڤَرْ لا تزال ترى فيه الولد النبيل المنطلق إلى الحرب، الولد الذي كان يعرف كيف يثني مستطيل الورق الفضي الذي كان يجده في علب السجائر، ليصنع منه تماثيل صغيرة تقف لوحدها. والذي كان يقد من خشب الصنوبر تماثيل بنات صغيرة كان يقايضها بقبلة. (دمى، فكر سولانكا بانذهال. من المستحيل الإفلات من ڤودو قديمة. تبًا، قصة أخرى تتحدث عن مبدع دمى! سانيازي آخر أكثر واقعية مني، انسحب من المجتمع بطريقة نسكية فعلاً. لكنه يشبهني، لأنه أراد أن يودي بنفسه إلى الهلاك، مذعورًا مما كان يرقد تحت السطح، والذي كان يهدد بتجاوز العالم الساقط وبتحطيمه). كانت جودي هي أيضًا قد احتضنت ريمون في الماضي، قبل أن تقترف الغلطة القاتلة بأن فضلت «توب» عليه. توب الذي هرب بسبب عاهة في ظهره من الجندية، لكنها كانت تدين نفسها على الدوام، بدلاً من أن تدينه، مع أن أحدًا لم يكن بوسعه أن يفعل شيئًا حياله ما عدا ريمون. حدثت نفسها. لو أن ريمون هبط من مخبئه، لكان في ذلك علامة ولتغيرت أمور كثيرة، ولراح الأخوان يصطادان، ويلعبان البولينغ معًا، لربما كان من الممكن لها عندئذ أن تكون قريرة العين أخيرًا، خرج ريمون فورد من عزلته نظيفًا ومحلوقًا، يرتدي قميصًا نظيفًا وقد تأنق في لباسه لدرجة أن إيدي لم يتعرف عليه لدى وصوله إلى منزلهم. لقد أعدت جودي وجبة فاخرة كوجبة العيد، هذه الوليمة من المعجنات والتونا التي قدمتها إثر ذلك إلى بابا نويل وإلى يسوع، في البداية، سار كل شيء على ما يرام لم يكن أحد يتكلم كثيرًا، لكن كل ناس مجتمع الحضيض ذاك، كانوا قد تعودوا على العيش في ذات المنزل.

عندما قدمت البوظة، استهل العم ريمون الحديث. فـ «جودي» لم تكن الكائن البشري الوحيد الذي كان يزوره في الغابات.

«أحد آخر جاء». قال محرجًا «امرأة باسم هاتي. كارول هاتي. كانت تعلم أن هناك أناسًا فرض عليهم أن يعيشوا في الغابات، ونظرًا لطيبة قلبها، فقد كانت تأتي لرؤيتنا، ولتحضر لنا الملابس والفطائر، كل هذا، علمًا بأن متمترسين كانوا هناك حتى، في الأعلى، مستعدين لتلقي أي قادم، يقترب منهم على مسافة عشر خطوات على الأقل، بضربة فأس سواء أكان رجلًا أم امرأة، أم طفلًا، أم كلبًا مسعورًا» طالما كان العم ريمون يحدثهم عن تلك المرأة، كانت الحمرة تعلو وجهه، وكان يبدو متوترًا على كرسيه.

«هل هي تهمك كثيرًا يا ريمون؟ سألته جودي. هل تود أن تدعوها؟» عندئذ، أخذ الماكر الذي أصبح يفح متلونًا كالأفعى، في الطرف الآخر من المائدة، يكيل لنفسه الصفعات على فخذيه، مقهقهًا بطريقة بذيئة، تتضمن إهانة المحتال المحتج الماكر، ملتويًا من الضحك حتى فاضت عيناه بالدموع، ثم هب واقفًا بوثبة واحدة قلبت الكرسي وهو يقول: «أوه أوه كارول هاتي، أعطني هنا قرب مأدبة العشاء الكبير في هوبر ستريت أيتها الكارول هاتي».

أيها الورع، قل إذن، لم أكن أظن أنها كانت تأتي لتطلب منك خدمة إضافية في الجيش. أيها المرهف ريمون. إنك لست في المعمعة بعد. نحن دحرناها. كارول هذه منذ كان عمرها خمسة عشر عامًا ومنذ أن طلبت ذلك. التفت ريمون عندئذ نحو الصغير إيدي، وتفرّسه بهيئة مذعورة. فهم إيدي الذي كان لا يزال في العاشرة من عمره أن عمّه قد طعن بخنجر في ظهره لأن ريمون فورد كان قد اعترف بأسلوبه بأنه لم ينزل من معقله حُبًّا بأسرته وإكرامًا لإيدي، كما كانت تفصح نظرته ـ بل حُبًّا بتلك المرأة التي كان يحسبها طيبة، بعد كل تلك السنوات التي مضت دون أن يهدأ غضبه وعلى أمل أن تضع كل هذه الأشياء بلسمها على قلبه، لكنَّ توب قد أتى على تفجير كل هذه المناطيد الجميلة طاعنًا له قلبه مرّتين بطعنة واحدة.

عندما فرغ توب من حديثه، وقف ريمون فأخذت جودي تزجرهما كليهما، جاهدة لإبقاء الطفل خلفها. لأن هذا الماكر المحتال الخائن المتلون زوجها، كان يحمل بيده مسدسًا صغيرًا ويوجهه إلى قلب أخيه.

«هيًا، هيًا يا ريمون، قال توب مبتسمًا، علينا ألا ننسى ما ذكر في الكتاب المقدس عن الحب الأخوي».

غادر ريمون فورد المنزل، وقد استبد الذعر بجودي التي طفقت تنشد: «كان الوقت متأخرًا البارحة مساءً، عندما سمعت صفق باب المدخل»، انصرف توب عندئذ هو أيضًا معلنًا بأنه لا يطيق موقف المغفل هذا وأنها كانت تستطيع أن تمضي إلى حيث كان يفكر، وإذا كنت لا تثمنين ملاحظات زوجك، فما عليك إلا أن تذهبي وتمارسي الجنس مع الأبله ريمون هذا. ذهب توب يلعب الورق في مرأب كوريفان حيث كان يعمل، وقبل الفجر بقليل عثروا على جسد كارول هاتي في زقاق، مهشمة القذال، وعلى جسد ريمون في مقبرة الآليات الصدئة خلف المرأب، ورصاصة في وسط قلبه، إنما تعذر العثور على السلاح.

في اليوم نفسه توارى الماكر الأفعى المحتال، ولم يعد إطلاقًا من لعب الورق، وعلى الرغم من أن أوامر البحث قد أعلنت في خمس ولايات فإن أحدًا لم يعثر له على أي أثر. كانت والدة إيدي تعتبر من جهتها أن هذا النذل الحقير كان أفعى متنكرة في إنسان لقد كفاه أن نكث بوعوده فانسلخ من جلده البشري، ذلك الجلد الذي تحول حالاً إلى غبار. إنه لم يكن حية تلفت الانتباه في سيتي ـ بلوك، حيث كانت بيوت الرب هناك ملأى بالأفاعي ذات الأجراس، والتي كانت تبشر بالدين فضلاً عن ذلك.

ليختفِ! قالت، لو أني أعرف أنني كنت متزوجة من أفعى، لتجرعت السم قبل أن أنذر النذور.

واست جودي نفسها وهي تكدس الجاك دانييل وجيم بيم، لكن إيدي فورد، بعد كل ما حصل قد تلفع بالصمت، ولم يكن ينطق أكثر من عشرين كلمة في

اليوم. كعمِّه إنما دون أن يغادر المدينة، انعزل عن العالم حبيس قوَّتين متعارضتين في جسده، وعلى مرِّ السنين، فقد وضع كل طاقته في خدمة كرة القدم. قاذفًا الكرة التي لم يسبق لكرة على الإطلاق أن قذفت بأقوى وأبعد منها في سيتي ـ بلوك، كما لو أنه كان يستطيع، بقذفها إلى ما وراء الأفق، أن يتخلص من لعنة سلالته، كما لو أن الحرية كانت تجربة مجمَّلة. لقد انتهى مسارها المقذوف بأن أوصله إلى ميلا التي خلصته من شياطينه، واقتلعته من منفاه الداخلي، واستمدت هي المتعة من هذا الجسد الرائع الذي كان قد جعل منه سجنًا، مانحة إياه بالمقابل، صداقتها، وجماعة، والعالم مع ذلك، حدَّث نفسه البروفسور سولانكا، فإن الغضب كان مسيطرًا عليه. كان يكفي أن يصيخ سمعه كي يسمع في كل لحظة خفقات أجنحة الآلهة الكئيبة تيزيفون وآلكتون وميجير: لقد كان الإغريق القدماء يخافونها أيّما خوف بحيث إنهم لم يكونوا يتجرّأون على مناداتها بأسمائها الحقيقيّة فلفظ الاسم «إيريني» Erynnies[1] كان يعني مخاطرة المرء أن يجرّ على نفسه غضب تلك السيّدات القاتل. وهاكم لماذا ينعتون الثالوث الجهنمي على سبيل السخرية بـ les Eumemides «الخيّرات» لكنّ التّورية، للأسف، لم تكن لتلطف من طبعهنّ بشيء.

لقد رفض في البداية، أن يعتبر ميلا كتجسيد ثان لسرڤليت: ليست سرڤليت الوهمية التي حرفتها وسائط الإعلام: سِرْڤليت الخائنة، سِرْڤليت شارع أمهات الأدمغة التي أُجريت لها الجراحة العصبيّة الفضّيّة، بل النسخة الأصليّة المهملة «سرفليت» البدايات، نجم مغامرات سِرْڤليت. في بداية الأمر، حدث نفسه بأنه كان مخطئًا لو نظر هكذا إلى ميلا على أنها دمية، لكنه انقلب نفسه: ألم تكن قد اتخذت من سِرْڤليت الأولية قدوة، وإلهامًا؟ ألم يكن واضحًا بأنها قد اضطلعت من أجله بدور الأصلية التي فقدها؟ لقد عرف الآن أن ميلا كانت امرأة شابة بمنتهى الذكاء، ولا بد أنها حدست الاستقبال الذي من الممكن أن يتلقاه عرض

---

(١) آلهة الثأر عند الإغريق.

مشهدها. أجل عمدًا وكلي تنقذه، فقد فكت له هذا اللغز الذي كان يستجيب لأعمق وأدق رغباته. وشيئًا فشيئًا قبل سولانكا، إنما ليس دون خجل، أن يعتبرها إذن كاختراعه، مجسَّدة بناء على معجزة غير متوقعة، وستحرص عليه كما كانت ستفعل البنت التي لم يرزق بها.

ذات يوم، بدرت منه زلة فضحته، لكن ميلا لم تبد متضايقة إطلاقًا، لقد ابتسمت له حتى بابتسامة متغاضية كانت تتموج بمتعة شهوانية غريبة، كان لا بد لسولانكا من أن يعترف بذلك، كان ينعكس فيها شيء أشبه ما يكون برضا الصياد المثابر عندما تعلق السمكة بالطعم أخيرًا، ويفرح الملقِّن المستتر عندما يحفظ في النهاية دورًا رئيسيًا كان قد كرره مئة مرة ـ وبدلاً من أن تستدرك ذلك فقد أجابت كما لو أنه نطق اسمها الحقيقي، وليس اسم الدمية. خجل سولانكا خجلاً بالغًا أشبه ما يكون بعار الزاني، وحين تلعثم لسانه ببعض الاعتذارات، اقتربت منه، فحفَّ نهداها بقميصه، وأحس بأنفاسها تلامس شفتيه وهمست: «أيها الأستاذ، نادي ما شئت. إن كان هذا يسرك، فإنه لا يزعجني». لذلك فقد صارا يغوصان في الاستيهام يومًا بعد يوم وأكثر فأكثر. وحدهما في شقته، بعد ظهر كل يوم من ذلك الصيف الماطر، يلعبان لعبة البابا وابنته الصغيرة، اضطلعت ميلا ميلو بدور الدمية بأناة، وأخذت تبرع أكثر في تقمص زي أيقونة البدايات تلك، مجسدة سيناريوات مستمدة من برامجها الأولى أمام سولانكا المضطرم. وهو كان يمثل دور مكيافيللي، وماركس، أو غاليلي على الغالب، بينما كانت هي إذن تمتثل لأعراف الأيقونة المشتهاة. كانت تجلس بالقرب من كرسيه، وتدلل قدميه، بينما كان هو يولد الحوار بالتنافس، موضحًا لها فلسفة كبار عقول العالم؛ ثم وبعد أن كانت تبقى لوقت عند قدميه، كانت تسرف في حميميتها المؤلمة، حتى ولو كانا حريصين على وضع وسادة لينة بين جسد ميلا وجسده، بحيث إنه لو حصل وانتفض في حضورها، هو الذي أقسم بألا يضاجع أية امرأة أخرى ـ كما كان من الممكن أن يحصل لدى أي رجل آخر حانث لليمين، لما استطاعت أن تعرف عن ذلك شيئًا، لم يكونا يتحدثان عن

ذلك أبدًا، ولم يكن مضطرًا إطلاقًا لأن يعترف بمواطن ضعف جسده الهشة، أحيانًا. كغاندي الذي كان يجابه التجارب البراهماتية، عندما كانت تتمدد زوجات أصدقائه بقربه ليلاً، كي يستطيع أن يتحقق من سلطة العقل الكلية على الجسد: كان يحافظ على مظاهر اللياقة وهي أيضًا أجل هي أيضًا.

[9]

كان أسمعان يغلُّ فيه كشفرة: أسمعان الصباح، الفخور بتأديه أعماله الطبيعية بشكل صحيح، أمام تصفيق جمهور متقلِّص لكنه متأهب. أسمعان الذي كان يتجسد صباحًا في جنديٍّ درّاج، في مُعَسْكرٍ في مخيَّم، في إمبراطور جائع، في أكول مُنْعَم، في أكول بائس، في نجمة الأغنية، في نجمة نزويّه، في عامل إطفاء، في رائد فضاء، في باتمان. أسمعان بعد العشاء الذي كانوا يوفرون له قضاء ساعة أمام التلفاز كي يشاهد حلقة من سلسلة أفلام والت ديزني. . . كانت حلقة «قاضي الغابات» مرغوبة جدًا مع عبثيّها «نوتينغ هام» وكونتري ـ ويسترن وصوره الباهتة للبالو والكافي «كتاب الغاب»، ولكنته الأميركية السليمة وسط غابة تشيروود، وهذه الصرخة التي ما زالت غامضة إلى الآن صرخة ديزني الإنجليزية: «غابة ـ ليللي!»، لكنّ قصّة الدمية كانت ممنوعة.

«هل هنالك طفل مهيف داهلها؟»، أي هل هنالك طفل مخيف داخلها؟ في الواقع، إن الطفل الذي نحن بصدده كان مرعبًا. لأنه رفض بمرارة كل ألعابه القديمة. كان الحب الخائب يرعب أسمعان. وكان متشبِّعًا بالألعاب أكثر من صاحبها. فالألعاب كانت أطفال الولد، وحقيقة أنه نفر منها، كانت، ضمن العالم الأخلاقي لأسمعان ذي الثلاثة الأعوام، جريمة بشعة لا تطاق (كما الموت. في القراءة التعديلية التي قام بها أسمعان لبترْبان، القبطان سنّارة كان يفلت منهجيًّا من التمساح)، بعد أسمعان ـ ڤيديو، كان يأتي أسمعان الغروب، أسمعان الذي يتقبل بصمود أن تفرك له إيليانور أسنانه وهو يعلن على سبيل الاحتياط «لن يغسلوا لي شعري اليوم»، وأخيرًا أسمعان النائم وهو يمسك بيد أبيه.

لقد اعتاد اسمعان أن يتلفن بأبيه، دون أن يقيم اعتبارًا لفارق الساعات الخمس في التوقيت.

كانت إيليانور قد خزنت رقمه النيويوركي في ذاكرة الجهاز في مطبخ منزل ويلو رود وكل ما كان على أسمعان أن يفعله، هو بأن يضغط على زر. ألو بابا، ويصله الصوت القادم من وراء الأطلنطي. (المكالمة الأولى كانت عند الساعة الخامسة صباحًا). لقد لهوت كثيرًا في المنتزع بابا. في المنتزه يا أسمعان: صحَّح له سولانكا النائم. قل في المنتزه. المنتزع. أين أنت بابا، في المنزل؟ ألن تعود؟ سيكون لا بدَّ لي من أن أضعك في سيَّارة، لا بدَّ من اصطحابك إلى الألجوحة. الأرجوحة. قل الأرجوحة. سيكون لا بدَّ لي من أن أصطحبك إلى الألجوحة بابا. لقد دفعني مورغان عاليًا. هل تريد أن تحدل لي هدية بابا؟ أن تحضر أسمعان أنا أعرف أنك تستطيع أن تلفظها، هل تريد أن تحدِل لي هدية بابا؟ هل ستعجبني كثيرًا؟ لن تسافر بعد يا أبي. لا أريدك أن تسافر. لقد أكلت قطعة كاتو على شكل تنساح في المنتزع. إنه مورغان من اشتراها لي. لقد كان لذيذة جدًا. تمساح يا أسمعان. قل تمساح. ثم.. ساح.

عندئذ تدخلت إيليانور:

«أنا أسفة، لقد نزل وضغط بنفسه على الزّر. إني لم أسمع شيئًا.

ـ أوه، ما من مشكلة. وتلا ذلك صمت طويل.

ثم قالت إيليانور بنبرة مضطربة:

«مليك، أنا لا أفهم شيئًا مما يجري، إني أوشك على الانهيار، أنا لا أستطيع... إن كنت لا تود المجيء إلى لندن، فهل سيكون بإمكاني أن أستقلَّ.. سيكون بإمكاني أن أترك أسمعان لجدَّيه، وسيكون في مقدورنا أن نوضح كل هذا، لست أدري، ماذا؟ فأنا لا أعرف حتى ما الموضوع، ألن يكون من الممكن إيجاد حل؟ أم أنك صرت الآن تمقتني، هل فجأة صرت أكدرك لسبب أجهله؟ هل هنالك أحد آخر؟ لا بدَّ أن هناك أحدًا أليس كذلك؟

أرجوك قل لي من يكون، سأستطيع عندئذ أن أفهم، وسألقي عليك بسخطي، اللعنة، بدلاً من أن أجنَّ جنونًا بطيئًا».

في الواقع، لم يكن في صوتها أي شيء ينم عن الغضب، ومع ذلك فقد هجرها دون أن يترك لها أي تفسير. سينتهي القصاص بالشكل الصحيح عاجلاً أم آجلاً بأن يتحوَّل إلى غضب. ربما أنها ستترك المجال لمحاميها في التعبير عن ذلك نيابة عنها، وربما ستثير عليه غضب العدالة الهادئ. لكنه لم يستطع أن يرى فيها برونيسلاوا رينيهارت أخرى. فهي بكل بساطة لم تكن ذات طبع انتقامي. أما أن يكون هناك قليل جدًا من الغضب فهذا هو اللاإنساني، بل المرعب. إلا إذا كان هذا يؤكد ما كان يعتقده الناس، وما كان مورغان ولين فرانز قد أدليا به، بأنها هي الفاضلة بين الاثنين، وأنها كانت في غاية الصفاء بالنسبة له، وأنها ستصبح بدونه على خير ما يرام بمجرد أن تقهر ألمها، إنما لم يكن في هذا شيء من عزاء لا لها ولا للطفل يأخذه على عاتقه من لم يكن يتجرأ على العودة، حرصًا على سلامة الولد. لأنه كان يعلم بأنه لم يتخلص من سورات غضبه.

غضب مستمر. لكنه مرتعد. يستمر في الفوران وفي التصاعد داخله، مهدِّدًا بطغيان لا يمكن تداركه. ويتحول إلى ثورة بركان عنيف، وُهِبَ حياة خاصة، وكأنه لم يعد إلا وعاءها، نزيلها، ولكأن العنف قد صار طاغية مضرَّساً. فعلى الرغم من إنجازات العالم الراقية ظاهريًا، فإن العصر كان يبدو تافهًا وكل شيء كان يبدو قابلاً للفهم والتفسير. بيد أن البروفسور سولانكا، المليك سولانكا الذي تنبه حديثًا إلى المتعذر التفسير، القابع داخله طوال حياته قد انتسب إلى هذا الحزب التافه، حزب العقل والعلم البدئي الأكثر شمولية «المعرفة»، لكنَّ ما كان يجيش في داخله، على الرغم من ذلك، وحتى في هذه الأزمنة التي رصدت بالمقراب والتي استفاضوا في تفسيرها، كان يتحدى كل تفسير. في داخلنا يقبع هذا الشيء. لا بدَّ من التسليم بذلك، هذا الشيء النزوي والذي

لا يستطيع إدراك لغته المنطوقة أحدٌ. لقد خُلقْنا من الظلام مثلما خُلِقْنا من النور، من الحرارة مثلما من الغبار. لا يمكن لمذهب الطبيعة الفلسفي، لفلسفة المرئي، أن تحتوينا، لأننا نطفح. نحن نخاف هذا الأنا الغامض والمطمور الذي تجاوز الحدَّ، ينكث، ينسلخ، يخرق، يتدخلُ فيما لا يعنيه. إنه هو الشبح الحقيقي في الآلة. إنه غير موجود لا على حوافٍّ ولا ضمن فلك خالد افتراضًا، إنما هنا على الأرض. وإذا ما تحرر العقل من أغلال وعينا، فإنه يستطيع أن يستحيل إلى حُنق مُثار بعبوديَّته، وأن يدمِّر عالم الحكمة.

من الممكن لما هو صحيح بالنسبة له أن يكون كذلك أيضًا، ضمن حدٍّ ما، بالنسبة لكل العالم. كان الكوكب بأسره يجلس على ديناميت، كانت كل معدة تعرف ألم السكين، وكل ظهر يعرف لسعة السوط. لقد كنَّا جميعًا مشطورين بشكل ظالم. انفجارات كان يرجِّع دويُّها من كل حدب وصوب. لقد ظهرت الحياة من حينها في اللحظة التي سبقت الغضب. عندما كان الغضب يتصاعد، أو خلال الهيجان عندما كان الوحش الأصحر قد أفلت، أو إثر التوازن العنيف مباشرة، عندما كان الغضب ينحسر، والعماء يتكدَّس، قبل عودة المدّ والجزر. لقد أصبحت فوّهات البراكين ـ في المدن، في الصحارى، في الأمم، في القلب ـ أماكن عامة للجميع. كان الناس يتدافعون باضطراب وينضوون داخل أنقاض آثامهم.

على الرغم من كل العناية الشخصية التي كانت ميلا تحيطه بها (أو بسببها على الأرجح) فِإن الأستاذ سولانكا، كان لا يزال في لحظات أرقه المتكرّرة بحاجة إلى تسكين أفكاره المضطربة وهو يجوب شوارع المدينة لساعات، تحت المطر حتى. بالقرب جدًا من بيته، كانت جادة آمستردام محفرة، بما فيها الرصيف والطريق المعبّدة (في أيام خلت كان يتولد لدى المرء انطباع بأن المدينة كانت تعمّر). ذات مساء، وبينما كان يمشي تحت المطر الرّذّاذ تارة

واللاسع تارة أخرى، متحاشيًا الخندق المسيّج بطريقة بدائية، إذا بقدمه ترتطم بشيء ما بقوة، أطلق سيلاً من الشتائم استمرّ ثلاث دقائق، إثر ذلك سمع صوتًا تعجبيًّا يعلو من تحت مشمّع في فرجة باب: «أعتقد بأني أتيت إلى إغناء مفرداتي»، انحنى سولانكا كي يرى ما رضّ قدمه، وهناك وعلى ذات الرصيف، اكتشف قطعة من قالب إسمنت، ابتعد في الحال، وهو يعرج بطريقة مغيظة هاربًا من كسرة الإسمنت هذه، كمجرم يبتعد عن أماكن جريمته.

منذ أن تركّز التحرّي في الجرائم الاجتماعية على الشبان الثلاثة المترفين أخذ يتنّفس الصعداء، حتى ولو أنه لم يكن قد شعر في سريرته ببراءته تمامًا بعد. كان يتابع تطوّرات التحرّي باهتمام، لم تكن قد حدثت بعد توقيفات ولا اعترافات، وكانت وسائط الإعلام قد بدأت تفقد السيطرة على زمام الأمور. ففرضيّة قاتل من طبقة رفيعة كانت أكثر من مثيرة، وكون شرطة نيويورك لم تفلح باستجلاء القضية زاد الموقف إحباطًا أيضًا. لكنهم عذّبوا هؤلاء الشبّان المفذلكين بالدولاب! انتهى الأمر فعلاً بواحد منهم إلى أن تكسَّر مفرقعًا!

هذا النموذج من التعليقات الذي عمّ الشارع، خلق بسرعة جوًّا تلنيشيًّا قليل الجاذبية. وما كان لافتًا بالنسبة إلى سولانكا هو الخبر الوحيد الممكن: اقتفاء الأثر.

لقد استبدل رجل قبعة القش بصفته الشخصية الدرامية لهذا اللغز، بمجموعة من أفراد أغرب منه أيضًا. كانوا قد لمحوا في أماكن حدوث الجريمة أشخاصًا تزيُّوا بزيِّ شخصيات والت ديزني: كلب أسترالي مجنون بالقرب من جثَّة لورا كلان، وباز بالقرب من جثة بِلاندا بوكِنْ، وغير بعيد عن جثة ساسكيا شوايْلر، كان أحد المارّة قد ميز ثعلبًا أصهب يرتدي الأخضر الزيتي: إنه قاضي الغابات نفسه مضطهد الشريف نوتينغ مهم المهيب هذا، والذي كان يتحدى شرفاء مانهاتن:

غابة ليلي! كان رجال المباحث يعترفون بأنه كان من المستحيل بالنسبة لهم إقامة أي رابط مهم بين المشبوهين الثلاثة، حتى أن التزامن كان مدهشًا فعلاً ـ عدّة شهور كانت قد مرّت على عشيّة ٣١ أكتوبر (عشيّة عيد القدّيسين) ولمّا يتبيّنوا أي أثر.

في أذهان الأطفال تبدو مخلوقات العالم الخيالي ـ الشخصيات المتحدّرة من الكتب، أفلام الفيديو، ومن الأغاني ـ أكثر واقعية من معظم الناس، فكّر سولانكا، باستثناء ذويهم.

مع تقدم العمر يصبح التناسب معكوسًا، والخلق الخيالي ينحي هذه الحقيقة المغايرة في هذا العالم المستقل، الذي تنتمي إليه. هكذا كانوا يشرحون لنا. والحال كذلك، فقد كانوا يقفون هنا على دليل متجهّم للقدرة التجاوزية للخلق الخيالي في تجاوز هذه الحدود غير النّفوذة بحسب ما يزعمون. كان عالم أسمعان ـ ديزني وارلد ـ يتطاول على نيويورك فيلغي شابات مدنيّات. ولد أو عدة أولاد شغبين كانوا يتخفّون في مكان ما ضمن فيلم الفيديو هذا.

على الأقل، فقد استغرقت هذا لحظة بحيث إن القاتل يطوب الإسمنت لم يكن قد ضرب. وسولانكا الذي كان ممتنًّا إلى ميلا، كونها نجحت فعلاً بجعله يقلّل من الشرب كثيرًا، الأمر الذي نتج عنه توقف حماقاته الهستيرية، لم يعد يستيقظ وهو في كامل ثيابه مع أسئلة رهيبة معلّقة في رأسه المتوجّع، حتى أنه كان يعيش لحظات يشعر فيها، عندما كان يستسلم لسحر ميلا، وللمرة الأولى منذ أشهر بأنه كان يلامس ضربًا من السعادة. لكنّ الآلهة الكئيبة قد نثرت عدوانيتها في قلبه. إلاّ أنه كان يشعر بنفسه وطالما كانت ميلا بالقرب منه في هذا المكان الملبّس بالحجارة البيض، واللذان لم يكونا يكلّفان نفسيهما عناء إشعال المصابيح فيه عندما تكون السمّاء مكدّرة بالعواصف محميًّا بهالة فتنتها السحرية. لكنها ما كانت تغادر، حتى كانت الأصوات الصّاخبة تأخذ بالرّنين في رأسه من جديد. الوشوشات وخفقات الأجنحة السوداء.

بعد مكالمته الهاتفية الأولى مع أسمعان وإيليانور عند الفجر، وحيث كان السكّين يعذّبه، فإن الأصوات الصّاخبة أخذت وللمرّة الأولى تهاجم ميلا، ملاك رحمته، ودميته المتحرّكة، إنه وجهها ضمن الغبش، بتعابيره المترصّدة التي كانت تنتقّل خلف قميصه نصف المزرّر، وشعرها الكثيف الذهبي الضارب إلى الحمرة، والذي كان يدغدغ أسفل ذقنه. لقد أوقفت التشكلات الجديدة للبرامج القديمة، وكانت الصورة قد أتمت صنيعها. في تلك الآونة، وخلال ساعات فترة ما بعد الظهر الطويلة التي كانا يقضيانها وسط نور خفيف، كانا لا يكادان يتكلمان، وإذا ما تكلما، فإن ذلك الكلام قد أصبح كلامًا غير فلسفي. أحيانًا كانت ميلا تلحس له صدره خلسة. كل الناس لديهم الرغبة في اللعب بالدمية. كانت تهمس. أيها الأستاذ، يا لك من رجل غاضب مسكين، ليس هناك ما يدعو إلى التعجّل، لا تتعجل، لن أذهب إلى أيّ مكان، ولن يزعجنا أحد، أنا تحت تصرّفك. استرخ. لم تعد بحاجة إلى ذلك الغضب. كل ما أنت بحاجة إليه بالضبط هو أن تتذكّر كيف يلعبون. كانت أصابعهم الطويلة ذات الأظافر الحمر القانية تتدرّج يوميًا في توغّلها الطفيف تحت قميصه.

كانت تتمتع بذاكرة فيزيولوجية خارقة. في كل مرّة كانت تأتي لزيارته، كانت تستعيد تمامًا، وضعيّتها على سرج سرواله المبطّن، الوضعية التي كانت وضعيتها عند زيارتها السابقة. وضعية رأسها، يديها، توتّر جسدها المنثني على نفسه، تأثيرها عينه عليه: منتهى دقة الحافظة والتهيُّج الموسوس لهذه المتغيرات. كانا بذاتهما بمثابة جماع جنسي عجيب. لأن لعبهما كان في كل مرّة يزداد تهذُّبًا، هكذا كانت ميلا تثبت إلى البروفسور سولانكا في كل مداعبة. كان لتلك المداعبات المقوّية التي كانت ميلا تغدق بها على البروفسور سولانكا تأثير كهربائي عالٍ، ولم يكن قد خطر في باله إن كانت هكذا نعمة لا تزال جائزة لمن هو في عمره وفي ظرفه. أجل، لقد أدارت له رأسه، كأن شيئًا لم يكن، والآن فقد علق في أحابيلها. ملكة الشّبكة، قائدة رهط الإنترنت حجزته حبيسًا في نسيج عنكبوتها.

لقد طرأ تحول آخر. فمثلما أن اسم دمية قد أفلت من لسانه، عرضًا، أو تحت ضغط رغبة لا شعورية، لقد زلّ لسانها هي أيضًا عصر يوم بكلمة محرّمة. في الحال، نور ساطع ومبين طرد العتمة من الصّالون، لكأنه سحر، وأناطت ميلا ميلو اللثام عن ماضيها أمام سولانكا. كنّا بابا وأنا نخالف كل العالم. صرّحت ذات يوم. هناك كان يكمن السر. في تلك الكلمات الصريحة. لقد وضعته عند أقدام سولانكا وهو لم يرَ شيئًا (أوْ لم يكن يريد أنِ يرى) مما باحت به جهارًا وبفجور. لكنّ سولانكا وبما أنه كان يتفرّسها بعد هذه «السقطة» ـ التي لم تكن زلّتها ـ كان شبه مقتنع بذلك، لأن هذه المرأة قد حُبِيَتْ قدرة خارقة على السيطرة على نفسها، هي، غير النزوع إلى مثل هذه العوارض ـ القسمات الناطقة والمرمّزة، العيان المائلتان، باختصار هذا الوجه الذي لا يكون عصيًّا بهذا القدر إلاّ عندما يكون بوّاحًا، قد أفشى سره أخيرًا.

بابي، كانت قد تفوّهت بهذه اللفظة العطوف، هذا التصغير الخادع الذي كان حكرًا بشكل مزعوم، على أب متوفى، لعب دور المفتاح السحري وفتح مغارة طفولته المظلمة. هناك كان يعيش الشاعر الأرمل وابنته المبتسرة.

وسادة وضعت على ركبتيْ والدها وهي قد فركت جسمها عليها، وانطوت على نفسها على مرّ السنين كي تجفّف دموع العار التي كانت تنهمر من عينيها. لقد صارت البنت التي تسعى كي تعوِّض إلى والدها خسارة المرأة التي أحبها، كي تخفف جزئيًا خسارتها وهي تتشبث بالوحيد الذي بقي لها من أبويْها. بل أيضًا كي تخلف تلك المرأة في قلب والدها، ولتملأ الفراغ الأمومي والمكان الشاغر أكثر مما كانت تملأه والدتها المتوفاة. فكان لا بد لأبيها أديبًا من أن يشتهيها أكثر مما لم يسبق له أن اشتهى زوجته على الإطلاق. لا بد أنها منحته فسحة جديدة من الرغبة إلى أن اشتهاها بقدرة لم يكن يتصورها في اشتهاء معاشرة امرأة، هذا الأب ـ وبعد أن خبر سولانا قدرات ميلا، لم يكن يشك

أبدًا بما جرى ـ قد تملَّكه على مهل إغراء طفلته، فانجذب ميليمترًا إثر ميليمتر إلى بلد مجهول، إلى جريمة كانت ستبقى سرًّا مكتومًا إلى الأبد، والكاتب الكبير، الكاتب الجدير بجائزة نوبل، ضمير شعبه ارتضى لهاتين اليدين الخبيرتين بشكل مرعب أن تلامسا أزرار قميصه، قبل أخيرًا بما لا يقبل، متجاوزًا الحد الذي لا رجعة له، وشرع في غمرة العذابات، إنما بتلذذ، يستجيب إلى مبادراتها. هذا الرَّجل المتديِّن للغاية، قد غرق قلبًا وقالبًا في الخطيئة القاتلة، وقد أرغمته الرغبة على الكفر بالله وتوقيع ميثاق مع الشيطان، بينما كان عفريته الصغير، ابنته، يبتهج، وبينما كان الشيطان الخبيث في قلب الزهرة ينطق بصوتٍ خافتٍ بألفاظٍ خادعةٍ ومدوخة كانت تلتهمه: إن شيئًا لم يكن طالما أننا نحن لم نتكلم عنه، ونحن لن نتكلم عنه، بابي، إذن فإن شيئًا لم يكن، لم يكن. ما من سوء كان في هذا. كان الشاعر المتوفَّى قد اقتحم هذا العالم الوهمي والذي كان يدفع منه كل خطر، ولا يطال التمساح، فيه كلاب سمكة القبطان، والذي لن ينفر فيه طفل من ألعابه إطلاقًا.

لقد استشف مليك سولانكا إذن أنا عشيقته الدفين وقال:

«هذا صدى يا ميلا، أليس كذلك، تكرار، لقد سبق لك ولعبت مرة هذه اللعبة» استدرك الفكرة في قرارة نفسه حالاً: لا، لا تنخدع، لقد لعبت هذه اللعبة مرّات عديدة. أنت لست أوَّلهم.

«اسكت، قالت وهي تضع إحدى أصابعها عرضًا على شفتيه! سكت، بابي، لا، لم يحصل أي شيء في الماضي، ولم يحصل أي شيء الآن».

لقد كان في هذا الاستخدام الثاني للقب الأثيم، ظلٌّ من التماس. لقد علقت العنكبوتة في نسيجها الدافني الذي نسجته بنفسها. وخضعت لرجال كسولانكا، كي تنتزع ببطء، ببطء شديد، عشيقها من مملكة الأموات، أشكر الله الذي لا وجود له، لأنه لم يرزقني ببنت، فكر سولانكا. ثم ضيق عليه الغم. يرزقني بنتًا، أنا من خسرت ابني أيضًا. الأيقونة إيليان عادت إلى كاردُناس في كوبا.

مع أبيها، وأنا لا أستطيع العودة إلى ابني. كانت شفتا ميلا تمران على عنقه وتدغدغان له تفاحة آدم. لقد أحسَّ برشف رقيق فتراجع الألم. وشيء آخر اختفى أيضًا. لقد انتزعت منه كلماته. كانت تجوّفها وتبتلعها ولن يكون بإمكانه أن يلفظها بعد إطلاقًا، تلك الكلمات التي كانت تصف ما لم يكن قد وجد أبدًا، ما لم تكن عنكبوتته الساحرة تدعه يحصل في ذاتها الملكيّة الداكنة.

وإذا ما كانت تقتاتُ بغضبها؟ تساءل سولانكا مذعورًا وإذا كان ما يخشاه هو كا كان هدف جوعها: هذا الحنق الإلفي[1] المستعر والدفين: لأنها هي أيضًا كانت تنقاد إلى الغضب. كان يعرف ذلك. إلى الغضب المتوحش والمتصلف لرغبتها الخفية. في هذه اللحظة من التَجلي. لم يكن من المستبعد على سولانكا في الواقع أن يحسب هذه المرأة الملعونة الجميلة والشابة التي كانت تهز ركبتيها بفتور معبِّر جدًا، وتلامس بأصابعها شعر صدره بأصابع رقيقة رقة نسيم الصيف، وترشف مزدردة بشفتيها النديَّتينْ تجسيدًا لواحدة من أخوات الجحيم الثلاث، آفات الإنسانية. كان الشر من فطرتهن الإلهية، وغضبهنَّ الغامر على البشر كان طعامهن المفضّل. لم يكن من المستبعد أن يكون خلف هذه الهمسات الصماء، هذه النبرات الثابتة بلا كلل، صرخات آلهة الثأر التي كان يسمعها.

صفحة أخرى من ماضيها، أنيط عنها اللثام.

تلك التي كان يرى فيها ميلو بقلبه الهش. هذا الإنسان الموهوب والمسكون، كان قد ضرب عرض الحائط بالآراء الطيبة، واستمر بإفراط شبه هزلي في الشرب والتدخين ومعاشرة النساء. لقد رأت ابنته في هذا السلوك، الزخرفة الرائعة للمذهب الكونرادي: لا بد للحياة أن تعاش إلى أن تنعدم، إمكانية وجودها. لكنَّ صورة أخرى للشاعر كانت ترتسم أمام عيني سولانكا

---

(١) Elfe: جنّيٌّ صغير في أساطير اسكنديناڤيا يرمز إلى النار والهواء.

المفتوحتين، صورة فنّان لاذ بالإدمان إثر خطيئة فاحشة، فارًا مما كان يعتبره الموت بعينه، الهلاك الأبدي في أكثر دوائر الجحيم إرعابًا.

ثم جاء السَّفر الأخير، فرار بابي ميلا الانتحاري نحو مُجانسة القاتل. وهنا أيضًا، أدرك سولانكا شيئًا آخر مختلفًا تمامًا عما كانت تقصده ميلا. بفراره من الشيطان، قد ارتمى بين ذراعي ما كان يقدر أنه يشكل خطرًا أصغر. لقد ابتعد عن الجنيَّة الجشعة، ابنته، وهرع نحو اسمه الكامل، التام، ونحو ذاته. ميلا، حدث نفسه سولانكا، لا بد أنك أنت من جعلت أباك مجنونًا، ودفعته إلى الانتحار، ماذا تدخرين لي، أنا الآن؟

بهذا فقد حصل على جواب مرعب. لثام لم يكن أسقط بعد، هذه المرة، عن قصته هو. لقد عرف منذ اللحظة الأولى لهذه العلاقة غير المشروعة بأنه كان يلعب بالنار، وأن كل ما طمره في أعماقه كان يتحرك، وأن الأختام قد تحطمت الواحد تلو الآخر، وأن الماضي الذي هدمه تقريبًا، كان يُرى وهو يوفر فرصة جديدة لإنهاء الشغل. وأن مرنانات كانت هناك، بين هذه القصة الطريفة واللاإرادية وبين تلك المخنوقة، مرنانات تصنع لنفسها صدًى ويتعذَّر التعبير عنها. فمسألة التحوُّل إلى دمية، و. . .، الاستسلام للعمل بفعل. . عدم امتلاك خيار آخر سوى. . . استعباد الطفولة عندما. . . للرغبة: هذا، ذاك، الأقسى ما يكون من قدرة الأطباء على. . . من عجز الأطفال في مواجهة. . . من براءة الطفولة في مواجهة. . . من إحساس الأطفال بالإثم، من خطيئته الخاصة، من خطيئته المرعبة جدًا. وبخاصة من مسألة الحمل التي لا يجوز للمرء أن يكملها، لأن إتمامها يعني إطلاقك العنان للغضب، وبذلك ستحطِّم فوهة بركان هذا الانفجار كل ما هو موجود في السدود. أيّها الضعف، الضعف! إنه لم يوفَّق في طرد ميلا. حتى وهو يفهمها مثلما كان يفهمها حينئذ، حتى وهو يفهم ما كانت قادرة عليه، حتى وهو يتنبَّأ بالخطر الذي كان يهدده هو، لم يكن قادرًا أن يوعز إليها بالانصراف. إنسان فانٍ

يمارس الحب مع إلهة، هو إنسان حكم عليه بالموت، لكنه لا يستطيع الهروب من قدره بمجرَّد أن يصبح من المصطفين. استمرت في مجيئها لرؤيته، متزينة كثيرًا، تمامًا كما كان يريد لها أن تكون، وكل يوم كان يجرُّ تطورًا جديدًا. كانت القنَّة الثلجية تأخذ بالذوبان، وقريبًا سيرتفع منسوب مياه المحيط عاليًا وسيغرقان لا محال. مذ ذاك، صار يشعر بنفسه عندما كان يغادر شقته، كمن نام وقتًا طويلاً ثم أفاق.

في الخارج، في أميركا، كل شيء كان شديد الإشعاع، شديد الصَّخب، شديد الغرابة، لقد تحولت المدنية إلى فناء دواجن إلى مُنْجَزٍ مضحك. في لانكون سنتر صادف سولانكا الديك هدسون والقنفذ فورد. أمام مسرح باكون، ثالوث من مغنيات محترفات بقرون وأثداء. تابع مشهده: الخروف وينتنيْ، السيلندر ماريه، والآنسة ميدلر البقرية. مروَّعًا من تكاثر هذه الماشية الجناسية، تولد لدى البروفسور سولانكا الإحساس بأنه هبط لتوِّه من القمر أو من جزيرة أقزام غاليفر، أو كي يكون صريحًا من لندن. كان يشعر بنفسه مغتَّمًا أمام الطوابع البريدية، وفواتير الغاز والكهرباء والهاتف التي كانت تأتي كل شهر بشكل غير متوقَّع، أو بالحري كل ثلاثة أشهر، وتجاه الماركات المجهولة لمعامل السكاكر في المخازنَ (توينكي، هو هوز، رينغ بوبس)، مقابل الشرطة المسلحة في الشوارع، والوجوه المجهولة في المجلات، والتي كان الأميركيون يتعرفون عليها في الحال، تجاه كلمات الأغاني الشعبية المتعذرة التهجئة، والتي سرعان ما كانت الآذان الأميركية تفهم ظاهرها بسهولة. تجاه المقطع الأخير للأسماء الذي شدد عليه بقوة مثل فارار، هايل، كاندل وتجاه حروف e التي سحقت في a وإكسبريشن Expression[١] صارت تلفظ اكسبرُسيون axprossion اكسبرسيون» باختصار نتيجة لجهله الكبير، من ناحية التمازج القارِثِ لما يحصل يوميًا في أميركة. كانت مذكَّرات سِرْڤليت تملأ واجهات المكتبات مثلما في

---

(١) في العربية تعني عبارة أو تعبير.

إنجلترا، لكنه لم يكن يستمد من ذلك أي سرور. كتاب شعبيون آخرون معاصرون ومشهورون كانوا بالنسبة له مجهولين:

إيجَرْ، ميلشر: كان من الممكن له أن يحسب أسماءهم ماركات مياه غازية، لا كتَّاب كتب العصر الأكثر رواجًا.

غالبًا ما كان يحصل لسولانكا أن يلمح وهو عائد إلى بيته، إيدي، السانتوريون[1] الأشقر، جالسًا وحده أمام المدخل المجاور ـ كانت العنكبوتيات مشغولة بشبكتها ـ وضمن النار الحقية المضطرمة بلهيب نظرته، كان يتنبَّأ بأعراض الشك التي جاءت متأخرة. إلا أنهما لم يكونا يتحادثان، كانا يسلِّمان على بعضهما باقتضاب، ويمكثان هناك على هذه الحال. ثم كان مليك يعود إلى خلوته المجصَّصة لينتظر مجيء إلهته. كان يستعيد وضعيَّته في الكنبة الجلدية الكبيرة التي صارت ملاذهما المفضَّل، ويضع على ركبتيه الوسادة المخملية الحمراء التي صان لها بها ما تبقى حتى الآن من عفافها الذي نِيْلَ منه إلى أبعد الحدود. كان يغمض عينيه. وهو يصغي إلى تكَّات الساعة القديمة فوق برفع المدخنة، وفي لحظة، كانت ميلا تدخل دون أن تُحْدِثَ أي ضجيج ـ لقد أعطاها مجموعة مفاتيحه ـ وما كان لا بدَّ له أن يحصل، ما قالت إنه لم يكن، قد حصل، حصل بهدوء.

أثناء زيارات ميلا وفي ذلك الحيِّز المسحور، كان لا بد من أن يخيم صمت شبه مطبق. وشوشات وهمسات كان يسمع صداها، إنّما هذا كل شيء. لكن سولانكا كان يستطيع في الربع الساعة التي كانت تسبق رحيلها، عندما كانت تنزل بقفزة من ركبتيه وتسوِّي تنُّورتها، وتقدم إلى كل منهما كأسًا من عصير قمام المناقع، أو الشاي الأخضر، بينما كانت تحكم ترتيب هندامها من أجل العالم الخارجي، كان يستطيع، لو كان يريد ذلك، أن يطلعها على فرضياته

---

(١) قائد المائة عند الرومان.

المتعلِّقة بهذا البلد، الذي يبذل كل ما بوسعه من أجل تفكيك رموزه. نظرية مليك سولانكا مثلاً، غير المنشورة عن مختلف المواقف إزاء لحس قضيب الرجل في الولايات المتحدة الأميركية أو في إنجلترا، (هذه التسبيحة التي أثارها قرار الرئيس الغامض بتقديمه أعذارًا، لكونه قد اقترف ممارسة ـ هذا ما كان عليه أن يعلنه بجلافة ـ لم تكن تعني سواه) استرعت كل انتباه المرأة الشابة. «في إنجلترا، وضحَّ بأسلوب متصنِّع جدًا، لا يمارس لحس القضيب بين الأصحاب المتغايرين جنسيًا قبل حدوث الثقب التزاوجي، أو لا يكون الأمر غير ذلك إطلاقًا حتى. إنه يعتبر كشاهد على حميمية عميقة. وكتعويض جنسي أيضًا يتبعه سلوك مرض. وهذا نادر. بينما في أميركا بتقليدكم القائم على «المداعبة» المراهقة على المقعد الخلفي للسيارات، بالقيام «بالغلينة»، كي نستخدم المصطلح التقني، تسبق المعاشرة الجنسية، بصفتها وظيفة اجتماعية لأطول وقت؛ في الواقع، إنها الوسيلة الأكثر شيوعًا لدى النساء الشابات كي يحافظن على عذريتهن، مع إرضائهن لعشاقهن.

«باختصار، إنها البديل المقبول للمضاجعة، وهكذا، فإن كلينتون عندما أكَّد بأنه لم يضاجع تلك المرأة البلهاء، مونيكا، الآنسة ل. البقرية، فإن كل الناس في إنجلترا نظروا إليه على أنه كذوب، في حين أن جيل المراهقين (وما قبل المراهقين) استوعب أنه كان يقول الحقيقة مثلما تعرفها الولايات المتحدة ثقافيًا. وبشكل مفارق، فإنه ليس لعملية لحس القضيب أية علاقة بالجنس.

من الممكن للصبايا أن يعدن إلى بيوتهن، وأن يؤكدن لذويهن، بكل صدق ـ تبًّا، هذا ما مكَّنك من أن تقولي لأبيك أنتِ أيضًا ـ بأن شيئًا لم يحصل. وهاك لماذا لما يفتأ بيل كلينتون يردد ما كان من الممكن لأي مراهق أميركي ذكر أن يقول. فجاجة؟ بالتأكيد، إنما لهذا قد فشل التعرض للرئيس بالاتهام.

ـ إني أدرك ما تقصد، عقَّبت ميلا ميلو عندما انتهى.

عادت إلى قربه، وفي تسارع غير متوقَّع، وقاهر لممارستهما الرتيبة في فترة

ما بعد الظهر، وانتزعت الوسادة المخملية الحمراء التي كانت تحمي قابليَّتها للانجراح. في ذاك المساء، ومتشجعًا بهمسات ميلا، استعاد شهوته القديمة. «في داخلك الكثير من الأشياء التي تنتظر الخروج ـ أحسُّ ذلك. أنت تعرقص داخليًّا. هنا، هناك. يجب لهذا أن يدخل في صلب عملك. الثوران. حسن؟ اصنع دمى حزينة عندما تكون حزينًا، دمى غاضبة عندما تكون غاضبًا. دمى الأستاذ سولانكا القليلة التهذيب. نحن بحاجة إلى قبيلة من هذا النوع. دمى تقول شيئًا. أنت قادر على ذلك. أنا أعرف أنك قادر عليه، لأنك خلقت سِرْفليت. اصنع لعبًا مصدرها هناك ـ ذلك المكان المتوحش من قلبك. ذلك المكان الذي لا يمت بصلة إلى رجل خمسيني تحت غلالة من الثياب البالية. أَذْهِلْني يا أبتِ. كي أنساها هي! اصنع دمى راشدة وقع الحرم عليهنَّ قبل السنة الثامنة عشرة فأنا لم أعد بنتًا صغيرة. أنت تعلم. اصنع دمىً أستطيع أن ألعب بها اليوم». فهم أخيرًا أن ما كانت ميلا تفعله بعناكبها كان بتحريكهم، بما أنهم كانوا قادرين على ذلك. كان مصطلح «الملهمة» يُنْسَبُ في يوم أو في آخر إلى كل النساء اللواتي كُنَّ يشاهَدن في صحبة رجال شبه موهوبين، وقد كان لا بدّ لكل مبدع دُرْجَةٍ يحترم نفسه من أن يمتلك واحدة منهن، ومروحة صينية في يدها، لكنّ غالبية أولئك النساء كنَّ يثرن الشهيّة أكثر من ربَّة الإلهام الأزلية. فربَّة الإلهام الحقيقة كانت كنزًا لا يقدَّر، والحال كذلك فإن ميلا، ومثلما اكتشف سولانكا، كانت تستطيع أن تكون ملهمة حقيقية. وبناءً على إغراءاتها الملحة أخذت أفكار سولانكا التي جمدها زمنًا طويلاً تغلي وتفور. ذهب ليقوم بالتسوق وعاد إلى بيته بأقلام، وورق وصلصال، وخشب ومقص. مذ ذاك ملأ فراغ نهاراته كما ملأ معظم فراغ أماسيه. مذ ذاك، لم تعد ملابسه، عندما كان يستيقظ وهو بكاملها، تفوح برائحة الشارع ولا برائحة أنفاسه المشبعة بالكحول. كان ينهض ليجلس على منضدة عمله مع أدوات في يده. تماثيل جديدة كانت تحدق فيه بعيونها المشعَّة الخبيثة، عالم جديد كان يتخلَّق داخله، وكان لا بدَّ له من أن يشكر ميلا على هذا الإلهام الألوهي: إنها نفحة الحياة.

كان الفرح والانفراج يفجّران فيه ارتعاشات لا يمكن له أن يضبطها، مشابهة إلى ذلك الارتعاش الذي أحسَّ به عند زيارة ميلا الأخيرة، عندما سحبت الوسادة قبل أن تنصرف. لقد حلَّ عقدة كان ينتظرها في حدَّة وَلَهٍ جديد. لكنّ الإلهام كان يطرد ظلاًّ آخر أيضًا. بدأ يخشى ميلا، ويشك بأنها على درجة كبيرة وخطيرة من الأنانية، وتمتلك طموحًا لا حدود له، جعلاها ترى الآخرين وسولانكا معهم، مجرَّد وسائل قفزٍ إلى النجوم التي كانت تحلم بها.

أخذ سولانكا ـ يتساءل إذا ما كان لهؤلاء الشبان اللامعين حاجة فيها (وأوشك أن يتساءل بشأن نفسه). لقد استشفَّ تجسيدًا جديدًا وممكنًا لدميته اليتيمة ـ والتي بداخلها كانت ميلا ملمَّعة بالشمع مع خنزيرها الرّاكع عند أقدامها ـ لكنه كان يطرد حينئذ تلك الرؤية، كما كان يطرد، إنّما بشكل أكثر ضراوة رؤية ميلا التي أصبحت إحدى جنيَّات الجحيم الثلاث تيشيفون، أو آلِكْتو أو ميجير التي هبطت على الأرض في ثوب الغريزة الفاخر. لقد شحنت المحرِّض النفسي الذي دفعه من جديد إلى منضدة العمل، على عطاء مفكرة جلدية نقش الكلمات:

(ملوك الأستاذ كرونوس الدمى التي نزعت خيوطها) ثم أضاف «أو، تمرُّد دُمى الشهوة) وأيضًا (أو، سِيَرُ القياصرة الدُّمى التي انتزعت خيوطها) ثم شطب كل شيء ما عدا (ملوك دمى بلا خيوط)، فتح المفكرة وبدأ يخط قصة العبقري المجنون الذي سيصبح بطله الخصم:

«آكاز كرونوس عالم توجيه اتصالات، الريجك، الكبير واللاأخلاقي، اخترع الملوك الدُّمى دون خيوط كردة فعل على الأزمة القاتلة لحضارة ريجك، إنما ونتيجة لعيب جسيم وعضال في طبعه الذي كان يمنعه من التفكير في المصلحة العامة: فإنه سخرها لضمان البقاء والثروة لنفسه من دون الآخرين».

اتصل جاك رينيهارت به هاتفيًا بعد ظهر اليوم التالي، متحفِّزًا بشكل ملموس

«إيه سولانكا، ما زلت تعيش كشيخ روحي في خلوته؟ أم أن المنبوذ أخاك الأكبر لا يراك؟ أم أن أخبار العالم الخارجي تصلك مع ذلك من وقت إلى آخر؟ هل تعرف قصة الراهب البوذي الذي ذهب إلى حانة؟ لقد اقترب من لُمَّة توم كروز مع خلَّاط وقال له وهو يشير إلى الزُّجاجات المصفوفة بجانب بعضها بعضًا: «هل تستطيع أن تحضر لي واحدة من الكل؟ في الواقع، أنت تعرف امرأة شابة تدعى لير؟ إنها تزعم أنها كان تزوجتك. بصراحة، إني لا أتمنى لألدّ أعدائي حتى أن يجد نفسه متزوِّجًا من هكذا مخلوقة. من السهل جدًا لمن يراها، أن يقدر عمرها بمئة وعشرة أعوام. إنها لأرذل من أفعى مجروحة أوه، بالمناسبة، طالما أننا نتحدث عن الزوجات، فأنا مطلق، فُرِجَتْ أخيرًا، لقد أعطيتها كل شيء».

وعندما قال كل شيء، فهو فعلاً كل شيء. ثم أوضح:

مسكن سبرينغ، وبيت المؤن، وبضع مئات من الدولارات.

«وهل هذا يسرك؟ سأل سولانكا مندهشًا».

ـ ياه، ياه، أجاب متلعثمًا. ليتك رأيت بروني بالاندهال الذي كانت عليه. لقد تناولت هديتي بأسرع ما كنت أتصور، بحيث إنها كادت تنفتق، لكنها رضختْ، إني طليق، إنها نيلا يا مليك. لا أستطيع أن أعبِّر لكِ عن ذلك. لقد حرّكت فيَّ شيئًا. وسوّت كلّ شيء. (كان يتحدث بلهجة المتواطئ السلطوي). هل سبق لك ورأيت أحدًا يوقف حركة السير جليًّا؟ يشلّ مئة بالمئة حركة المركبات التي تدور محرِّكاتها بمجرّد حضوره؟ إن لها هذه القدرة. ما أن تنزل من التاكسي، حتى تشحط أمامك خمسُ سيارات، وإطفائيتان ويتمسك المارة بأعمدة المصابيح. كنت أظن أن هذا لا يحصل إلاّ في كوميديات ماك سينيت القديمة. كم رأيتُ من رجال مبهوتين. أحيانًا، كنت أطلب منها ونحن في المطعم أن تذهب إلى الحمّامات وأن تعود في الحال، لا لشيء، أفضى رينيهارت، مختلجًا من مرح صاخب، إلاّ كي أرى الشخصيات الجالسة إلى

موائدها تلوي جذوعها. أنت تفهم يا مليك، أيها العازبُ المسكين، ما يعنيه أن تكون مع هكذا امرأة. أقصد كل مساء.

ـ ما زال ليس من المفروض بك أن تعرب عن نفسك بطريقة غير لائقة، قال سولانكا ممتعضًا. (وغيَّر الموضوع). وسارا؟ أنت تتحدّث عن شبح! في أية مقبرة عثرت عليه؟

ـ أوه، عدنا إلى الشيء نفسه. أجاب رينيهارت. في ساوث هامبتون.

لقد تزوجت زوجته السابقة وهي في الخمسين من عمرها رجلاً من أكبر أثرياء أميركا، تاجر الأعلاف ليستر تشوفيلد، البالغ من العمر الثانية والسبعين، والذي أقامت عليه دعوى طلاق عندما أتمت السابعة والخمسين متذرعة بالعلاقة الزّناوية بين تشوفيلد وأودين، عارضة الأزياء البرازيلية ذات الثلاثة والعشرين عامًا.

«لقد كدَّس تشوفيلد الملايين، مكتشفًا بأنه من الممكن لما تبقّى من عنقود عنب سحب عصيره أن يشكّل عشاءً لذيذًا لبقرة، أوضح رينيهارت وهو يتصنع صوت العم توم المخبول. والآن فقد تولّدت لدى سابقتك ذات الفكرة، إنها تعصره، وإني لأقول ذلك على سبيل المزاح. فليس من البقر المجنون ما يريد أن يكون في وجبتها».

كانت الصبايا الصغيرات يجثمن على امتداد الساحل الشرقي مثلما تجثم الطير على ركب العجائز، مانحة إلى المحتضرين كأس الشهوة السموم، ومخلِّفة الرُّكام المشعَّث خلفها. زيجات وثروات كانت تتحطم يوميًا على تلك الصخور الهرمة. «لقد قدَّمت سارا مقالة للنشر، روى رينيهارت إلى سولانكا بشيء من الابتهاج، أعربت فيها عن نيتها في تقطيع زوجها إلى ثلاثة أجزاء متساوية، ستغرس كل جزء منها في أحد مقرات أملاكها الأساسية: وستقضي كل ثلث سنة قرب واحدة منها، عربونًا على العرفان. لقد كنت محظوظًا عندما أفلتَّ من سارا، وأنت لا تملك درهمًا، والأخرى، خطيبة وايندانستان أو أيضًا الباتريسيا

دوف؟ إنها من الهواة في بطولة الطلاق. تلك الصبيَّة، قد انتزعت الميدالية الذهب وهي مرتاحة. إنها تعرف شكسبيرها أيها الأستاذ».

كانت الشائعة تجري على أن كل هذه القصة لم تكن إلاّ غشًا بل صلافة ـ أي سارا لير قد جعلت من الدجاجة البرازيلية وسيلة للوصول إلى هدفها ـ لكنَّ أحدًا لم يتمكنْ من إثبات وجود مؤامرة.

أين المشكلة عند رينيهارت؟ إذا ما كان على هذا القدر من السرور، بحسب ما يزعم، نتيجة لطلاقه وبسبب قضية نيلا في الوقت نفسه، فلماذا كان يترنّح كصياح مجنون وسط ذلك القدْح ـ الذي لم يكن علاوة على ذلك من طبعه ـ وتلك الثرثرات العدائية بحق سارا لير؟

«جاك، قال سولانكا، هل أنت متأكد من أنك على ما يرام؟ لأنك إن. . ـ أنا على خير ما يرام، قاطعه رينيهارت بصوته الصَّار. إيه مليك؟ إن من تتحدث إليه هو رفيقك جاك، استرخِ إذن».

مرَّت ساعة على ذلك، عندما اتصلت نيلا به.

«أتذكر؟ لقد التقينا أثناء مباراة في كرة القدم. عندما سحق الهولانديون الصرب فيها».

ـ إنهم لا يزالون يتحدثون عن يوغوسلافية في الوسط الرياضي، ذلك بسبب هزيمة مونتينيغرو. إنما أجل، بالطبع أتذكر، ليس من السهل أن تُنسَيْ.

لم تعنَ بالمجاملة حتى، معتبرة أن هذا الإطراء هو الحد الأدنى لما تستحق. «هل من الممكن أن نلتقي؟ إن الأمر يتعلق بجاك يجب أن أتكلم إلى أحد، فالأمر مهم». لقد تعودت على أن الرجال يرجئون كل مشاريعهم في الحال عندما تلوح لهم بمجرد إشارة، ويأتونها مهرولين.

«إني أسكن في الجهة المقابلة للمتنزه تمامًا، وبإمكاننا أن نلتقي أمام متحف ميتروبوليتان، لنقل بعد نصف ساعة».

لبى سولانكا الذي كان قلقًا أصلاً على صديقه دعوة الرائعة نَيْلا، دون أية قدرة على المقاومة، وخصوصًا أن المكالمة الهاتفية قد زادت من قلقه أيضًا.

أرتدى معطفًا خفيفًا ـ لم تكن تمطر، لكنّ الطقس كان سيئًا ورطبًا بشكل غير معهود نسبة إلى الفصل ـ وفتح باب بيته. كانت ميلا على عتبة البيت، ونسختان من المفاتيح بيدها.

«أوه! قالت وهي تنظر في معطفه. أوه! خسارة» لقد تداعت من الدهشة، ولم يسعفها الوقت لأن تتدارك نفسها. وفي الحال استطاع سولانكا، إن صح التعبير، أن يفهم ما كانت تفصح عنه قسمات وجهها البوَّاحة. ما رآه لم يكن يَنُمُّ إلا عن جوع خائب. جوع إنساني بدائي يعيش على الصيد وقد أفلتت الفريسة منه ـ حاول جهده أن يبقى صامتًا، بيد أن ذلك فرض نفسه.

«لن أتأخَّر» قال بلا مبالاة، أما هي، فسيطرت على نفسها ورفعت كتفيها «لا بأس». غادرا المبنى معًا. ابتعد هو سريعًا باتجاه جادة كولومبوس من دون أن يلوي على شيء، كان يعلم أنها كانت ستذهب لتلتقي إيدي أمام الباب المجاور. وأنها ستدسُ بحنق لسانًا نهمًا في فم ذلك الأخير المخيَّب، بل المشدوه. في كل مكان، كان بإمكان المرء أن يلمح إعلانات للفيلم الأخير لجينيفر لوبيز «الخليَّة»، الذي نُمْنِمَتْ فيه النجمة السينمائية ثم حُقِنَتِ داخل دماغ قاتل متسلسل: لكأنه نسخة عن فيلم «رحلة خيالية مع راكيل وُوْلش، لكن لا بأس... كل العالم نسي الأصلية، لم يعد هناك إلاَّ نسخٌ، إلاّ أصداءٌ للماضي ـ فكّر البروفسور ـ سولانكا ـ أغنية من أجل جينيفر: إننا نعيش في عالم ارتدادي، وأنا فتاة مرتدة.

[10]

في المستقبل، وهذا أكيد، لن يستمع أحد بعد إلى برنامج إذاعي، هل تعلمون ما يدور في خلدي؟ أعتقد بأن المذياع هو من سيستمع إلينا، سنصبح نحن المشهد والآلات ستصبح الجمهور، هي من سيشد خيوطنا ونحن من سنعمل من أجلها.

ـ لا، إصغِ لي، ليست أدري أي نوع من الهراء طالعنا به لتوه فيلم الخيال العلمي سبيدي غونزاليز الآخر هناك. لديَّ شبه انطباع بأنه قد بالغ في مشاهدة ماتريكس. وأنا أخبرك بأن المستقبل لم يأتِ بعد. كل شيء هو على ما هو عليه. إنه الماخور نفسه في كل مكان. جميع الناس في السلة نفسها، يتلقون التربية نفسها، ولديهم الأخطاء نفسها، ويبتغون الوضع نفسه. وما عليك إلاّ أن تتطلع، إنهم يتلقون الفواتير نفسها ويخرجون مع النساء الشابات أنفسهن، وكلهم يمضون إلى السجون نفسها؛ إنهم لا يستحقون إلا بلاطة، فهم يسيئون التملك جدًا، وينتهون، أليس هذا صحيحًا؟ أليس في هذا عين الصواب؟ بلى سنيور. ومذياعي؟ لقد باعوني إيّاه بزرٍّ تشغيل وتوقيف، بحيث أستطيع أن أخرسه كقملة متى أشاء.

ـ يا له من رديء، لا يفهم شيئًا، هو الآخر، لا يستوعب كثيرًا بأنه لن يرى قدوم شيء، طالما أن هذا الشيء لم يلطم وجهه. لا بدَّ أن نحيطك علمًا يا هيرمانو. إنهم يملكون الآن آلاتٍ تعمل بالأكل. أنت تستوعب هذا. لا حاجة بعد للوقود. إنها تأكل مثلما نأكل نحن. بيتزا محشوة سجقًا محشوة ساخنة، فطائر بالتونة، كل هذا، قريبًا ستذهب الآلات لتأكل في المطاعم. وستكون من هذا الطراز: أعطوني أفضل طاولة. إذن قل لي ما الفرق؟ إذا كان هذا يأكل،

فهذا يعني أنه حي. ذلك ما أقول. المستقبل هنا من قبل، يا رجل، إذن حاذر على أرغفتك. قريبًا ستسلبك الآلة رغيفك وربما صاحبتك أيضًا.

ـ إيه، إيه، يا بارانولاسيون، يا ريكي ريكاردو، لم أعد أذكر اسمك، هدئ نفسك، إنك لم تعد في بلدك الشيوعي كوبا، الذي هربت منه في قارب منفوخ كي تجد ملجأ في بلد الحرية. . .

ـ لا تشتمني، من فضلك. وأقول من فضلك لأنني ربيت على التهذيب، حسن؟ ربّما أنّ أمَّ الأخ، ذاك، أيًا كان اسمه كليْف هوكستابو، مِسْترْ لوزر، لم تعلِّمْه آداب اللياقة، إننا هنا على اتصال مباشر، ونخاطب كل الدّائرة المدنيّة، فلنبقَ إذن لائقي السلوك.

ـ هل أستطيع أن أتدخّل؟ من فضلكما؟ إني أصغي إليكما، من هنا، وإني أحدث نفسي، لقد خلقوا إلكترونيًا مقدمي برامج تلفزيونية أليس كذلك؟ أفليس هناك ممثلون أموات يبيعون سيارات؟ هل «ستيف كاون» موجود في هذا الصندوق؟ فأنا إذن ميالة إلى رأي صديقنا الكوبي أكثر. التكنولوجيا تخيفني. هل تحسبون أنهم سيهتمون باحتياجاتنا البسيطة في المستقبل؟ أنا ممثلة، حسن، إني على الأخص أعمل في الحانات وهاك فهناك إضراب الـ SAG، فهل سأكسب درهمًا خلال شهر؟ ألن يحول هذا دون أن تبث دعاية واحدة في الراديو؟ ألأنهم يستطيعون أن يمتلكوا لارا كرافت، جار جاربانكس؟ هل يستطيعون أن يمتلكوا غايل، بوغارت، مالين، ماكس هيدروم أو هال الـ ٢٠٠١؟

ـ سيكون لا بدَّ من مقاطعتك يا سيّدتي، لأن البرنامج شارف على نهايته، وأنا أعلم أن في ذلك خطة تثير أعصاب الناس كثيرًا، ليس بإمكاننا أن نعزو إلى التكنولوجيا الورطة التي وضعتكم فيها نقابتكم. أنتم تريدون الاشتراكية، والنقابات جهزت لكم أسرَّتكم، وأنتم تغفون الآن فيها. رؤيتي الشخصية إلى المستقبل؟ إننا لا نستطيع أن نرتقي الزمن، إذ لا بدَّ من متابعة تيار الأفكار والتقاط المعلومة. اطلعوا على كل شيء. أفيدوا. بسرعة إلى المقابض».

كان وهو جالس على درجات المتحف الشهير، غارق بغدير ضوء مائل

ومذهب، كان يقلب صفحات النيويورك تايمز بانتظار قدوم نيلا، كان ينتابه الإحساس أكثر من أي وقت مضى بأنه لاجئ في زورق خفيف، تتقاذفه حركات مدٍّ وجزر متعاكسة: التعقل والجهالة، الحرب والسلم، المستقبل والماضي. أو بأنه صبي يرى أمَّه وهو على طوافته المنفوخة، تضمحل في الماء الأسود وتموت غرقًا، كي يعقب الرّعب والعطش والشمس الحارقة، الضجيج المستمرُّ والشَّرسُ للأصوات المعالية من مذياع سائق التاكسي والتي كانت تخنق صوته الباطني: جاعلة من التفكير، والاختيار، والسكون أشياء خارج الممكنات. كيف يمكن دحر شياطين الماضي، إذا ما كانت شياطين المستقبل تحاصرها بضوضائها من كل الجهات؟ كان الماضي يثور. وكان هذا شيئًا لا يقبل الجدل، فبالإضافة إلى سارا لير، وبينما كان يتصفح البرامج التلفزيونية، إذا بالصغيرة السيدة بانس كول. كريستوف واترفورد واجدا قد عادت من بين الأموات. بيري بانكوس ـ لا بد أنها أتمت الأربعين، الآن ـ انتهت للتو من تأليف كتاب مذكراتها حول سنواتها التي قضتها كمشايعة مطلقة أولى للمفكرين، رجال من ريش، وشارلي روز من كان يجري معها استجوابًا في هذا الشأن في التلفزيون. أو! أيها المسكين غودول! فكر سولانكا. إنها البنت التي كنت تفكر أن تكوِّن حياتك معها، ها هي ذي الآن تتأهب للرقص على قبرك. إذا ما كان شارلي هذا اليوم ـ «قولي لي أي نوع من الهموم أيقظ عندك هذا المشروع بيري، إذ كان لا بد من أن يكون لديك، أنت نفسك كمثقفة، بعض الشكوك الجدية، ليتك تقولين لنا كيف تغلبتِ على تلك الوساوس». فغدًا إذن سيكون دور هاوارد سترن: «النساء الشّابات يعشقْن الكتَّاب، لكن علينا أن نقول أيضًا إن عددًا لا بأس به من الكتاب يعشقون تلك المرأة الشابة».

ليلة السبت، ليلة القديسة وولبورغ: كان التقويم السنوي يسبق هذه السنة.

السَّاحرات كن يتجمعن من أجل محفل السبت.

إنما ها هي حكاية أخرى تصل إلى مسامعه دون امتناع، حكاية أخرى عن المدينة، نطقت بها مجهولة من خلفه.

«ياه، لقد جرى هذا بشكل رائع يا هُرَيري. لا، ما من مشكلة، أنا ذاهبة إلى اجتماع مجلس الإدارة، لهذا أكلمك من هاتفي النقّال. واعية طوال الوقت، إنما مختلة، أجل إنه هذا. نصف واعية، يمكن أن تقول. ياه، عندما تهاجم السفرة مقلتك، فإنك تحسبها ريشة، نتيجة للمخدرات التي يدسُّونها لك. لا ليس هناك أيُّ عقبول لذلك. وأنت ماذا تعرف؟ في تبدُّل رؤيتي ضربٌ من الجنون كيف؟ وإذا من هم معي كانوا نظّاراتيين؟ أجل غريبة جدًا. أؤكّد لك كل هذه الأشياء التي عليَّ أن أراها. لقد أعيتني الحيل جدًّا. ياه، فكّر بذلك. إنه فعلاً ملك الليزر. لقد سالت في كل مكان تقريبًا وما كان يخرجونه لي كان هو الاسم عينه. هذا لاذع قليلاً. هذا كلّ شيء، لكنه قال لي بأن هذا سيتلاشى خلال بضع أسابيع، ياه، أحبّك، سأعود متأخرة. الأمر كذلك لا تنتظرني».

والتفت طبعًا، وبالطبع رأى أن المرأة الشابة لم تكن وحدها، رجل كان يحتك بجسمه بجسمها بينما كانت تقفل هاتفها النقال مفتونة بأن أحدًا يحتك بها جسده، فالتقى نظرها مع نظر سولانكا؛ عندما وجدت نفسها متلبِّسة بجنحة الكذب، رَمَقَتْهُ بابتسامة الآثم ورفعت كتفيها. الأمر كذلك، كانت قد تحدثت عبر الهاتف، للقلب دوافعه التي لا تعرفها الخيانة.

الساعة الآن العاشرة إلا عشرين دقيقة في لندن. لا بدَّ أن أسمعان غارق في نومه. الخامسة والنصف هي على الغالب في الهند. أعكس ساعتك في لندن وستحصل على توقيت المدينة التي هي مسقط رأس مليك سولانكا، المدينة المحرّمة على شاطئ بحر العرب. شيء آخر كان يطفو على السطح. أفعمته الفكرة بالهلع: ما الذي كان يوشك أن يحلَّ به، تحت تأثير غضبه المتواصل لزمن طويل؟ حتى بعد كل هذه السنين كان لا يزال مستمرًّا في تعيين صفاته، وممارسة سلطته عليه. ولو أنه أكمل تلك الحكاية التي يعجز عنها الوصف؟... لا بدَّ أن يتخيَّلها ذات يوم. هزَّ سولانكا رأسه، لقد تأخرت «نيلا». طرح جريدته وأخرج كسرة خشب وسكينًا سويسريًا من جيب معطفه وشرع ينحت فيها بمنتهى التركيز.

«من هذا؟».

غمره ظلّ نيلا ماهاندرا. كانت الشمس خلفها، ومن خلال النور المعاكس. كانت تبدو أطول قامة مما كانت عليه في ذاكرته.

«إنه فنّان، أجاب سولانكا، الإنسان الأخطر في العالم».

نفضت الغبار عن درجة المتحف، وجلست بجانبه.

«لا أصدِّقك، قالت، فأنا أعرف عددًا لا بأس به من الرجال الخطيرين، لكن أيًّا منهم لم يبدع تحفة فنّية مقنعة على الإطلاق. ومن ثم، صدقني، إن أيًّا منهم لم يكن من خشب». مكثا صامتين للحظات، هو في البرِيْ، وهي دون حراك، يكفيها أنها أهدت العالم حضورها. لقد كرَّس مليك سولانكا حالة الصمت والسكينة في ما بعد، وهو يتذكر اللحظات الحميميّة الأولى، وكم كانت الأمور يسيرة.

«لقد وقعتُ في حبك وأنت لم تتفوّهي بشيء. اعترف. كيف كان لي أن أعرف أنك أكثر النساء ثرثرة؟ أنا أعرف عددًا لا بأس به من النساء، وصدِّقيني، بجانبك بيدين كلهنَّ من خشب».

دقائق ووضع التمثال نصف المنجز جانبًا، واعتذر لبقائه ساهمًا أيضًا.

«ليس لديك ما يدعو للاعتذار ـ قالت ـ فالعمل مقدّس».

قررا أن يقوما بجولة في المتنزه، وعندما وقفت نيلا، تزحلق الرجل الذي كان يقف وراءها وهبط متثاقلاً اثنتي عشرة درجة، وقد فاته في سقوطه أن يقلب نيلا، أطلق صراخًا يعادل صراخ مجموعة من بنات المدرسة، وسولانكا تعرَّف عليه في الحال: إنه الرجل الذي كان يحك جسده بالمرأة التي كانت تحمل الهاتف. بحث عن الآنسة صاحبة الهاتف النقال بنظره، فلمحها تعود إلى الجادة تشير إلى السيارات، التي كانت كلها قد أنهت خدمتها وتتجاهل حركاتها الغاضبة.

كانت نيلا ترتدي ساريًا من الحرير بلون الخردل يصل حتى ركبتيها ويترك ذراعيها طليقين وقد جمعت شعرها الأسود على شكل كعكة صغيرة. تاكسي صفراء توقفت ونزل منها راكب في اللحظة التي كانت تهم فيها بالصعود. بائع سجق ساخن طلب منها أن تختار ما كانت تريد، دون أن تدفع شيئًا:

«لكنك ستأكلين هنا كي أستطيع أن أتأمّلك بإعجاب». أحسّ سولانكا وهو

يواجه للمرة الأولى هذا الانبهار الذي كان رينيهارت قد وصفه بمنتهى ذلاقة اللسان، بأنه يواكب واحدًا من أثمن تحف ميتروبوليتان في الجادّة الخامسة المفتونة، بل تلك الرائعة، التي يظن بأنها موجودة في اللوفر. كانت تبدو مع نسيم الصيف الذي كان يجعل ثنيات ثوبها تلتصق بجسدها صورة عن تمثال فيكتوريا ساموتراس المجنّحة، مضافًا إليه الرأس.

نايكي، صرخ، وقد تركها في حيرتها، هاك ما تذكرينني به».

ولأنها أساءت الفهم فقد قطّبت حاجبيها.

«نايكي، استدعيت الرياضة إلى ذهنك؟».

الرياضة: كان لا بد للرياضة من أن تذكّر بها.

بينما كانا يتوغلان في المتنزه اقترب منهما شاب في لباس الجوكينغ[١]، مذهولاً بشكل واضح بمن تشعَّثت تسريحة شعرها، ولأنه كان عاجزًا عن التوجه إليها مباشرة. فقد فضّل أن يخاطب سولانكا:

«سيدي، قال، لا تحسبني أتحرَّشُ بابنتك، إني لا أسعى إلى الخروج معها، لكنها فعلاً الأكثر . . . لا بدَّ أن أقول لها: والتفت أخيرًا نحو نيلا ـ أن أقول لك، أنت الأكثر. . .» أحسَّ سولانكا بالحنق يتصاعد في صدره، كم هو جميل اقتلاع لسان هذا الشاب من فمه الكريه الأهبر. كم هو جميل أن يرى ذراعيه العضلين منفصَلَيْن كلياً عن هذا الجذع المعافى، ومبتورين تمامًا؟ منفصلين؟ وإذا ما قطَّعتُه إلى ألف قطعة تسيل دماؤها وإذا ما التهمت قلبه القذر؟

أحسَّ بيد نيلا تقع برفق على ذراعه. فتوقف الغضب بذات السرعة التي تولَّد فيها. هذا النزيف الدِّماغي الطَّارئ والعابر أيضًا ترك سولانكا طائشًا ومشوشًا للغاية. هل عرض العارض فعلاً؟ هل كان فعلاً موشكًا على تقطيع أوصال هذا الرجل العَضِل البشِعَ بشكل منهجي؟ وإذا ما كان الأمر كذلك، فماذا فعلت نيلا حتى بدَّدت استعارة، هذا الاستعار الذي كان يحتاج إلى ساعات من الاسترخاء

(١) ثوب دافئ يلبس بين الأشواط الرياضية

في العتمة كي يقاومه، وهو يقوم بتمارين تنفسيَّة ويتصوَّر مثَّلثات حمراء تبدو له مجسَّدة بمجرَّد أن لمسته؟ أمن المعقول أن تمتلك يد أنثى هذه القدرة؟ وإذا كانت الحال كذلك (عبرت خاطره هذه الفكرة ولم تبارحه أبدًا) أفلن يكون من الجدير به أن يبقى هذه المرأة بقربه وأن يتعلَّق بها طيلة ما بقي له من حياته؟

هزَّ رأسه كما لو كان يريد أن يطرد منه هكذا أفكارًا، ووجه اهتمامه إلى المسرحية التي كانت تدور. كانت نيلا توجِّه إلى الشاب الذي كان يرتدي الجوكينغ ابتسامة تجعلك تشتهي الموت، بحيث أن الحياة المستقبلية كانت تبدو عديمة الطعم. «إنه ليس أبي، قالت للرِّياضي الذي غشي بصره تقريبًا إنه الرجل الذي أعيش معه». كان لهذا الخبر على الرَّجل المسكين وقع المطرقة، ولكي تعمق المسمار، إن صحَّ التعبير، فإن نيلا ماهاندرا طبعت على شَفَتَيْ سولانكا المنذهلتين الممتَّنَتَيْن قبلة طويلة بالغة التعبير. «وماذا تعرف أنت؟ قالت لاهثة، وكأنها توجه إليه ضربة قاضية، إنه خياليٌّ إلى أبعد الحدود في السرير».

ـ لكن ما هذا؟... قال سولانكا متعجِّبًا، سولانكا الذي أطرته، بما لم يكن يملكه في الواقع، فجأة انصرف الرياضي المشاء، وقد بدا كمن كان يمضي إلى الانتحار بالهيراكيري أو بقطعة من الخيزران المثلَّم.

انفجرت بضحكة رنَّانة مجلجلة، ضحكة ميلا بدت رقيقة مقارنة بها.

«لقد لاحظت أنك كنت على وشك الانفجار، قالت، لكنني بحاجة إليك هذه الآونة، أنا بحاجة إلى كل اهتمامك، وليس إلى زيارتك في السجن أو في المشفى».

كان في هذا ما يوضح ثمانين في المئة من الأمور، فكر سولانكا، وهو يشعر بالدوار يتسلل منه، لكنه لم يفهم المعنى الكامل عندما أتت على قوله بلسانها.

ـ جاك! جاك! ردَّد معنفًا نفسه، كان مشغول البال من ذاته على رينيهارت، صديقه وأعز أصحابه، وليس مما أتت على قوله صديقة صديقه الصغيرة، بل الخبيرة والتي تتكلم كثيرًا. جلس على مقعد بالقرب من البركة، وفي الحال ومن كل صوب حولها أخذ الرجال الذين كانوا ينزِّهون كلابهم يرتطمون

بالأشجار، ومن كانوا يمارسون رياضة الجمباز الصينية فقدوا توازنهم، واصطدموا ببعضهم بعضًا، من كانوا يجرون على عربات بدواليب، اصطدموا ببعضهم بعضًا، من كانوا يتناولون المرطبات تعثروا بالبركة، وكأنهم لم يروها. أما نيلا ماهاندرا، فلم تبد وكأنها لاحظت شيئًا من كل هذا. رجلٌ مرَّ وهو يمسك بقشدته المثلَّجة، والتي نتيجة لخلل حركي نفسي مفاجئ، بل إدراكي أخطأت فمه وانسحقت خلف أذنه. شاب آخر، فريسة لانفعال لا أصدق منه، ذرف دمعًا غزيرًا، وهو يمرُّ أمامهما في عدوٍ سريع.

وحدها الأفرو ـ أميركية الكهلة والجالسة على مقعد مجاور (من أكون كي أصفها بالكهولة «إنها بالتأكيد أصغر مني سنًّا» فكَّر سولانكا بأسى) بدت غير حاشّة بسحرِ نيلا. استمرّت في أكل سندويشتها الضخمة بالبيض والسلطة، معربة عن تلذُّذها وهي تتلمّظ بعد كل لقمة.

«مدهشة حقًّا تلك القبلة. قالت: إنها خارقة فعلاً».

جالت بأنظارها على المياه المتلألئة.

«لقد انتهى كل شيء بيني وبين جاك. ربما أنه قال لك ذلك آنفًا. انتهى كل شيء. أنا أعلم أنه صديقك، ولا بدَّ لك من أن تكون قريبًا منه هذه الآونة، أما أنا، فلا أستطيع البقاء مع رجل لا أحترمه».

خيَّم الصمت وسولانكا لم ينطق بشيء. كان يستعيد ذهنيًا آخر مكالمة لرينيهارت، ويجمع ما كان أفلت منه حينذاك: المدوّنة الرَّثائية خلف التباهي الجنسي. الماضي الناقص. الضَّياع. لم يستجوب نيلا. لترو القصة بنفسها. فكّر. هذا سيأتي بأوانه. «ما رأيك بالانتخابات؟ سألت مفتعله واحدة من تلك النقلات البرَّاقة التي سيخلص سولانكا إلى الاعتياد عليها في المحادثة. سأقول لك ما يجول في تفكيري. أظن أنه لا ينبغي لأحد من الناخبين الأميركيين أن يصوت لصالح بوش، وذلك احترامًا لسائر العالم. هذا واجبهم. سأقول لك ما أمقته ـ أضافت ـ أمقت ما يقوله الناس إن ليس هناك من فرق بين المرشّحين. اللازمة «بوش يعادل غور» صارت بالية تمامًا. وإن هذا يخرجني عن طوري».

الوقت غير مناسب الآن كي يبوح لها بأسراره الآثمة. على أية حال، لم تكن نيلا تنتظر جوابًا. ما من فرق؟ قالت متعجبة. والجغرافية إذن؟ ومعرفة أين يوجد وطني الصغير على خارطة العالم الملعونة هذه؟

تذكَّر مليك سولانكا أن جورج و. بوش كان قد أوقع نفسه في فخ السؤال الماكر لأحد الصحافيين، أثناء محادثة عن السياسة الخارجية قبل شهر من عقد مؤتمر الحزب الجمهوري: «نظرًا إلى اللا استقرارية الموافقة للموقف العرقي في ليليبوت بلوفسكي Lilliput-Blefuscu هل لكم أن تحدِّدوا لنا موقع هذا البلد على الخارطة؟ وماذا كانت تسمى عاصمتها؟ رصاصتان صائبتان. لدغتان مفاجئتان.

«سأقول لك ما يفكر به جاك عن الانتخابات، أصرَّت نيلا بعناد، وقد ارتفع صوتها، وعلت وجهها حمرة أرجوانية، جاك ـ تروما ـ كابوت رينيهارت يفكر بما يريد له القياصرة في قصورهم أن يفكر به. اقفز يا جاك، وها هو يقوم بوثبة تبلغ في ارتفاعها عشرة أمتار، ارقص من أجلنا يا جاك. أنت بارع في الرقص، وسيريهم براعته المستعرة التي يفتتن بها العجائز البيض. سيتحرّك ويتعنكب بموهبة، ياه، سيمارس ذلك طيلة الليل. أضحكنا يا جاك! وسيطالعهم بغمزات كما لو أنه مهرج الملك.

أنت تعرف بدقّة طرفاته المفضّلة: «الـ F.B.I، أرسلت ثوب مونيكا إلى المَخْبر كي يقوموا على تحليل البقعة. خيبة كلية؟ لماذا؟ كل الناس في آركانساس لديهم ذات الـ D.N.A، ياه سيجعلهم هذا يتلوون من الضحك، القياصرة. صوَّت للجمهوريين جاك، كافح الإجهاض، استبعد اللواطيين جاك، إنهم ليسوا الأسلحة التي تقتل الناس. ليس صحيحًا جاك، وهو يجيب نعم يا سيدتي، إنهم الناس الذين يقتلون الناس. أيها الكلب النبيل جاك بثوب النبلاء، اذهب. ابحث. اجلس. تأهب يا جاك، تأهب لتلقى الضرب. فهم لن يعطوك شيئًا، لكنهم يحبون أن يروا الزنوج الأقزام راكعين، أيها التوتو النبيل جاك. إجرِ الآن، واذهب إلى النوم في العِشّ خلف بيتك. قل، حبيبتي، أتريدين فعلاً أن ترمي بعظم إلى جاك؟ من فضلك لقد كان نبيلاً جدًا. أجل ستوافق على ذلك، فهي من الجنوب».

ـ أوه، أوه، إذن هكذا كان متقلبًا رينيهارت. استنتج من ذلك أن نيلا لم تكن معتادة على أن يغرَّر بها. لقد كانت معتادة على دور الهارب مع جوقتها التي تسير خلفها من المتجاملين الذين يتبعونها إلى أي مكان ترغب في الذهاب إليه.

هدَّأت نفسها، تكوَّمت على المقعد، وأغمضت عينيها للحظة. المرأة التي على المقعد المجاور انتهت من أكل سندويشتها الضخمة: انحنت على نيلا وقالت: «إيه يا حلوتي، ادفعي عنك هذا الرجل، إرميه، وتدبري أمرك، لا شأن لك بهذا الجعيد المدجَّن».

التفتت نيلا نحو المرأة كما لو كانت تستقبل صديقة قديمة.

«سيدتي، قالت بصوت خافت، إن لديك في ثلاجتك حليبًا أقل عرضة للتلف من علاقتنا» «لنمشِ قليلاً» أصرت وسولانكا هبَّ واقفًا. عندما أصبحت متأكدة من أنها صارت أبعد من المدى الذي يصله الصوت قالت له: «إصغ، أنا غاضبة من جاك، أجل، لكنني أخاف عليه أيضًا، إنه فعلاً بحاجة إلى صديق يا مليك. فهو في حالة كدرة».

مثلما خمَّن سولانكا أثناء مكالمتهما الهاتفية، كان رينيهارت محبطًا، إنما ليس فقط بسبب فساد علاقته العاطفية. فاللقاء مع سارا لير، الذي هو عبارة عن مقابلة بسيطة أصلاً في مقال نشر عن أشهر حالات الطلاق في ذلك العصر، قد انقلب عليه شرًا. لقد كرهته سارالير. ورفضها جَرَح جاك. بعد أن فُرِضَ عليه أن يتنازل عن منزل سبرينغ إلى برونيسلاوا، ألفى نفسه يعيش في قفص أرانب وسط ملعب غولف بالقرب من مونتوك بوان.

«أنت تعرف كم هو يبجِّل «تيغَرْ وودز»، قالت نيلا. روح المنافسة في دمه ولن يكون سعيدًا إلاّ عندما سيبدأ نايْك بتمويل لعبته التي سيكتب لها الخلود. إني لا أتحدث عن نايك الآخر، قالت وهي مبتهجة بشكل علني، النايك الذي لم يُنْفَرْ منه بعد».

عندما وافق المالك على عرض رينيهارت لشراء المنزل الصغير، حصل أمران تفصل بينهما فترة زمنية وجيزة. أثناء زيارة جاك الثالثة، وعندما كان الوكيل

العقاري قد أعطاه المفاتيح، وصل البوليس بعد عشر دقائق وطلب منه أن يثبت حضوره في محل إقامته، إذ إن جيرانًا قد بلَّغوا عن شخص دخيل في المنطقة. لقد لزمته ساعة تقريبًا من أجل إقناع الشرطة بأنه لم يكن لصًا، بل شاربًا وبحسب الأصول تمامًا. بعد ذلك بأسبوع، رفض نادي الغولف طلب انتسابه. كانت سارا متنفِّذة رينيهارت الذي «لم تعد مسألة كونه أسود تشكِّل بالنسبة إليه مشكلة فعلية راهنة» وجد نفسه يشهد العكس تمامًا.

«يوجد نادٍ هناك، افتتح للتو من أجل اليهود الذين يودون ممارسة لعبة الغولف، قالت نيلا بلهجة احتقار. هؤلاء الزنابير العجائز اللاذعي اللسان. ما كان حريًا بجاك أن ينسى القواعد. ثم إن تيجر وودز فخور بأنه ملون، وبأن مؤخرته سوداء. إنما هناك، الأسوأ».

وصلا أمام نبع حولهما كان الرجال مستمرين في تلوِّيهم وتعثّرهم بالأشجار، فتسلقا هضبة مخضوضرة.

«اجلس قالت نيلا. امتثل، ونيلا خفضت صوتها».

«لقد ضلَّ مع عصابة من البلهاء يا مليك، هيا لتعرف لماذا، هو يريد أن يخادنهم فعلاً، وهم البيض الأغبى والأكثر اندفاعًا مما يمكن للمرء أن يتصوّر. هل سمعت بجمعية سرية، لا تعتبر حتى أنها موجودة، تسمى الـ م. م. اسمهم وحده هرجة. المتوحِّدون المقنَّعون. ياه. بلى. هؤلاء الرجال فعلاً ملفوظون ثلة «ارفعوا الراية السوداء» كما في يالتا، أترى/ هؤلاء الذين يشترون شارب هتلر، وطُعْم كازانوڤا... ما عدا أن ذلك غير مرتبط بمدرسة. إنهم لا يجمعون المذكرات. بل يجمعون البنات. البُنيَّات اللواتي يملكن موهبة ما، ستتفاجأ بمعرفة عددهم. لا سيما إذا عرفت الألعاب التي كانوا ينذرون أنفسهم لها، ولم أحدثك عن ستريب ـ بوكر هم، إنهم شكيمة، سوط، كرباج. وفي لحظة يصبحون أشبه ببهائم بشرية. أنت ترى هم، إنهم:

إربطني، قيِّدني، إركبني كي لا أذكر إلا الأفضل، صبايا ممتلئات بالأوراق النقدية. إني أستحلفك! عائلتك تملك اصطبلاً من الخيول وأنت تتلذذين بأن

تجعليهم يعاملونك كفرس؟ لتعرف أن هؤلاء الأولاد يملكون كل ما يريدون (كان عمر نيلا يكاد يربو بخمسة أعوام على عمر الضحايا) بحيث أنه لم يعد لشيء أن يثيرهم. كي يتلذذوا ويتوجب عليهم أن يمضوا باستمرار نحو ما هو أبعد، أن يبتعدوا عن قفص الأرانب، عن شرنقتهم، يريدون أن يعرفوا البلدان، المخدرات والتجارب الجنسية القصوى. وهاك تحليلي النفسي المتواضع. صبايا صغيرات مدعوكات يضجرن ويستسلمن لغلمان يخدعوهن بخدع غريبة، هؤلاء الأولاد المنذهلون من فرط سعادتهم».

كان سولانكا يتساءل في استخدام ميلا لكلمة «ولد» كناية عن أبناء جيلها. كانت الكلمة تخرد من فمها بسلامة نية: كانت نيلا بالمقارنة لنقل بميلا ميلو، سره القذر تجسد المرأة الرَّاشدة، لم تكن ميلا خالية من السحر، لكن ذلك السحر كان يتغذى من حيوية طفولية، من نهم نزوي متولد من أزمة الرغبة المقرفة هذه نفسها، من هذه الحاجة في نفسها للتلاعب بالأقاصي، بتجاوزها من أجل اكتشاف ما كان من الممكن له أن يثيرها أيضًا. عندما كانت الثمرة المحرّمة هي خبزك اليومي، إن جاز لي القول، فمن أين كانت لك تلك الرعشة الكبرى؟ كانت ميلا محظوظة ـ فكر سولانكا، لم يفهم صديقها الصغير ما كان بإمكانه أن يفعل معها، فهجرها، لو أن شبانًا صغارًا آخرين علموا إلى أيّ مدى كانت مستعدة لأن تمضي وأي محرمات كانت ترغب في التغاضي عنها، لكان من الممكن لها أن تصبح إلهتهم، المرأة ـ الطفلة لتعبُّدهم المقدّس. لكان من الممكن لها أن تنتهي إلى نفق، وهي مهشّمة الجمجمة.

«لعبة البرودة. قال سولانكا بصوت عالٍ. مأساة البرج العاجي، الحياة دون هموم، هؤلاء الناس الذين يملكون وحدتهم».

كان على سولانكا أن يشرح إلى نيلا ما تعنيه اللفظة الأخيرة وأن يسحر بسماعها تضحك من جديد.

أليس مدهشًا أن يريد كل هؤلاء الإيثيالوكيّين هو مايه وإيتالون، وديسكو، أن يكونوا كذلك؟ قالت نيلا متنهدة. السؤال هو: لماذا جاك هو أيضًا؟

أحسَّ البروفسور سولانكا بمعدته تنقبض:

«هل هو ضمن الـ م. م. سأل. لكنهم هم أنفسهم الأشخاص الذين».

ـ ليس بعد أن سارعت كي تشاطره هذا العبء المرعب، لكنه يلح عليهم كي يقبلوه، إنه يتوسَّل إليهم. المغفّل. وإليهم ترجع كل تلك القذارات في الجرائد. لم أستطع البقاء معه مذ عرفت ذلك، فسأحدثك عن خدعة لم يتحدّثوا عنها في الجرائد. أضافت وهي تمعن في خفض صوتها. أولئك الفتيات المغتالات. إنهن لم يغتصبن، ولم يُنْشَلْ منهن أي شيء حسن؟ لكنَّ شيئًا قد نُفِّذ بهن. وهذي هي النقطة المشتركة بين القتلة الثلاثة. إلا إذا لم يكن البوليس يريد لأحد أن يتحدث عن ذلك، خشية أن يحذو حذوهم بعض الفاسدين». بدأ سولانكا يخاف فعلاً.

«ماذا حصل لهن؟» سأل بصوت خافت.

ـ «لقد سلخوا جماجمهن» همست قبل أن تذرف الدمع مدرارًا.

أن تكون الواحدة مسلوخة الرأس، كان يعني أن تبقى غنيمة حتى في الموت. وبما أن النّدرة كانت تؤكد القيمة، فإن وجود سليخ جمجمة في جيبك ـ أيها اللغز الرهيب بين الألغاز ـ كان من الممكن له أن يمنح مكانة عُليا لمن كان من الممكن أن تضيفها عليه، سواء أكانت حيّة، على ذراعه أثناء حفلة رقص رائعة، أم وهي مستسلمة طواعية لكل أنواع الفانتازيا الجنسية التي يمكن لها أن تخطر في البال. سليخ الجمجمة كان يعني الهيمنة، .وكان انتزاعها ـ أو اعتبارها رفاتًا مقدّسًا يعني انتصار الدّال على المدلول. لقد كانت للنساء الشابات ـ بدأ سولانكا الذي صار فريسة لرعب ثائر يستوعب ـ أهمّية كبرى في نظر مغتاليهنّ، سواء أكن ميتات أم على قيد الحياة. كانت نيلا مقتنعة بإحساس الشبان الثلاثة بعقدة الذنب؛ مثلما هي مقتنعة بأن جاك كان يعرف عن ذلك أكثر مما كان يرويه إلى الناس أو إليها حتى.

«إن هذا كالهيروويين. قالت وهي تنشِّف دموعها. إنه مسجون فيه لدرجة لا يعرف كيف يتخلّص منه. بل إنه لا يرغب حتى في التخلُّص منه، حتى وهو

يعلم أنه، يدمِّره. ما الأمر الذي يتأهب للقيام به، بمن ينوي أن يوقع الأذى؟ هذا هو ما يقلقني هل انتُقيْتُ أنا من أجل أهواء هؤلاء القذرين، أم ماذا؟ لتعلم، أن ألاعيبهم الدونية القذرة ربما تكون قد مضت بعيدًا، وربّما أن لا هدف لهؤلاء الشبان الصّغار سوى الجنس والسلطة. نوع من هراء أخوة، إنهم خليط من أخوة في الدم. إنهم يضاجعون الفتاة ويقتلونها، وبما أنّهم في منتهى الخبث فإنهم لا يبقون أي أثر لممسك يؤدي إلى القبض عليهم. لست أدري، ربما يكون في هذا مجرّد حدس نتيجة لخبرتي، ربما لأنني شاهدت كثيرًا من الأفلام. «عبقريّة الشرّ» «الحبل»، أتتذكر؟ لماذا يفعلون هكذا شيئًا؟ لأنهم قادرون على فعله. لأنهم يريدون أن يثبتوا أنهم هم أيضًا قياصرة صغار. متفوّقون كثيرًا على الآخرين. ممجَّدون كآلهة. وفي منجى من العدالة، قتلة مقزِّزون، أجل، لكن التوتو رينيهارت عاهدهم على الإخلاص، «اللعنة، أنت لا تعرفينهم نَبْلا، إنهم أشخاص من أجود ما يكون». إنه مُعْمّى تمامًا. لا يدرك أنه سيقع معهم عندما سيقعون. والأسوأ أنه سيصبح كبش محرقتهم. سيضع القبعة، وسيصل إلى الكرسي الكهربائي وهو ينشد مدائحهم جاكوبس رينيهارت! هاك اسم كامل لهذا المغفل. بالإجمال هذه هي نفسيته الآن.

ـ من أين أتاك هذا التأكيد؟ سألها سولانكا.

عذرًا منك، يبدو لي أنك تهذين قليلاً. لقد استجوب هؤلاء الأشخاص، لكنهم لم يُوقفوا، بحسب ما فهمت، فإن كل واحد منهم قد أثبت غيبته الأكيدة ساعة حدوث الجريمة، وهناك شهود، إلخ. أحدهم شوهد في ملهى، لم أعد أتذكر جيدًا كل هذا».

كان قلب سولانكا يخفق بشدة، فطوال ذلك الوقت الذي كان يبدو له ردحًا من الزمن، كان يتهم نفسه بهذه الجرائم. لقد قرن اضطرابات شخصيته باضطرابات المدينة وأوشك أن يعلن نفسه مجرمًا. منذ الآن سيتمكّن من تبرئة نفسه. لكن ثمن براءته يهدده بأن يعيش بعقدة الذنب تجاه أعز أصدقائه. تشنّجت معدته من ذلك، وأحسَّ بالغثيان.

«ومن ناحية قصة السليخ هذه، حاول جاهدًا أن يستفهم، من أدراكِ بهكذا شيء».

ـ تبًّا، وزأرت، لتعترف أخيرًا. «كنت أنظف خزانة ملابسه اللعينة، يعلم الله لماذا. إنه لم يسبق لي إطلاقًا أن قمت بهذه السُّخرة من أجل رجل. أنا لست خادمة. حسن؟ أنا لست كذلك أبدًا. لكنني كنت أحبه فعلاً، وأظنني لذلك، وخلال خمس دقائق، قد انحططتُ إلى... حسن باختصار، قمت بأعمال منزله، ووجدت، وجدت...». انهمرت دموعها من جديد. وضع سولانكا يده على ذراعها والتصقت هي به، واحتضنته منتحبة.

«دينغو، قالت، لقد وجدت الثلاثة، الأقنعة اللعينة الثلاثة. دينغو قاضي الغابات، وبوز لوكلير».

لقد حدَّثت رينيهارت بذلك. رينيهارت الذي استشاط غضبًا نعم، من أجل مارساليس، وأندرِيسان، وميدفورد، من كانوا يضعون هذه الأقنعة ويترصَّدون لصديقاتهنَّ الصغيرات. حسن لم يكن في هذا مزحة لطيفة؛ لكنه لم يكن ليجعل منهم قتلة. كما أنهم لم يضعوا تلك الأقنعة عشيّة الاغتيالات: لقد كانوا خنازير بريَّة مشوَّهة. لكنهم كانوا خائفين، وهذا وارد، فطلبوا مساعدة جاك.

«لقد استمرّ في الدفاع عنهم، وبالزعيق ببراءتهم، ونفى حقيقة ناديه المعتبر الذي لم يكن سوى واجهة خداعة تخفي خلفها الممارسات الفاحشة للطبقة الثرية. (أبَتْ نيلا أن تغيّر الموضوع). أخرجت كل ما كنت أعرفه، أفترضه، أخمّنه، أشتبه به، بحت له بكل شيء. موضحة له أني لم أكن أنوي أن أعتقه طالما أنه لم يقل لي الحقيقة».

أخيرًا قال مذعورًا:

«هل تعتقدين بأنني ذاك الشخص الذي يرتاد الحانة الليلية كي يسلخ رؤوس الشابات الصغيرات؟».

عندما سألته ما كان يعنيه هذا، بدا مروَّعًا وادّعى أنه قرأ هذه القصة في

الجرائد. أزيز التَّمهوك ثورة المحارب المنتصرة. لكنها رجعت بكل اهتمامها. إلى دور وثائق ومحفوظات كل جرائد مانهاتن وضواحيه وعلمت «إنهم لم يتطرقوا إلى ذلك إطلاقًا». كانت نيلا متأنِّقة بشكل لا يلائم الفصل. بعد الظهيرة فقدت نضارتها. خلع سولانكا معطفه ووضعه على كتفيها المرتعشيْن. كانت ألوان المتنزه تنحسر من حولهما، الأسود والرمادي كانا يسودان العالم ـ ملابس النساء تميل إلى اللون الأحادي، شيء نادر في نيويورك حيث كانت الأزياء تتميز بالألوان الفاقعة وتحت سماء بلون الرِّنجار كانت الأشجار تخلع خضرتها. أحسّت نيلا بأنها في حاجة إلى الابتعاد عن هذه البيئة التي تحولت بشكل مفاجئ إلى وسط شبحي.

«هيا نتناول كأسًا، اقترحت وهي تنهض، وابتعدت في الحال بخطًا واسعة، فهناك حانة رائعة في فندق من شارع ٧٧.

لحق بها سولانكا من دون أن يلاحظ الانقلابات والكوارث الاعتيادية التي خلَّفتها لكأنها إعصار أثناء اندفاعه.

لقد وُلِدت في ميلداندو، عاصمة ليليبوت بلوفسكي التي لا تزال عائلتها تعيش فيها. لقد كانوا من الغريمتيا أنسال أحد أوائل المهاجرين ـ سلفها الأول ـ الذي وقَّع عهد التدرّج عام ١٨٣٤ العام الذي تلا إلغاء الرق. كان بيجي ماهاندرا غادر القرية الهندية الصغيرة. وسافر مع إخوته إلى هاتين الجزيرتين المتماثلتين البعيدتين في جنوب الهادي. راح آل ماهاندرا يعملون في بلوفسكي، الجزيرة الأكثر خصبًا بين هذه الجزر ومركز صناعة السكر، «بما أنني ليليانية هندية، قالت، وهي تلتهم الكوكتيل الثاني، فإن فزاعة طفولتي كانت هي المرقِّم، الذي كان طويلاً أبيض، ولم يكن يعرف النطق إلا بالأرقام، كان يأتي ليلاً ليفترس البنات اللواتي لا يقمن بأعمال المنزل، ولا يغسلن ما بين أفخاذهن. عندما كبرت علمت أن تلك الفزاعات ما هي إلا رؤساء العمال الذين يشتغلون في زراعة قصب السكر. من كنا نتحدث عنه

ضمن العائلة كان رجلاً أبيض معروفًا باسم بروت ـ بروتوس أظن ـ لقد كان شيطان تاسمانيا[1]، الذي لم يكن سلفي الأول وإخوته بالنسبة له إلا مجرَّد أرقام في القائمة التي كان يقرأها بصوت عالٍ كل صباح. كان أسلافي أرقامًا وأبناء أرقام. وحدهم الإلبيون سكان البلد المحليون من كانوا يُنَادَوْنَ بأسمائهم الحقيقية. لقد مررنا بثلاثة أجيال حتى استطعنا أن نستعيد أسماءنا العائلية. لقد فسدت العلاقات بشكل باد للعيان بين الإلبيين وبيننا، «نحن نأكل الخضار، وكان جدي يدأب كي يغرس ذلك فينا، أما هؤلاء الإلبيون الشّحيمون السمان، فإنهم من أكلة اللحم البشري لقد ذُكر أكل لحم الإنسان في تاريخ ليليبوت ـ بلوفسكي. ويشعر الناس بالإهانة عندما تذكرهم بذلك، إنما هذي هي الحقيقة، أما بالنسبة لنا، فإن مجرد وجود اللحم في مطابخنا كان يعتبر شيئًا مخزيًا. فالخنزير هو طعام الشيطان المفضَّل».

كانت الألفاظ التي تحمل اسم المشروبات الروحية تحتل مكانًا رفيعًا في تاريخ العائلة وبالنسبة للغروغ، والباكونا، والكافا، والبيرة فقد كانت الجماعتان متعادلتين؛ لقد فتك الإدمان على الكحول والمشكلات التي كانت ترافقه بالجماعتين. فوالدها كان سكّيرًا وكانت هي سعيدة بالإفلات منه. كانت المنح الدراسية المخصصة لـ ليلليبوت ـ بلوفسكي محددة جدًا، لكنها حظيت بواحدة منها ووقعت فورًا في حب نيويورك، كما هي الحال لدى هؤلاء الذين يبحثون عن زاوية سقوط بعيدة عن بلدانهم، وسط متشردين آخرين يتوخون الشيء نفسه: ملجأ أمينًا يفردون فيه أجنحتهم. لكن تلك الجذور كانت تعذبها وتتعذب أكثر مما كانت تسميه «العزاء الأثيم». لقد تهربت من والدها، وليس من أمها وأخواتها. وبقيت مشدودة بولع إلى قضية جماعتها.

«استخرج التظاهرات يوم الأحد، قالت وهي تطلب كأسًا آخرى من

---

(١) جزيرة في جنوب أسترالية.

المشروب الخليط. هل ستأتي؟». وسولانكا ـ كانوا عندئذ في يوم الخميس ـ أكّد وعده.

«يقول الإلبيون بأننا جشعون، ونريد كل شيء، وأننا سنطردهم من بلادهم. ونحن نقول إنهم متقاعسون، وإننا لو لم نكن هناك، لمكثوا مكتوفي الأيدي، ولماتوا جوعًا. إنهم يقولون إن الجزء الذي يجب أن تكسر منه بيضة الإمبريشت هو الطرف الضخم. في حين أننا ـ أو على الأقل هؤلاء الذين يأكلون البيض منا ـ نحن النهايات الضخمة، إننا الجهة المنتفخة. «انتزعت مزحتها منه ضحكة خفيفة». فالهموم كانت وشيكة الوقوع.

كانت المسألة على الأرجح تتعلّق بالأرض.

فمع أن الهنود الليليبيانيين كانوا يهتمون بالزراعة، إلا أنهم صاروا مسؤولين عن معظم الصادرات مما يعني أنهم كانوا يحصلون على معظم النقد الأجنبي. وعلى الرغم من أنهم أثروا وصارت لهم منازلهم ومدارسهم ومشافيهم إلا أن الأرض التي أقيم عليها كل هذا قد بقيت ملك الإلبيّتين، سكان البلد المحليين».

«ساكن بلد محلي: إني أمقت هذه الكلمة فأنا هندية ـ ليلليبيانية منذ أربعة أجيال وهذا كفيل بأن يجعل مني واحدة من أصحاب البلد المحليِّين».

كان الإلبيون يتخوَّفون من حدوث انقلاب سياسي ـ تملك ثوروي للأرض من قبل الهنود الليليانيين الذين كان الدستور الإلبي ما يزال يمنحهم الحق في تملك الأراضي في الجزيرتين؛ الهنود الليليبيون من جهتهم كانوا يخشون العكس. كانوا متخوِّفين من أن يستردَّ الإلبيون كل أراضيهم التي أصبحت ثمينة وأن يجردوا منها الهنود التي استصلحوها، بمجرَّد انقضاء مدة إيجارهم لمئة عام. أي خلال العشر السنوات القادمة.

إنما كان هناك شيء من التعقيد بحيث إن نيلا، وبرغم ولائها العرقي، وعن الكؤوس الثلاث التي أفرغتها إثر بعضها بعضًا، كانت تتمتّع بصدق الاعتراف.

«ليست المسألة مسألة عداء عرقي فقط، ولا مسألة مَنْ يمتلك مَنْ حتى، إن

الثقافة الإلبية مختلفة فعلاً. وأنا أفهم ما يعني أنهم خائفون. إنهم من أنصار الجماعية. والأرض ليست في أيدي مالكي الأراضي، بل هي مُساسة من الزعماء باسم الشعب الإلبي كله. ونحن الأطراف الضخام ننجح من خلال اتجاهنا للتجارة، وروحنا المتعدِّية، ومركنتيليتنا[1] المتحررة، وبعقليتنا النفعية. وها هو العالم بأسره يتحدث لغتنا وليس لغتهم، نحن في عصر الأرقام أليس كذلك؟ والحال كذلك فنحن أرقام والألبيون كلمات. نحن الرياضيات وهم الشِّعر. نحن نستولي وهم يخسرون. إذن يكون من الطبيعي أن يرهبونا، إنه كصراع داخل الطبيعة الإنسانية نفسها بين من هو آلي ونفعي فينا، ومن يحب ويحلم. وكلنا نرتعد خوفًا من أن يتهدم السحر والغناء أمام جانب الإنسانية البارد والميكانيكي. الصراع بين الهنود الليليانيين والإلبيين هو صراع العقل البشري، وتبًّا، إن قلبي يضعني بالتأكيد في المعسكر الآخر. لكن شعبي هو شعبي، والقانون هو القانون، وعندما يمتهن المرء طيلة أربعة أجيال فيعمل كمواطن من الدرجة الثانية يكون الغضب من حقه. وإذا ما احتاج الأمر، فإني سأعود إلى هناك، وسأناضل جنبًا إلى جنب معهم. أنا مستعدة للقيام بذلك».
لقد صدقها وحدث نفسه: ماذا جرى كي أحس بنفسي مرتاحًا هذا الارتياح وأنا بصحبة هذه المرأة الانفعالية التي ما كدت أعرفها؟

كانت الندبة ذكرى حادث سيارة خطير على الطريق المزدوج، بالقرب من آلباني؛ لقد كان أن يودي بواحد من ذراعيها. كانت نيلا تقود سيارتها وباعترافها كـ «مهرانا»[2].

وكان على باقي السائقين أن يتكيَّفوا مع مسلكيّتها السلطوية التي تعلو على القوانين. لقد كان السائقون يغادرون سياراتهم ويولّون الأدبار عندما كانوا

---

(١) مركنتيليه ـ Mercantilisme: نظام اقتصادي نشأ في أوروبا خلال انهيار الإقطاعية لتعزيز ثروة الدولة بتنظيم الاقتصاد، واعتبار المعادن الثمينة ثروة الدولة الأساسية.

(٢) زوجة المهراجا.

يلمحون سيارتها ـ التي كانت معروفة ببلوفسكي ـ في الأماكن وفي المناطق المحيطة بجامعتها الأنيقة «إنجلترا الجديدة» ـ بعد تعرُّضها لسلسلة من الاصطدامات المتنوعة والمختلفة شهدت الحادث المشهود، لقد نجت بمعجزة (وبشيء من الحظ)، ولعلَّ في عدم تعرض جمالها الفاتن إلى أي أذى ما يدعو إلى المزيد من الدَّهشة حتى.

«إني أحبُّ ندبتي. قالت. وأنا محظوظة بوجودها. فهي تذكِّرني بما لا ينبغي عليَّ أن أنساه أبدًا». لحسن الحظ، فإنها لم تكن بحاجة إلى أن تقود سيارة في نيويورك. هيئتها الملكية ـ أمي كان تقول إنني كنت ملكة، وكنت أصدّقها ـ جعلتها تؤثر أن تسلم المقود إلى غيرها، مع أنها كانت راكبة مرعبة:

كانت تمضي وقتها بإطلاق صرخات التعجب. نجاحها السريع في الإنتاج المتلفز مكنها من وضع سائق تحت تصرفها وقد اعتاد السائقون سريعًا على صرخات رعبها. لم يكن لديها أي تمييز في التوجه. شيء مدهش بالنسبة لواحد يسكن نيويورك أن لا يعرف أبدًا أين كانت توجد الأشياء.

يهمها أن تصل إلى محالها المفضَّلة، مطاعمها، وحاناتها الليلية المحبَّذة، استوديو تسجيلها وقاعات المونتاج، التي كانت ترتادها بانتظام: لم يكن مهمًا أن تعرف أين كانت توجد كل هذه الأماكن. «إنها موجودة حيث تقف السيارة. قالت لسولانكا وهي تفرغ كأسها الرابعة، بهيئة ساذجة تمامًا. هذا مدهش. إنها موجودة دائمًا هناك، تمامًا خلف السجف».

المتعة هي أعذب المخدِّرات. اتكأت نيلا ماهاندرا عليه وصرَّحت:

«لشد ما أنا فرحة، لم أكن أدرك أن التقرُّب منك سهل إلى هذه الدّرجة، كنت تبدو منحصرًا جدًا عند جاك، وأنتَ تشاهد تلك المباراة البلهاء».

تدلّى رأسها على كتفه، وقد انحلّ شعرها وحجب أكبر جزء من وجه سولانكا. كانت مسح بظاهر يدها اليمنى على ظاهر يده اليسرى.

«أحيانًا، عندما أشرب، فإن الأحزان الموجودة داخلي تخرج، تخرج،

وتفرح، وأنا لا حول لي عليها عندئذ، إنها تتحكم، هذا هو كل شيء».

كان سولانكا ساهمًا. أمسكت يده، ولثمت رؤوس أصابعه. مؤكدة تفاهمها الضمني «أنت أيضًا لديك ندبات ـ أفصحت ـ لكنك لم تتحدث عنها إطلاقًا. لقد أفضيت لك بكل أسراري، وأنت لم تذكر لي شيئًا على الإطلاق. إني أتساءل إذن: لماذا لم يذكر هذا الرجل شيئًا عن ابنه؟ أجل، لقد أطلعني جاك على ذلك بالطبع هل تظن أني لم أسأله؟ أسمعان، إيليانور، إني أعرف كل هذا. لو كان لي ولد صغير لمكثت أتحدث عنه طوال الوقت. لكنك على ما يبدو، لا تحمل له صورة حتى ما الخطب إذن؟ لقد فارق هذا الرجل زوجته، أم ابنه، وحتى أصدقاؤه لا يعرفون لذلك سببًا. إنه يبدو طيبًا ولطيفًا. فهو ليس خشنًا ولا غليظًا، فلا بد أن تكون إذن لديه أسبابه المقنعة، ربما كان سيحدّثني عن ذلك لو أني كاشفتُه بأفكاري، لكنك كبلاطة تمكث صامتًا لا تنبس ببنت شفة... حدثت نفسي هذا هندي من الهند، وليس هنديًا ليليبيانيا مثلي، ولد من الوطن الأم، لكن المسألة على ما يظهر مسألة محرَّم. مولود في بومباي ولا يتحدث أبدًا عن مسقط رأسه. وماذا عن أسرته؟ هل لديه أخوة؟ أخوات؟ أمات والداه أم إنهما على قيد الحياة؟ لا أحد يعرف. هل سبق له وعاد مرَّة إلى وطنه؟ لا، إن هذا لا يعنيه بشيء على ما يبدو. لماذا؟ لا بد للجواب أن يكون: الندبات، مليك، أظنك تعرضت لحوادث أكثر مني، وجراحك، كانت ربما، أخطر من جراحي... لكن ما يسعني أن أفعل وأنت لا تنطق؟ ليس لدي ما أقوله لك، سوى أنني موجودة، وإذا لم يكن في مقدور كائن بشري أن ينقذك، فإن أي شيء لن يكون قادرًا على ذلك. هذا هو كل ما يمكن أن أقوله لك. تتكلم، لا تتكلم، أنت من يقرر ذلك. إني لا أمزح، الآخر موجود على أية حال، إذن، اصمت، لست أدري لماذا على الناس أن يتكلموا بهذا القدر، لما كان بديهيًا أن ما نحن بحاجة إليه هو ليس الكلام، بالنسبة للحظة على الأقل».

[11]

البقاء للأجدر
ارتقاء الملوك الدُّمى المتحركة

لقد اخترع عالم الاتصالات والمراقبة الكبير واللاأخلاقي ريجك آكاز كرونوس الملوك الدمى المتحركة كردة فعل على أزمة حضارة ريجك القاتلة، لكنه وبسبب عيب فظيع وعضال في طبعه كان يمنعه من التفكير في المصلحة العامة، قد سخّرها من أجل ضمان البقاء والثروة له نفسه دون سواه.

في تلك الحقبة، كانت القُنَنُ الثلجية لغاليلي، وكوكب ريجك، الأم، في آخر أطوار ذوبانها (مساحة واسعة من بحر برزت في القطب الشمالي)، ومهما بلغ ارتفاع السدود فإن اللحظة التي ستجرف فيها المياه مجد ريجك لن تتأخر، تلك الحضارة السامية الواقعة في أكثر الأراضي انخفاضًا والتي شهدت أغنى وأطول عصر ذهبي في التاريخ.

آلت الريجك إلى الزوال. رمى فنانوها رِيَش رسمهم ـ إذ كيف يبدع الفن، الذي يخضع كما النبيذ الجيد، لحكم المستقبل ـ طالما أن كل مستقبل صار مستحيلاً؟ لا يمكن للعلم نفسه هو أيضًا أن يستنهض التحدي.

كانت مجموعة غاليلي الشمسية تقع في «الربعية السوداء» بالقرب من حدود مجرتنا، نطاق مكتنف بالأسرار، تتّقد فيه شموس قليلة جدًا. وعلى الرغم من ارتفاع مستواها التكنولوجي فإن الريجك لم تنجح إطلاقًا في تعيين كوكب

استقبال آخر. عينة من أهالي ريجك أرسلت بعد تصريد تناسليتها العضوية من معمل الطاقة الحرارية (Le max H) مركبة فضائية، وُجِّهت بناظمة آلية إلكترونية ملقّمة كي تحرّك شحنتها المصنّعة، فيما إذا وُفِّقَتْ في بلوغ كوكب ملائم على مسافة قصوى من حامل مشعاعاتها الحرورية الشمسية. عندما تعطلت هذه المركبة، وانفجرت بعد أن قطعت بضعة آلاف من الكيلومترات فقط، فقد الناس الأمل. في هذا المجتمع القياسي والمتفتح الذهن للغاية، شوهد مبشرون متحمسون وقد انتصبوا وأخذوا يفسرون الكارثة المداهمة على أنها نتيجة لإلحاد الثقافة. ومواطنون كثر طربوا لمجيء هؤلاء القادمين الجدد ذوي العقل المحدود. كان منسوب المياه يزداد في ارتفاعه، وعندما كان سدٌّ يتصدع، فإن المياه كانت تتدفق منه بعنف شديد، بحيث إن مناطق بأسرها كانت تنغمر أحيانًا، قبل أن يتمكنوا من سد الثغرة. سوف ينهار الاقتصاد، وتعم الفوضى ويظل الناس في بيوتهم بانتظار حتفهم.

الصورة الوحيدة التي بقيت لدينا لكرونوس تكشف لنا عن رجل بشعر فضي طويل، وقسمات طفولية رقيقة بشكل مدهش، وثغر خمري على شكل قلب. يرتدي جلبابًا رماديًا يتهدّل حتى أقدامه، مع تطريز على أردانه وياقته فوق قميص أبيض بياقة عالية، وصدرة: إنها صورة العبقرية الفاضلة بعينها. نظرته غاضبة، وإذا ما تفحص المرء الظليل الذي يحيط به، اكتشف العروق البيض تتحرك في رؤوس أصابعه. وليس إلا بعد فحص دقيق يتسنى للمرء أن يلاحظ الصورة الصغيرة البرونزية اللون في الزاوية السفلية اليسرى للوحة. يحتاج المرء حينئذ إلى شيء من الوقت كي يفهم أن الدمية قد تحررت من خيوط سيدها. أدار المسخ ظهره لمبتكر الدمى، وانصرف يقدُّ مصيره بيده، بينما كان كرونوس الخالق المخذول يستأذن بالانصراف ليس من مخلوقاته فقط، بل من الحياة أيضًا.

لم يكن الأستاذ كرونوس عالمًا كبيرًا فحسب، بل كان مقاولاً جسورًا وحاذقًا

أيضًا. فبينما كانت أراضي ريجك تختفي تحت الماء، نقل هو مكان فعاليته إلى أعلى الجزيرتين الصغيرتين اللتين كانتا تشكلان الأمة البدئية، إنما المستقلة لـ «بابوري» في متقاطرات المجرّة غاليلي. هناك، فاوض، ووقع معاهدة مع الحاكم المحلي الموغول، بقي البابوريون ملاك أراضيهم أما كرونوس فسوف يجد نفسه يقيم دعامات عالية على مراعي الأراضي المنخفضة التي وافق من أجلها أن يقدم ما كان يبدو لموغول كراءً باهظًا: قبقابًا سنويًا لكل واحد من الرجال والنساء والأطفال، وعلاوة على ذلك، فقد تعهد كرونوس بأن يضمن الدفاع عن بابوري ضد الغارة التي ستحدث فجأة، عندما ستُغمر أراضي ريجك بالأمواج العالية الصاخبة. لهذا فقد وجد نفسه وقد منح لقب «المنقذ الوطني»، وحق التفخيذ[1] على كل المتزوجات الجدد في الجزيرتين. بعد هذا الاتفاق، انخرط كرونوس في إبداع روائعه التي ستجره إلى سقوطه، السلالة المخيفة للقياصرة الدمى المتحركة، المعروفة أيضًا بملوك الأستاذ كرونوس، الدمى المتحركة دون خيوط.

عشيقته زامين حسناء ريجك الأسطورية والعالمة الأولى التي كان يعتبرها كنظير له، رفضت أن ترافقه إلى عالم المتقاطرات الجديد هذا. فمكانها كان وسط شعبها، صرَّحت، وإنها تفضّل أن تموت مع ذويها إذا ما شاء القدر لها ذلك. تركها كرونوس دون تردد. مفضلاً دون شك التنويع الجنسي الحر في طرف العالم الآخر.

الخيوط المتقطعة في صورة كرونوس هي خيوط مجازية محضة. إذ لم يكن لمخلوقات الأستاذ كرونوس الاصطناعية أي خيوط أبدًا. كانت تمشي وتتكلم؛ كان لها «معدة»: مركز هضمي مصطنع، قادر على معالجة الأطعمة والأشربة العادية؛ ومزودة بجهاز إغاثة يعمل على الطاقة الشمسية يمكنها من البقاء يقظة،

(١) حق التفخيذ ـ Cuissage: حق السيد في أن يتمتع بالعروس في الليلة الأولى.

ومن العمل مطولاً بشكل تفوق فيه أي كائن بشري من لحم ودم. كانت أسرع، وأقوى، وأذكى، إنها، إنه، أفضل، «قال كرونوس» من مضيفيها أناس المتقاطرات. «أنتم ملوك وملكات، لقن مخلوقاته ـ تصرفوا كما يليق بكم. أنتم الأسياد هنا». حتى أنه أعطاهم القدرة على التناسخ، لقد شوهد السيبورغ[١] يعيد وضع خرائط شكله العام، كي يستطيع، نظريًا، أن يعيد خلق نفسه بنفسه على صورته. لكن كرونوس أضاف إلى لُقَيْمِ حاسبته الرئيس دالة توجيهية أولية. كانت المخلوقات الأوتوماتيكية الموجهة ونسخها المطابقة مجبرة على الامتثال إلى أي أمر يعطيه حتى لو كان في ذلك هلاكها إذا ما قدر هو ضرورة ذلك. لقد بهرجها بأجمل الحلي، وأعطاها وهم الحرية، فكان له منها أرقاء. لم يعطها أسماء، بل أرقامًا من سبعة أعداد كانت تُشَكَّل على زنودها. لم تكن هناك مخلوقات كرونوسية متماثلة، كل واحدة كانت لها صفات متفردة، فهناك الفيلسوف الأرستقراطي، المرأة ـ الطفلة بطبعها النزق، الزوجة السابقة الغنية، والمشاعية المطلقة، الشائخة، سائق البابا، السبّاك، الغوّاص، ذات المؤخرة المرضوضة، لاعب الغولف (بلاك ـ بوليه)، بنات الطبقة الراقية الثلاث، أبناء لاهون، الطفل العاقل وأمه المثالية، الناشر الخبيث، الأستاذ الغضوب، إلهة النصر (وهي مخلوقة أوتوماتيكية موجهة. خلقت خارقة الجمال كنموذج لعشيقة كرونوس التي تركها زامين ريجك)، العدّاؤون، المرأة صاحبة الرُّؤى، الإعلاناتي النجم، ومبتكر دمى أيضًا. لقد أسند إليها، إضافة إلى الشخصية، مواطن ضعف ومواطن قوة، عادات، وذكريات، نفور، رغبات ـ منظومة من القيم عليها أن تتبعها في حياتها. من الممكن لعظمة كرونوس التي كان فيها هلاكه أيضًا، أن تكون نتيجة لهذا: إن الفضائل والرذائل التي رسخها في مخلوقاته لم تكن لا كليًا ولا حصرًا من صنعه. فهو منتفع، انتهازي، عديم الذمة، إلا أنه مع ذلك، كان يسمح لمخلوقاته الموجهة آليًا بدرجة من

(١) مخلوق اصطناعي موجه أوتوماتيكيًا.

الاستقلالية الأدبية. كانت المثالية شيئًا ممكنًا، خفَّة، سرعة، انتظامًا، رؤية، تعددية، جلدًا. تلك هي كانت القيم الكرونوسية الست.

لكن وبدلاً من تسجيل تعريفات فريدة غيابيًا في برامج المخلوقات الموجهة أوتوماتيكيًا، فإنه عرض سلسلة من إمكانيات اختيار من متعدد وهكذا يكون من الممكن «للخفّة» أن تعرف على أنها «السهولة في عمل يعتبر شاقًا في الواقع» بمعنى آخر بعون الله؛ إنما من الممكن لها أن تعرف أيضًا «التعامل بطيش مع ما هو جدي» أو حتى «الاستخفاف بما هو مهم أي اللامبالاة» (أو انعدام الحس الخلقي). ومن الممكن للسرعة أن تكون «إنجاز المقتضى بمهارة» بتعبير آخر النجوع. إلا إذا كان لا بد من التشديد على الجزء الثاني لهذا التعريف فيصبح من الممكن أن يتفرع عنه نوع من الديمومة؛ «الانتظام» من الممكن لمعناه أن يجنح إلى الدقة أو إلى «الاستبدادية»؛ «الرؤية» من الممكن أن تكون «وضوح الفعل» أو «إفراط في الانتباه»، «التعددية»، من الممكن لها أن تعني «رحابة الفكر» أو «الازدواجية»، و«الجلد» وهو الأكثر أهمية بين القيم الست، كان من الممكن لها أن تعني إما «إمكانية الاشتغال في ظروف معينة» أو «ميل حصري» تلك هي مثابرة برتلوي (إننا نلجأ هنا إلى نموذج من عالمنا على سبيل التشبيه) الكاتب الذي كان يفضل «ليس»، أو ميكاييل كوهلهاس في بحثه المتصلب والمدمر في الإصلاح، ـ شانشو مثابر بمعنى «يعتمد عليه». أما المتشرِّد، البدين، مهووس الفروسية كيشوت فهو كذلك. سنشير أيضًا إلى جلد الأرض المأسوي الذي كان يشتهي باستمرار ما لا يستطيع امتلاكه إطلاقًا. أو مثابرة آشاب[١] في ملاحقة الحوت. إنها المثابرة التي تدمر المثابر لأن آل آشاب بادوا بينما كتب البقاء لآل إسماعيل. «كمال الشخص شيء معتم، ويدقُّ على الوصف، أعلن كرونوس إلى مخلوقاته الخيالية الميكانيكية. في هذا اللغز تجثم الحرية، بيد أني منحتكم إياها. من رحم هذه العتمة يولد النور».

---

(١) آشاب: أحد ألمع ملوك إسرائيل على الرغم من سياسته المناقضة لشعائر يهوى.

لماذا منح هؤلاء الملوك الدمى بلا خيوط هكذا حرية نفسية ومعنوية؟ ربما لأن العالم والبحاثة القابعين داخله كانا يريدان أن يعرفا بأي ثمن كيف ستحسم أشكال الحياة الجديدة هذه، المعركة التي تولِّد الغضب داخل كل مخلوق وهب إحساسًا عميقًا بين حالات النور والظلام، القلب والعقل، الروح والآلة.

في البداية، خدمت الملوكُ الدمَى بلا خيوط كرونوس كثيرًا. كانوا يصنعون الأحذية كي يفوا ما استحق عليهم من كراء الأراضي، يرعون الماشية، ويزرعون الأرض، لقد كساهم ثيابًا كثياب السَّلاطين، لكن تنانيرهم الطويلة من البروكار وجلابيبهم كانت تتسخ سريعًا وتتمزق، فصنعوا لأنفسهم ملابس جديدة تلائم أعمالهم أكثر.

كانت القِنن الثلجيّة تستمر في الذوبان ومنسوب المياه يتابع ارتفاعه، كانوا يستعدون للدفاع عن أرضهم الجديدة التي أخذت تنعزل شيئًا فشيئًا عن الريجك. في غضون ذلك أخذوا في تعديل برامجهم دون مساعدة كرونوس، وفي اكتساب مهارات وكفاءات جديدة كل يوم. أحد تلك الابتكارات كان يقوم على استخدام ماء الحياة المحلي كوقود خفيف الوزن. لقد أقلع الجيش، مزودًا بزجاجات ماء النار في حال توقف محرِّك لنفاذ الوقود، دون الاستعانة بأصغر طائرة، فصدَّ ودمرَّ مراكب الريجك في شباك فضائية موجهة، شباك معدنية هائلة مفخخة نصبوها في السماء. ونصبوا أفخاخًا مماثلة تحت الماء (كانوا قد أجروا تعديلات على رئاتهم وصاروا إذن في حالة تمكنهم من خرق الأسطول من الأسفل) لقد ربوا «معركة المتقاطرات» وخيم الصمت على السموات كما على المياه. عند تخوم غاليلي غمرت المياه السفلية الريجك. حتى ولو أن كرونوس قد أحس بأدنى شفقة تجاه مواطنيه الغرقى، فإنه لم يدع شيئًا من ذلك يبدو عليه.

مع ذلك، فقد تغيرت الأمور بعد الانتصار، عاد الملوك الدمى بلا خيوط من

الحرب وهم يحملون معنى جديدًا للقيمة الفردية و«لحقوقهم» حتى. كي يملكهم من جديد، أعلن كرونوس عن برنامج طارئ للصيانة والإصلاح. عدد كبير من المخلوقات الموجهة أوتوماتيكيًا لم يمثلوا في الورشة ـ مؤثرين لهؤلاء الذين أصيبوا بأذى في المعركة أن يعيشوا ضمن عاهاتهم ـ لقد تعطلت آلياتهم المؤازرة وجزء من داراتها صار حاميًا جدًا. زمر من الملوك الدمى بدأت تتجمع خفية. اشتبه كرونوس بأنهم يتآمرون ضده، وعلم من إشاعة أنهم منذ ذلك الحين لم يعودوا يتنادون بأرقامهم، بل بأسماء جديدة اختاروها لأنفسهم بأنفسهم. لقد تحوّل إلى مستبد، وفي اليوم الذي بدت فيه إحدى بنات الطبقة الرفيعة الثلاث تتغطرس عليه، جعل منها عبرة لغيرها، موجهًا إليها سلاحها المروع «مفككه البارع» الذي أدى إلى المحو الفوري اللامنعكس الاتجاه لكل البرامج، بتعبير آخر إلى موت علم التوجيه.

لقد سار التنفيذ في عكس الهدف المرجو، اتسع الشقاق وانضم أكبر عدد من المخلوقات الموجهة أوتوماتيكيًا إلى المقاومة السرية، فشيدوا حول مخابئهم دروع أمان إلكترونية مانعة، ورقابة، بحيث إن كرونوس نفسه لم يكن قادرًا على خرقها بسهولة. غالبًا ما كانت تنتقل، بحيث إن الثوار كانوا يتمكنون من الاختفاء عندما كان الأستاذ يتمكن من تدمير سلسلة من الاستحكامات.

لا نستطيع أن نتذكر متى تعلم مبتكر الدمى الذي ابتكره آكاز كرونوس على صورته، وجهزه بعدد من خصائصه، متى تعلم إبطال وتحييد فاعلية الدالة الاتجاهية الأولى، إنما بعد هذا الاكتشاف فقد كان من حسن صنيع الأستاذ أن اختفى. وكي يرعب مخلوقاته كان لا بدَّ له مذ ذاك أن يختفي ريثما تخرج الثورة الزاحفة من الظل منتصرة كي تخمدها مخلوقات بابوري الموجهة أوتوماتيكيًا.

«آخر كلمات» كرونوس، مزاعمه قد وجدت على شكل رسالة الكترونية موجهة إلى غاصبه خالق الدمى المخلوق الموجه أوتوماتيكيًا، لقد كانت عبارة

عن نص انفعالي، متهافت، مفهم بالملامات والتهديدات والشتائم، يرمي منه إلى تبرئة ذاته بذاته. مع ذلك، فقد كان هناك ما يدعو إلى الرهان على أن النص مزور، وإنه ربما كان من صنيع مبتكر الدمى نفسه. إن خلق نوع من «كرونوس مجنون» كان الانعكاس الصافي لروحه، وكان مطابقًا تمامًا لتصاميم المخلوق الموجه أوتوماتيكيًا؛ وبحسب هذه القصة المضحكة فإن المثير قد كان مسلمًا به كما القصة الأصلية إلى حد كبير. (هذه الصورة الوحيدة لكرونوس، تتميز كما أشرنا إلى ذلك آنفًا، بنظرة العالم المعتوهة). وحديثًا، فإن اكتشاف شذرات من الصحيفة التي يديرها كرونوس، يسلط ضوءًا على حالته العقلية، ثمة كرونوس ينبعث من تلك الشذرات والتي تبدو أصالته فيها أكيدة. ما نقصده في الحقيقة هو كتابة الأستاذ: «الآلهة، هي أيضًا قتلت الجبابرة التي خلقتها. كتب كرونوس. فإن الحياة المصطنعة تعكس الواقع بمنتهى البساطة. لأن الإنسان ولد مقيدًا، لكنه يسعى إلى التحرر في كل مكان، أنا أيضًا، كانت لي أربطة في الماضي. كنت أحب دُماي المتحركة وأنا أعرف كل المعرفة، أن هكذا أطفالاً، ستخلص يومًا إلى الابتعاد عني، لكنها لا تستطيع التخلي عني. فأنا خلقتها بحب، وحبي متغلغل في كل واحدة منها، في مداراتها، في مكوناتها، وفي الخشب الذي صنعت منه». إنما كان من المستحيل كما يبدو أن يكون كرونوس ذاك قد تخلص من كآبته. فالأستاذ البارع في التخفي استطاع تمامًا أن يدبِّر انتقامه خلف ستار من الجبرية.

بعد اختفاء كرونوس فإن بعثة .P.R يقودها مبتكر الدمى وعشيقته قد حلت محل العالم في/ يوم الحذاء/ وأخبرت الموغول بأن عقد الأستاذ قد أُبطل. وبالتالي فإنه كان لا بد للإربيين وللبابوريين من أن يعيشوا متعادلين في الحقوق على جزيرتيهما النظيرتين. قبل مغادرة الموغول فجأة (بدلاً من أن يتراجع القهقرى سرًا، مثلما كان يقتضي البروتوكول العرفي الذي لم يتجرأ كرونوس نفسه على تجاهله) أعلنت إلهة النصر تحديًا لا يزال يهز الجماعتين «البقاء

للأجدر» بضعة أيام وأسطول بحري صغير مع قازب[1] رسا دون معرفة أحد صوب شجرة في جزيرة بابوري الشمالية. تلافت زامين تدمير حضارتها، ووُفِّقَتْ في الوصول، برغم كل العقبات إلى الجزيرة التي التجأ إليها الرجل الذي كان قد تخلى عنها إلى موت محقق.

أجاءت كي تضرم نار هواهما، أم كي تثأر لإهانتها؟ أجاءت لتحب أم لتقتل؟ إن تشابهها المدهش مع عشيقة مبتكر الدمى المخلوق الموجه أوتوماتيكيًا، إلهة النصر، جعل الملوك الدمى يفوضون أمرهم إليها دون تردد واتخذوها ملكة جديدة عليهم. ما عساه أن يحصل عندما ستلتقي المرأتان؟ كيف ستكون ردة فعل مبتكر الدمى المتحركة بلا خيوط أمام النسخة الأصلية للمرأة التي كان يحبها؟ وكيف ستكون ردة فعلها هي، أمام هذا الاستنساخ الميكانيكي لعشيقها القديم؟ ماذا سيفعل بها أعداؤها الملوك الدمى الجدد، هم من أصبحوا يطالبون مذ ذاك بذاك الموقع من المتقاطرات؟ كيف سيعاملونها؟ وماذا دهى الأستاذ كرونوس؟ وإذا ما كان قد مات فكيف كانت ميتته؟ وإن كان لا يزال حيًا فما هي مساحة سلطته؟ أأطيح به، أم أن اختفاءه هو حيلة شيطانية؟ كم هناك من التساؤلات! والتي خلفها يكمن اللغز الكبير. ولو ألفى الملوك إما الدمى أنفسهم وقد عرض عليهم كرونوس الاختيار بين أحد الخيارين أَنَوَاتِهِم[2] الأصلية الميكانيكية، أو بعض ازدواجيات الطبيعة الإنسانية، فماذا سيكون اختيارهم؟ الحكمة أم الغضب؟ السلام أم الغضب؟ الحب أم الغضب؟ غضب العبقرية، الإبداع، أم غضب القاتل أو الطاغية؟ الغضب المتوحش المجنون الذي لا يمكن لأحد أن يعلنه إطلاقًا؟

تتمة قصة الإلهتين التوأمين، والأستاذين، والبحث الذي شرعت به زامين كي تعثر على آكاز كرونوس والصراع على السلطة من قبل طائفتي بابوري سَتُبَثُّ

---

(١) حيوان برمائي.

(٢) جمع. أنا.

على هذا الموقع، على مراحل منتظمة. قرقعوا بقبابيكم على هذه الأربطة من أجل مزيد من الأخبار .P.R، أو على الأيقونات السفلى من أجل للـ .Q.A.F وأجوبتها المئة جواب وجواب، من أجل الدخول المتبادل ومن أجل الاطلاع على التشكيلة الواسعة الجاهزة على الطلب وبطاقات اعتماد أساسية مقبولة.

[12]

في بداية أعوام الستينات، وحينما كان في بداية شبابه، التهم مليك سولانكا روايات الاستياق، لما صاروا يسمونه في ما بعد (العصر الذهبي للخيال العلمي» فيما كان يفر من واقع وجوده البشع، وجد في الخيال الأدبي الحر في أمثاله وفي كل مجازاته بل في حماسياته الشعرية الخيالية تمامًا، وفي تصوراته الخارقة والمنمَّقة ـ عالمًا تعاقبيًا في استحالة مستمرة. وجد لنفسه فيه مسكنًا بشكل غريزي. اشترك في المجالات الأسطورية أمازينغ الخيال العلمي واشترى كل عناوين السلسلة الصفراء التي نشرها الناشر غولآنر، وحفظ عن ظهر قلب كل روايات ري بريدبوري، وزينة هانرسون، وA.E. ڤان غات وكليفورد، وإسحاق آسيموف، وفريدريك بول، وM.C. كورْنْبلوْث، وستانيسلاو ليم، وجيمس بليتس، وفيليب K ريك وسبراغ دوكامب. فالخيال العلمي، والخيال العجيب، هما في نظر سولانكا، الناقل الشعبي الأمثل للرواية الميتافيزيقية بشكل لم يسبق لأحد أن تصوره. كان عنوان روايته المفضلة وهو في عامة العشرين «أسماء الله التسعة الميليارات»؛ والتي فيها قرر دَيْرٌ تيبيتيٌّ أن يحصي كل أسماء الكل القادر ـ ظنًّا منه بأن علة الوجود تكمن في ذلك ـ فاشترى لهذا حاسوبًا بخصائص خارقة جدًا من أجل تسريع العملية. خبراء متمرسون ذهبوا إلى الدير من أجل مساعدة الرهبان في برمجة الجهاز، لقد وجدوا في فهرسة أسماء الإله فكرة هزلية إلى أبعد ما يمكن وقلقوا لما ستكون عليه ردة فعل الرهبان عندما ستنجز العملية ويستمر الكون في الوجود. فانحجبوا سرًا إذن، عندما أتموا مهمتهم. في ما بعد، وهم في الطائرة، قدروا بأنه لا بد للحاسوب من أن يكون قد أنهى عمله في تلك اللحظة. نظروا من شباك الطائرة إلى السماء

الليلية «التي كانت نجومها تنطفئ بهدوء، الواحدة تلو الآخرى» لم ينس سولانكا أبدًا هذه الحملة.

فبالنسبة لهكذا قارئ ـ ولمعجبٍ، في السينما، بأفلام المثقفين مثل فاهرنهايت ٤٥١ وسولاري ـ فإن جورج لوقا كان نوعًا من مسيح دجال. سبيلبرغ في «لقاءات الرجل الثالث» كان ولدًا يلعب في بلاط العظماء، بينما كانت أفراد مجموعة الترومنياتو ـ لا سيما بِلْدْزُنَر الضخم هم حملة الشّعلة المقدّسة. والآن فقد جاء دوره، لقد أكبَّ البروفسور سولانكا خلال نهارات الصيف المربكة كمهووس على عالم الملوك الدمى بلا خيوط. فقصة العالم المجنون آكاز كرونوس وعشيقته زامين سيطرت عليه. لقد امحت نيويورك من خافقه، أو بالحري فإن كل ما صادفه في المدينة ـ كل لقاء عرضي، كل صحيفة فتحها، كل فكرة، كل انفعال، كل حلم ـ كان يغذي مخيلته، كما لو كان كل شيء قد أعد سلفًا كي يتطابق مع البناء الذي قد نظمه. كانت الحياة الواقعية تخضع لفروض القصة الخيالية المطلقة التي غذَّت المواد الخام التي كان بحاجة إلى تحويلها ضمن خيميائية فنه الذي استعاده.

لقد أوجد آكاز انطلاقًا من aakaach الكلمة المشتقة من السانسكريتية التي تعني السَّماء، السماء، كما أسمعان «في لغة الأوردو» كما في المسكينة سييل تشويلر، كما في الآلهة العظماء: أورانوس فارونا[١]، براهما[٢]، يهوه[٣]، مانيتو. فكان كرونوس المستبدَّ الإغريقي الذي يفترس أطفاله، وكانت زامتين الأرض نقيضة السماء والتي تلامس السماء عند الأفق. لقد عثر في الحال على آكاز وتحول في المحرك الكامل لوجوده، أما زامين فقد باغتته.

في قصته عن عالم متجمد، لم يكن قد تكهّن بأن الشخصية المحورية ستكون

---

(١) الإله الذي يجسِّد السماء عند الإغريق.

(٢) إله مجمع الأرباب عند الهنود.

(٣) الإله الإسرائيلي الذي ظهر على موسى في سيناء.

إلهة من الأرض ـ ومبنية حتى على نيلا ماهاندرا، لكنها في الحقيقة كانت كذلك ودخولها أغنى الحبكة بشكل معتبر. كان حضورها يبدو وكأنه جُسِّد مسبقًا. / زامين ريجك/ إلهة النصر: هذه النسخ الأصلية الثلاث للمرأة كانت تحتل كل أفكاره، وفهم أنه قد وجد أخيرًا بديلة لمخلوقة شبابه الشهيرة، أهلاً، نيلا حدث نفسه، ووداعًا يا سِرْڤليت أخيرًا.

إن هذا يقتضي أن يقول وداعًا أيضًا إلى فترات ما بعد الظهيرة مع ميلا ميلو. على الفور أحسّت ميلا بتغير طرأ عليه عندما رأته خارجًا إلى موعده مع نيلا على سلم متحف ميتروبوليتان. «لقد فهمت ما كنت أنوي عليه، قبل أن أتجرأ أنا نفسي حتى على الإدلاء به. حتى لو لم يكن في الأمر شيء من معجزة، حتى لو لم تكن هناك طريقة بهذا القدر من الارتجالية التي اختارتني بها نيلا، فإن ميلا تجلى لها ذلك. إنها تنفرد بجمال واعتزاز من لا يشعر بأنه مدين إلى أحد». عاد إلى شقته في شارع الشرق ٧٠، بعد ليلة اتّخاذه بشكل لا يعقل مع نيلا في غرفة فندق يطل على سنترال بارك ـ وأغرب ما في الأمر أن هذا قد حصل ـ فوجد ميلا متضامة بطريقة فيها كل الفخفخة مع الجميل والغبي إيدي فورد على درجات السلم المجاور؛ إيدي الذي كان محتفظًا برصانته وبهيئة مشعة أمام المعبود لأنه عاد إلى وضع يده على الجسد الوحيد الذي لم يكن يقيم له أية أهمية تذكر. كانت النظرة التي ألقاها إيدي على سولانكا من خلف كتف ميلا فصيحة التعبير. كانت تقول: يا صديقي: لن تُسْتَقْبَلَ بعد في هذا المكان، فبينك وبين هذه المرأة، من الآن فصاعدًا نطاق صحي من المخمل الأحمر، وامتيازك الذي لا حق لك به قد سقط، لا يخطرن ببالك أن تخطو خطوة في هذا الاتجاه، إلا إذا كنت تريد طبعًا، أن أنال منك، وأن أجعل من عمودك الفقري مشطًا. بعد ظهر اليوم التالي، جاءته إلى بيته.

«اصحبني إلى مكان فاخرٍ وأنيق، إني بحاجة لأن أَبْطِرَ وآكل كثيرًا». كان الأكل هو ردة الفعل الطبيعية لميلا في المحنة، والشرب هو جوابها على

الغضب. الأفضل للمرء أن يكون حزينًا، على أن يكون غاضبًا. فكَّر سولانكا بشيء من الشفقة. أما هو، وكي يعوِّض من هذه الفكرة الأنانية، فقد اتصل بواحد من أحدث المحلات العصرية. ملهى ومطعم بُنِيَ على الطراز الكوبي في شيلزي ويحمل اسم جِيُو، تيمنًا بالدونة جيوكوندا، وهي مغنية هرمة، كانت قد تألقت كثيرًا في هذا الصيف الجميل جدًا، والتي كان صوتها الذابل والمتلاشي الآن، يحيي الـ هافانا ومواطن سحرها المترنحة. وبسهولة حصل سولانكا على الطاولة التي حددها هو للمرأة القائمة على عملية الحجز.

«نيويورك مدينة شبح، شبح حقيقي في هذه الأثناء، اعترفت ببرود. ليست هناك هيصة هذا المساء، والساعة هي الحادية والعشرون».

«أنت هجرتني، وها أنذا أموت. كانت جيوكوندا تغني عندما وصل سولانكا وميلا؛ لكنني سأبعث حيَّة بعد ثلاثة أيام، لا تأت إلى دفني أيها الوغد، سأرقص مع رجل حقيقي. قيامة، قيامة، لا تقلق، ستكون أول المنذرين».

ترجمت ميلا الكلمات لسولانكا.

«تمام. أردفت، هل تصغي يا مليك؟ لقد قُدِّمت هذه الأغنية بشكل عفوي، ولو كان لي أن أطلب أغنية يقدمونها، لما كنت اخترت غيرها، مثلما يقولون في الراديو، الرسالة موجودة في النص. «كنت تظن أنك تستطيع أن تحطمني، صحيح أنني محطمة الآن، لكنني سأقف بعد ثلاثة أيام، .وستراني من بعيد مبجلة. قيامة. قيامة. سأبدأ من الصفر». تجرعت في البار كأس ماجيتو، وطلبت على الفور واحدة أُخرى منه. رأى سولانكا أن السهرة كانت تبدو مربكة أكثر مما كان يحسب: بعد أن شربت كأسًا ثانيةً، استقرت على الطاولة التي كان قد حجزها، وطلبت من لائحة الأصناف المتبَّلة بكثير من البهار، وجعلته يتذوقها.

«أنت محظوظ، قالت، وهي تعود إلى تناول الغاكا الكريَّة، لأنك متفائل بالتأكيد. أنت كذلك لا محال، ليس سوى متفائل غاضب، أبله، عديم الدماغ على نمط بولِّينا وبانغلوس، من يرمي أعزّ من لديه، وأندر ما لديه، ويرضي

رغبته العميقة التي لا يستطيع لا أن يسميها ولا أن يواجهها، من دون أن تُغلق المصاريع أولاً، وتُطفأُ الأنوار، أنا أعرف ذلك، وأنت تعرفه، أنت تضع الوسادة على ركبتيك كي تستر ذلك، إلى أن يأتي أحد على قدر من الخبث ويقوم بالمبادرة الطيبة. أحد تتولّد رغبته الدقيقة عن الوصف، المتزامنة بقوة سحرية مع رغبتك. والآن، الآن وقد بلغنا ذلك، وألقينا السلاح، وما عدنا نتصنع، وصرنا كلانا في هذه الغرفة، والتي لم نكن نتجرأ أن نفكِّر منها بإمكانية وجودها، غرفة خوفنا الأعظم غير المرئية ـ في اللحظة التي نكتشف فيها أن لا مبرر لأي خوف، وأننا نستطيع أن نمتلك التخمة على كل ما نريد، وأننا سنبعث بعد دفننا، وسنكتشف أننا كائنات بشرية حقيقية، لا دمى تحركها رغباتها، بل نحن فعلاً تلك المرأة، وذلك الرجل: عندئذ، نستطيع أن نكف عن اللعب وأن نفتح المصاريع، وأن نطفئ الأنوار ونخرج في شوارع المدينة يدًا بيد... أنت من قررت إذن أن تُلَمْلِمَ عاهرةً من حديقة، وأن تصحبها إلى فندق، إلى ماخور قذر. متفائل هو الرجل الذي يتخلى عن متعة ممتنعة، لأنه متأكد من أنه سيجدها في زاوية من الشارع، متفائل فحسب أن طُعْمَهُ أدهى من، أوه، ومن ثم اللعنة. كنت سأقول أدهى من ابنته الصغيرة، وأنا أحسب أنني كنت هي بغباء. إنني في الواقع متشائمة، أنا لست ممن يعتقدون بأن الصاعقة لا تقع مرتين وحسب، بل ممن يفكرون بأنها لا تقع إطلاقًا. وما حدث كان هذا فعلاً، وأنت، أنت.. أو. تبًا. ربما كان من الممكن في أن أبقى معك، هل فهمت ذلك؟ أوه ليس لزمن طويل، ثلاثين أو أربعين عامًا. أكثر مما بقي لك في الحياة، بالتأكيد. بدلاً من ذلك سأتزوج إيدي. أنت تعرف المقولة: «الحسنة الطيبة تبدأ بالذات».

هدأت العاصفة، كفّت عن حديثها، وأكبّت على الوليمة التي كانت تنبسط أمامها. انتظر سولانكا، والعاقبة لن تتأخر. فكَّر: لن تستطيعي الزواج منه، ولا يفترض لك ذلك، إنما لم يكن هو من يحق له أن يسدي إليها هذه النصيحة.

«أنت تحدِّث نفسك بأن ما أقدمنا عليه كان إثمًا. أردفتْ، أنا أعرفك، أنت

تستخدم إحساسك بالذنب كي تسترجع حريتك. والآن أنت تظن أنك تستطيع هجراني، وأن هذا هو الشيء الذي يجدر بك أن تفعله، لكننا ما كنا قد أقدمنا على فعل أي سوء (وامتلأت عيناها بالدموع).

لا بأس، إننا فقط نتأسى في ما بيننا نتيجة إحساسنا الرهيب بالضياع، قصة الدمية تلك، كانت وسيلة أفضت بنا إلى هذا.

ماذا، أتحسب فعلاً أني تضاجعت مع والدي. أنت تتخيل أني تهزهزت على ركبتيه وغرزت أظافري في ثديه، ولحست مزدرده الطريّ المسكين؟ هل هذا ما ترويه بنفسك كي تسهِّل خروجك إلا إذا كان في هذا دخولك أيضًا؟ هل هذا ما كان يهيِّجك. أن تكون شبح والدي؟ أيها الأستاذ، أنت لست على ما يرام. أكرر لك ذلك. فنحن لم نقترف أي إثم. تلك كانت لعبة، لعبة جدية. لعبة خطيرة ربما. لكنها مجرد لعبة. كنت أظن أنك كنت تفهم ذلك، كنت أظن أنه سيكون بمقدورك أن تكون ذلك المخلوق المتمنِّع، الرجل الخبير جنسيًا الذي كان يجدني ملاذًا، مكانًا تكون فيه حرًا أو تحرر نفسك فيه، مكانًا كان من الممكن لنا أن نفرغ فيه كل تراكمات السم، والغضب، والألم، وأن نتخلص ونتحرر منها، إنما يتفق أيها الأستاذ أنك لست مجرد أبله مسكين، في الواقع، لقد تحدثوا عنك في برنامج اليوم الإذاعي «هيوارد سترن».

كان في ذلك منعطف إلى الشمال، لم يكن يتوقعه أبدًا، صدمة احتياطية لتلافي الازدحام الواقعي الوشيك. بيري بانكوس. فهم في الحال، مع انهيار مفاجئ. هكذا إذن لقد نجحت، ماذا قالت؟

ـ أوه، قالت ميلا وفمها مليء بلحم الضأن والخس، لقد قالت أفضل ما يقال».

كانت ميلا تمتلك ذاكرة حادة، وقادرة على الدوام على رواية محادثات بحذافيرها. وبيري بانكوس التي أصلحت ما بينها وبين الشابة سارا بيرنيهارت الذّلقة اللسان الظالمة، كانت خطرة نتيجة لكونها صارت قريبة من بيري

الحقيقية. اعترف سولانكا مهصور القلب. «هؤلاء الذين يدّعون أنهم مفكّرون عظماء وهم ليسوا على الغالب إلاّ نماذج للتطور يدعون إلى الشفقة أكّدت بيري إلى هيوارد وإلى جمهورها العريض من المستمعين. تأملوا في حالة هذا النموذج (مليك سولانكا): إن من يتخلى عن الفلسفة من أجل التلفزيون، ليس شخصًا مستنيرًا، علمًا أن لا بد لي من أن أقول لكم إنه لا يعنيني على الإطلاق. أنتم تفهمونني. لا مكان له في سيرة حياتي. حسن، أية مشكلة كانت لديه؟ دعوني أقل لكم إن غرفته/ ولا يغربن عن بالكم بأننا هنا في صدد الحديث عن عضو في الكلية المكلية، في كامبردج، في إنجلترا/ كانت مليئة بالدمى، بدمى حقيقية.

ما أن تبيَّنت ذلك، حتى ولّيتُ الأدبار؛ لم يكن بودي أن يحسبني دمية، وأن يضغط على بطني كي أقول ما، ما هذا ليس... عذرًا منكم، لكنني لم أولع في حياتي بالدمى، وأنا صغيرة كي أولع بها وأنا شابة. ماذا؟ لا، لا، فأنا بصراحة لا علاقة لي باللوطيين، أنا قادمة من كاليفورنيا هوارد. بالطبع لم تكن هذه طريقة لوطي، لقد كانت... شيئًا على الماشي، لقد كانت كيف التعبير عن ذلك؟ بلاهات قصة مضحكة، فأنا ما زلت أرسل لهذا الرجل قطائف في عيد الميلاد. الدب القطبي كوكا كولا شيء من هذا. لم يجبني إطلاقًا إنما لماذا؟ لم يرو لي شيئًا على الإطلاق. الرجال. عندما تعرفون أسرارهم، لا يسعكم إلا أن تضحكوا».

«كنت أتساءل في ما إذا كان لا بد لي من أن أحدثك عن ذلك، أفضت ميلا، إلا أنني قلت في قرارة نفسي، اللعنة، لا داعي بعد للتصرف باحتراز».

كانت الدونة جيو لا تزال تغني، لكن جنيات الجحيم الثلاث كانت تخنق صوتها. كانت الآلهة الجشعة تفلت ما برؤوسها من غضب وترتعي من حنقها، كانت المقابلة التي أجريت من قبل مع بانكوس، تزمجر داخله، وتعابير ميلا تبدَّلت.

«هيا، هيا، قالت أنا آسفة، إنما هل يمكنك أن تكفَّ عن هذا الصراخ؟ سيلقون بنا خارجًا وأنا لم أذقْ الحلوى بعد».

كان من الواضح أن الزئير انتشر في الصَّالة. أناس كانوا يرمقونهما بنظراتهم، واتجه المدير المالك شبيه بول جوليا نحوهما. كأس انسحقت في يد سولانكا فاختلط الدم بالخمر. لقد حان وقت الانصراف. اقترح تضميده، لكن استدعاء الطبيب وُوجه بالرفض. سُدِّد الحساب بالسرعة القصوى، في الخارج، أخذ المطر يهطل فجأة، وغضب ميلا الذي كنسه غضب سولانكا تلاشى.

«كل هذا بسبب امرأة برنامج هيوارد تلك؟ قالت عندما صارت في التاكسي. بالإجمال فإن تلك المرأة الغارقة في الشائعات قد عبرت عن بدء شبق الشيخوخة، لقد تقدم بها العمر، وخبرت الحياة. عليك أن تُربِكَ من ان تُعاوِدنا من وقت إلى آخر وتهاجمنا جهارًا. دعها تفعل، إنها لا تشكل شيئًا بالنسبة لك، لا تعني شيئًا، ونظرًا للجبرية الشريرة التي ما تني تراكمها فإني لا أعتبرها مرشحة للفوز. كفى نحيبًا تبًا إنك ترعبني حينًا، إنك في معظم الأحيان لا تؤذي نملة، لكنك فجأة تصبح كنوع من غونزيللا الذي خرج من بحيرته السوداء مستعدًا لبقر أول زاحفة طاغية يواجهها. يجب أن تتعلم كيف تسيطر على ذلك يا مليك. إني لا أعرف من أين يأتيك كل هذا، لكن عليك أن تتخلص منه». «سيطهر الإسلام نفسك من الغضب الشرير. تدخل سائق التاكسي، ولسوف يكشف لك عن الغضب المقدس الذي يزحزح الجبال». ثم أضاف وهو يغير لغته، بينما كانت سيارة أخرى تقترب من سيارته بشكل لا يقبل: «إيه أيها الأميركي! أيها اللوطي الكافر، يا مغتصب تيس جدتك». أخذ سولانكا يضحك ضحكًا مرعبًا، خاليًا من فرح العزاء: انتحابات موجعة، مؤلمة، محزنة.

«مرحبًا بك ثانية يا عليّ المحبوب ـ قال مختنقًا. أنا مسرور لرؤيتك في هكذا حالة».

بعد أسبوع، كانت مفاجأته كبيرة، وقد اتصلت به ميلا تطلب منه المجيء إلى عندها، «كي تتكلم بشيء آخر». كان أسلوبها وديًا، رسميًا ومفعمًا بالإثارة. لقد استعادت قواها سريعًا. حدث نفسه سولانكا بانذهال وهو يقبل دعوتها. كانت تلك هي المرة الأولى التي يذهب فيها إلى شقة ميلا الصغيرة التي بذلت كل ما بوسعها كي تجعلها أميركية مائة بالمائة إنما دون جدوى: نصب رياضية لاتريل سبرويل بالنسبة لكرة السلة، وسيرينا ويليامس بالنسبة للتنيس، كانت تحصر كيفما اتفق رفوف كتب تتدرّج من الأرضية حتى السقف، وقد رزحت تحت مجلدات الأدب الصربي، وأدب أوروبا الشرقية بلغتها الأصلية أو مترجمة إلى الفرنسية أو الإنجليزية: ـ كيس، آندريك، وباڤيل وكذلك كوكوتريزان، الجريئين، المجددين، وأوبراندوفيك، وفوك ستيفانوفيك كارادزيك؛ وكادراي كليما، وناداس، وكروناد، وهربرت، من كتاب الحقبة الكلاسيكية. لم تكن هناك أية صورة لوالدها؛ لقد سجل سولانكا ذهنيًا ملحوظة لهذا الإسقاط ذي المغزى. صورة ظليلة تحت الزجاج لامرأة شابة في ثوب مطبع بزخارف من زهور، كانت تبتسم لسولانكا: إنها أم ميلا، التي كانت شديدة الشبه بأخت ميلا الصغيرة.

«أنظر كم تبدو سعيدة، قالت ميلا، إنها في آخر صيف عرفت فيه أنها كانت مريضة.

إن لي الآن نفس عمرها عندما توفيت. هذا ما يشكل عندي كابوسًا يرعبني لقد تخطيت هذا الإحساس الفظيع لأنني كنت أحس منذ سنوات أنني لن أبلغ هذا العمر».

كانت تريد أن تنتمي إلى هذه المدينة، إلى هذا البلد، إلى هذا العصر، لكن الشياطين الأوروبية العجز، كانت تزعق في أذنيها. إلا أن ميلا، من زاوية ما كانت في الحقيقة من أبناء جيلها. كانت منضدة عملها تشغل وسط غرفتها: كتاب الاختصاص، العجوز ماكنتوش، السكانر، قارئة السيديات، الجهاز

السمعي، سيكانسور الموسيقى، جهاز Zip، كتب موجزة، رفوف السيديات، وDVD وأشياء أخرى شق على سولانكا أن يتعرفها، حتى السرير، كان يبدو وقد أضيف في اللحظة الأخيرة، من المحتمل أنه لن يتذوق متعة. لقد جاءت به إلى هنا، كي ترمي كل ذلك خلفهما. كان في هذا مثال لنهجها في الدالات المعكوسة. لقد كان والدها أهم شخص في حياتها؛ مع ذلك فلم تكن هناك صورة للأب. ولم يعد سولانكا الآن إلا ذلك الأستاذ الذي يسكن بجوارها، مماحكة، دعوتك إلى تناول فنجان قهوة في غرفتك.

كان يبدو عليها بجلاء أنها قد أعدت محاضرتها بشكل مسبق، كانت على أتم الاستعداد وهي تدندن بكلماتها. وبعد أن قدمت له كأسًا من القهوة اقترحت عليه التصالح.

«لأنني أسمى من النوع البشري، قالت ميلا بشيء من الدعابة التي اتسمت بها، لأنني أستطيع أن أترفع عن المأساة الشخصية، مثلما أستطيع أن أسير حياتي بمستوى سامٍ، ولأنني أعتقد بصدق أنك بارع في اختصاصك، فقد تحدثت إلى آخرين عن مشروعك الجديد. عن الشخصيات اللطيفة الخيالية السينمائية التي تتناول موضوعات التنقل ضمن الزمان والمكان خارج الأرض التي خلقتها: عالم التوجيه المجنون، فكرة الكوكب المتجمد، المخلوقات الموجَّهة أوتوماتيكيًا ضد عفاريت طرف العالم الآخر، الصراع حتى الموت بين الواقع والخرافة. إننا نود لو سمحت أن نحدثك عن موقع جدير لا بد لنا من ابتكاره، لقد وضعنا عرضًا وسنستطيع أن تدرس كل الإمكانات. وكي أوضح، فقد أحكموا وضع طريقة لضغط أجهزة الفيديو التي تعطي نوعية برنامج عمل قريب من DVD وبالتالي جيلاً سيكون منه المكافئ على الأقل. إن هذا يفوق كل ما ستقدر على إيجاده في مكان آخر، أنت ليست لديك فكرة عن السرعة التي تسير فيها الأمور اليوم، إن كل سنة هي العصر الحجري بالنسبة للسنة التي تعقبها. لا شيء سوى الإبداع الموجود بالقوة، هو ما يمكن لنا أن نقوم به

انطلاقًا من فكرة وحيدة. والمواقع المثلى لا تنفذ، فالناس مشتّتون هنا وهناك وسيكون من هذا أشبه بعالم تهديه إليهم. بالطبع، لا بد من إيجاد طريقة بيع وتسليم تفي بالمرام واكتساب مساهمة فيما تقترح، وبشأن ذلك فقد ركزنا قارًا باردًا جدًا. لكن المهم هو أن تستسهل أنت ذلك. فأنت تملك الحبكة والشخصيات والرغبة في ذلك. لا بد إذن من أجل الاستمرار في تدقيق الصور، من أن تؤلف كتابًا مرجعًا يوضح الثوابت لتطور الشخصيات وأن تحد الممكن وغير الممكن في تمهيد المخطوطة المسرحية، الكثير الكثير من الأشخاص العباقرة المتحولين إلى آلات الذين ستبدع آلياتهم كل الوسائل، أنت لا تتصور، إنهم يطالعونك كل يوم باختراع، بوسائل إعلام جديدة، وإذا ما نجح ذلك، فإن الحوامل القديمة سوف تتساوق معه بالتأكيد، الكتب، الأسطوانات، التلفزيون، الأفلام، السمفونيات الموسيقية. كل هذا.

«إني أعشق هؤلاء الأشخاص، الذين يأخذون منك فكرة ويندفعون سريعًا في البعد الخامس، كل ما عليك أن تفعله هو أن تتركهم يهتمون بذلك عوضًا عنك، أنت السلطان المطلق، ولا شيء يحصل إلا بمشيئتك، ستكتفي بأن تقول نعم، لا، نعم، لا. ياه، ياه، قالت وهي تقوم بإيماءات هادئة بل لجوجة بيديها. إصغِ لي، تبًا، أنت تستطيع أن تسمعني حتى النهاية. وأنت مدين لي بذلك.

مليك، أنا أعلم إلى أي حد كنت أو ما زلت تتأسف على كل ما جرى للساعة سِرْڤليت. إنها غلطتي. أتذكر؟ أنا أعرف ذلك جيدًا، مليك. وهذا ما أنا في سياق الحديث عنه. هذه المرة ستستمرُّ أنت في التدقيق، هذه المرّة ستمتلك وسيلة نقل لم تكن موجودة حتى عندما اخترعت سِرْڤليت، وستسيطر عليها كليًا. ستكون سعيدًا بأن تُنْجِحَ كل ما أخفق من قبل، وإذا ما سار هذا على ما يرام، فعلينا ألا نخاف من قول ذلك، فإن المكاسب المالية ستكون هائلة. إننا نفكر جميعًا بأننا سنضرب ضربتنا إذا ما تصرّفنا على نحو صحيح. بالنسبة لما يخصُّ سِرْڤليت، فأنا لست متّفقة معك مئة بالمئة لأنني وكما تعرف أجدها

نابغة. فالأشياء تتبدل، والمعنى المجرد للملكية الفردية مختلف تمامًا اليوم وكل شيء صار أكثر مشاعية. عليك أن تكون أمرن قليلاً. اتفقنا؟ دع أناسًا غيرك يدخلون في دائرتك السِّحرية. ستبقى أنت الساحر، إنما دع الآخرين يلهون من وقت إلى آخر بعصاك السحرية. سِرْڤليت، دعها تحيا، أتركها على ما هي عليه، لقد كبرت، ستبقى على حبها. وهي ستبقى طفلتك».

كانت واقفة تضرب على حاسوبها النقال الذي كانت تستعين به، كعازفة بيانو رديئة، والعرق يتلألأ على شفتها العليا. لقد سقط الحجاب السابع فكَّر سولانكا. وعلى الرّغم من أنها كانت بكامل ثيابها، إلا أنها أخيرًا كانت تبدو عارية أمامه. إحدى جنيات الجحيم الثلاث، إنه الأنا الذي لم يسبق له أن أزاح الستار عن نفسه إطلاقًا، الجنية ميلا، بلاّعة السيوف، وأناها وحده قوّة محوِّلة.

في هذا التجسيد الجديد، كانت مرهبة ومدهشة في الوقت نفسه. لقد كان عاجزًا عن مقاومة امرأة عندما تستسلم له هكذا، فتجرفه في عرض مجراها، هذا هو ما كان يلتمسه عند النساء: أن يكون مسحورًا ومكبوحًا معًا. هذا الفيض القاسي الشرير، الميسيسيبي الذي كان بنُضُوبهِ، وهو يعرف ذلك بمنتهى الأسف، ضياع زواجه. لم يكن من الممكن للمرء أن يبقى مغمورًا أبدًا. فاللقاء الأول يكون مدهشًا. ثم ما تلبث دهشتنا أمام المرأة المحبوبة أن تتناقص قليلاً، يتحول الفيضان إلى طوفان، ثم يتحول الطوفان إلى جزر، لكنّ إمساك المرء عن هذه الحاجة المفرطة، عن هذه الشهوة شيء عظيم، عن ذلك الشيء الذي يمنحه الإحساس بأنه ركام على قِنَّة ثلجية، يجري بقوّة التيهور! وأن يودع المرء هذه الحاجة، يمكن أن يعني أيضًا، أن المرء، في ما يتعلق بالرغبة، يقدم اعترافًا بأنه يتقبل الموت، وعندما يقبل الأحياء أن يكونوا أمواتًا، فإن غضب الحياة الأسود، هو من يرفض الموت قبل حلول الأجل.

مدَّ يدًا نحو ميلا لكنها أبعدت ذراعها بعنف. عيناها كانتا تلمعان:

إنها تبرأ منه، وتولد من جديد بملامح ملكة.

«هاك ما يمكن أن يكون عليه كل واحد منا بالنسبة للآخر. من الآن فصاعدًا يا مليك، لك أن تأخذ به أو ترفضه. وإذا ما رفضته، فإني لا أريد أن أكلمك بعد إطلاقًا، وإذا ما أخذت به، فإننا سنتفانى من أجلك وسيزول كل حقدي عليك. هذا العالم الجديد هو حياتي يا مليك، إنه عصري، يكبر مثلي، يتعلّم مثلي، ويتطوّر مثلي. وبذلك فأنا أشعر بنبض الحياة يسري بي. هناك، في الكهرباء. لقد قلت لك ذلك: عليك أن تتعلّم كيف تلعب جدّيًا. وهناك تكمن خدعتي. إن هذا هو ما يهمُّ بالنسبة للحظة، وأنا أعرف كيف أقوم بذلك، إذا ما أعطيتني المواد اللاّزمة للعمل، حسن يا عزيزي، فهذا بالنسبة لي أفضل مما كان ينتظرني تحت الوسادة التي كنت تضعها على ركبتيك، لا تسئ الظن، حتى لو كان هذا جميلاً. لقد كان هذا جميلاً، حسن. انا انتهيت.

لا تجبْ أبدًا، عُدْ إلى بيتك وفكّر بكل هذا، إنه قرار مهم. لا تتعجل. وانتظر إلى أن تصبح مستعدًا إنما لا تتأخر كثيرًا».

فجأة أخذت شاشة الحاسوب تعمل. وكالصاروخ أخذت الصور تندفع نحوه كباعة في بازار. كان في ذلك نوع من تكنولوجية الاستقطاب بالإغراء للبيع الجبري. فكّر سولانكا إنها PAO جديدة:

إغراء يعزّزه الحاسوب. كانت الأسوار الإضافية التي كانت تحاصره كطريدة: تقذفه بضجيج على درجة عالية من الوضوحية. أشبه ما يكون بوابل من ذهب.

«لست بحاجة إلى التفكير في ذلك. أنا مزمع عليه. أنا ماضٍ فيه كليًا».

[13]

اتصلت به إيليانور، فارتفعت معًا درجة الحالة العاطفية عند سولانكا.

«أنت بارع في إثارة الحب، مليك، لكنك لا تعرف ما تفعل به بمجرد أن يكون. (ما من أثر كان للغضب، في صوتها الذي نال منه الزّمن). كنت أحدِّث نفسي كم كان رائعًا عندما كنت محبوبتك. كنت أشتاق إليك، أظن، وإني سعيدة لأنني استطعت الاتصال بك. أنت تتراءى لي في كل مكان أذهب إليه، يا للبلاهة في ذلك، وأتصور أني وإياك نقضي معًا أطيب الأوقات. ابنك طفل استثنائي للغاية، وكل من يرونه، لهم ذات الرأي فيه. مورغان يجده في منتهى الروعة، وأنت تعرف ذلك، إنه لا يكف عن الاستفسار: «ماذا كان سيقول بابا؟ ماذا كان سيظن؟ أنت تشغل باله وبالي كثيرًا ولذلك وددت أن أقول لك إننا نحن الاثنين نحبك».

«أريد أن أكلم بابا. آلو بابا. إن أنفي مسدود لأنني بكيت كثيرًا، بسبب عدم مجيء أوليف إلى هنا». أوليف هي الشغالة التي تقوم بأعمال البيت لأمه. وأسمعان كان يحبها كثيرًا.

«بابا، رسمت رسمة، إنها لك ولماما. سأريك إياها. ففيها من الألوان الأحمر، والأصفر، والأبيض، توفي جدي لأنه كان مريضًا مرضًا مزمنًا، أما جدتي لا تزال على قيد الحياة. إنها بخير أو إنها ستموت غدًا ربما. إني أصنع قلادات، وإني لهذا السبب سأذهب قريبًا إلى المدرسة. إني أصنع قلادات. لن أذهب إليها غدًا لا، في يوم آخر هي دار حضانة وليست مدرسة للكبار. هم! أليس لي عندك هدية بابا؟ لا بد أن في داخلها حوت! أليس كذلك؟ لعله حوت، حسن إلى اللقاء».

استيقظ عند الصباح على صرير أصم يصدر من أرضية الطابق الذي يعلوه. لا بدّ أن جاره متعبِّدٌ يفيق باكرًا. استنفرت حواس سولانكا كلها. صار سمعه مرهفًا بشكل خارق لطنين الصدى في الطابق العلوي، الماء الذي كان يخرج من مرشة جارته على حوامل أصص النباتات المثبتة على النوافذ. ذبابة حطت على قدمه المكشوفة، فوثب من السرير، كأن مسًا قد أصابه، ومكث وسطه الغرفة، عاريًا، مضحكًا ومروعًا. صار النوم مستحيلاً، فالجلبة غزت الشارع. أخذ حمامًا ساخنًا واستغرق وقتًا طويلاً حتى عادت أموره إلى وضعها المنظم. كانت ميلا مصيبة. إذ لا بد له من أن يتعود السيطرة على نفسه. طبيب. لا بد له من أن يستشير طبيبًا يصف له علاجًا مناسبًا. ماذا كان رينيهارت يناديه كي يضحك؟ نوبة قلبية وشيكة. اشطبوا قلبية فتصبح نوبة وشيكة الوقوع. كان من الممكن لمزاجه السيئ أن يحملك على الضحك، لكنه لم يعد الآن مثيرًا للضحك أبدًا. لم ينتقل هذا إلى الفعل بعد، لكن الأمر لم يعد يتعلق بشيء على قدر كبير من الأهمية. لن يتورع الغضب أن يجره إلى بلد تعذُّر الإصلاح. من ذلك الحين صار متخوفًا وقريبًا ربما، سيصبح مخيفًا لكل الناس. لم يكن بحاجة إلى إرخاء القلوس من أجل مغادرة هذا العالم: سيتحاشاه هذا الأخير مثلما يتحاشون الطاعون، سيصبح سولانكا ربما، ذاك الذي ستغيِّرون الرّصيف الذي تسيرون عليه لدى اقترابه، وإذا ما أثارت نيلا أعصابه؟ وإذا ما لامست في حمية الغرام جمجمته؟

كان من الممكن والسهولة إيجاد أدوية لمعالجة الهيجان في الأنا الناضجة للعنف وللاضطراب مع بداية الألفية الثالثة هذه. فلو أنهم باغتوه قديمًا وهو يزعق جهارًا كساحر، لكانوا جعلوه طعمة للنار المحرقة، أو لأثقلوه بالحجارة كي يروا إذا كان سيطفو على نهر الشرق. أو على أقل تعديل، لكانوا وضعوه على عمود التشهير ورموه بالفاكهة المتعفنة. أما الآن فقد صارت تصفية الحساب ملحَّة ثم الفرار. فكل أميركي يحترم نفسه كان يعرف أسماء نصف دزينة للأدوية الفعالة المضادة للانهيار. إن استظهار أسماء ماركات العقاقير

الصيدلانية كل يوم في هذا البلد ـ سيركويل، هيلكون، بروزاك، نوسكول ـ كان ضربًا من إشهاد مجنون على حب الوطن: إني أقسم قَسَمَ الولاء للأدوية الأميركية. فما أصابه كان إذن نوعًا من مرض عضال. إنما يمكن بالتأكيد أبدًا. مع ذلك فإن رأيًا شبه عام كان يوجب عليه أن يتعالج بها كي يكفَّ عن الخوف من نفسه وعن تشكيل الخطر على الآخرين، كي تستعيد حياته من ثم مجراها الطبيعي. حياته بالقرب من أسمعان، الطفل الذهبي: الذي كان بحاجة إلى حُب وحماية والده. لكن الأدوية كانت بالتأكيد ضبابًا يتجرعونه ويغلف عقولهم. مسطّحة متحرّكة يجلسون فوقها، والعالم يتابع الدّوران حولهم. لقد كانت ستارة حمام كما في حالة الذهان، وكانت الأشياء كمدة. لا ليس الأمر كذلك، أنت من صرت كمدًا. فالاحتقار الذي كان يكنه سولانكا لمملكة الأطباء كان يطفو. كان يكفيك أن تذهب لتعود مختصًا مناسبًا كي يركب لك استطالات معدنية في ساقيك. أكثر نحافة؟ أقل قبحًا؟ لكل مقتضى طبيبه المتمرّس الخاص. أهكذا كان هذا إذن؟ ألسنا مذ ذاك سوى سيارات، سيارات قادرة على الذهاب إلى المرأب بنفسها، كي تطقم نفسها بحسب رغبة نزواتها؟ كي تتجهَّز بمقاعد من فراء الفهد، وباستريو ذي خصائص عالية؟ كل ما فيه كان يقاوم هذه المكننة للكائن الإنساني. أفليس من أجل مقاومة كل هذا كان يصنع عالمه الخيالي؟ ماذا كان بإمكان طبيب نفساني أن يعرفه عن نفسه أكثر مما يعرف؟ الأطباء جهلة. كل ما كانوا يبتغون هو أن يسيروك أو يروضوك ككلب أو يقلنسوك كصقر. يريدون أن يحطموا رضفتيك ثم يقدمون لك عكّازين كيماويين كي لا تستطيع أن تمشي على ساقيك بشكل طبيعي مدى الحياة.

حوله، أُعْطِيَ الأنا الأميركي تعريفات ميكانيكية جديدة، أصبحت السيطرة عليها متعذرة في كل مكان. كان هذا الأنا يفصح عن نفسه على الدوام، شبه عاجز على الدنو من موضوعات أخرى جيش من المراقبين ـ سحرة كان دورهم يقوم على استكمال عمل الأطباء التقليديين ـ قد هبَّ «لِيسوسَ» مشكلات «الاختراقات». لقد نظروا إلى الكارثة على أنها عدم لياقة بدنية، واعتبروا اليأس

مصافَّة فقارية. والسعادة كانت غذاء أمثل، منقولات موجهة قضائيًا، تقانة تنفسية زادوا في تعميقها. والسعادة كانت هي المركزية الأنوية. كانوا يطالبون الأنا المنساقة مع التيار، أن تصبح سنَّة ذاتها، الأنا المُجْتَثّة الجذور أن تتجذّر بنفسها وهي تتابع استمرارها في الدفع من أجل خدمة هؤلاء الشيوخ الجدد واضعي خرائط الولايات المنفصلة وبالطبع، فإن مصانع المراقبة القديمة لا تزال فعالة وتكثر من أسفارها. كان المرشح إلى نيابة الرئاسة مع الحزب الديموقراطي يرجع التوعك الوطني إلى السينما ويحمد الله بدافع المفارقة. كان لا بد للّه من أن يدنو من مركز الحياة الوطنية (أن يدنو؟ فكّر سولانكا، وإذا ما اقترب الإله من الرئاسة أكثر فإنه سيخلص إلى الاستقرار في البيت الأبيض، وإلى ممارسة العمل القذر بنفسه) لقد نبشوا جورج واشنطن كي يجعلوا منه جنديَّ المسيح. ليس هناك أخلاق بلا دين، كان جورج يُجعجعُ وهو ينتصب في قبره شاحبًا معفَّرًا بالتراب، وبلطة صغيرة في يده، في بلد واشنطن كان الأهالي وعلى الرغم من أنهم حكموا عليهم بأنهم يفتقرون إلى التقوى مستعدين للتصويت بنسبة ٩٠ في المئة لصالح مرشح يهودي أو لوطي مقابل ٤٩ في المئة لصالح ملحد. سبحانك أيها الرب.

على الرغم من كل الثرثرة، فإن تشخيصات الأمراض، والإعلانات المفخَّمة التي أوجدها هذا الأنا الوطني الجديد كانت تفتقر إلى الفصاحة. لأن المشكلة الحقيقية لم تكن في الأعطاب التي كانت تصيب الآلة، بل بتلك التي تصيب القلب الذي لم ينل ما يطمح إليه، والحال كذلك، فإن لغة القلب قد تعطلّت، لقد كانت المسألة مسألة تعطل قلب خطير، وليست مسألة تشنج عضلي أو غذاء، أو جبرية أو زندقة أو إله. رقصة سانت ـ جاي هذه جعلت الناس مجانين: إسراف ليس في الأموال المهدورة، وإنما في الآمال المرمية والمداسة. هنا في أميركا الرخاء، هذه الممالك الذهبية الأسطورية التي حشدها كيتس، في صندوق العجائب هذا القابع في طرف قوس قزح، كانت الآمال الإنسانية تبلغ أوجها، وهي تجرّ في الواقع خيبة معادلة أيضًا. عندما

كان مشعلو الحرائق يلقون النار في الشرق، عندما كان رجل يستولي على سلاح ويشرع في قتل أصدقائه، عندما كانت شحف من الإسمنت المسلّح تحطم جماجم النساء، الشّابات الثّريّات، عند ذلك كانت الخيبة ـ ومن هنا كانت كلمة خيبة دون الحقيقة ـ الخيبة التي كانت توجِّه أذرع القتلة التي حظر عليها التعبير. إن الأمر يتعلّق في هذا وليس في شيء آخر: إن تطريق الأحلام في بلد، كان الحلم فيه هو القاعدة الإيديولوجية والوطنية، والمحق العنيف للموجود بالكمون، لدى كل واحد في زمن كان المستقبل يمتدّ فيه، ويمنح أفاقًا لكنائز خيالية وبرّاقة، لم يسبق لأي امرأة أو رجل أن حلم بها. من مكبِّ الحرائق الملتهبة، ومن طلقات البنادق الطائشة، استشف مليك سولانكا السؤال العصيب والمتجاهل الذي لا جواب له ربما ـ السؤال النافذ أكثر من صرخة مونش والذي طرحه للتوّ على نفسه: أهذا كل شيء؟ ليس الأمر إلا كذلك إذن؟ أناس كانوا يتبينون أن حياتهم ليست ملكًا لهم. جسدهم ليس ملكًا لهم، كما كانت عليه الحال بالنسبة لأي شيء آخر. لم يكونوا يجدون أي مبرر لعدم الفرار من الرّكام.

هؤلاء من تبتغي الآلهة تحطيمهم، وتحويلهم إلى مجانين قبل كل شيء كانت جنيات تحوم فوق مليك سولانكا، فوق نيويورك فوق أميركا، وتعوي. في الشوارع، حركة سير، ورجال، كانوا يردّون عليها بصرخة مستقرة راضية.

بعد أن استحمَّ، وهدأ قليلاً، تذكر سولانكا أنه لم يتصل بجاك منذ زمن طويل. ولاحظ أنه لم يكن يملك الرغبة في ذلك. جاك هذا الذي أخرجته نيلا من الأرض قد غشّه ونكّد عليه، الأمر الذي لم يكن يجدر به أن يكون جسيمًا بذاته. لا بد لسولانكا من أن يكون قد غشّ جاك أكثر من مرة ونفّره بمزاجه «السولانكي». إنها عقبات كان من الممكن لصديق أن يتجاوزها، مع ذلك لم يرفع سولانكا سماعة الهاتف، وبذلك إذن فإنه لم يكن صديقًا جيدًا. كان من المفروض أن يضاف ذلك إلى محضر الدعوى الجارية، كانت نيلا تقف بينهما

الآن. ولا أهمية لكونها قطعت كل علاقة بجاك قبل أن يحصل أي شيء بينها وبين سولانكا. ما كان مهمًا هو كيف سينظر جاك إلى الأمر، والحال كذلك، فإنه ربما سيرى فيه خيانة. وإذا ما أراد أن يكون صادقًا مع نفسه (أقر سولانكا بصمت) فمن الجدير به هو نفسه أن يجد في ذلك خيانة.

زد على ذلك، فإن نيلا كانت تشكل حاجزًا بينه وبين إيليانور أيضًا. كان قد غادر المنزل تحت سببين أحدهما ظاهري والآخر مضمر: حقيقة السكين الفظيعة في العتمة، وتحت سطح مظهر الزواج الخارجي والاجتراف الذي كان يطمر كل شيء. كان من الصعب العدول عن هذه الرغبة الملتهبة التي استعرت حديثًا من أجل الرجوع إلى تلك الشعلة القديمة الخامدة. «لا بدّ أن عنده واحدة غيري» قالت إيليانور. والآن فهذه هي الحال. نيلا ماهاندرا هي رهان الحب الكبير والأخير في حياته. فبعدها، ولو خسرها، كعادته، احتمالاً، لألفى نفسه في صحراء أخذت كثبانها الجميلة تنهار في هاوية مرملة. مخاطر. مخاطر المغامرة، تزيدها فوارق العمر والبيئة، من خلال الأعصاب لديه، ومن خلال التقلب لديها كانت جسيمة. كيف لامرأة يرغبها كل الرجال أن تقتنع بأن واحدًا يكفيها؟ عند انقضاء أول ليلة لهما معًا أعلنت:

«ما كنت أريد هذا، أنا لست متأكدة بأنني مستعدة لذلك».

كانت تقصد أن هذا كان من العمق والسرعة بحيث إنه كان يرعبها.

«ربما تكون المخاطرة مهمة جدًا».

بدرت منه برطمة غضب فيها شيء من المرارة.

«إني أتساءل من منا يجازف بالمغامرة العاطفية الكبرى».

لم يفاجئ السؤال نيلا:

أوه، أنت، بالتأكيد».

استأنفت ويسلاوا عملها. كان سيمون جاي قد اتصل بسولانكا من مزرعته

كي يخبره بصوته الرقيق أنه وزوجته نجحا في تطبيب خاطر الشغّالة الغضوب، لكن اتصالاً هاتفيًا ينم عن الندم من قبل سولانكا سيكون في مكانه.

وببساطة لم يفت السيد جاي أن يذكر بأن الإيجار يقتضي المحافظة على الشقة في أحسن وضع. عاهده سولانكا على ذلك وأقفل الخط.

«حسن، أنا قادمة، لم لا، قالت، من حسن حظك أني أملك سعة القلب»، لقد عملت بنشاط أقل من ذلك الذي عهده لديها. لكن سولانكا لم يبد أية ملاحظة. علاقات العنف كانت مأفونة في الشقة. جاءت ويسلاوا كملكة ـ أشبه ما تكون بملكة النصر التي كانت ستتحرر من أربطتها ـ وبعد أن تسكّعت مطولاً في الشقة ذات الطابقين كإليزابيت الثانية في نزهتها، وهي تهز منفضتها الريش، كما لو أنها وشاح ملكي، انصرفت وتعابير الاحتقار تعلو وجهها الضامر. الخدم القدامى صاروا الآن هم الأسياد، حدث نفسه سولانكا: كانت نيويورك تقتدي بغاليلي!

أصبح عالمه الخيالي يمتصُّه أكثر فأكثر. كان يرسم بسرعة، وبشدة يقولب الصلصال، يقد الخشب الطري، لا سيما أنه كان يكتب بحدَّة.

أخذت فرقة ميلا ميلو تعامله بشيء من التبجيل المدهش. لكأن تصرفاتها كانت تقول: من كان يصدق أن عجوزًا ساذجًا يستطيع أن يبتكر شيئًا بهذه الأناقة؟ حتى ثقيل الظل والحقود إيدي تبنى هذا الموقف. رق قلب سولانكا المحتقر من شغّالته لاحترام الشاب وقرر أن يبدو جديرًا بذلك. كانت نيلا تملأ لياليه، لكنه كان يعمل طوال النهار بلا انقطاع. ثلاث أو أربع ساعات من النوم كانت تكفيه، وصار يبدو وكأن الدم أخذ يتدفق في عروقه بقوة أكبر. وهو يتساءل عن هذه النعمة غير المستحقة، كان يشهد فيها ولادته من جديد. دون توقع، جاءت الحياة لتمد له يد العون، وهو كان ينوي أن يغتنم ذلك.

سَرْدُ الأحداث الطارئة على غاليلي، قد أُنعِش بحياة خاصة. لم يكن لدى سولانكا من خلال الماضي أية حاجة ـ أو رغبة في الدخول في الثانوي إلى

هذا الحد. كان التخيُّل يكبِّل معصمه، وبدأت التماثيل الصغيرة تبدو ثانوية: ليست هناك غاية بذاتها، بل هناك مجموعة وسائل، وهو من وجد نفسه متشككًا جدًا من جهة قدوم العالم الأفضل بين العوالم الإلكترونية. وجد نفسه متقلقلاً ـ بسبب الإمكانات التي كانت تقدمها التقانة الحديثة، بتفوُّقها الواضح بالنسبة للطفرات واللامبالاة بالنسبة للتقدم التخطيطي كاتجاه غذّى لدى مستخدميه اهتمامًا أكبر بالنسبة للتبدّل منه بالنسبة لتسلسل الأحداث تاريخيًا، هذا التحرر نسبة إلى الزمن، وإلى استبدادية الاستمرار، كان نشوانًا وكان يمكنه من تطوير أفكاره بالتوازي، دون أن يعبأ باستمرارية أو بسببيَّة التسلسلية. مذ ذاك صارت الرّوابط الكترونية وليست تاريخية روائية. كل شيء وجد متزامنًا، كانت المسألة هنا مسألة انعكاس صحيح لتجربة الزمن الإلهية. قبل ارتقاء العلاقات المتطرّفة، فإن الإله وحده كان قادرًا على النظر في الماضي والحاضر والمستقبل بشكل متزامن، وكانت الكائنات البشرية حبيسة تقويم أيامها السنوي، أما الآن فإن كلية العلم المماثلة قد أصبحت سهلة المنال بالنسبة للجميع بمجرد نقرة فأرة. على موقع ويلو Welo الذي سيتطوّر، سيكون الزائرون قادرين على التنقل في المشروع بالتنافس من موضوع إلى آخر ومن حبكة إلى أخرى: البحث الذي شرعت به زامين ريجك كي تعثر على آكاز كرونوس، زامين في مواجهة إلهة النصر، حكاية الخالقين الأحياء: موغول البابوري، ثورة الدّمى الحية. I: سقوط كرونوس، ثورة الدمى الحية؛ II: (هذه المرة، إنها الحرب)، أنسنة الآلات مقابل مكننة الإنسانيين، صراع الأتراب، موغول يأسر كرونوس (أو هل هذا هو الخالق؟) نقص الخالق أو (كان هذا كرونوس)، والختامي العظيم، ثورة الدمى الحية؛ III: سقوط إمبراطورية موغول. كل واحد من المشاهد كان يوصل إلى صفحات جديدة لا تزال تغوص في أعماق عالم الملوك الدمى بلا خيوط المتعدِّد الأبعاد وهي تعرض ألعابًا لتُمثَّل، ومسلسلات فيديو، وصالونات جدل وبالطبع مستحضرات للشراء.

كان البروفسور سولانكا يظل منتشيًا طيلة ساعات مستمرّة، بمآزق الملوك الدمى ومسحورًا ومستثارًا بشخصية موغول البابوري الذي انكشف على أنه شاعر محتشم، وفلكي خبير، وبستاني شغف، إنما أيضًا جندي متعطش للدماء على طراز كويولان الأكثر ظلمًا بين الأمراء؛ وكان مفتونًا حتى الهذيان بإمكانية أخيلة الظل الصينية (الفكرية، الرمزية، التضاربية، اللعوب، بل الجنسية) للمجموعتين المضاعفتين وللتلاقيات بين «صح» و«صح» و«ضعف»، «ضعف» و«ضعف» التي كانت تبرهن على ذوبان الحدود بين الطبقات.

لقد وجد نفسه حيًّا في عالم صار يفضله كل التفضيل على العالم القابع خلف نافذته، وقد فهم لتوه بذلك ما كانت تقصده ميلا ميلو عندما أعلنت أنها تحس بنفسها تحيا فعلاً.

هنا، في الكهرباء، كان مليك سولانكا ينتزع نفسه من عالم منفاه الأميركي، ويرتحل يوميًا على غاليلي ويعود ثانية إلى الحياة.

منذ التعليقات التي وجهتها سرفليت إلى غاليلي I ـ والموبِّخة ـ صارت مسألة المعرفة، والسلطة والاستسلام، والتحدي تعذب سولانكا. كانت «اللحظات الغاليلة هذه» التي كانت الحياة تسأل الكائنات الحية فيها إذا ما كانوا يتجشّمون خطر الدفاع عن الحقيقة، أو إذا ما كانوا يرجعون عن كلامهم بحذر تبدو مرتبطة بالنسبة إليه أكثر فأكثر في صميم الإنسان. أيها المتعهر، إني ما كنت سأرضى بهذه الخدع دون أن أعترض، ربما كنت سأفجر ثورة شعواء، لمَّا كان من وضع يده على الحقيقة ضعيفًا، والمدافع عن الباطل قويًّا، أكان يجدر به الانحناء أمام القوة العليا؟ أم كان من الممكن له أن يكتشف في ذاته ـ وهو يقاومها مقاومة حازمة ـ قوة أكثر عمقًا وقدرة على الإطاحة بالطاغية؟ أفلم يكن يفترض بنا أن نعتبر أبطال الحقيقة عندما كانوا يرسلون ألف مركب، ويحرقون أبراج الكذب، كمنقذين، أم أنهم صاروا وقد ردوا أسلحة العدو إلى نحره الباربرة والشائنين (بل البابوريون الذين أحرقوا منازلهم؟ ما هي حدود التسامح؟

أين كان من الممكن للمرء أن يمضي ضمن بحثه عن العدالة قبل أن يجتاز الحدود ويصل إلى المتقاطرات بيسر، إلى الظلم؟

بينما كانت قصة غاليلي I تشارف على نهايتها: تمثل سولانكا حقبة حاسمة. لقد أُسِرَ آكاز كرونوس الفار من مخلوقاته والذي تقدم به العمر من على جنود الموغول واقتيد مقيدًا إلى البلاط البابوري. لم يكفّ الملوك الدمى ومنذ ما يقارب العقدين من الزمن عن الصراع في ما بينهم، يحيق بهم خطر مأزق أكثر ضراوة من حرب طروادة وقد حمل كرونوس بصفته خالق مبدع المخلوقات الأوتوماتيكية الموجهة مسؤوليّة أعمالهم السيئة. تعليله لارتقاء مخلوقاته إلى الحكم الذاتي لم يلق أذنًا صاغية من قبل موغول المتشكِّك والمحتقر. لقد تلا ذلك في الصفحات التي كتبها سولانكا جدال طويل عن طبيعة الحياة نفسها ـ الحياة كما يبيِّنها الفعل البيولوجي، والحياة التي خلقت بخيال وموهبة الأحياء. هل كانت الحياة طبيعية؛ هل بإمكاننا أن نقول عما هو «لا طبيعي» بأنه حي؟ هل العالم الخيالي كان بالضَّرورة أدنى من العالم العضوي؟ بقي كرونوس عبقرية مبدعة على الرغم من شيخوخته ومن انزوائه ضمن الفاقة ودافع باعتزاز عن مخلوقاته الأوتوماتيكية الموجَّهة. بحسب تعريفات الوجود الواعي فإنها تكون قد اقتربت من الاكتمال. كانوا يستخدمون الأدوات كما في مرحلة الإنسان الماهر، وكانوا يفكِّرون ويخلدون إلى مناقشات أخلاقية كما في مرحلة الإنسان العاقل. كانوا يستطيعون تدارك البلاء، وكانوا يتوالدون وفي تخلُّصهم من خالقهم كرونوس كان تحرّرهم. رفض الموغول كل هذه الحجج. فليس بإمكان جلاّية قاصرة أن تصبح امرأة شغّالة وضَّح أيضًا، ودمية متحركة تافهة تبقى دمية متحركة، وإنسان آلي خارق ما هو إلا إنسان آلي. تبادلهم وجهات النظر لم يفض إلى أية جهة. لا، كان على كرونوس أن يتخلّى عن نظرياته، ثم أن يقدم إلى السلطات البابورية المعلومات التكنولوجية اللازمة من أجل السيطرة على الآلات الزاحفة، وإذا ما تمنع، أضاف الموغول وهو يغيِّر مفاد المحادثة، فسوف يُنكّل به حتمًا وستُبتَر أعضاؤه منهجيًا. «نقضُ كرونوس» ـ لقد صرح بأن

الآلات كانت خالية من الروح، في حين أن الإنسان كان خالدًا ـ استقبله أهل بابوري المتدينون كفوز عظيم. متذرّعًا بالمعطيات المقدمة من العالم الساقط فإن جيش سكان المتقاطرات قد اخترع أسلحة جديدة شلت أجهزة المخلوقات الموجهة أوتوماتيكيًا وأبطلت فاعليتها. فكلمة «مقتول» كانت محظورة، (ما هو ليس حيًّا لا يمكن له أن يموت أبدًا). القوات الإربيّة ولت هاربة مفحمة، وانتصار البابوريين بدا محققًا. بحسب المبدع المخلوق الموجه أوتوماتيكيًا. بترفّعه الشديد ـ «بتماسكه» الشديد على اختراع أي رد فيه عن نفسه، كان المبدع فريدًا من نوعه، وهكذا شخصية قد اختفت بجعلها خارج التوتر. الشخص الوحيد الذي كان من الممكن له أن يعيد خلقه كان آكاز كرونوس، الذي أضحى مصيره مجهولاً. ربما يكون «قتل»، على يد الموغول، بعد استسلامه المشين؛ أو ربما تكون عيناه قد فقئتا كتيريزياس، وأذن له بالتسكع عبر العالم في إذلال أخير وهو يحمل وعاء التسوّل في يده «قائلًا بتلك الحقيقة التي لا يمكن لأحد أن يصدّقها»، بينما كانت تصله من كل مكان حكايا انهيار مشروعاته الكبرى وتحول الملوك الدمى الكرونوسية ـ مخلوقات ريجيك الموجّهة أوتوماتيكيًا، كآلات سبّاقة في تجاوز الحدود التي تفصل الذوات الميكانيكية عن الكائن الإنساني ـ إلى حالة حطام غير صالح للاستخدام. وعلى الرغم من أن شخصًا لم يكن يريد تصديق الحقيقة التي نفاها هو نفسه، فإنه لم يكن يملك من خيار سوى أن يؤكد حقيقة الكارثة التي أدى إليها جبنه وافتقاره إلى الصّرامة الأخلاقية.

عند الساعة الحادية عشرة، تحول الخط فجأة. تشرذمت الدمى المتحرّكة الملوك من جديد، تحت قيادة ثنائية جديدة. زامين ريجيك ومماثلتها المخلوقة الموجهة أوتوماتيكيًا إلهة النصر وحدتا قواتهما كالتوأمين رانيس اللتين شقتا عصا الطاعة على الاضطهاد الإمبريالي وانخرطتا كسِرْفْليت في تجسيد جديد وتعارضي. لقد وحّدتا نوابغهما الخلاّقين لبناء دروعهم الإلكترونية لمواجهة الأسلحة البابورية الجديدة، ثم بادروا وعلى رأسهم زامين إلهة النصر إلى هجوم

كبيرة وانقضوا على قلعة الموغول، بدأ عندئذ الحصار البابوري الذي سيستغرق أكثر من جيل. . .

في العالم الخيالي، في هذا الكون الإبداعي الذي بدأ بصناعة الدمى قبل أن يتحول بالكمون إلى وحش متفرع متعدد المظاهر، ومتعدد وسائل الاتصال، لم يكن هناك ما يوجب الإجابة عن الأسئلة؛ من المستحسن بدلاً من ذلك إيجاد طرق مهمة لإعادة صوغها، لم يكن ضروريًا أيضًا وضع نهاية للقصة ـ على العكس فإن الآفاق البعيدة المدى للمشروع كانت تتطلب أن تنسجم القصة مع تطورات لا نهاية لها تقريبًا، تُطَّعم على مراحل منتظمة بمغامرات جديدة، ومواضيع جديدة مع شخصيات جديدة يمكن المتاجرة بها على شكل دمية، لعبة، أو إنسان آلي. حركته الأساسية كانت عبارة عن هيكل عظمي يُشَاهد وقد صارت عظام جديدة تضاف إليه بانتظام، بنية ضرورية بالنسبة لمخلوق ذي استعدادات أدبية، عرضة لمتحولات دائمة؛ كان يتغذى من كل القطع التي كان بإمكانه العثور عليها: سيرة مُبْدِعِهِ الذاتية، شذرات من إشاعات، معارف معمّقة، أحداث الساعة، ثقافة النخبة والعامة، والأطعمة التي تمدُّه بأفضل غذاء ممكن: الماضي. لقد مكّنه المشروع من نهب مخزون تاريخ العالم كليًا، لقد كان مرتفقو[1] موقع الـ Web العارفون جيدًا بأساطير ومآثر الماضي نادرين؛ كان يكفي أن يعطى زنجار معاصر إلى المواد القديمة. الاستحالة: هنا كان يكمن السر. لقد حظي موقع الدمى المتحركة الملوك في الحال بعدد وافر من الزائرين. لم تكفَّ التعليقات عن التدفُّق، ورُفِدَ خيال سولانكا بألف جدول، لقد أخذ في التنامي والتعاظم لأن العمل لم يشهد أين انقطاع، ولأنه لم يتوقف عن التجدد، وعرف ثورة مستمرة، لكن بعض الفوضى كان شيئًا لا مفرَّ منه. كانت الشخصيات، والأماكن، وأسماؤها حتى تتبدل أحيانًا بينما كانت الرؤية التي كوّنها سولانكا عن عالمه الخيالي تصفو وتزداد رهافة. واستبانت بعض

(١) المرتفق (صاحب حق الاستعمال).

السيناريوات على أنها أكثر متانة مما كان يظن في البداية وأنها طورت بهملجة. السلك الناقل/ زامين/ إلهة النصر كان الأكثر عزمًا في المنطلق. كانت زامين امرأة جميلة غير عالمة إطلاقًا عندما فهم سولانكا ـ وتحت إلحاح ميلا ميلو ـ الأهمية التس ستأخذها زامين ضمن الطور الذي يشكل ذروة القصة، عاد إلى الخلف وأضاف كمًا من العناصر إلى سنوات حياتها الأولى، جاعلاً منها عالمة جديرة بكرونوس، بما أنها متفوقة عليه على المستويين الجنسي والأخلاقي. ميادين أخرى باتت على أنها دروب مسدودة فاستبعدت. فبحسبِ الرواية الأولى للمغامرة الأساس تخيل سولانكا أن الوجه (الغاليلي) المأسور من الموغول كان هو المبدع المخلوق الموجه أوتوماتيكيًا، وليس آكاز كرونوس.

وفي هذه الرواية، فقد أصبح رفض الخالق لأن يوصف بأنه «جسم حي» وللاعتراف بدونيته، جريمة ضدّه وضدّ عرقه. ثم إن الخالق هرب من سجانيه البابوريين، وعندما بث الموغول «نقضه» التبشيري الجديد، بهدف زعزعة سلطته فإن المخلوق الموجه أوتوماتيكيًا قد نفى الاتهامات بشدة وأعلن أن لا علاقة كانت له مع السجين المعني؛ لقد كان تناسخه البشري، كرونوس، الذي كان الخائن الحقيقي في الواقع. على الرغم من أن سولانكا استبعد هذه الرواية، لكنه ظل ميالاً إليها متسائلاً دائمًا إن كان قد أخطأ. أخيرًا، أضاف مفيدًا من نزوع موقع ويب Web إلى الروايات المختلفة[1] أضاف هذه الرواية إلى الموقع كخيار ممكن.

كان الاسمان «بابوري» و«موغول» هما أيضًا إضافات متأخرة، فموغول قد جاءت بلا شك من المغول وبابور كان من أوائل أباطرة المغول، إنما لم تكن هناك أية علاقة لبابور الذي تخيله سولانكا بالملك العجوز المتوفى. لقد كان زعيم التظاهرة الهندية الليليانية المجهضة في نيويورك، والذي أعطته نيلا

(١) نصوص مؤلفة تختلف عن النصوص المعروفة عامة.

ماهاندرا من الأهمية أكثر مما يستحق، في رأي سولانكا. لقد بدأت التظاهرة معتدلة جدًا وانتهت بتبادل الضرب. في الزّاوية الشمالية الغربية لساحة واشنطن، وتحت الأنظار المشدودة لمختلف باعة المشروبات المختلفة، وسحرة الشارع، وراكبي الدراجات الموحَّدة والنشّالين، تجمع مئة رجل وبعض النساء، وفي الحال انضم إليهم أصدقاء أميركيون، وعشاق وأزواج، وأفراد مجموعات صغيرة من اليسار التقليدي و«ممثلون متضامنون» رمزيون جاؤوا من جماعات أخرى من المهاجرين الهنود من بروكلين وحيّ كوانيس فأصبحوا بالإجمال أكثر من ألف شخص بحسب المنظمين، وأكثر من ألف ومئتين وخمسين شخصًا على حد زعم الشرطة. لم تُتَداول بعد كلمة سرِّ الإيلبيين «سكان البلد الأصليين»، بشكل جيد، فَفُرِّقت تظاهرتهم بشكل مخجل قبل أن يتحركوا حتى، وفورًا انطلقت زمر من الإيلبيين وغير المهلوجين إلى ساحة واشنطن كي يهزأوا من الهنود الليليانيين وينهالوا بالشتائم الداعرة على النساء. عندما رأى بوليس نيويورك المذهول ظاهريًا أن من الممكن لحدث متفجر بهذا الشكل أن ينزلق إلى بلبلة من هذا النوع تدخل متأخرًا، كان الجمهور يفر أمام قوى الشرطة وحصل تبادل طعنات عشوائية بالسكين. خلال لحظات أخلى المتظاهرون السّاحة ما خلا نيلا ماهاندرا وسولانكا وعملاق أصلع تعرى حتى خصره، يحمل مكبر صوت وفي يده راية زعفرانية وخضراء لـ «الجمهورية الفيليستانية» ـ مصدر الكلمة Fili يعني القسم الهندي من ليلليبوت بلوفوسكي، وستان عجز الكلمة، يتضمن معنى «الوطن». كان بابور الزعيم السياسي الشاب، الذي غادر جزره البعيدة كي يتجه إلى واينغ، يبدو متميزًا جدًا، أمرد تمامًا، بائسًا للغاية بحيث أن نيلا ماهاندرا سارعت إلى لقائه، وقد تركت سولانكا فجأة. عندما رأى الشاب نيلا تقترب، أرخى رايته التي ارتطمت بجمجمته أثناء سقوطها، نرنح، لكنه نجح باستحقاق في البقاء واقفًا. لقد أظهرت نيلا اهتمامًا كبيرًا به لاقتناعها بكل بداهة بأنه يستحقُّ أن تهدي إليه مشهد جمالها وأن تعوضه عن تهجيره الطويل غير المجدي. ولذلك فإن بابور استعاد ابتسامته.

لحظات، واتجه إلى نيلا مخاطبًا كما لو كانت المحفل السياسي الذي حلم به. لقد تحدّث عن قرار خطير، عن تسوية، عن استسلام غير ممكن. الآن وقد أبطل الدستور الذي دفع من أجله ثمنٌ غالٍ، وألغيت مشاركة الهند الليليانية في حكومة ليلليبوت بلوفوسكي بشكل مشين فإن إجراءات قصوى صارت ملحة:

«لا يمنحُ الحقوق هؤلاء الذين يتحكمون بها ـ أعلن ـ هؤلاء الغارقون في الحاجة، هم من ينتزعونها».

شَعَّت عيون نيلا، حدّثته عن مشروعها التلفزيوني، فهز رأسه مستحسنًا بوقار وفهم بأن شيئًا لا محال سوف يخرج من بين الركام.

«تعال، قالت وهي تُمسكُ بذراعه (انتبه سولانكا إلى اليسر الذي مرّرت به ذراعها تحت ذراع مواطنها) تعال. علينا أن نتحدث مطولاً عن كل هذه الأشياء. لدينا الكثير مما يتوجب علينا أن نفعله وبالسرعة القصوى».

مضت نيلا مع بابور من دون أن تلتفت حتى.

مكث سولانكا في ساحة واشنطن حتى الإغلاق. سيارة شرطة طلبت منه الانصراف في اللحظة التي كان يرن فيها هاتفه النقال.

«إني فعلاً مدماة الفؤاد يا عزيزي، قالت نيلا، لقد كان هذا تعيسًا للغاية، وهذه هي مهنتي، فعلاً كنت بحاجة إلى الكلام. إنما حسن، ليس هناك ما يدعو إلى تسويغ موقفي. أنت ذكي وأنا واثقة من قدرتك على الاستيعاب. عليك أن تلتقي بابور، إنه حشّاش بشكل يدعو إلى الذعر، ربما سيصبح رئيسًا بعد الثورة. أوه، انتظر لا تقفل، لدي مكالمة أخرى».

لقد تحدثت عن الثورة وكأنها شيء حتمي. فريسة لقلق أصم، تذكر سولانكا الذي كان ينتظر إنهاء المكالمة، إعلان الحرب الذي نطقت به نيلا ذات يوم.

«سأناضل معهم لو اقتضى الأمر، سأحارب معهم جنبًا إلى جنب، إني لا أمزح، وسأقوم بذلك فعلاً».

هل سيكتب له أن يفقدها قريبًا؟ أم سيتوجب عليه أن يتبعها حتى أقاصي الكوكب بسبب طرح لا معنى له؟ تأمل في بقع الدم التي كانت تجف على الساحة المعتمة، فشاهد من هناك، من نيويورك الهيجان الذي كان يزمجر في طرف العالم الآخر: هيجان جماعي، تولد من جور قديم، وبجانبه كانت، وبجانبها كان مزاجه الذي تعكر بشكل مفاجئ نتيجة لتفاهة المؤثر، سمة لشخص تالف، دون شك، غير مبالٍ بنفسه، لم يكن يستطيع التخلّي عن نيلا في هذا الجيشان المتصاعد والبهلواني. عودي كان يود أن يقول، ارجعي يا حبيبتي لا ترحلي أرجوك، لكنها عادت من مكالمتها وقد تغير صوتها.

«إنه جاك، قالت، لقد مات. أطلق رصاصة على رأسه وترك اعترافات خطيّة».

لقد رأيت إلهة النصر مجزوزة الرأس. فكّر سولانكا بحزن. لقد سمعت بالفارس دون رأس.

إنه الآن دور صديقي المجزوز الرأس. هزيمة بلا أجنحة، وبلا مطيّة.

الفصل الثالث

[14]

محال، لقد عثر على جثمان جاك في مبنى سباسكي غرين، وهو مبنى في طور البناء في تريباكا، في مثلث غرينتش ومورث مور، والتي قبض على متعهديها حديثًا الجهات المعنيّة، لأنهم استأجروا عمالاً غير منظمين في نقابة. كان المكان يقع على بعد ربع ساعة سيرًا من شقة هدسون ستريت، التي كان جاك يقطنها. ذهب إلى هناك بخطوات هادئة، وبندقية معبأة في يده. اجتاز شارع القتال الذي كان لا يزال سالكًا على الرغم من تأخر الوقت ـ دون أن يلفت الأنظار إليه، دخل البناية بطريقة الكسر، استقلّ المصعد إلى الطابق الرابع، وتمركز أمام نافذة تتجه إلى الشرق بإطلالة رائعة على النهر المغمور بنور القمر، وضع فوهة البندقية في فمه، وضغط على الزناد، فخرَّ على الأرضية الإسمنتية ملقيًا السلاح من يده، دون الرسالة التي كان يمسك بها. لقد أفرط في شرب الجاك دانييل والكوكا، خليط لا معقول بالنسبة لمولع بالخمر مثل رينيهارت. عندما عثروا عليه، كانت بدلته وقميصه مطويين جيدًا على الأرض، ولم يكن يرتدي سوى جوربه وسرواله القصير الذي لبسه مقلوبًا ولسبب مجهول، سهوًا دون شك، ولا بدَّ أنه نظف أسنانه قبل قليل.

أصرت نيلا على الاعتراف بكل شيء، قالت إلى المباحث كل ما تعرفه:

«الأقنعة الغريبة في خزانة ثياب جاك، شُبُهاتها. كل شيء ستجرُّ المتاعب على نفسها ربما. لكن التستر على المعلومات أمر خطير، إنما كان لدى البوليس وسائل أخرى أكثر نجوعًا يستطيع أن يستخدمها، زِدْ على ذلك فإن المفتشين اللذين جاءا لاستجوابها ومليك سولانكا في شقتها في بيدفورد قد أظهرا رعونة كبيرة. لم يكونا يكفان عن كسر أقلامهما، وعن الدوس على أقدام بعضهما بعضًا، عن قلب الأشياء، أو عن استسلام الحديث بخشونة في ذات اللحظة، ولم تكن نيلا لتعير اهتمامًا إلى هذه الأشياء قبل أن يسكنا فجأة وهما مرتبكان.

«الأمر كذلك ـ جزمت بينما كان رأسا رَجُلَي البوليس يرتطمان ببعضهما، وقد أفصحا عن اشتباههما بأن رائحة العفونة تفوح من هذا الانتحار المزعوم».

كان مليك ونيلا يعلمان أن جاك يمتلك سلاحًا، حتى لو لم يكونا قد رأياه إطلاقًا، وكان هذا يعود إلى عهده (كصياد زنجي على نمط همنغواي) الذي سبق طوره. نمر الغابات. الآن وكما المسكين أرنيست الذي كان من أكثر الكتاب الأميركيين أنثوية، والذي هدّمه عجزه عن حمل عبء خدعة التفوق الذكوري الكاذب، فقد قدَّم جاك نفسه كطريدة، كان الطريدة الأخيرة. وبذلك يكون هذا ما كان يقضي بأن يكون مقنعًا لهم. لكنَّ فحصًا أكثر تطوُّرًا جعل رواية الأحداث هذه غير مقنعة، فبوَّاب البناية التي كان يسكنها جاك رآه خارجًا وحده حوالى الساعة التاسعة عشرة، دون أي قناع، ومرتديًا ثياب السهرة في المدينة. شاهد آخر، وهو امرأة، هي نفسها المرأة ذات القبعة التي كانت تنتظر سيارة على الرصيف، مثلت إثر استدعاء للشهود بلّغتها به الشرطة، وأدلت بأنها رأت رجلًا تنطبق عليه أوصاف جاك في سوداء رباعية الدفع زجاج نوافذها مظللة. من خلال باب السيارة الذي فتح لمحت بشكل خاطف رجلين على الأقل، دون أدنى شك بذلك، كانا يدخنان السيجار. مركبة مماثلة لكأنها هي عينها شوهدت في شارع غرينويتش بعد قليل من ساعة الوفاة. بعد يومين كشف

تحليل غرين المعطيات لما كانوا يسمونه آنفًا بشكل موقت مكان الجريمة، أن باب مبنى سباسكي غربن بولدينغ، لم يكن قد كسر ببندقية جاك، ولم يجدوا حول الجثة أية أداة حادة أخرى تخلخل الباب الخشب وحواجبه المعدن. زد على ذلك فإن الفرضية التالية هي التي تقول بأن الشخص الذي كسر الباب كان في الواقع يملك مفتاحًا. أما الرسالة التي تركها رينيهارت ففيها تبرئة للمرحوم إن صح التعبير. كان جاك معروفًا بأسلوبه السليم، ولشد ما ندر له أن وقع في أخطاء نحوية، وعلى الإطلاق في أخطاء إملائية، مع ذلك فإن جمله الأخيرة تحتوي على لحن من أفدح ما يكون.

«منذ أن صرت مراسل حرب، وأنا أتطرَّف إلى العنف، لقد كسرت مرارًا وفي عز الليل جهاز الهاتف. إيتالون وديسكو وماتييه أبرياء، لقد قلت عشيقاتهم الصغيرات، لأنهن لم يوافقهن على مضاجعتي. بالتأكيد لأنني أسود».

«قولوا لنيلا إني أحبها، أنا أعرف أنها تلفّظت بحماقات، لكنني أحبها حبًّا حقيقيًا». لقد صرح مليك سولانكا بصوته المفخسيرام، عندما استجوبه البوليس بأنه على الرغم من أن الرسالة قد كتبت بخط يد جاك بشكل لا يقبل الجدل، إلا أنه لا بد كتبها قسرًا. «سواء أأُمليت عليه من واحد أقلُّ موهبة منه بالطبع على الصعيد الأدبي، أم أن جاك قد هبط عمدًا بمستوى أسلوبه كي يرمز لنا بشيء ما، فقد أعطانا أسماء القتلة الثلاثة. ألا ترون ذلك؟».

عندما ثبت أن كيث ديسكو مدفورد آخر عشيق سابق للورا كلان، كان ابن المتعهد الثري والعدو اللدود للعمال النقابيين، فإن ميشيل مدفورد الذي كانت واحدة من مؤسساته تتولى إعادة بناء سباسكي غرين بولدينغ السابق إلى وحدة من عليَّات ومساكن باذخة، وأن كيث الذي فُوِّض بترتيب سهرة من أجل طرح المشروع كان يملك مجموعة من المفاتيح، فقد صار جليًا أن القتلة قد اقترفوا خطأً فادحًا. معظم القتلة أغبياء والحياة الموسرة لا تحمي من الحماقة. فحتى المدارس الباهظة الكلفة كانت تنتج أميين جهلة. وقد كان مارسيليس وأندريِّسان

وميدفورد شبابًا أغبياء متعجرفين مثلما هم قتلة أيضًا. ديسكو الذي ووجه بالوقائع المفحمة كان أول من قدم الاعترافات، وإثباتات الغيبة التي قدّمها رفيقاه لم تصمد طويلاً. دُفِنَ رينيهارت في مقبرة الملكات «Queens» على بعد خمس وثلاثين دقيقة في السيارة من البنغل الذي كان قد أهداه إلى أمه وإلى أخته العازبة في دوغلاستن.

«منزل الشرفة ـ كان يقول مازحًا، وإذا ما ذهبتم إلى طرف الفناء وانحنيتم إلى اليسار فإنكم ستستطيعون أن تسمعوا، لنقل، وشوشة تخرج من الصدى».

من الآن فصاعدًا ستكون تلك شرفته الوحيدة، شرفة أضواء المدينة. ذهب سولانكا ونيلا في سيارة. كانت المقبرة ضيقة، لا شجر فيها، حزينة ورطبة. ومصورون كانوا هائمين وسط مجموعة أقرباء المتوفى الصغيرة لكأنها فضلات تهيم على سطح مستنقع قاتم. عندما نشرت الاعترافات وصار من قصة نادي م. م. (المقنّعون المتوحِّدون) فضيحة الصيف، كفَّ سولانكا عن الاهتمام ببُعد الحدث العام. كان يبكي صديقه الكبير جاك رينيهارت، الصحافي الشجاع الذي ابتلعه البذخ والثراء. يا للقدر الظالم بأن يُغوى المرء بما كان يبغض! أن يجد نفسه يختطف المرأة التي كان يحبها أعز أصدقائه. كم كان في هذا من الصعوبة دون شك. لم يستطع سولانكا أن يكون صديقًا مخلصًا، لكن الخيانة كانت مسطورة في قدر جاك. نوازعه الجنسية الخفية التي لم يفرغها عند نيلا التي لم يكن لجمالها ربما أن يرضيه، أودت به إلى عشرة السوء. لقد كان مخلصًا لرجال لم يكونوا جديرين بإخلاصه، وأقنع نفسه ببراءتهم ـ وأي جهد كان لا بد منه من أجل متطفل من جبلته، أي ذخائر من المكر كان لا بد له أن يبدي! ـ وبالتالي فإنه قد ساعدهم على الإفلات من العدالة: ومكافأة له على ذلك، اغتالوه ووسوسوا له بوضع القبعة. لقد جعلوا منه قربانًا على مذبح عجرفتهم الأنوية الكؤود.

تطوّع مرتّل إنجيل لترتيب قدّاس الروحانيات والأناشيد الشائعة الأكثر حداثة:

الاحترام من بوفل دادي إلى فوتوريوس ـ اللطف يا يسوع ـ سأفتقدك يا إري بريث في حضن إبراهيم ـ ثبت روحي.

Fix me Jesus par l homage de bufl daddy a notorious B.I.G.
Ery Breath you Take (I ll Bi Missing you); puis se fut Rock my soul (in the Bosom of Abrahmo).

كان المطر يعد بالهطول. لكنه كان منحبسًا. وكان الهواء نديًا كالدمع المنهمر، وكانت هناك أم جاك وأخته؛ برونيسلاوا المضناة كانت مثيرة في ثوبها الأسود القصير ووشاحها الذي تفنن به مبدعو الأزياء.

وجّه سولانكا تحيَّة إلى بروني التي لم يكن لديه ما يقوله لها، وسرّب بضع كلمات فارغة إلى ذوي المرحوم المتوفى. لم يكن الحزن يبدو على نساء العائلة، لكنهن كن غاضبات.

«ليس جاك الذي أعرفه من كان يمكن له أن يستسلم لحظة لإغواء هؤلاء البيض الصغار. قالت أمه».

«لم يكن جاك الذي أعرفه بحاجة لأن يُفْقَع بالسياط والسلاسل، أضافت أخته».

لقد حقدتا على من كانتا تحبانه لأنه سبب هكذا فضيحة، بل كانتا حاقدتين أكثر لأنه جر عليهما هذه المتاعب، وكأنه كان يقصد بذلك إيذاءهما وتركهما طيلة عمرهما في الحداد.

«كان جاك الذي أعرفه جيدًا جدًا، ويمكنني أن أقول إنه سعيد في أي مكان هو فيه الآن: لأنه خُلِّص من آثامه» قال سولانكا.

كان جاك قريبًا منهم بالطبع. لقد قال جاك يومًا: لن أفيق ذات صباح.

أحس سولانكا بقبضة تهصر قلبه.

من خلال كأبته، كان سولانكا يتخيل جاك متمددًا في طابقه العلوي الباذخ، بينما كان العالم يقدح، بجثته، ومصورون يرغون حوله، وبالقرب من جاك كانت الصبايا الثلاث متمددات، كان سولانكا يبكيهنَّ هن أيضًا، ومما خفف عنه أن لا

بد كانت له في موتهن. كانت هناك لوران التي كانت تخاف غرائزها وغرائز مواطئيها.

باندي وسيبل حاولتا دون نتيجة استبقاءها في الحلقة المفتونة بالمتعة والألم، لكنّها رسَّخت مصيرها مهددة أعضاء النادي بتشهير مخزٍ. كانت باندي الأولى التي فهمت أن موت صديقتها لم يكن محض الصدفة بل نُفِّذ برباطة جأش ـ حدس كان يشعرها بأنها محكومة بالإعدام، وكانت هناك سيبل الرياضة التي تعمل لحساب غيرها المستعدة لكل شيء والأكثر شيطنة بين الثلاث المعدمات، والأكثر انحلالاً من الناحية الجنسية والتي كانت انحرافاتها المازوشية ـ والتي فصلت بدقة مذهلة في الصحافة ـ تقلق عشيقها السَّادي برد الإيتالون.

لم يكن يخطر في بال سيبل التي كانت تحسب نفسها مخلدة قط بأنهم كانوا سيهاجمونها لأنها كانت ملكة عالمهم، وأنهم كانوا يتبعونها إلى كل مكان كانت تسوقهم إليه، وأنهم لم يشهدوا أبدًا عند أي فتاة هكذا مستوى من التسامح، هكذا عتبة مرتفعة. كانت مطَّلعة على الاغتيالات، وهذا ما أثارها بشكل رهيب، لقد أسرَّتْ إلى مارسيليس بأنها لم تكن تنوي الإدلاء بأي اعتراف، وأفضت بالتناوب إلى كل من مايبه وديسكو بأنها ستكون سعيدة بملء الفراغ الذي تركته صاحبتاها المتوفيتان بالطريقة التي سترضيهما.

سأترك لكم الخيار أيها الأولاد.

لقد وضحت أيضًا إلى الرجال الثلاثة، كلٌّ بدوره، أن القتلة الثلاثة قد قيَّدوهن برحمتهنَّ طيلة الحياة؛ لقد قطعوا خط الرجعة ووقعوا حبهم بدماء صديقاتهم. سبيل الملكة، مصاصة الدماء. لقد ماتت لأنّ خوف مغتاليها كان أشد من أن يتركوها للحياة، فتيات ثلاث سُحِلنَ. لقد تحدثوا عن عبادة الأرواح (ڤودو) وعن «فيتيشيميه»[1] بديِّه أو «تيميه» ولا سيما عن القساوة

---

(١) عبادة البدود والأصنام وأشياء ذات خصائص سحرية تعتبر مباركة بالنسبة إلى صاحبها.

الجليدية لهؤلاء القتلة، لكن سولانكا كان يفضل أن يتفكر ربما في موت الشاعر.

أولئك النساء الشابات، الشرهات بشكل بائس جدًا للشهوة، لم يكن يستطعن العثور عليها إلا في أقصى درجات الانحلال الجنسي. وهؤلاء الشبان الثلاثة الذين صار الحب بالنسبة إليهم مسألة عنف وتملّك والذين وطّدوا أمرهم على إيقاع العقوبة وتكبيد العذاب، كانوا قد اقتربوا من الحد الفاصل بين الحب والموت وهيجانهم فجّر ذلك، الهيجان الذي عجزوا عن التعبير عنه بشكل صحيح، الذي وُلِدَ مما لم يستطيعوا اكتسابه إطلاقًا، هؤلاء الذين كانوا يملكون كل شيء: الابتذال والشيء السخيف. إنه الحياة الحقيقية.

في الألف، في العشرة آلاف، في المئة ألف محادثة من المحادثات المرعبة الطنّانة عن الميت، كذبابات تجتذبها العفونة، كانت المدينة تتحدث بالتفاصيل عن الاغتيالات الدّنيئة. لقد قتلوا صاحباتهم! لقد جرّ مدفورد لوران كلان إلى سهرة ختاميّة باذخة في المدينة وكانت قد طردته إلى محلّته، مثلما كان يتوقع، بسبب مشادّة أثارها عمدًا في نهاية السّهرة. بعد بضع لحظات تلفن لها متذرّعًا بأنه تعرّض لحادث سيارة على بعد خطوتين من بيتها كي تجد سيارته القذرة وقد فتح بابها. مسكينة يا حبيبتي! ظنّت أنه كان يريد الاعتذار منها. كانت ساخطة إذ غرّر بها لكنها لم تكن قلقة على الإطلاق. صعدت إلى السيّارة وأوسعت ضربًا من قبل آندريّسان ومارساليس، بينما كان مدفورد يرتشف المارغاريتا في بار في الحي، معلنًا لمن كان يريد أن يسمعه بأنه يقضي على حزنه بالخمر لأن صاحبته الوغدة ملّته مرغمًا النّادل على أن يطلب منه الصمت أو أن ينصرف، جاهدًا لأن يلفت النظر إلى حضوره. لا بدّ من أن يكونوا قد فرشوا قوالب من البلاستيك كي لا تتلوّث السيارة، ورموا الجسد في الطريق كشيء من قمامة. لقد استخدمت التقانة نفسها مع بلاند كاندل. أمّا سيل فقد كانت مختلفة، وكعادتها فإنها هي من قامت بالمبادرة وهي تهمس بمشروعها

من أجل السهرة إلى برادلي مارساليس، أثناء عشائهما الأخير. ليس هذا المساء ـ قال ـ فرفعت كتفيها.

«حسن، سأتّصل بمايّيه وديسكو لأرى إذا ما كانت لديهما الرغبة في اللهو» هائج، مُهان: لكنه مجبر على احترام القواعد في توزيع حصّة الكلاب، رافقها بْرِدْ حتى باب مدخل بيتها، ثم اتصل بها بعد دقائق:

«اتّفقنا، لقد فزت، لكن ليس هنا، التقيني في الغرفة».

كانت الغرفة هي الملحق المخمّد الطّنين لفندق خمس نجوم، استأجره النادي م.م. بمناسبة مرور سنة على ميلاد هذا النادي، إكرامًا لأعضائه الصّاخبين. لقد اكتشف أن برادلي مارسياليس قد قام بحجز مسبق منذ بضعة أيام، مما كان يعني منطقيًا سبق التصميم. لم تصل سييل أبدًا إلى الفندق. سيّارة ضخمة رباعية الدفع توقّفت قربها وصوت تعرفه أهاب بها: «مرحبًا أيتها الأميرة، اصعدي إلى السيّارة، طلب منّا إيتالون أن نصحبك في فسحة».

عشرون، تسع عشرة، تسع عشرة، مجموع أعمار الثلاثة يربو على عمره بثلاثة أعوام. ماذا يقال عن جاك رينيهارت، الذي شهد عشر حروب، كي يقضي بشكل بائس في حي تريبيكا. جاك الذي برع للغاية في الكتابة عن أشياء مهمة، وبمنتهى الرّشاقة عن أشياء تافهة، والذي كانت رسالته الأخيرة هزيلة، معذّبة، ودون المستوى في الوقت نفسه سواء أكان ذلك عمدًا أم بالإكراه؟ شاعت قصة جاك لدى الجميع. سرقة البندقية من قبل إيتالون، دعوة جاك إلى احتفال المسارّة(١) لنادي م.م.

لقد نجحت يا رجل. فأنت واحد منا. حتى عندما وصل إلى سباسكي غرين بولدينغ. كان جاك يجهل أنه كان ماضيًا إلى حتفه. لا بدّ أنه كان يفكر بمشهد

---

(١) احتفالات كانت تقام لإطلاع عضو جديد على بعض أسرار الديانات القديمة والجمعيات السرية الحديثة.

طقوس العربدة في العيون الواسعة المشدودة، وأن يتخيّل فتيات عاريات ومقنّعات على منّصات، مستعدّات لتلقي. . . لدعة سوطه اللذيذة. أجهش سولانكا بالبكاء. كان يتخيّل نفسه يسمع القتلة يوضّحون أن الشّعيرة تتطلب أن يشرب رينيهارت دورقًا مليئًا حتى الشفة من الويسكي ـ كوكا، الخليط الذي يشربه الأطفال المدلّلون، وبجرّة واحدة تقريبًا. كان يسمعهم يوعزون إلى جاك أن يتعرّى وأن يقلب سرواله الداخلي القصير مثلما تقتضي تقاليد النادي، كما لو كانوا يعقدونها أمام عينيه. أحسّ بالعصابة التي استخدموها مع جاك (والتي نزعوها في ما بعد). فاخترقت دموعه النسيج الخيالي. جيد جدًا يا جاك، أنت مستعد ستُفْقَع ـ ماذا جرى أيّها الأولاد، ما الخدعة؟ ـ افتح فمك يا جاك. هل فرّشت أسنانك جيدًا كما كان يقال؟ تمام. مثل آ آ آ يا جاك. ستضرب ببندقية أيها التوتو. كم كان من السّهل جرُّ هذا الرّجل الطيب والضعيف إلى الموت، بأيّ حبور كان قد صعد إلى عربة موته ـ رأسه مرفوع، أمّا قدماه فقد زلّتا ـ من أجل آخر جولة في الدّرب المرسومة .Lord My Soul أيّها الرّب، هدهد نفسي، رنّ صدى الإنجيل، وداعًا جاك، قال سولانكا إلى صديقه بصمت. عد إلى مثواك. سأذكرك.

ذهبت نيلا ومليك إلى بدفورد ستريت. فتحت زجاجة من النبيذ الأحمر، أسدلت الستائر، أشعلت شموعًا معطرة، واختارت بوقاحة سي. دي. لأغانٍ هندية من أعوام الخمسينات وبداية الستينات ـ موسيقى الماضي حرام على سولانكا، فكان بذلك مظهر عميق من حكمة نيلا العاطفية، وبمجرّد أن صار الموضوع مسألة عاطفية فإن نيلا ماهاندرا أخذت تتحسّس ذلك Kly meri aaya karo. كان صدى الأغنية ذات الكلمات العاطفية يصدح في الغرفة العاتمة.

«مرّ لتريني واحدًا من هؤلاء الأربعة». لم يكونا قد تبادلا كلمة منذ مغادرتهما المقبرة، جعلته يستلقي على بساط نثرت فوقه الأرائك، وأقرّت رأس سولانكا بين نهديها، مذكرة إياه بصمت، باستمرار السعادة ولو في صميم الحزن حتى.

تحدّثت عن جمالها كما لو كانت تتحدّث عن شيء منفصل عنها. كان جمالها ينبثق بكل بساطة: لم يكن هذا نتيجة لتصرف ما من قبلها. دون اعتزاز كانت تقبل بامتنان تلك الهديّة التي قدّمت لها، وتحيطها بعنايتها، لكنّها تعتبر نفسها قبل كل شيء كجوهر متجرّد عن مادية جسد يقبع خلف عيني ذلك المجهول العجيب: جسدها. كانت تنظر من خلال زاويتي عينيها الواسعتين، وتحرك أطرافها الممشوقة دون أن تكون واعية فعلاً لتلك الفرصة التي تمتلكها. فالتأثير الذي كان لها على الآخرين، ماسحي زجاج السيارات الذين كانوا ينتشرون على الرصيف ودلاء فوق رؤوسهم. السيّارات التي كانت تشحط بإطاراتها، الجزّارين الذين كانوا يتجروحون عندما كانت تدخل لشراء اللحمة ـ هذا التأثير كان ظاهرة، لها نتائجها التي كانت تشغل بالها على الرغم من لا مبالاتها الواضحة إلى أقصى درجة، كان بإمكانها أن تحدّ من هذا التأثير إلى حدّ ما، «إنها لا تستطيع أن تلجمه» كان جاك يقول. وهذا صحيح إنّما كان بإمكانها أن تخفّف من ذلك لو ارتدت ثيابًا أكثر اتساعًا (وذلك ما كانت تمقته كثيرًا) وقبعات واسعة. شيء مهم. كانت تعزّز ردّة فعل الناس تجاه حضورها وهي تتبنّى ذلك الضبط الرّزين في مشيتها، وتلك التحيّة بذقنها، بفمها، وبصوتها، كانت سلطتها وهي في ذروتها تهدّد بأن تقلب جهات العالم الأربع بأسرها إلى مناطق منكوبة. كان لا بدّ لسولانكا من أن يطلب منها التوقف، قلقًا أيضًا على التأثير الذي كانت تؤثره على جسده مثلما على عقله. كانت تحب الإطراء، وتصف نفسها بأنها «من النّفائس التي لا يفرّط بها». وكان من المتّفق عليه بين حين وآخر، بالنسبة لاعترافها، بأن هذا الانفصال من نفسها «بالشكل» و«المضمون» كان وهمًا مفيدًا. الوصف الذي أعطته لكائنها الجنسي «كواحدة أخرى كانت تنطلق إلى الصيد بانتظام» كان خدعة عبقرية، ولجوءًا إلى شخص خجول يمثل دور المنبسط. كان هذا يوفر لها اجتناء نِعَمَ وجوده الاستثنائي الماجن، دون أن يكدرها هذا الخرق في مجتمع شلها في مراهقتها، وعلى

الرغم من دهائها الكبير في العمل على التمسك بالضمير الأخلاقي الذي كان يتحكم في تصرفاتها بكل إتقان فقد كانت تحب أن تستشهد بجاسيكا رابيت، القنبلة الجنسية في فيلم الرسوم المتحركة الشهير: «أنا لست سيئة ـ كانت تود أن تهمس ببراءة، هم رسموني هكذا».

ضمته بين ذراعيها، اختلافها عن ميلا ميلو كان مدهشًا. مع تلك الأخيرة، كان سولانكا يستسلم للزحف وراء المفاتن المرضيَّة، نحو المنيع المتعذر الوصف؛ أما عندما كانت نيلا تتدحرج حوله، فقد كان العكس، أصبح من الممكن لكل شيء أن يكون بينًا ومباحًا، لم تكن امرأة ـ طفلة ومما وجده عندها كان الفرح الناضج بالحب المشروع. لقد سبق لميلا أن اتهمته بالتفاؤل. وهي على صواب. نيلا كانت المسوغ لهذا التفاؤل. وأجل، كان يشكر ميلا ضمنيًا لأنها وجدت المفتاح الذي فتح أبواب مخيلته وإذا ما كانت ميلا قد نزعت رتاج أبواب هويس القناة فإن نيلا ماهاندرا كانت الماء الذي يفور.

كان سولانكا يحسُّ بالتغير الذي يعتريه وهو بين ذراعي نيلا، يشعر بضغط الشياطين الداخلية التي كانت ترهبه يتلاشى يومًا إثر يوم، وبالحنق المفاجئ يخلي مكانه لإمكانية التكهن بهذا الحب الجديد الأعجوبية. احزمي أمتعتك يا جنيات الجحيم فكر سولانكا، لن تسكني هذا المكان بعد، فإذا ما كان مصيبًا، إذا ما كان مصدر غضبه يجثم ضمن خيبات وجوده المتراكمة، فإنه يكون إذن قد وجد الترياق الذي يحول السم إلى ضده. إذا كان من الممكن للغضب أن يكون نشوة، فإن حب نيلا كان إذن حجر الفلاسفة الذي جعل التحول الخيميائي ممكنًا.

يولد الغضب من اليأس: ونيلا هي الأمل الغامر.

أقفل الباب الذي كان ينفتح على ماضيه. وكانت نيلا من اللياقة بحيث إنها لم تحاول خلعه للحظة على الأقل. لقد كانت بحاجة إلى استقلالية كبرى. بعد ليلتهما الأولى في غرفة الفندق، كانت مصرة على أن تتمَّ دعاباتها في السرير، لكنها أعربت بأنها لا تريد لهذا أن يستمرَّ حتى الصباح. كانت الكوابيس تهاجم

نومها، لكنها لم تكن تريد عزاءً لنفسها، كانت تؤثر أن تواجه كوابيسها بنفسها وأن تستيقظ في نهاية كل معركة ليلية، دون أن يكون أحد بجانبها. قبل سولانكا الذي لم يكن يملك خيارًا بشروطها، وتعوّد على دفع الأمواج الفاترة التي كانت تتدفّق عليه اعتياديًا. ويحدِّث نفسه بأن الأمر كذلك. بعد كل حساب، أصبح رجلاً مستغرقًا جدًا، يتدرج كل يوم في التعرف عليها، يجوبها كمدينة مجهولة، لو تسنى له لاستأجر فيها شقة آملاً أن يستطيع شراءها ذات يوم. ضايقت نيلا هذه الفكرة، مثله، كانت مخلوقًا نزويًا، وكان هو على الطريق لأن يصبح عالم أرصادها المجذوب، يرصد تقلبات الجو وهو يدرس مدة استمرار زوابعها الداخلية، وتأثيراتها الجانبية التي كانت تظهر على شكل عواصف مدمرة، تهب على شواطئ حبهما المذهبة. كان يروق لها أحيانًا أن تسبره بطريقة مجهرية، أن تفهم دون أن تتكلم وأن تشبع حاجاتها دون أن تفصح عنها، في لحظات أخرى، كان هذا يهيِّجها، كان يرى غمامة تعبر جبينها الجميل ويسأل:

«ماذا هناك؟» وهي كانت تردد عبارتها الحانقة كجواب وحيد.

«أوه، لا شيء تبًا! أنت تظن أنك تستطيع أن تقرأ أفكاري، لكنك غالبًا ما تخطئ إذا كان لي ما يقال فسوف أقوله. لا تبحث عن المتاعب».

كانت توظف معظم طاقتها كي تكوِّن لنفسها صورة قوية، لم تكن تريد أن تكشف لمن أحبت نقاط ضعفها.

لقد اكتشف بأن نيلا أيضًا، كانت تسعى للاستشفاء من شيء ما وكانت هذه هي النقطة المشتركة بينهما.

لقد عزما على قهر شياطينهما دون التوغل في وادي الدمى. عندما لم تكن تشعر بأنها ليست على ما يرام، عندما كانت تجد في نفسها حاجة لمقاومة نفسها فإنها كانت تستبعده أيضًا وترفض أن تراه أو توضح له شيئًا. كان من المفروض فيه أن يكون حصيفًا كي يمنحها حرية التصرف هذه.

باختصار، فقد كانت المرة الأولى في حياتها التي يطلب منها فيها أن تتصرف طبقًا لما يتناسب مع عمرها. إنها امرأة عصبية جدًا. وقد حصل لها أن اعترفت بأن العيش معها جحيم، وهو كان يردّ على ذلك:

«أجل، لكن هناك ما يعوِّض.

آمل أن يكون شيئًا مهمًا. أجابت وقد بدت قلقة بصدق.

ـ بصراحة لو لم يكن كذلك، لكان من البلاهة أن أبقى معك، أليس كذلك؟ قال مبتسمًا بينما هي كانت تسترخي وتقترب.

ـ هذا صحيح، بيد أنك لست غبيًا».

عندما تكون عارية، تشعر بارتياح أكبر بكثير مما هي عليه عندما تكون في ثيابها، وكان عليه أن يذكرها مرارًا بأن تضع ثيابها عندما يقرع الباب. لكنها كانت حريصة على التكتم على بعض أسرارها، والحفاظ على لغزها. خلواتها مع نفسها والعادة التي اتخذتها بالتهرب من الأنظار الملحّة، بهذا التقويم اللاأميركي إطلاقًا ـ بل الإنجليزي البحت في التحفظ. كانت تدعي بأن لا علاقة لها بشيء مع الواقع الذي كانت تحبه.

«إصغ، هذا بديهي. كانت تجيب عندما كان يسألها عن السبب. ربما أنك خلاق جدًا مع دماك، وموقعك Web، وكل هذا، أمّا في ما يخصني فإن وظيفتك الوحيدة تقتصر على المجيء إلى سريري عندما أطلب منك ذلك. وأن تلبي رغباتي.

هذا الإملاء سحر البروفسور سولانكا بشكل لا يعقل، هو الذي طالما حلم بأن يكون هدفًا جنسيًا.

بعد ممارسة الحب، كانت تشعل سيجارة وتذهب لتدخنها وهي تجلس عارية قرب النافذة. جيران محظوظون: كان يفكر في سره، أما هي فإنها لم تكن تقيم وزنًا لهكذا اعتبارات، كانت تعتبرها اعتبارات بورجوازية لا تناسبها. ثم كانت تعود هادئة الوجه كي تجيب عن سؤاله.

«لا بدّ من الاعتراف بأنك كريم. وهذه من الشمائل النادرة لدى أترابك. أنظر إلى بابور، إنه رجل مدهش، لامع حقًا لكنه مُوَسْوس بالثورة. والناس ليسوا سوى بيادق في لعبته ـ ما هو مهم مع غالبية الرجال هو الخطوة، المال، السلطة، لعبة الغولف، الأنا. هاك جاك مثلاً.

لقد إساء سولانكا فهم التلميح المطرّي إلى العملاق الأهيف والأمرد الذي كان يلوِّح بعلمه في واشنطن سكوير. وأصابته وخزة الإحساس بالذنب وهو يجده يُقارَن بصديقه المتوفى جهارًا. فأفصح عن ذلك.

ـ أنت ترى! قالت منذهلة. إنك لا تكتفي بالإحساس بالأشياء فحسب، بل تجيد التعبير عنها فعلاً. رائع!

أحسَّ سولانكا بأنها تسخر منه بشكل مبطن لكنه تغاضى عن المزحة، عندما أحس بسذاجته لجأ إلى حنان المقطوعة الغنائية:

جرعة الحب التاسعة. هذه هي البلسم الشافي.

كانت الهند موجودة في كل مكان في شقة بدفورد ستريت. بالأسلوب الذي يتمسك به شعب مشتت: الموسيقى السينمائية، الشموع والبخور، التقويم السنوي الذي رسم عليه إله الهندوس وبائعات اللبن، وفي أسفلها ثمار الدوريان، ولوحة رفاق المدرسة، ولفافة الهوكاه المدروجة على الرف كأفعى خضراء مصبرة. إنه أنانيلا المتبدّل الذي صنع في بومباي فكر مليك سولانكا وهو يرتدي ثيابه. لو كان الأمر يرجع إليه لفضّل بساطة عليها بصمة الغرب في الطراز الكاليفورني المنمنم. . . فلا أهمية تذكر لـ بومباي.

كانت نيلا ترتدي ثيابها أيضًا: بيجاما رياضية سوداء أكثر قولبة وأكبر «هودينامية» لباس صنع من مادة غريبة لائقة بالعصر الفضائي، كانت مضطرة إلى المرور على المكتب على الرغم من أن الوقت كان متأخرًا، فالإخراج الأولي للفيلم الوثائقي عن الليليبوت شارف على نهايته. وكان لا بد لها من الذهاب إلى المتقاطرات. فلا يزال هناك الكثير مما لا بد لها من إنجازه. كذا

التعوّد. تعوّد. حدَّث نفسه الأستاذ سولانكا، فاضطرارها إلى التغيب هو اضطرار مهني بقدر ما هو شخصي. أن تكون مع هذه المرأة، هو أيضًا أن تتعود على العيش بدونها. شدت رباط حذائها الرياضي ذي الدويلبات الصغيرة المندمجة في النعل وابتعدت بسرعة كبيرة. كان شعرها الذي ربطته على شكل ذيل حصان يطير خلفها. شاهدها سولانكا تنطلق على الرصيف، «في الواقع» إن النكبات المعتادة وشيكة الوقوع.

ذهب إلى مخزن FAO تشوايرز واشترى تمساحًا من نسيج مخملي لأسمعان. سعادة جديدة ستوقف قريبًا ربما آثار غضبه القديم. لا بد له من أن يكون على قدرٍ كافٍ من رباطة الجأش كي يقترب من ابنه، وكي يفعل ذلك سيكون لا بد له من مجابهة إيليانور وجعلها تقبل بما لا يقبل. لا بد له من أن يغرزها كسكين في قلبه المحب الكريم.

اتصل بأسمعان كي يعلمه بأنه سوف يتلقى مفاجأة. استثناء عظيم.

«ماذا بداخلها؟ ماذا؟ ماذا سيقول مورغان؟».

أسمعان وإيليانور قضيا العطلة في فلورنسا عند آل فرانز.

«لا يوجد هناك بحر. لا. هناك نهر. لكنني لم أستطع السباحة فيه. ربما سأعود إلى هناك عندما أكبر. وسأسبح فيه. لم أخف بابا، ولهذا ربما أن مورغان ولين، كانا يصرخان».

خوف.

«إنما ليس ماما، ماما لم تكن تصرخ. كانت تقول لا تخف يا مورغان. لين لطيفة جدًا، وأمي لطيفة جدًا أيضًا. هذا ما أظنه أخيرًا. مورغان كان خائفًا قليلاً، قليلاً جدًا. هل كان قصده أن يحملني على الضحك؟ ذهبنا لمشاهدة التماثيل، لكن لين لم تستطع المجيء معنا. لهذا كانت تبكي، لقد ظلت في البيت. ليس بيتنا. إنما مزرعة».

بعد لحظة، فهم سولانكا بأنه كان يريد أن يقول: لا أعرف المزيد.

«لقد بقينا هناك، كان هذا رائعًا فعلاً، كانت لي غرفتي الخاصة، وهذا ما سرني.

لدي قوس ونبال. أنا أحبك بابا، هل أنت اليوم قادم إلى البيت؟ السبت؟ الأحد؟ أتمنى ذلك فعلاً إلى اللقاء.

تناولت إيليانور السمّاعة.

«أجل، كان هذا شاقًا. لكن فلورنسا مدينة جميلة جدًا. كيف حالك؟».

بقي ساهمًا لدقيقة.

«حسن، أنا بخير. قال».

«ينبغي عليك ألا تعده بعودتك، إن كنت لن تفعل ذلك. قالت وهي تبحث عن معرفة المزيد.

ـ «ما هي مشكلتك؟» أردفت.

كان هذا كافيًا. فقد أحس بالضيق الذي أوحى به صوتها مثلما أحست هي بالضيق الذي ينم عنه صوته. اضطرب سولانكا مما فهمه لتوه، سولانكا الذي اقترف خطأ نيلا، في التعبير عن حالته.

«أوه، اللعنة تظنين أنك تستطيعين قراءة أفكاري، لكنك غالبًا ما تخطئين. وإذا ما وجدت أن كان لدي ما يقال فسوف أقوله، لا تبحثي عن الهموم».

من فم نيلا جاء الجواب صادقًا: أما من فمه فلم يكن إلا تشدقًا.

بادرت إيليانور إلى رد مضحك فيه شيء من الازدراء.

«تبًا لي؟ لماذا ليس تبًا للساذج الصغير؟ أو لماذا ليس تبًا لهذا المساء السعيد طالما أنك تخلَّلْته؟».

كانت اللهجة جافة، هائجة لا تبشر بالتصالح أبدًا. مورغان ولين (هذى سولانكا). مورغان الذي كلف نفسه عناء الاتصال به كي يلومه على هجر زوجته، التي أعلمت سولانكا بدورها، بأنه أوشك أن يشغل دور الزوج بالنسبة

لها، م م م، مورغان وإيليانور ولين. إنها لهذا كانت تبكي. إن ما جاء به أسمعان لا يترك مجالاً لأي شك. لماذا كانت تبكي يا مورغان يا إيليانور؟ هل الإجابة ستزعجكما؟ هل توضيحكما لي سيعكر صفوكما؟ إيليانور، لماذا كان عشيقك الجديد وزوجته يتشاجران في حضور ابني؟

كان الغضب يبارحه. لكن العالم كله كان يبدو من حوله حاقدًا بشكل لا يحتمل. كانت ميلا تعزِّل إلى مسكن آخر، وإيدي قد استأجر من أجل ذلك شاحنة ڤان غو. كان ينقل أغراض المسكن إليها من الطابق الرابع دون أي تذمر، بينما كانت تنتظر في الطريق وهي تدخن سيجارة، وتشرب الويسكي الإيرلندي من الزجاجة مباشرة وهي تترنح، كان شعرها الضارب إلى الحمرة منتصبًا أكثر من أي وقت مضى؛ حتى رأسها كان يبدو غاضبًا.

«إلام تنظر؟ سألت سولانكا عندما رأته يراقبها من نافذة ورشته في الطابق الثاني، لست أدري ماذا ترجو مني أيها الأستاذ، لكنك لن تنال ذلك. أمعجب؟ قريبًا سأتزوج، وصدقني إنه ليس في مصلحتك أن تثير خطيبي».

على الرغم من أنها أفرغت زجاجة الجيمسون تقريبًا، فقد نزل إلى الشارع كي يحدثها. كانت ستعزِّل إلى بروكلي مع إيدي إلى شقة صغيرة في بارك سلوب.

العناكب فتحوا وكالة هناك. موقع الملوك الدمى لن يلبث أن يصبح معروفًا. الأمور تبشر بالخير. «لا تقلق أيها الأستاذ، قالت ميلا بصوت من ثَقُلَ لسانه. الأمر على ما يرام. إنك أنت من لا أستطيع أن أتحمله».

ظهر إيدي عند أسفل السلم يحمل شاشة حاسوب مصغر بين يديه. عندما رأى سولانكا اتخذ وضعية المهدد التي كان يدبّرها منذ عهد بعيد، زمن وهو ينتظر هذه اللحظة. «إنها لا تود التحدث إليك قال وهو يضع الشاشة من يديه. هل أبلغتُ قصدي؟ عندما تريد أن تراها، تتصل بها في مكتبها، ترسل لها إيميل. وبرأيي إن كانت تقبل ذلك، لا بد أنها قديسة حقيقية كي تقبل التفاوض

معك. أنا لست قديسًا. أنا بحاجة إلى خمس دقائق، ثلاثمائة ثانية أنفرد فيها بك. هذا سيكفيني كي أكون عندئذ مرتاحًا.

أذعن سولانكا بصمت، واستدار على عقبيه.

«لقد أخبرتني عما جرَّبته معها، قال إيدي. فما أنت إلا منحرف عجوز مسكين».

وماذا قالت لك يا إيدي بخصوص ما أرادت أن تمارسه معي؟ أوه كف عن ذلك.

«إيه يا أستاذ».

في ممرٍّ طابقه، صادف السباك شلينغ، أو بالحري كان شلينغ ينتظره وهو يلوح بوثيقة مقهقهًا.

«كل شيء على ما يرام في الشقة؟ ما من مشكلة بالنسبة للحمام؟ أكيد ما يصلحه شلينغ لا يخرب أبدًا. (هز رأسه كمعتوه). ربما لا تتذكر. تابع ألم أكن صادقًا معك؟ لقد سردت لك قصة حياتي كلها مجانًا. وأنت قلت، على سبيل مزاحمؤلم، بأنك ستنتج فيلمًا جديرًا بقصتي الحزينة ألم تكن تفكر بذلك فعلًا؟ لقد قلت هذا، أنا متأكد من ذلك، إنما على سبيل المزاح.

أيها الأستاذ، أيها الأستاذ المتسامح، أيها البراز القذر المسكين».

«ذهل سولانكا للحظة».

أجل، أصر شلينغ. إني أقول ما بذهني. لقد جئت إلى هنا متقصدًا لأقول لك ذلك. أترى أيها الأستاذ. لقد سرت خلف نصيحتك، النصيحة التي أسديتها لي على سبيل مزاح أبله، وإن الله قد جزاني خيرًا. عقد! أنظر، إنه الحبر الأسود على الورق الأبيض. هنا أيضًا اسم الاستيديو. وهنا الشروط المالية. إنها مسرحية كوميدية. هل تتخيل؟ بعد حياة خالية من أي فكاهة، سأضحك الناس. بيللي كريستال في الدور الرئيسي، لقد قبل، إنه يعشق السيناريو

المسرحي. نجاح هائل قريبًا على الشاشات. في الربيع القادم سيتحدثون عنه في كل مكان. إنه الجنون. إنتاج ضخم سترى. إلى اللقاء أيها الأستاذ وشكرًا على العنوان Judik Park المتنزّه اليهودي.

[15]

انتهى الصيف الأحمق في ليلة، بشكل مفاجئ كانحدار سريع في طريق برودوِيْ العام. وهبطت الحرارة كما يهوي ساطور مقصلة؛ ارتفع سعر الدولار سريعًا في كل مكان، في صالات الجمباز، في حرم البورصة، في ملاعب المدينة الكبرى، وفي صالات السينما. كان الناس يتهيأون للفصل الجديد، ويقومون بالإحماء قبل الركض، ويمرّنون أجسامهم وعقولهم، وخزانات ملابسهم ويتّخذون سيماءهم ككواكب متّقدة في السماء.

كانت أشرعة المركب تُنْشَر، وأصبح من غير المجدي للجرذان أن تغزو خزّانات المياه. كانت مباراة محترفين، وسيصبح الفائزون فيها آلهة. لن تكون هناك مرتبة ثانية، الخاسر سيخرج، لن يسكوا ميداليات فضية ولا برونزية، إما ذهبية أو لا. كان الرياضيون يستولون على البحار في هذا الخريف الأولمبي: شاربو دماء السلحفاة الصينية الذين بذلوا جهودًا كبيرة ونكبوا! فم ماريون جون يصدح في مكبر الصوت، وزوج ماريون جون ميخائيل جونسون الذي كان تحليله إيجابيًا بمادة الناندرولون كان يجري بهاتفه وقد حطم الأرقام القياسية. ما كان سولانكا سماه أولمبيات الطلاق كان في أوج نشاطه. ليستر السقيم والزوج الثاني لزوجة سولانكا السابقة سارا لير تشوفيلد مات وهو نائم، قبل جلستهما الأخيرة في المحكمة، إنما ليس قبل أن ينزع حقها في الملكية من وصيته قبل كل شيء. واحتلت التداولات الشرسة بين سارا وعارضة الأزياء البرازيلية الرائعة أوندين ماركس، وأولاده اليافعين الذين استولدهم من زوجاته السابقات، صفحات الصحف الأولى عوضًا عن اغتيالات القاتل بقطعة من الإسمنت. خرجت سارا مزهوة من هذه الأعمال الحربية الشفوية التمهيدية.

لقد صورت نبذات عن مذكرات تشوفيلد، كي تثبت أن المتوفى كان يبغض كل أبنائه قلبيًا، وقد أقسم بأنه لن يترك لهم حتى ثمن تذكرة المرور على جسر تريبوروغ. لقد جنّدت رجال تحرٍّ خاصّين كي تتزّود بمعلومات عن أوندين المستفيدة الوحيدة من وصية تشوفيلد، التي هي موضوع النزاع الشديد. تفاصيل عن الطباع الطائشة والخنثوية لعارضة الأزياء، وعن ذوقها في عمليات التجميل اكتسحت الصحف، «أنا لست من هذا النوع، لكنه هجوم كبير على ما يبدو» علقت سارا بشكل ساخر. ماضي أوندين مدمنة المخدرات، وممثلة الخلاعيات الرديئة القديمة كان أهمها. لا سيما وأن المتحمسين بانكر تونز قد كشفوا عن ارتباطها السري بالسليل المنحدر من مجرم حرب نازي. وكان لهذه الأشياء التي انكشفت كنتيجة، أن جذبت انتباهه إلى «الهجرة» إذ بدوا يتحدثون عن سحب البطاقة الخضراء منه. ما أنا الان إلا جندي مشاة، أما الصديقة سارا، فهي من توجه الكتائب فكَّر سولانكا بشكل لا يخلو من الإعجاب. ما أنا إلا وجه ضمن الحشد، أما هي، فإنها ملكة التلنيش».

كوكب غاليلي. كوم، مشروع الدمى المتحركة الملوك، مشروعه الأخير الطموح، وجد لنفسه حلفاء، العناكب مدّت شباكها ـ بايّور وبسبونسور كانا متلهفين للمشاركة في مشروع مبدع الدمية الأسطورية سرڤليت الجديد هذا. اتفاقيات إنتاج وتوزيع وتتجير هامة مع الممثلين الرئيسيين مارتل، أمازون، وسوني وكولومبيا وجمهورية باناما، قد تمت آنفًا. عالم من اللعب كان قيد الدراسة، ابتداء من الألعاب القماشية ووصولاً إلى الإنسان الآلي، قياس طبيعي مع أصوات ومعارف وأنوار، دون التحدث عن الأقنعة الخاصة من أجل عشية عيد القديسين، (عشية ٣١ تشرين الأول). كانت هناك ألعاب مجتمع، مربكات، وتسعة أنواع من السفن ومحيدو سيرسيبورغ[١]، وتصاميم تمهيدية

(١) المخلوقات الصنعية الموجهة أتوماتيكيًا.

من أجل كوكب غاليلي ـ ١، ومن أجل الشقوق الحقيقية للمجموعة الشمسية. لقد بلغت المشتريات سلفًا من أمازون بالنسبة للمؤلَّف الأساس «ثورة الدمى الحية» المستوى الخيالي لمبيعات الظاهرة سِرْڤليت، لعبة في الإيماء أوشكت أن تطرح للناس، وقد كانت لها دعاوة كبيرة من قبل. وكان لا بد لتشكيلة من منتوجات تحمل علامة غاليلي من أن تعرف في «أسبوع الموضة» هربًا من الخوف من إضراب الممثلين، وكتاب السيناريوات المداهم في الربيع القادم فإن فيلمًا أصبح على وشك الحصول على الضوء الأخضر. وأهم كونسرثيوم في الصين الشعبية قد دعي للمشاركة. كانت ميلا ميلو وبصفتها ممثلة العناكب تعمل أربعًا وعشرين في الأربع والعشرين ساعة بنتائج مذهلة. لكنَّ العلاقات التي كان سولانكا حريصًا عليها معها قد أضحت باردة جدًا. لقد كانت ومن حيث الظاهر، تتجرّع إهانة القطيعة لدرجة أنها لم تكن تظهرها. كانت تُطلِعُ سولانكا على أصغر تطورات الموقع، وتطلب منه أن يحضّر نفسه إلى تلاطم الأمواج الوسيطي. إنما على صعيد العلاقات الإنسانية، فمن الممكن ربما أن تكون هناك أسلاك شائكة وسط مانهاتن بريدج وبروكلين بريدج، مع روايات مزدوجة وثلاثية الرؤوس الراقية لإيدي فورد.

كان سولانكا والعناكب يعملون طوال النهار في انسجام. أما الآخرون فقد ظلّوا غرباء، كان لا مفر من ذلك كما يبدو.

لحسن الحظ فإن نيلا كانت في المدينة، حتى لو كان سبب حضورها مقلقًا وكان يعكرها كثيرًا. فانقلاب عسكري قام به ثمة «سكيرتيش بولغولام»، وهو التاجر الإلبي، من سكان البلد الأصليين، الذي تحطمت سفنه، وصار لذلك يمقت التجار الهنود الليليانيين بعنف يمكن أن نصفه بأنه عنصري ومرتبط علاوة على ذلك بالغيرة المهنية والحقد الشخصي. لا جدوى كانت من هذا الانقلاب وكان هذا واضحًا. لقد كان رئيس البلاد الليبرالي غولباستو حيًا، الذي قضى

بإعطاء الهنود الليليبيين حقوقًا انتخابية وثوابت متساوية قد أجبر على التراجع وعلى العدول عن الدستور الجديد، بعد بضعة أسابيع تقريبًا من سريان مفعوله. في الحال اشتبه بالغوما بحيلة في الأمر، وفي بداية شهر أيلول دخل مقر برلمان العاصمة ميلداندو يرافقه مائتا سوقي مسلح، وأخذوا حوالى خمسين عضوًا برلمانيًا من الهند الليليانية وأعضاء من الوسط السياسي، وأيضًا الرئيس جاي نفسه كرهائن. في الوقت نفسه كانت الميليشيات البولغاميت تهاجم وتعتقل الحكام الهنود الليليانيين الأساسيين. استُولي على أقنية التلفزيون ومحطات الإذاعة وشبكة هاتف البلاد، وحوصرت ميادين الطيران الدولي في بلوفسكي. وعطلت العصابة ابولغولاميتية جهاز الخدمة المعلوماتية الرئيسي، وفجأة صارت الشبكة تعمل جزئيًا. كانوا يجهلون أين كان يعيش صديق نيلا الذي شارك في التظاهرة النيويوركية. وفي حين كانت الأخبار تصل ببطء من ليلليبوت على الرغم من الكمّ البولغلاميتي، فقد عُلِمَ أن بابور لم يكن في عداد الرهائن الذين احتجزوا في البرلمان ولم يكن في السجن. وإذا كان لم يُقتل فإنه يكون قد مضى إلى المقاومة السرية. أكدت نيلا أن هذه الفرضية كانت هي الأكثر احتمالاً. «لو كان ميتًا لكان أخبر عن ذلك الغشاش بولغولام، أنا متأكدة من ذلك» قصة محكمة من أجل تثبيط المعارضة أكثر أيضًا. لم يرها سولانكا إلا قليلاً جدًا خلال الأيام التي تلت الانقلاب. كانت تبذل كل ما بوسعها، غالبًا وسط الليل بسبب الثلاث عشرة ساعة لفارق الزمن، للدخول من خلال الأنترنيت أو الهاتف الملحق مع ما كان يسمى عندئذ حركة المقاومة الفيليبيستانية Le NRV، أو الأمة المتمردة والانتقامية الملقّبين بالساخطين، كانت تبحث بفعالية عن وسيلة للدخول بشكل مخالف للقانون إلى مقاطعة ليلليبوت ـ بلوفسكي عبر أرسترالية أو بروني، يرافقها طاقم تجسير مصغر. أخذ سولانكا يقلق على سلامة نيلا، على السعادة التي عثر عليها مجددًا على الرغم من الأهمية التاريخية للأحداث التي كانت تحتاج إلى كل اهتمامه. فجأة

وقد صار غيورًا من عمل المرأة الشابة، أصبح يكتم تظلمات خيالية ويحدث نفسه بأنه فقد الأولوية بالنسبة لها. كانت زامين ريجيك التي اختلقتها والتي نزلت سرًا على أرض بابوري قد شرعت في البحث عن رجلها (فربما تكون نيلا، مع أن نياتها لم تكن واضحة، تعيد البحث في ليلليبوت عن رجل أي عن قضية. أفلم يكن من الممكن لنيلا وقد صادفت مواطنها الأصلع ذي الجذع الأجرد الذي أعجبت به كثيرًا، أن تكون قد بدأت ترى فعلاً في بابور العضل هذا قضية أكثر جاذبية من قاصٍّ ومبدع ألعاب مقيم في مكانه وشائح؟ ما السبب الذي جعلها تخاطر بنفسها وتدخل إلى ليلليبوت بلوفسكي؟ من أجل فيلم وثائقي؟ آه! إن هذا تلفيق، ذريعة، وبابور هذا، هذه الرغبة التي تفتَّحت بالنسبة لبابور هي الشاهد).

ذات مساء، وفي وقت متأخر جاءت نيلا وتحت إلحاح سولانكا فقط إلى شقته الكائنة في الـ ٧٠٣ شارع الغرب «كنت أعتقد بأنك لن تدعوني إطلاقًا» قالت وهي تضحك بهيئة فرحة متصنِّعة، جاهدة في تبديد غمامة التوتر السوداء التي كانت تزوبع. لم يكن سولانكا يستطيع أن يقول لها الحقيقة: ألا وهي أنه كان معقدًا نفسيًا نتيجة لوجود ميلا قديمًا في المبنى. كانا كلاهما متوتِّرين، ومنهكَيْن يمارسان الحب، قضت النهار وهي تحدِّثه عن حياة الصحافيين على غاليلي مهمة مرهقة كان يقوم فيها بتكلف، موقنًا بأن بلاهة هفوة أخرى ستضاف إلى أقواله من خلال ردود أفعال الناشرين. شاهد سولانكا ونيلا عرض خطاب دافيد لاترمان دون أن ينطقا بكلمة. لم يفصحا عن أي حديث من أجل تدبر الأزمة. كلما كان الصمت يستمر بينهما، كانت الحال تزداد سوءًا، ثم بما أن انحراف المزاج كان ينبثق من رأسيهما مجسدًا، فقد سمعا صرخة ممزَّقة وصوت زجاج يتكسر، ثم صرخة أخرى أكثر نفاذًا، ثم لا شيء خلال وقت بسيط.

نزلا إلى الشارع كي يريا ما كان يجري. كان لبهو مدخل بناية سولانكا باب

داخلي، عادة، لم يكن باستطاعة أحد أن يفتحه إلا بمفتاح، لكنَّ إطاره المعدني كان عندئذ ملويًا، والقفل كان يمتنع عن أن يُفتح.

لم يسبق للباب الخارجي المطل على الشارع أن قفل إطلاقًا. كان هذا مقلقًا حتى في حي مانهاتن الجديد المؤمَّن.

إذا ما كان الخطر موجودًا في الشارع، فسوف يكون من الممكن له من الناحية النظرية أن يتسرب إلى الداخل، لكن الطريق كان هادئًا مقفرًا، مما يدعو إلى الظن بأن أحدًا آخر لم يكن قد سمع. على الرغم من الانقصاف الهائل، فإن شيئًا على الإطلاق لم يكن يوجد على الرصيف، لا أصيص ورد، ولا مزهرية متكسرة، فتش سولانكا ونيلا في الطريق وقد تملكتهما الحيرة، كان هذا كما لو كانا فوجئا بمشادة بين أشباح. كانت النافذة المفصلية لشقة ميلا مفتوحة على مصراعيها، وعندما رفعا عينيهما شاهدا ظل رسم رجل ارتسم عليها ثم أغلقت النافذة وأطفئت الأنوار.

«لا بدَّ أنه هو. كان هذا كما لو كان شيئًا لا مفر منه في المرة الأولى، إنما ليس في الثانية» والضجيج؟ سأل سولانكا. اكتفت هي بأن هزت رأسها، عادت، وأرادت أن تتصل بالبوليس.

«ولو أنهم اغتالوني وجيراني لم يحركوا ساكنًا، أفلن أكون أنا المخدوعة على الأرجح، وليس أنت؟».

رجلا شرطة جاءا يريانها عقب ساعة، أخذا إفادتهما، ثم انصرفا ليتحريا، ولم يعودا.

«أحسب، أنهما لن يعودا كي يقولا لنا ما الذي جرى، قالت نيلا متذمرة. لا بد لهما أن يشكَّ بأننا مريضا قلق في هذه الساعة من الليل».

أفلت سولانكا العنان لغيظه.

بكل بساطة أظن أنهما لم يفهما أن من واجبهما أن يعيدا إليك، أنتِ تقريرهما، قال، دون أن يعنى بتلطيف نبرة صوته الجافة.

انقضت عليه حالاً في عدائية مماثلة.

«ما هي مشكلتك؟ سألت، حسبي أني أتصرف كما لو أن من أمامي ليس عجوزًا مدمدمًا». لقد عاد هذا من جديد، الحزن الإنساني اللولبي للاعتراض وللإجابة، اللعبة القديمة للملامات القاتلة: أنت قلت لا، لا إنك أنت، دعني أقل بأني لست سئمة فحسب، بل لم تعد لدي طاقة على الاحتمال، لأنك تطلب الكثير الكثير، وتعطي القليل القليل، آه، الأمر كذلك، حسن دعني أقل لك، بأنني لو استطعت أن أعطيك كل ما احتوى فورت كنوكس لما كان له أن يكفيك. ما يعني، من الممكن أن نعرف، أنت تعرف تمامًا ما يعنيه هذا. أوه، جيد جدًا، أو، أظن أن هذا واضح جدًا اتفقنا، وإن كان هذا ما تريده أنت، فماذا أكون أريد أنا؟ هذا ما ترغمني أنت على قوله، هذا ما تموت أو رغبة في قوله، تبًا، كف عن التكلم بدلاً عني. كان عليَّ أن أخمن ذلك. لا أنا من كان لا بد لها من أن تحترس حسن، الآن كل منا يعرف ذلك، طبعًا. إذن جيد جدًا.

في ذات اللحظة التي كانا يتجابهان فيها كمصارعين مدمنين، يكيلان لبعضهما اللَّكمات التي قريبًا ربما ستطرح حبهما الملتهب أرضًا، تراءت لدى سولانكا رؤية أوقفت سوط ردِّه السريع، طائر ضخم أسود حطَّ على سطح المبنى، وأرخى بظلِّ أجنحته الواسع على الطريق، إنه الغضب ـ هلوس ـ إحدى الأخوات الثلاث جاءت تبحث عني ـ ما سمعناه ليس صرخات غضب: إنه نداء الغضب. الضجيج الذي سُمِعَ من الطريق ـ هذا الانفجار كما لو أن قطعة من الإسمنت قد رميت بقوَّة خارقة من علوٍّ شاهق ـ لم يكن عبارة عن تكسر مزهرية وقعت، إنه ضجيج الحياة التي تتكسر. من كان يعلم ما الذي كان من الممكن له أن يحصل. أو على أي شيء كان من الممكن له أن يقدر، لو أن نيلا التي كانت تنتعل حذاء بكعبين عاليين وتزيده طولاً بكل رأسها، بهيئتها الملكية الألوهية، وقد جزَّت شعرها الطويل المفضّض لم تنتصب أمامه، ولو أنها لم تكن تمتلك ذلك الذكاء الذي جعلها ترى الغضب يستولي على وجهه الرَّقيق والمستدير

كوجه ولد صغير، والخوف العميق يرتعش عند ملتقى شفتيه، لو أنها لم تجد الجرأة الملهمة، والوعي العاطفي الخالص لتحطيم آخر محرَّم كان ينتصب بينهما، الإسراع بكل شجاعة حبها إلى أرض مجهلة لتثبت أن حبَّهما كان دون شك أقوى من الغضب، وهي تمدُّ ذراعًا ملأى بالندبات، وتبدأ بعزم سامٍ، وللمرة الأولى في حياتها، في تشعيث شعرها الفضي الغزير الذي يتهدّل من قمّة رأسها لقد فسد السحر. قهقه ضاحكًا. غراب أسود بسط جناحيه وحلق فوق المدينة كي يسقط صريعًا في ما بعد قرب تمثال بوث في غرامِرسي بارك. فهم سولانكا أنّه قد تحرّر وأنّه أبلَّ من حالته الغريبة. لقد فرّت إلهة الغضب. وبَطُلَ سلطانها عليه. لقد طُهِّر من قدر كبير من السُّم الذي كان يجري في عروقه، وأعتق من كان يمكث حتى اللحظة حبيسًا. «سأروي لك قصة».

أمسكت نيلا بيده، وأخذته ليجلس على الكنبة.

«تلكم أرجوك، لكن أظنني أعرفها من قبل».

في آخر فيلم سولاري لتاركوفسكي، قصة الكوكب الذي غُمر بالمياه والذي كان يعمل كدماغ هائل يستطيع قراءة أفكار البشر وتحقيق أحلامهم، يعود البطل رائد الفضاء أخيرًا إلى بيته؛ وها هو ذا على شرفة بيته الريفي الروسي مع أطفاله الذين يركضون حوله بحبور، وبقربه زوجته الجميلة التي توفيت حديثًا. بما أن الكاميرات كانت ترجع إلى الخلف؛ إلى ما لا نهاية، فقد رأينا أن المسكن الريفي يقع في جزيرة صغيرة جدًا، وسط محيط سولاري المترامي الأطراف: هذا وهم، أو ربّما إنه حقيقة أعمق من كل حقيقة. كانت الجزيرة تصغر وتتناهى في الصغر إلى أن اختفت فوجدنا أنفسنا أمام طيف الذكرى والتخيل والحلم لذاك المحيط الهائل والجذاب، حيث لا شيء فيه يموت، حيث كل ما يشتهيه المرء ينتظره دائمًا في شرفة، أو يهرع للقائه عبر سهول نضرة تخرج منها صرخات الأطفال بأذرعهم المبسوطة.

تكلم. أنا أعرف من قبل. لقد خمّنت نيلا بحكمة قلبها، لماذا لم يكن

الماضي مصدر فرح بالنسبة إلى سولانكا وعندما رأى سولاري فإنه قد عثر على المشهد الأخير المريع. لقد عرف في هذا الرجل إنسانًا عاش في وهم الأبوَّة، وقد أوقع في شرك الضلال من ناحية طبيعة هذا الحب، كان يعرف أيضًا طفلاً مشابهًا، يركض نحو والده الذي كان يمثل له دور الأب، لكنّ هذا الدور كان كذبة، كذبة، لم يكن لديه أب. وذاك المسكين لم يكن لديه ما يشبع الفرح، الطفل لم يكن فرِحًا. كل شيء كان خدعة.

أجل، كانت بومباي تعاوده عنوةً. وسولانكا كان يحيا فيها. لقد عاش لفترة من الزمن، على الأقل في القسم الوحيد الذي أثر عليه من المدينة، الجزء الصغير من الماضي، والذي كان من الممكن لألف جحيم أن ينبثق منه، لعينه Yaknapatawpha، مقيته Malgudi الذي قد قدره والذي محا ذكراه منذ سنين. حي مِتُورلْدز إستات: كان هذا كافيًا لإشباع حاجاته بسعة، لا سيما في شقة من بناية تورفيل، حيث ترى فيها كفتاة لزمن طويل.

لم يكن يستطيع أن يجابه تاريخه بشكل مباشر، أو يدنو منه إلاّ بطريقة ملتوية، وهو يتحدث عن جهنّميات[1] كانت تعرش على الشرفات، كسارق رسمه آرسيغولدو، أو كزوج أمٍّ يقف عند وسادتك ليلاً. لقد وصف الغربان التي كانت تحط ناعبة على حافة نافذته كعرّافين يحملون له نذير شؤم. لو كان واثقًا من قدرته على فهم إنذاراتها، لو لم يكن بليدًا جدًا، لو كان فقط يستطيع أن يركز تفكيره أكثر حينئذ، أجل، لكان استطاع الهرب من منزله قبل أن يحصل أي شيء كان. هنا كانت غلطته الخاصة التي أخفقت في جعل هذا الشيء البسيط جدًا، مفهومًا. لغة الطيور. لقد تحدث عن أفضل أصدقائه، صديقه الذي غادر والده مسكنه وهو ابن عشرة أعوام. ومليك يذهب إلى غرفة شاندرا فانكاتا راغفان ويسأل الولد اليائس:

---

(١) «جنبات معترشة من فصيلة الشبيّات».

قل لي كم تتألم، كان يتضرّع إليه مليك، إن بي حاجة لأن أعرف إذا ما كان لألمي أن يكون بقدر ألمك تمامًا. كان والد مليك الحقيقي قد اختفى مذ كان له من العمر أقل من عام؛ أمه الشابة والجميلة مليكة، أحرقت كل صوره، وتزوجت في السنة نفسها، وحملت اسم زوجها الثاني بكل سرور، اسم زوجها الذي أورثته أيضًا إلى مليك، مليك الذي غشته في ماضيه مثلما خدعته في مشاعرها.

لقد غادر والده وهو يجهل اسمه الذي هو اسم مليك حتى. ولو أن الأمر كان يعود إلى أم مليك وحدها لكان من المتعذر على مليك أن يعرف شيئًا عن وجود والده، لكن زوج أمه حدثه عن ذلك عندما أصبح راشدًا. زوج أمه، من كان يريد أن يبرئ نفسه من جنحة ارتكاب المحارم. مما هو غيض من فيض. أية مهنة كان يمتهن والده؟ مليك لا يعرف ذلك إطلاقًا. هل كان بدينًا؟ نحيلاً؟ طويلاً أم قصيرًا؟ هل كان شعره مسترسلاً أم أجعد؟ لم يكن يستطيع أن يرسم صورته إلا في المرآة، لعله يفكّك اللغز عندما يكبر، ولعل الوجه الذي يظهر في المرآة يجيب عن انتظاره الطويل.

«نحن الآن آل سولانكا، قالت له أمه معنّفة، لا أهمية لذلك الشخص الذي لم يكن وليس له وجود اليوم. والدك الحقيقي هو من يطعمك ويكسوك. قبِّل قدميه وأطِعْهُ». كان الدكتور سولانكا زوج أمه الثاني مستشارًا في مشفى ريش كاندي ومؤلف موسيقى موهوب خلال أوقات فراغه، وكان في الواقع يغدق على أسرته في معاشها. فجأة اكتشف سولانكا أن زوج أمه صار يأمل منه أن يقبل أكثر من قدميه. عندما بلغ مليك سن السادسة، اكتشفت مليكة ـ التي لم ترزق بولد آخر غيره، بما أن زوجها قد حمل معه في فراره سر العقم ـ بأنها غير صالحة للإنجاب، كي تبدأ عذابات الطفل. ألبسيه فساتين. أطيلي له شعره، وسيصبح ابنتنا مثلما هو ابننا ـ لكن يا زوجي، هذا غير ممكن، أقصد أليس في هذا إثم؟ بالطبع لا، لماذا؟ في حرم مسكن الزوجية يكون كل ما يسنه

رب العائلة مقبولاً عند الله. آه يا أمي الضعيفة. وضعت لي الشرائط، وألبستني الفساتين. عندما أقنعك ذلك الوغد بأن الرياضة اليومية ستكون مفيدة لبنيتك الهشة، أنت المصابة بالربو، والتي لا ينبغي لها أن تتعرض للفحات البرد، عندما كان يرسلك إلى هناك في نزهات طويلة إلى الحدائق المعلقة أو إلى ميدان خيل ماهانلاكسمي، لم تتساءلي لماذا لم يكن يرافقك؛ لماذا كان يلح على الاعتناء وحده بابنته الصغيرة؟ آه يا أمي المسكينة المتوفاة التي غدرت بطفلك الوحيد. بعد عام مضى على هذا المنوال استجمع مليك كل شجاعته كي يطرح السؤال الفظيع. ماما. لماذا يضغط الدكتور صهيب على رأسي؟ ماذا يعني هذا؟

ماما عندما يكون أمامي يضغط على رأسي كي أركع، عندما يحل بيجامته، عندما يتركها تسقط. لقد أوسعته حينئذ ضربًا وبعنف. حذار أن تتفوه بهذه الافتراءات الرهيبة. وإلا لأضربنك حتى تصبح أبكم وأصم. أنت لا تريد لأمك أن تكون سعيدة، أنت إذن من يروي هذه الأكاذيب. لا تحسبني أجهلها، فالشرانية في قلبك، بماذا تريدني أن أشعر عندما تقول كل نساء المدينة يا لخيال ابنك مليك، إطرحي عليه سؤالاً وستعرفين عندئذ بم سيجيب؟ أو عرفت، ما يعني هذا: هذا يعني أنك تروي أكاذيب غليظة في كل المدينة، وأن ابني كذّاب. قذر.

بعد ذلك أصبح أبكم وأصم. بعد ذلك أصبح، عندما كانت الضغطات على رأسه الذي ربطت فيه الشرائط تعاوده، يخرّ بعبودية على ركبتيه، ويغمض عينيه ويفتح فمه، لكن الأمور تغيرت بعد أن مضت على ذلك شهور طوال.

استقبل الدكتور سولانكا السيد باللاسور براماياّنا فانكا تاراغڤان، الصيرفي الكبير، ومكثا في جلسة مغلقة استمرت أكثر من ساعة، تخللتها أصوات مرتفعة، ثم همسات. استدعيت مليكة ثم صرفت. مكث مليك في الطرف الآخر من الممر يحملق بعينيه المنذهلتين، وهو يضم لعبة بين ذراعيه بصمت.

أخيرًا انصرف السيد فانكا، ولم تتوقف العاصفة المشخصة إلا لتأخذ مليكًا بين ذراعيها ولتهمس له في أذنه، وهو متضرِّج الوجه:

«لا تبال أبدًا، يا ولدي، والغراب أجاب: أبدًا بعد الآن».

(لقد توجب على الطفل أن يرتدي بنطالاً قصيرًا وقميصًا أبيض أثناء زيارة فانكا).

في عصر اليوم نفسه حُمِلَت الفساتين وأُحرقت، أما مليك طلب الاحتفاظ بدُماه، ولم يعد الدكتور سولانكا يضع إصبعه عليه، كان تهديد السيد فانكا فعالاً، كائنًا ما كان ذلك التهديد.

(عندما غادر بالاسور براماڤانا فانكا تاراغڤان منزله كي يصبح سانيازي، استبد بمليك، الذي بلغ العاشرة من عمره خوف شديد من أن يعود زوج أمه إلى عاداته القديمة، لكن الدكتور سولانكا فهم الدرس جيدًا على ما يبدو.» مع ذلك فإن مليكًا امتنع عن توجيه أي حديث على الإطلاق إلى زوج أمه).

اعتبارًا من ذلك اليوم، أصبحت أم مليك تتصرف بشكل مغاير تقدم لابنها أعذارًا وهي باكية ومستبكية. وكان لا يكاد يكلمها حتى كانت تخرج من صدرها زفرة همٍّ آثم. كان هذا ينفِّر مليكًا، لقد كان بحاجة إلى أمٍّ وليس إلى حاضنة.

«أرجوك أمي، كان يعنّفها وهي تتداعى في أحد عناقاتها المتباكية. إذا ما كنت أنا أستطيع أن أسيطر على نفسي، فإنك أنت إذن تستطيعين ذلك».

عفت عنه وهي مجروحة، ولم تعد تبكي بعد ذلك إلا في لحظات خلوتها مع نفسها، عندما تضع رأسها على الوسادة. والحياة عادت ظاهريًا إلى مجراها الطبيعي، كان الدكتور سولانكا يزاول عمله، مليكة تدير أمور البيت، ومليك يحتفظ بأفكاره لنفسه، لا يسر بما بجيش في خاطره إلا لألعابه التي لملمها حول سريره، وبصوت خافت وسط الليل، دُماه ملائكته الحرَّاس، أخواته القريبات منه قرابة عصب، الأسرة الوحيدة التي يمكن أن يضع ثقته بها.

«التالي لا أهميَّة له قال بعد أن أنهى اعترافه. التتمّة عادية ـ عشتُ معهما، كبرت معهما، وابتعدت عنهما، لأعيش حياتي الخاصة».

«ليس لديّ ما يدعوني إلى جرجرتهما إلى كل مكان» أضاف وهو نفسه مندهش. لقد خلّص نفسه من عبء ثقيل.

«أحاطته نيلا بذراعيها».

«الآن، إنني أنا من يقتادك سجينًا ـ قالت ـ إني أنا من تطلب منك الذهاب من هنا. بالقيام بذلك. لكن في هذا ما نريده نحن الاثنان هذه المرة، وإنك أخيرًا حرٌّ في هذا السجن».

تمدد قبالتها، حتى وهو يعرف بأن سورًا آخر ما زال عليه أن يعبره: سور الكشف المطلق، عن الحقيقة الكلية الشرسة، والتي فيما وراءها تقبع العلاقات الغريبة التي كانت له مع ميلا ميلو، لكنّ هذا قد تم بطريقة مأسوية، لقد كان هذا من أجل يوم آخر.

في كل مكان من الأرض، في إنجلترا، في الهند في ليلليبوت البعيدة كانت فكرة النجاح الأميركي تستحوذ على الناس، كانت نيلا نجمة بلدها، فقط لأنها وجدت مركزًا مهمًا «ـ لأنها قد نجحت ـ» في وسائل الإعلام الأميركية. في الهند، استمد الناس كثيرًا من الاعتزاز، من النجاحات التي فاز فيها بالغلبة الهنود المقيمون في الولايات المتحدة، في جمال الموسيقى والنشر (وليس في مجال الأدب) في وادي السيليكون وهوليوود. كانت مستويات الهستيرية الإنجليزية لا تزال مرتفعة، صحافيون بريطانيون يجدون عملاً في الولايات المتحدة! شيء لا يصدق! ممثل إنجليزي يلعب الدور الثاني في فيلم أميركي عجبًا يا للنجم الخارق الممثل الإنجليزي المهرج المتنكر بلباس النساء يفوز بجائزتي إيمي الاثنتين. مذهل كانوا يعرفون أن التنكر الإنجليزي متفوق النجاح في أميركا أضحى هو الشاهد الوحيد لقيمتك. يا للركوع. فكَّر سولانكا. ما من إنسان هناك بعد يستطيع أن يقاوم المال في أيامنا، وكل المال كان هنا، في الأرض الموعودة.

هكذا أفكار كانت في محلها، لأنه في خمسين عامًا مضت كان يختبر النفوذ الذي لا يضاهى للنجاح الأميركي، قوة كانت تعمل على تفجير كل أبواب المدينة، تنتزع كل أسرارها، وتدعوكم كي تولم لكم حتى التخمة وما وراءها. إن تقديم غاليلي كمغامرة لترابطية العلوم طرح لا سابق له، وكان قد اتخذ أبعادًا بيمجرية، وهذا منذ اليوم الأول. لقد أمسى ذلك الحدث السعيد: خرافة ضرورية. بلوزات تي شيرت بالنقش الذي نُقش عليها/ البقاء للأجدر/ كانت تزيِّن أجمل صدور المدينة، شعار فوزوي لهذا الجيل الذي ينتعل خفّافات الرياضة والذي صار جحفلاً بين عشية وضحاها. كما أنهم كانوا يرتدونها على البطون الأكثر انتفاخًا، كدليل على الذوق الراقي في التعبير الساخر لظرف هؤلاء الذين يرتدونها، والطلب على لعبة الفيديو، أو لنقل على الأبحاث العلمية من شكبة الحاسوب، ارتفعت بسرعة كبيرة متحدية كل التكهنات. لقد تركت لارا كرافت حتى تقتفي أثرها. في أوج ظاهرة حرب النجوم، كانت المنتوجات المشتقة من هذه السلسلة وراء ربع الرقم العالمي لمؤسسات صناعة اللعبة: وحدها الظاهرة سِرْڤليت من اقتربت من هذه النتائج، وقد نالت الترتيب الثاني بعدها. الآن، أصبحت الساغا غاليلي تضرب أرقامًا قياسية جديدة، وفي هذه المرة، لم تكن الأفلام والتلفزيون من يغذي الجنون العالمي، بل موقع Web. لقد بدت وسيلة الإعلام الجديدة هذه مثمرة أخيرًا. بعد صيف من الارتيابية تجاه ما يخص قدرة عدد من مواقع الأنترنت الكثيرة، القليلة المردود بصراحة، ها هو ذا العالم الأفضل بين العوالم والذي كانوا قد تنبأوا به يفرض نفسه أخيرًا غول البروفسور سولانكا الجذاب، الذي كانت ساعة أجله قد حانت أخيرًا، وأخذ يجرّ نفسه نحو بثلييم Bethléem كي يبرزوا إلى الوجود من جديد (كانت هناك مشكلات فعلاً: في الأيام الأولى، كان الموقع مستمرًا في إشباع رواده الذين كانوا في تزايد مستمر يفوق طاقة العناكب على توسيع مجالها من خلال إعادة الإنتاج، والإرسال المزدوج وجد خطوطًا جديدة للشبكة المتألقة).

مرّة أخرى، تخرج شخصيات سولانكا الخيالية من أقفاصها وتنزل إلى الشارع، إلى العالم قاطبة، كانت الأخبار تصل عن عروضها التي أصبحت هائلة، وتشغل عدّة طوابق على جدران المدن، كانت تظهر أمام الملأ، وتنشد النشيد الوطني في الملاعب، وتصدر كتبًا ناجحة جدًا، وتظهر في برامج دافيد ليترمان. ممثلات العصر الشابّات المرموقات، كنّ يتعاركن كي يحظين بدور زامين ريجيك، وصنوتها إلهة النصر سيبورغ. وفي هذه المرّة بالذات فإن سولانكا لم يكن يعاني أبدًا من حرمانه حقه من سِرْڤليت، لأنها صارت فعلاً وكما وعدته ميلا ميلو بذلك «تاجه»، كان مذهولاً بتحريضها. واجتماعات عمل كانت تشغل نهاراته، والذراع الحديد المتصلة بالعناكب بواسطة الإيميل قد سُحِبَتْ. ولقاءات حقيقية أصبحت أساسية، الغضب المستمر، بل المتعاظم لدى ميلا ميلو المستبعدة جنسيًا، والمهووسة بوالدها كان الذّبابة الوحيدة في مربب قارون هذا. كان إيدي وميلا يحضران الاجتماعات، بوجوه منكمشة ويخرجان دون أن يوجّها كلمة وديّة إلى سولانكا، لكنّ شعر ميلا وعينيها كانوا يقولون الكثير.

غالبًا ما كانا يصفَرّان، ثم يحترقان كشمعة في النهار ويصبحان سوداوين كالليل في نهار الغد. كانت عدسات النظر متنافرة بفظاظة مع الشعر مفسحة المجال للظنّ بأن ميلا كانت على مزاج لا يحتمل في ذلك اليوم بالذات. لم يكن لدى سولانكا متسعٌ من الوقت يضيعه مع المعضلة ميلا، كان شركاء مشروع غاليلي يطفحون بأفكار عن التنوع: مجموعة مطاعم، متنزه راق، فندق هائل في لاس فيغاس، مركز استجمام وملهى على طراز جزيرتي بابوري اللتين سيجعلونهما وسط محيط مبتكر اصطناعيًا وسط الصحراء! كان تنفيذ المقترحات التي تحاصرهم صعبًا البرهنة على عبارة كسرية تامة بواسطة الـ P. وكان العناكب يبدعون ويتلقّون مشاريع جديدة كل يوم تقريبًا، ومليك سولانكا كان مستغرقًا في نشوة العمل وسورته.

تدخل الدمى الحية القادمة من الكوكب الخيالي غاليلة ـ ١ في الشؤون العامة لكوكب الأرض الحقيقي لم يكن قد أخذ في الحسبان وكانت نيلا من أخبرت سولانكا بذلك. لقد جاءت إلى شقّتها في شارع ٧٠ الغربي، في حالة من الاستثارة الشديدة. كانت عيناها تلمعان، وأخبرته بأن انقلابًا عسكريًّا حصل في ليلليبوت. لقد بدأ هذا كنوع من السطو: رجال مقنعون انقضُّوا على أكبر مخزن للألعاب في ميداندو ونهبوا سيبورغ كرونوسيّة مستوردة حديثًا. شيء مهم. نظرًا لاسم صاحبها حامل الراية والأمراط ـ أيّ قناع بابوري لم يُنْشَل.

الراديكاليون من .N.R.U «الساخطون» المتمرّدون الهنود الليليانيّون الذين نسّقوا الغارة، كما انكشف ذلك لاحقًا، قد تماثلوا تمامًا مع الدمى المتحرّكة الملوك الذين سُلبوا حقّهم الذي لا يجوز التصرّف فيه، بأن يكونوا متساوين ـ ككائنات أدبية واعية ـ سلبه موغول البابوري، عدوهم اللدود الذي اتهموا لولغرلام بأنه نسخة منه.

حتى الآن، كان النبأ يبدو مثيرًا للإعجاب، انزياغ فلكي غريب لا أهمية له، أقصي إلى الهادي الجنوبي، ونحّي، في الواقع بشكل مريح. إنّما لم يكن من السهل تجاهل ما حصل إثر ذلك أيضًا. آلاف من الثائرين الفيليبيسانيين المدربين جيدًا، جاؤوا ليطلقوا هجمات مسلّحة ومتصلة على المباني الرئيسية في ليلليبوت بلوفسكي، مباغتين الجيش الإلبي المتواضع ومشتبكين مع البولغولاميت، الذين كانوا يحتلون مقر البرلمان، ومحطات الإذاعة والتلفزيون والمرفأ، ومجمّعات الهاتف، ومكاتب شبكة الإنترنت المعلوماتية «لليلليكون»، دون أن يغفلوا المطار والميناء البحري، معركة عنيفة ومستمرة، كان الجنود المشاة يعتمرون القبّعات، وواقيات الوجوه، والأوشحة كي يخفوا وجوههم. لكنّ بعض الضباط كانوا يرتدون ثيابًا باذخة، وكانت سيبورغ آكاز كرونوس تدير فهم سولانكا، ما لم يكن إلاّ «ثورة الدّمى الحية الثالثة». لقد شوهد مبدعون كثر مع زامينات يديرون العمليات بثقة.

«البقاء للأجدر». قال الساخطون وهم يملأون مواقع البولغولاميت. في نهاية نهار دامٍ، أحرز الـ NRV الانتصار. لكنّ الثمن كان باهظًا: مئات القتلى، مئات الجرحى، منهم من كانت جراحهم خطيرة ومنهم من صنّفوا «جرحى معافون» واجهت الفرق الطبية صعوبات كثيرة وهي تقوم بالعناية بالجرحى بالسرعة التي كانت تتطلبها جراحهم. بعضهم قضوا وهم ينتظرون دورهم في المعالجة، صرخات كانت تردد صداها ممرّات مشافي الأمة الصغيرة.

وبينما كانت ليلليبوت بلوفسكي تعيد اتصالها بالعالم الخارجي، اتضح أن الرئيس غولباستو ـ جي إضافة إلى زعيم الانقلاب العسكري المخلوع الأصلي وبولغولام قد سجنا. زعيم ثورة NRV الذي ارتدى بدلة كرونوس/ المبدع، وجعلهم ينادونه «القائد آكاز» ظهر بشكل خاطف على التلفزيون الليلليبي بلوفسكي كي ينبئ بنجاح العملية، ويخلّد الشهداء، وليعلن أصحاب المقابض القويّة «بأن الأجدر قد كتب لهم الخلود» ثم بيّن شروطه من أجل إعادة الدستور الذي قدحه غولباستو إلى أصله وتجديد الدّعوى على عصابة أشرار بولغولام بوصفها خيانة كبرى يعاقب عليها القانون الإلبي بالموت، مع أن ذاكرة الإنسان لا تعي إطلاقًا بأنه سبق لهكذا قانون أن طبّق أو كان تنفيذه مرغوبًا في حالة كهذه. لقد أكّد إثر ذلك بأنه هو «آكاز قائد الساخطين» يطالب بحقه في أن يستشار في تشكيل حكومة ليلليبي بلوفسكي الجديدة، وقدّم مرشحيه إلى هذه الهيئة الإدارية. لم يطالب بأي منصب من أجل نفسه، تواضع مزيّف لا يغرّنّ أحدًا. لقد أثبت بيل زاكيري في بومباي، وجورج هِيدَرْ في النمسا بوضوح بأن لا حاجة للإنسان لأن يشغل وظيفة حكومية كي يحكم البلاد. لقد تظاهر بأنه زعيم ناطق باسم حزب موثوق به، وريما تُنَفَّذ شروطه، خلص إلى القول القائد «آكاز»، فإنه سوف يدعو الرئيس الموقر والخائن بولغولام للإقامة في مبنى البرلمان «بصفتهما مدعوين شخصيّين».

كان سولانكا مضطربًا، إنها المشكلة مرة أخرى، المشكلة القديمة للغاية وللوسائل، «فالقائد أكاز» لم يمنحه الانطباع بأنه كان خادم قضية عادلة، مع أن

مانديللا وغاندي لم يكونا النموذجين الوحيدين اللذين تبادرا إلى أذهان الثوار، فإن إبطال الاستراتجيات الشرسة كان واجبًا، لكن نيلا كانت تبدو متحمسة.

«مما لا يعقل، أن لا يتطابق هذا مع خلق هندي ليلياني: أناس مشبعون بالروح الحربية، مهذبون، يسعون إلى الدفاع عن أنفسهم بدلاً من أن يتباكوا ويلووا أذرع بعضهم بعضًا، أفلا ترى أنه قام بمعجزة حقيقية؟».

لقد أفصحت عن أنها كانت ستسافر إلى ميلداند وغدًا صباحًا.

«اغتبطي من أجلي، هذا الانقلاب العسكري سيجعل من فيلمي شيئًا مثيرًا للغريزة الجنسية بشكل رهيب. لم يكفَّ الهاتف عن الرنين طوال النهار».

مليك سولانكا الذي كان يحس بأنه على واحدة من قمم وجوده، ومن تولّد لديه الإحساس بأنه عملاق بين أقزام، منيع لا يطال، شعر فجأة بأصابع صغيرة تشدُّ ثيابه، كما لو أن عشيرة من العفاريت الصغار كانت مصرة على جره إلى مهاوي جهنّم.

«إنه هو، أنت تعلم، أضافت نيلا أقصد «القائد آكاز». لقد تفحصته في الشريط، لا شك في ذلك، هذا الجسم: أستطيع أن أتعرف عليه من بين ألف، إنه شخصية مهمة فعلاً».

إن السرعة التي تسير فيها الحياة المعاصرة، فكر مليك سولانكا، تفوق قدرة القلب على الاستجابة. موت جاك، حب نيلا، اندحار جنيات الجحيم، تمساح أسمعان، كآبة إيليانور، ألم ميلا، فوزوية السباك شلينغ المستعلية، نهاية الفصل الحار، الانقلات البولغولامي العسكري، ليلليبوت بلوفشكي، الغيرة التي اعتملها سولانكا تجاه الزعيم الراديكالي للـ NRV بابور، مشاجرته مع نيلا، الصراخ وسط الليل، «الاعتراف» بما يخصُّ ماضيه، التطورات الفائقة السرعة لمشروع غاليلي ـ الدمى المتحركة ونجاحه الهائل، انقلاب «الزعيم آكاز» العسكري المعاكس، سفر نيلا المفاجئ. هكذا تسارع في المدِّ الزمني كان قائلاً بحيث إنه صار لذلك مضحكًا. نيلا من ناحيتها، لم تكن تشعر بذلك البتة،

كونها وليدة السرعة والحركة، وطفله عصر مرتجف، كانت تعتبر التواتر الحالي للتغيير أمرًا طبيعيًا.

«إنك تبدو عجوزًا جدًا عندما تتكلم هكذا، كفَّ عن ذلك وتعال إلى هنا فورًا».

استمرًا في مرحهما حتى العنف. ما من مشكلة أبدًا في خفة عصرية فاحشة متأخرة، فلا تزال هناك مجالات يتنشق فيها الشبان التأخر، كما يبدو.

غرق في نوم دون حلم، لكنه أفاق بعد ساعتين، من كابوس، كانت نيلا لا تزال بجانبه لقد قبلت أن تنام عند سولانكا. على الرغم من أنها كانت لا تزال تستهجن أن تفيق وهي بقربه في السرير. شرط كان يخضع إليه دون تصعُّب ـ إنما كان هناك غريب في الغرفة، أجل كان هناك رجل طويل، رجل طويل جدًا قرب حافة سرير سولانكا، كان يلوِّح ـ أوه، بالمرآة، سخط سولانكا الأسود ـ بسكين مقيت. لدى استيقاظه فعلاً، انتصب سولانكا في سريره بنهزة، حيَّاه الدخيل وهو يلوح بشفرة السكين على غير هدى باتجاهه. «أيها الأستاذ، قال إيدي بشيء من الغنج. لحسن الحظ أنك واحد منا هذا المساء». قبل بضع سنوات من الآن، سبق لسولانكا أن تعرض لتهديد بالسلاح الأبيض من قبل شاب أسود. كان قد انبثق له من حسور[1] غطاء.

كان يريد استخدام كشك الهاتف الذي دخله مليك لتوه.

«يجب أن أتصل بشابة صاحبة. وضَّح الشاب. إني مضطر لذلك، هل تفهم؟».

عندما أخبره سولانكا بأن مكالمته كانت مهمة أيضًا بالنسبة له. ثارت ثائرة الشاب. «سأسيل دمك أيها الحقير. ولا أجد ضيرًا في النزال».

ضبط سولانكا نفسه بقدر ما استطاع. كان من الضروري له ألا يبدو مذعورًا جدًا ولا مطمئنًا جدًا. دقّة متناهية. بذل كل ما بوسعه أيضًا كي يتكلم بلهجة المساوم. «سيكون هذا مؤسفًا بالنسبة لي، كما هو مؤسف بالنسبة لك».

---

(١) ما يمكن رفع غطاء عنه كالسيارات مثلاً.

تحدَّى كل منهما الآخر بنظرة، ثم أسعف سولانكا ذكاؤه بالتراجع عن موقفه. «هيا، أفسح أيها الحشرة، مفهوم؟» قال معاونه الذي ذهب ليجري اتصاله. «إيه يا حلوتي، إنسي ذلك. دعيني أرك ما لم يعرفه هذا الرجل في حياته». وأخذ يدندن في المجمعة الهاتفية بكلمات كان سولانكا يفهمها، كلمات أغنية لبروس سبرينغستين:

«قل لي يا بني، هل والدك في المنزل، هل ذهب وتركك وحيدًا تمامًا، أو هو، لديّ رغبة سيئة، بل وإني أحترق».

ابتعد سولانكا سريعًا، انعطف عند زاوية الشارع، وأسند ظهره على جدار وهو مرتعد الأوصال.

ها هو ذا يبدأ من جديد، لكنه في هذه المرة كان مع سابق عمد، تصرفات متّزنة، وصوت رصين كانت تهدّد بأنها غير كافية. في هذه المرة، هناك امرأة تنام بجانبه في السرير، كان إيدي فورد يأتي ويروح على مهل عند السرير.

«أنا أعرف بما ذكّرتُك به أيها الرجل. أنا مهووس في السينما مثلك. بصالة لانكلون سنتر. بـ / السكين في السلم/ فيلم روبرت وايز، مع تشيللي وانترز، إنه هذا فعلاً» كان اسم الفيلم / طعنة السُّلم/ في الحقيقة، لكنّ سولانكا فضل ألا يعترض على إيدي بالنسبة للحظة.

«عجبًا كل هذه الأفلام بسكاكين، قال إيدي، وهو ساهم بصوت مسموع. ميلا أحبّت برونو غانز كثيرًا في فيلم / السكين في الرأس/ . أما بالنسبة لي فإنني لا أعنى بهذا الكلاسيك القديم، في أول فيلم لبولانسكي، السكين في الماء، كان الرجل يلعب بالسكين كي يخيف زوجته، لقد أغرمت بالوغد الآخر، قلب الدّفاع الأشقر. إنها خطيئة محرمة يا بنيتي. هذا فظيع».

كانت نيلا تتحرك وتئن بلطف كعادتها أثناء نومها.

«اصمتي قال سولانكا وهو يدغدغ ظهرها، كل شيء على ما يرام. اكتمي صوتك».

أذعن إيدي للأمر بوقار.

«أظنُّ أنها لن تتأخر في الانضمام إلينا، يا رجل. أيها المتعهِّر إني لا آمل إلاّ بذلك. (ثم عاد إلى اجتراراته): غالبًا ما كنّا ميلا وأنا نصنّف الأفلام. أفلام إثارة، أفلام رعب، تشنج، شيء كهذا. بالنسبة لها فإن التعزيم وهو طرد الأرواح الشريرة من الإنسان، الذي سيخرج بمشاهد لم يسبق لأحد أن رآها. أما أنا فرأيي، لا، يجب ألا نرقى إلى العهد الكلاسيكي، إلى «طفل النباتات العطرية» للصديق بولانسكي، يا رجل. طعنه الطفل، هذه قوية جدًا. حسن، الأطفال، أنت خبير بذلك. أليس كذلك يا أستاذ؟ أطفال يجلسون على ركبتيك كل يوم، إنك لم تجبني أيها الأستاذ. دعني أكرر القول بشكل مختلف، لقد تطاولت على ما لم تكن تملك الحق بلمسه. وأنا أقول لا بد للآثم الجاني من أن يدفع الثمن. أنا العقاب «قال الربُّ» وإيدي هو العقاب أيضًا. أليس حقيقيًا، أننا صرنا الآن، أحدنا في مواجهة الآخر. أليست اللحظة الآن، هي لحظة الحقيقة المتعهرة؟ إنا هنا، كلانا، أنت مع عشيقتك ولا تملك وسيلة دفاع، وأنا مع سكيني، في يدي سكين القاتل، الذي به سأبتر لك محرقيك، في الوقت الذي لا تحسب فيه أن لحظة التصافي قد أزفت، أيها الماخور، وأن يوم الحساب قد حان؟

كانت الأفلام تعيد جمهورها إلى طفولته، فكر سولانكا، أو أن هؤلاء الذين يستسلمون لاستمرار الحالة الطفولية قد جذبوا بأفلام النوم التبسيطي. ربما أن اليومي الرتيب باندفاعه، بثقله، كان يخدر الناس ويصيبهم بالخبل الطفولي، وفجأة إذ بهم يجدون أنفسهم وقد وجدوا لهم ملاذًا في العالم التبسيطي للأفلام كي يستعيدوا إحساسهم من جديد.

والخلاصة هي، أن التجربة التي تعرضها صالات السينما، كانت تبدو في أذهان عدد كبير من البالغين أكثر واقعية من العالم الواقعي. بالنسبة لإيدي، فإن خطبته المطولة كشرير سينما كانت أكثر واقعية من كل خطبة طبيعية مهيأة. لقد كانت مهدِّدة.

لقد كان يتخيل نفسه صموئيل ل. جاكسون. الذي كان يتهيأ لقتل مشؤوم. من كان يرتدي السواد، والرجل الذي عرف بهذا اللون وكان في سياق تقطيع ضحية أوثقت بالقيود وهو يصغي إلي: ابق في الوسط حيث أنت. لا شيء من هذا كان يحتمل افتراض أن السكين لم يكن سكينًا. يبقى الألم ألمًا ولا يزال الموت هو الختام. لقد كان هناك في الحقيقة شاب مجنون يلوح بالسكين أمامهما في العتمة. استيقظت نيلا حينئذ. كانت جالسة قرب سولانا، وتسحب الملاءات كي تستر عريها. كما تفعل ممثلات الأفلام.

«هل تعرفه؟» همست.

قهقه إيدي ضاحكًا.

«أوه، أجل يا حسنائي، لدينا متسع من الوقت كي تلعب الحزازير. الأستاذ وأنا زميلان».

«إيدِّي، قالت ميلا بلهجة لوم وهي تقف عند العتبة بعينيها الأرجوانيتين وشعرها الأزرق، نشلت مفاتيحي. لقد سرق مفاتيحي. قالت مخاطبة سولانكا هذه المرة. أنا آسفة على كل هذا. كانت تلك القصة ملتحمة مع قلبه. هذا ما أحبه عند رجل، خصوصًا وهو يغتاظ من ذلك. أما المسكين؟ فهذا خطأ يا إيدي (التفتت نحو خطيبها) كيف سنتزوج إذا ما وجدت نفسك خلف القضبان؟».

بدا إيدِّي في غاية الخجل والارتباك، كتلميذ موبَّخٍ يراوح على قدميه، وقد تحول بين ثانية وأخرى من قاتل مسعور إلى جرو صغير يلهج.

«اذهب وانتظرني في الخارج» قالت له آمرة. خرج وهو يجر قدميه بسذاجة.

«راح هو ينتظر في الخارج، قالت هي لسولانكا متجاهلة تمامًا المرأة الأخرى الموجودة ـ لدينا ما يجب أن نتحدث فيه».

بيد أن المرأة الأخرى لم تكن متعودة على أن تُلغى من مسرحية ستلعب فيها دورًا.

«ماذا يعني هذا؟ سرق مفاتيحي؟ سألت نيلا. لماذا كانت مفاتيحك معها؟ وما يعني أنكما زميلان؟ ماذا يعني هذا «هذا أكيد؟ لماذا تريد التحدث إليك؟».

«تريد أن تحدثني أجاب سولانكا ضمن الصمت، لظنها بأني كنت أعتقد بأنها كانت تضاجع أباها، في حين أن ما أعلمه، هو أن أباها من كان يضاجعها، لأن الأمر يتعلق بمجال أنا نفسي أسأت البحث فيه. كان كل يوم يضاجعها كدابَّة ـ كرجل ـ ثم تركها وشأنها. ولأنها كانت تحبه وتكرهه في الوقت نفسه. فقد صارت من ذلك الحين تبحث عن نسخ وتزويرات الحياة. لقد كانت متمكّنة من عصرها، عصر التماثيل والتزوير هذا، الذي كان من الممكن للمرء أن يجد فيه أية لذة تحت أي شكل مختلق، وفي منجى من المرض أو من الإحساس بالإثم. طريقة في القص لا قيمة لها، وبحريرات منخفضة في عالم هو قارض حراشف حقيقي. تجربة خادعة، وجميلة جدًا بحيث إنك خلُصْتِ إلى تفضيلها على الواقع البديل: كان أنا.

كانت الساعة الثالثة وسبع عشرة دقيقة صباحًا. جلست ميلا وهي في معطفها وحذائها على حافّة السرير. فأن مليك سولانكا.

غالبًا ما كانت الكارثة تحصل، عندما تكون نواهيك في منتهى الدونيَّة، كما الحب، بطريقتك الخادعة جدًا.

«قل لها، قالت ميلا، وقد اعترفت أخيرًا بوجود نيلا، فسِّر لها لماذا أعطيتني المفاتيح مملكتك الصغيرة، إشرح لها عن الوسادة على ركبتيك».

كانت ميلا قد رتبت هذه المقابلة بعناية ـ حلّت حزام معطفها، وخلعته كاشفة عن أذيَّة طفلة صغيرة. وباستخدام الملابس كأسلحة قاتلة: فإن ميلا قد جرحت بأبسط أداة قتل.

«هيا بايبي، حدثها عنا، عن ميلا ما بعد الظهر».

«إنّنا نصغي إليك، أضافت إيليانور ماسترز سولانكا بشراسة وهي تشعل

النور، يرافقها صاحبها القديم، الأشيب العجوز، البوذي الشرس، ذو العينين الذين تطرفان خلسة من خلف النظارات: ثقيل الدم مورغان فرانز.

«أنا متأكدة من أن حكايتك ستسحرنا جميعًا».

ليكن، فكَّر سولانكا، يبدو أننا نستخدم المدخل الحالي هذه المرة.

«ادخلوا، ادخلوا جميعكم، لا تبالوا بي، تصرفوا كما لو كنتم في بيوتكم. كان شعر إيليانور يبدو أغزر من السابق، وكانت ترتدي معطفًا أسود ذا ياقة عالية من الكشمير، وعيناها تبرقان. وجدها مليك أخاذة في وقت فات أوانه هكذا، وقد لاحظ أن مورغان فرانز يمسكها بيدها، وأن نيلا قد غادرت سريرها وترتدي ثيابها بهدوء. كانت عيناها هي أيضًا متقدتين، وعينا ميلا كانتا أيضًا تشعان بوهج حار. أغمض سولانكا عينيه، وأخذ يرجع إلى الخلف وقد وضع وسادة على وجهه كي يحمي نفسه من كل تلك النظرات الحارقة.

كان مورجان وإيليانور قد أودعا الطفل عند جدته، وهبطا في مطار ج. ف. كيندي لقد نزلا في فندق، وقد نويا على الاتصال بسولانكا عند الصباح، كي يطلعاه على التبدل المفاجئ الذي طرأ على حياتها (الذي كان سولانكا قد اشتبه به بنفسه) أو بالحري بمساعدة أسمعان.

«على أية حال، إنني لم أجد سبيلاً إلى النوم، أخبرت إيليانور الوسادة. قلت لنفسي: اللعنة إذن، سأوقظه، وقد وجدت في الحال أنك لم تنزعج، مما هوَّن علي الأمور بالنسبة لما كان عليَّ أن أقوله لك».

لقد اختفى كل توتر من صوتها، استجمعت كل قواها وأخذت معالم وجهها تبيضُّ على مرمى النظر باذلة كل ما بوسعها كي تحافظ على صوتها هادئًا بين لحظة وأخرى، سوف تفغر فاها، وصرخة غضب مصمة ومدمرة ستخرج منه عوضًا عن الكلمات.

كان لا بدَّ لي من أن أرى وقوع الأمر، فكر سولانكا، وهو يمعن في طمر رأسه في الوسادة. أي حظ يمتلكه إنسان فانٍ أمام خبث الآلهة المداحي؟ لقد

كنَّ هناك شخصيًا، آلهة الجحيم الثلاث، «الباشات» في منتهى السيطرة على الغطاء الشهواني لأولئك النسوة اللواتي ارتبطت حياته بهن بشكل عميق. لم يكن ظهورهن إلا عاديًا جدًا بالنسبة له، لكن النار كانت تنصب من عيون تلك المخلوقات المنسلخة، كانت تؤكد أنهن لم يعدن تلك الكائنات التي عرفها، بل على الأرجح مراكب جاءت تبحث عنه لتجره إلى اليوبِّر ويست سائِد الإله العابس...

«أوه بحق الرحمة، اخرج من هذا السرير همست له نيلا ماهاندرا، انهض فورًا، كي نتمكن من تمريغك في الأرض».

نهض البروفسور سولانكا عاريًا، تحت الأنظار الهائجة للنسوة اللواتي أحبهن؛ الغضب الذي طالما استحوذ عليه قد صار منذ الآن وقفًا عليهن؛ ومورغان فرانز الذي لم يكن لديه ما يدعوه للفخار في كل سيرته، غير أنه هو أيضًا قد تعلم كيف يكون خادم الحب. مورغان الذي أهدت إليه إيليانور أناها المجروح وعهدت إليه برعاية ابنها، اندفع بالطاقة المفرقعة التي صبتها فيه جنيات الجحيم. اتجه مورغان نحو الرجل العاري كدمية متحركة بواسطة خيوط عالية التوتر وبقبضته العنيفة وجه له ضربة وسط وجهه، فخرّ سولانكا على الأرض دفعة واحدة.

[16]

بعد انقضاء ثلاثة أسابيع هبط سولانكا في طائرة شراعية ناقلة للبريد البعيد على أرض مطار بلوفسكي الدولي، في نهار ربيع حار كانت تلطِّفه نسمة يفوح منها جو نصف الكرة الجنوبي. شميم مركَّب ملأ منخاريه ـ من الخبيزة والدفلى والحركرند[١]، والعرق والغائط، وزيت التشحيم، لقد ساقه جنونه في الحال إلى صفعة هي أكبر بالتأكيد من صفعة اللكمة التي كالها له عشيق زوجته المسالم، هذه الصفعة الهادفة التي طرحته صريعًا مهزومًا على أرض غرفة نومه. إنما ماذا كان هو كرجل محترم وأصبح واسع الثراء. كي يجري وهو في الخامسة والخمسين من عمره إلى طرف المعمورة الآخر، وراء امرأة تركته مرميًا أرضًا؟ والأسوأ، لماذا كان يهتاج من مجرَّد التفكير بأن ثوار هذا البلد الفيليبيسانيين / NRV/ الساخطين ـ متى سيتوصلون إلى الاقتناع باسمهم؟ ـ قد انتحلوا هويات شخصياته، كإطفائيين أو عمال في مجمع نووي وقد ارتدوا لباسًا يحمون به أنفسهم من أخطار عملهم؟ لا بد من أن دورًا كان لبدلات الملوك الدمى بالنسبة لما كان يجري في تلك المنطقة. إنما هذا لا يعني أنه هو من كان المسؤول عن ذلك. لا علاقة لك بتلك الأحداث، كان البروفسور سولانكا يردِّد في سره مرارًا لا نهاية لها وكان يجيب نفسه لمن ذلك: آه أجل هكذا؟ ما الذي يفعله إذن حامل الراية ذاك، ذو الجزع الأمرط، بابور، مع صديقتي الصغيرة ذات الوجه المقنع بقناع من لبن النبات سُوِّي على صورتي؟

لقد سُوِّي قناع زامين ريجيك بشكل صارت تحاكي فيه نيلا ماهاندرا، وهذا

---

(١) شجرة أميركية استوائية يؤخذ منها خشب نفيس.

كان بديهيًا، إنما في حالة آكاز كرونوس فقد كان العكس: مع الزمن، كان سولانكا قد انتهى لأن يزداد تماثلاً مع مخلوقه. الشعر الفضي الغزير الطويل، نظرة الأسى المستهامة (الفم، بقي نفسه). تنكُّر غريب كان يجري على خشبة مسرح تلك الجزيرة البعيدة، لم يكن البروفسور سولانكا يستطيع أن يتحرَّر من فكرة أن هذه الدراما كانت تعنيه بطريقة خاصة، بحيث إن المراحل الأكثر أهمية (أو العادية جدًا ربما) لوجوده المعتبر، بل الذي يدعو إلى الرثاء افتراضًا، كانت تشهد نهايتها في الجنوب الهادئ ـ لكنها حياته الخاصة على أية حال ـ لم يكن هذا التفكير تفكيرًا واعيًا، إنما لا بد من القول بأنه ومنذ الأحداث المأسوية المبهمة بل المضحكة لليلة الجنيات الثلاث، قد صار في حالة ذهنية هذيانية لا يمكن تصورها، إلاّ أنه قد استعاد رشده بسبب الألم الفظيع بالذي أحدثته سنه المتكسّرة وبسبب تهشُّم قلبه، الذي كان يؤلمه بوخزاته أكثر مما كانت تؤلمه سنه، كان يحاول ألا يسمع شريط المقطوعات الأولى للثنائي لينوت ـ كارتنِيْ وأيضًا ثرثرة القلّاع النيوزينلاندي الذي كان يفحص فمه كما لو كان يسبر كهفًا ـ تذكر حينئذ أن البيلتز كانوا قد مثلوا في بدايات عملهم المبكرة في نادٍ يدعى الكهف. ركز كل تفكيره على نيلا. لم يكن بمقدورها أن تفكر به، لقد بانت على أنها متماثلة في الحب مع أولئك النسوة اللواتي ما زلن يلمن سولانكا على ما هو عليه. تكون موجودة، ثم تختفي. عندما أحبَّتْك، أحبَّتْكَ مئة بالمئة؛ دون أي اعتدال. لكنها كانت قاتلة ومدمرة جهارًا في الوقت نفسه، قادرة في أية لحظة على بتر رأس حبٍّ وهي تتخلى عنه فجأة. كانت مزعزعة بسبب ماضي سولانكا ـ ماض لم يكن له في نظر ذاك الأخير أن يؤثر على الحب الذي كان يكنه لها ـ لقد افرنقعت، ارتدت ثيابها، واختفت كي تقذف بنفسها في الطائرة، في رحلة حول الكوكب ستستغرق أربعًا وعشرين ساعة، دون أن تتكرَّم بالاتصال معه حتى، ولو كان من أجل الاطمئنان على فكّه، ولا أن تهمس له بكلمة وداع رقيقة، أو أن تعده ولو تلميحًا على الأقل بإمكانية تسوية الأمور فيما بعد، عندما سيستقر التاريخ ويترك فسحة من الوقت. لكنها كانت امرأة معتادة

على أن تكون مطاردة. كان يتفق أيضًا أنها كانت تخل بالأمر قليلاً. لكن مهما يكن ـ أقنع نفسه سولانكا بينما كانت مطرقة النيوزيلاندي تدك فمه بأن عليه، وقد وجد امرأة بهذه الروعة، ألا يخسرها أبدًا أو أن يهلك دونها. الطيران باتجاه الشرق، كان يعني التوغل في المستقبل ـ ساعات الطائرة النفاثة ستنقضي سريعًا والغد سيأتي لا محال. مع ذلك فقد كان هذا شبه رجوع إلى الماضي. كان ينقضُّ نحو المجهول ونحو نيلا، لكنَّ الماضي وخلال النصف الأول من الرحلة قد ناوشه من جهة قلبه.

عندما لاحت بومباي تحته، وضع قناع النوم وأغمض عينيه، هبطت الطائرة في استراحة استغرقت حوالى الساعة، في مسقط رأسه. لقد رفض بطاقة العبور، ومكث في الطائرة. لكنه لم يكن في منجًى من الحزن حتى وهو جالس. لم تفده كمامتا عينيه بشيء. نساءٌ، خادمات بيوت صعدن إلى الطائرة مع صخبهنَّ وذلاقة ألسنتهنَّ دخلت الهند كوباء، صرامة هيئتهنَّ، نبرة الغنّة القوية في كلماتهن، أريشياتهن، عيونهنّ الجامدة كعيون عاملات، عطر المروخ والتوابل ـ من زيت جوز الهند، والحلبة، نوع من كولونيا ـ لا يزال يلتصق بأجسادهن، أحسَّ بدوار الغنم، اختنق كفريسة ضيَّق عليها دوار الجو، مع أنه لم يسبق له أن أصيب قط بالغثيان وهو في الطائرة. علمًا بأن الطائرة كانت لا تزال على الأرض تملأ خزانات وقودها، ومحركاتها كلها مطفأة. بعد الإقلاع، وبما أنهم صاروا يحلقون فوق «الدكن» استطاع أن يتنفس بشكل أفضل، وعندما لمعت المياه تحتهم من جديد، بدأ يسترخي، كانت نيلا تودُّ أن تسافر معه إلى الهند، وفكرة إمكانية اكتشاف أرض أسلافها مع رجل رائع هي من اختارته كانت تثيرها، كان الرجل المفضل بالنسبة لها وكان لا بد له هو من أن يتشبَّث بها.

«آمل أن تكون، قالت بمنتهى الجدية، آخر رجل من الممكن أن أنام معه».

كان لهكذا وعدٍ سلطانٌ هائل عليه، «بأسوأ هذا الوعد له، أجاز لنفسه أن

يحلم بالعودة بأنه كان من الممكن للماضي أن يكون مجردًا من قوته بحيث سيكون كل شيء ربما ممكنًا في المستقبل. إنما ها هي ذي نيلا تختفي كرفيقة ساحر، وتختفي معها قوة سولانكا. لن يطأ أبدًا شوارع الهند إن لم تكن نيلا معه، إنه متأكد من ذلك.

كان المطار باليًا مثلما كان يوحي بذلك اسمه، أو كان إذا ما أردنا أن نصفه من وجهة نظر سائح مزمع على رؤية الجانب الحسن للأمور بأنه (على الطراز الأصيل). إنه في الواقع زريبة خنازير، متهدِّمة، نتنة، بجدران راشحة مع حشرات طولها خمسة سنتيمترات، تتكسر تحت الأقدام صارّة كقشور الجوز.

كان حريًّا به أن يتهدم منذ سنوات، وكان مهدَّدًا بالتقوُّض فعلاً. ويقع أخيرًا في الجزيرة السيئة، وطائرات الهليوكوبتر التي كان تقوم بالنقل بين المطار والعاصمة ميلداندو وبالعكس كانت في حالة تلف مقلقة لكنَّ المطار الجديد (ج. ج. ي.) مطار (غولباستو ـ جي الدولي) قد تحطم بأسرع من القديم، لقد انهار كليًا بعد شهر من نهاية الأعمال فيه نتيجة تصميم مستحدث وخاطئ لا سيما في النسب غير الوافية بين الماء والاسمنت في إعداد الإسمنت، على الرغم من أنه كان سيكون مثمرًا ويعود بالكثير من العائدات. هذا النوع من التهوّر التقني التي كان معبِّرًا فصيحًا عن الحياة في بلوفسكي ـ ليلليبوت.

دخل البروفسور ـ سولانكا غرفة جمارك المطار، وفي الحال انشدت إليه الأنظار على الرغم من أنه كان منهكًا من السفر، ومخبولاً من الكآبة، إلا أنه كان يتوقع هذا النوع من ردود الأفعال وفهم أسبابها فورًا.

ضابط يرتدي البياض أوقع عليه نظرته الصارمة.

«غير ممكن، مستحيل، إننا لم ننبّه، أنت من؟ ما اسمك؟ أرجوك، قال مرتابًا وهو يمد يده إلى سولانكا كي يعطيه جواز سفره.

هذا ما كنت أتحسبه. قال الضابط أخيرًا. ألست».

لقد كان عفريته، وهذا أقل ما يمكن للمرء أن يقول. لكنّه خفض رأسه، كتسليم بالأمر الواقع.

«من غير اللائق أن تخوِّل نفسك، قال الضابط، خداع شعب بلد أنت مجرَّد ضيف عليه، مستغلاً بذلك تسامحنا العطوف والمشهور».

أشار إلى حقائب سولانكا بحركة سلطوية، فتوجّب على البروفسور سولانكا أن يفتحها. تفحّص الضابط محتواها بعين حاقدة: أربعة عشر زوجًا من الجوارب، أربعة عشر سروالاً طويت بعناية، أربعة عشر منديلاً، ثلاثة أزواج من الأحذية، سبعة قمصان وسبع صُدارات، ثلاث ربطات عنق، ثلاث بدلات مطوية من الكتان ومعطف مطري. هذا هو محتواها بالضبط. بعد أن قضى وقتًا في تفحص متقن، افترَّ ثغره عن ابتسامة عريضة، برز من خلالها صفٌّ من أسنان كاملة حسده عليها سولانكا.

«ضرائب باهظة تتوجب عليك، قال جازمًا. لا بدَّ لكثير من المواد من أن تظهر» قطّب سولانكا حاجبيه.

«إنها ثيابي، وأنتم لا تفرضون رسومًا على ما يرتديه الناس من أجل ستر عوراتهم» امحت ابتسامة ضابط الجمارك، ليسيطر على وجهه بدلاً منها تعبير حانق جدًا «إيَّاك والألفاظ الفاحشة، أرجوك يا سيدي الغشَّاش الشاطر! ـ قال آمرًا ـ يوجد في داخلها أكثر من الثياب. كأميرة فيديو، وساعات أيضًا، وآلات تصوير، وحلي. رسوم باهظة متوجبة عليك. وإذا ما أردت أن تقدم شكوى فهذا حقك الديموقراطي، طبعًا، أنت في بلوفسكي ـ ليلليبوت الهندية الحرة. تحيا الفيليبستان.

إن كنت ترغب في الاحتجاج، فأنت مدعو، لأن تمضي وديًا وبشكل طبيعي إلى قاعة الاستجواب، وتقدم اعتراضك على الحساب، أمام رئيسي الذي سيفرغ بعد قليل، بعد أربع وعشرين ساعة، أو ست وثلاثين ساعة».

سأل سولانكا «بعد كم؟» ثم سدَّد ما طالبوه به.

يعتبر المبلغ كبيرًا بالعملة المحلية، لكنه بالدولار، لا يتجاوز الثمانية عشر دولارًا وخمسمئة.

وبحركة مصطنعة علَّم الضابط بالطبشور إشارة X على أمتعة سولانكا. «لقد جئت في لحظة تاريخية، قال بصوت رسمي، فأهالي بلوفسكي ليلليبوت الهنود يطالبون بحقوقهم. إن ثقافتنا عريقة وسامية، وبالتالي فإنها ستنتصر. البقاء للأجدر أليس كذلك؟ طيلة قرابة قرن وهؤلاء المتوحشون الإربيون الذين لا يصلحون لشيء يسرفون في الشرب ـ فلفلية، غليميغران، جاك دانييل فلونك، كوكا ـ وفي كل الموبقات. نحن كنا نُطْعَم من برازهم، وجاء دورهم الآن ليأكلوا من برازنا. من فضلك، أتمنى لك إقامة طيبة». في الهليوكوبتر التي تقل المسافرين من المطار إلى جزيرة ليلليبوت وبالعكس، تفرس المسافرون الآخرون بالبروفسور سولانكا بارتياب أشدَّ من ارتياب ضابط الجمرك. قرر أن يتجاهل موقفهم، وأخذ يركز انتباهه على المشهد، بما أنهم كانوا يحلقون فوق حقول السكر في بلوفسكي، فقد لمح كومة من الصخور البركانية وسط كل حقل. إن العمال الهنود الذين أبرموا عقدًا يقضي بأن يعرفوا بأرقام فحسب، قد ثاروا من أجل تحرير هذه الأرض، وشيدوا هذه الأكمات من الحجارة تحت الرقابة الشرسة لهؤلاء الأمعيين الأوستراليين، مفرغين من قلوبهم ذلك الحقد العميق المتولد من عرقهم، ومن غياب أسمائهم. كانت الحجارة أيقونات غضب بركاني متراكم، بنتوءات قديمة لهجمة الغضب الليلياني الهندي، كان من الممكن للمرء أن يرى آثاراهما في كل مكان. هبطت الهليوكوبتر القديمة L.B. وسولانكا أحس بكثير من الانفراج ـ على فناء التوقُّف السليم لمطار غولباستوجي الدولي، الذي صار إلى أطلال. كان أول ما شاهده صورة كبيرة من الكرتون «للقائد أكاز» أي زعيم الـ NRV بابور بقناع ومعطف آكاز كرونوس، لدى تأمله في هذه الصورة تساءل سولانكا وقلبه يخفق فيما إذا لم يكن منه بقيامه بهذه الرحلة إلى المتقاطرات سوى عاشق أبله أو سياسي ساذج. لأن الوجه الخالد كان يبدو له في ليلليبوت بلوفسكي ـ كبلد على شفا حرب

أهلية احتجز فيها الرئيس كرهينة، وأحكام عرفيةِ متفجِّرة كانت كامنة، وأحداث غير متوقعة كان يمكن أن تحصل في أية لحظة ـ على شبه مدهش معه، مثلما حدّثه قلبه بذلك. الوجه الذي كان يحدق فيه في أعلى المأطورة التي يبلغ ارتفاعها خمسة عشر مترًا ـ إن هذا الوجه الذي يحيط به شعر طويل فضي، بنظرته المجنونة وشفاهه الداكنة، كان وجهه، كان هذا متوقَّعًا، لقد أشيع عن قدوم ليم القائد قبل أن تحطّ طائرة الهليوكوبتر. هنا في بلد التقنّع: لمح الأصلي غير المقنّع كمقلّد للرجل المقنّع. كان الخلق حقيقيًا، في حين أن الخالق كان مزيّفًا! لقد كان هذا كما لو كان حاضرًا موت الإله، وكما لو أن الإله الذي مات لم يكن أحدًا آخر سواه. اقتادوه إلى ردهة الترانزيت، الأثاث الوحيد الذي كان فيها هو طاولة خشب قديمة، تحرسها سحالٍ مقاومة، وذباب متعطش جاء يطن عند ملتقى عينيه الرطبتين. وامرأة كانت تضع قناعًا، يمثّل وجه المرأة التي كان يحبها، صادرت جواز سفره وساعته وتذكرة طائرته. لقد أصمته الموسيقى العسكرية الثاقبة التي كانت تصدرها على الدوام آلات موسيقية بدائية، بحيث إنه كان يلمح الذعر الحماسي في أصوات الشبّان من الحرّاس ـ كان محاطًا بالمغاوير المدجّجين بالسلاح ـ ويلمس أيضًا براهين التقلب الأقصى في الأنظار التي كانت تتهرّب من المدنيين بلا قناع في المطار وفي ذيالق المقاتلين المتحمسين المسلحين. كل هذا أكّد لسولانكا بأنه كان على بعد ألف فرسخ من بيئته، وأنه خلّف وراءه كل الرموز والإشارات التي كانت تساعده كي يعطي معنى وشكلاً لوجوده هناك، لم يكن للبروفسور سولانكا وجود بذاته، لم يكن إلا مجهولاً مربكًا فقد شخصيته. وجهه كان مألوفًا لدى الجميع، وهيهات أن يستطيع أن يعيد تلك الملامح المدهشة التي تميّزها، كانت حالته موشكة على التدهور، وكان مصيره في أفضل الحالات سيؤول به إلى النفي خارج الوطن.

الأسوأ بين الحالات، كان ثمة أمر يأبى على نفسه أن يتصوّره. احتمال أن يُبْعَدَ دون أن يكون قد التقى نيلا كان ينغصه كثيرًا. مرّة أخرى أكون عاريًا ـ فكّر سولانكا ـ عاريًا وغبيًّا ومستعدًا لتلقي الضربة الصاعدة القاضية.

بعد زهاء ساعة، سيارة أوسترالية ركنت أمام المرأب الذي احتجز فيه، وحث سولانكا على الصعود على مقعد السيارة الخلفي بطريقة ليس فيها شيء من اللياقة، إنما دون عنف. مغاوير بثياب القتال أحاطوا به، اثنان آخران صعدا إلى الصندوق وأدارا له ظهريهما، وسلاحهما يبرز من بين الأسمال. لدى اجتيازهم ميلداندو، أحس سولانكا بأنه سبق له ورآها، لقد لزمته دقيقة حتى اتضح له بأن المدينة كانت تذكرة بالهند، أو على الأصح بشاندفينشوك Chandmichok، قلب دلهي القديمة الصاخب، كان الباعة يتجمعون على هذا النمط الفوضوي، وحيث كانت واجهات الحوانيت أكثر إبهارًا من اللون، وقد أضيء داخلها إضاءة جادة، وحيث كانت شوارعها الصاخبة تعج بالمارة والمشاة، والدرَّجات، البشر والحيوانات يتسابقون إلى تنازع المكان، منبِّهات السيارات المتراصَّة ترتجل سيمفونية الطريق الدائمة والاعتيادية. لم يكن سولانكا يتوقع وجود هكذا جموع، الأكثر توقعًا والأكثر إزعاجًا أيضًا، كان الاحتراس الملموس بين الطوائف، وتجمعات الرجال الإلبيين والليليانيين الهنود، الهادرة، الذين كانوا يتفرسون ببعضهم بعضًا بعدائية، وبإحساسهم بأنهم كانوا يعيشون في مخزن بارود بانتظار انطلاق الشرارة. وإذا ما حصل ذلك فإن جيرانك هم سيقتلونك. الأشخاص الذين هبوا لمساعدتك قبل الآن ببضعة أيام أنفسهم، والذين دفعوا دراجتك النارية كي تسير، والذين سروا بالحلوى التي وزعتها عليهم يوم خطوبة ابنتك على رجل شريف ومثقف، وبائع الأحذية الذي جاورته بحانوت تبغك طيلة عشر سنوات أو أكثر؛ سيكون هو من سيسدّد إليك ربما أول طلقة، وسيصحب رجاله المزوّدين بمحارق إلى عند بابك وسيملأون الجو برائحة دخانك الفرجيني اللطيفة. لم يكن من الممكن أن ترى أي سائح (أكثر من ثلثي الأمكنة في الطائرة التي كانت تيمم شطر بلوفسكي كانت فارغة) لم يكن في الشوارع إلا عدد قليل من النساء والأطفال، لم يكن هناك إلا عدد مدهش من كوادر الـ NRV. مخازن كثيرة كانت مغلقة ومرتجة بالأقفال، وبعضها بقي نصف مفتوح. وكان الناس ـ الرجال قد عطلوا أعمالهم اليومية.

كان المرء حينئذ يرى الأسلحة في كل مكان، وأصوات طلقات متفرقة كانت تأتي من البعيد من وقت إلى آخر، وقوات الشرطة تتعاون مع أجهزة NRV من أجل الحفاظ على النظام.

جنرالات كانوا يشاركون في المفاوضات المعقدة التي كانت تجري في الكواليس لساعات طويلة. مفاوضون من NRV سيلتقون الزعماء الإيلبيِّين الشرفاء، كما سيلتقون زعماء الدين وأصحاب الشأن. سيبذل القائد آكاز كل ما بوسعه كي يظهر على أنه ذلك الرجل الذي يسعى إلى حل الأزمة. لكن الحرب الأهلية كانت موجودة بالكمون. ومن الممكن لبولغولام أن يكون قد هَرِمَ أو أسِر. لكن القسم الأكبر من الشبان الإيلبيين الذين ساندوا الانقلاب العسكري البولغولاميتي كانوا يلأمون جراحهم ويعدّون إلى المغامرة بمكيدة جديدة. عندئذ لن يتورع المجتمع الدولي عن إعلان ليلليبوت بلوفسكي أصغر دولة منبوذة في العالم، وإرجاء الاتفاقات التجارية وتجميد برامج إعانة التنمية.

انتهز سولانكا هذه الفرصة.

جنود ودرّاجون طوّقوا سيارة الجيب ورافقوه حتى الطوق الدائري للبرلمان الذي شُدِّدَتْ عليه الحراسة. فتحت السياجات المعدنية المشبكة ودلفت المركبة إلى المدخل، ثم رُكنت أمام مدخل القسم، خلف المبنى الرئيسي. مدخل المطابخ، فكر سولانكا، وقد علت ثغره ابتسامة حزينة، إنه باب السلطة الحقيقي.

كان من الممكن لعدد كبير من المستخدمين والموظفين أو المستجدين أن يخترقوا مساكن السلطة من خلال الباب الواسع، أما أن تستقل مصعد الخدمة، فإن هذا مراقب من القادة والشيوخ، ومساعدي الشيوخ ذوي القلنسوات البيض، وأن تنقل إلى الطوابق العلوية إلى حجرة مكشوفة مع نساء ورجال مقنَّعين وصامتين من حولك: فهناك كانت تكمن الخديعة فعلاً. أن تظهر في رواق بيروقراطي عادي، وأن تُساق عبر سلسلة من القاعات كل واحدة أتفه من

سابقتها، كان هذا هو الصراط المستقيم الذي يفضي إلى المركز، لا ضير في ذلك بالنسبة لصانع دمى ـ حدث نفسه ـ أنت في الداخل. سترى إذا ما كنت ستخرج ثانية من هناك بما تريد، بالحري، حسبنا أن نرى إذا كنت ستستطيع الخروج منه.

عندما بلغ صف الغرف العارية والعاتمة، كانت هناك غرفة بباب وحيد، يتصدرها أثاث صار مذ ذاك مألوفًا: كنبتان من القنب، مصباح سقفي، خزانة ملفات، وهاتف تركوه وحيدًا، رفع سماعة الهاتف، كانت فيها حرارة، وعلى الجهاز وضعت بطاقة علم منها أن عليه أن ينقر الرقم ٩ كي يتصل مع الخارج. ومن باب الاحتياط، بحث وتذكر عدة أرقام: جريدة محلية، السفارات: الأميركية، البريطانية، الهندية، ديوان المحامين، وشكّلها. لكنه في كل مرة كان يسمع صوتًا أنثويًا مسجّلاً، يكرر له بالإنجليزية والهندية والليللبية بأنه لا يمكن لهذا الرقم أن يشكل من هذا الجهاز. حاول أن يتصل مع الطوارئ، ما من خط «هذا الرقم غير مخصص». ما لدينا هنا ليس هاتفًا أبدًا ـ قال في سرِّه ـ إنه مجرد شكل أو قناع لهاتف، مثلما أنه ليس لهذه الحجرة هيئة مكتب، بل في الحقيقة زنزانة سجن. لا مسكة باب من الداخل، والنافذة الوحيدة، صغيرة وشبّكت عليها القضبان. اقترب من خزانة الملفّات، وفتح درجًا، إنه فارغ كشيء من ديكور مسرحية. لقد احتجز رهينًا لكن أحدًا لم يعطه لذلك تفسيرًا.

وصل «القائد آكاز» بعد أربع ساعات، في غضون ذلك تبخر القليل من الاطمئنان الذي كان لديه. كان آكاز برفقة شابين، مع مسؤول وستايديكمام ومهندس صوت يحمل عصًا طويلة ـ وقلب سولانكا المتهيِّج وثب من مكانه ـ وترافقه امرأة مموهة ومقنعة على هيئة زامين ريجيك: وجهها مستتر خلف تزييف بذاته. «هذا الجسم الرشيق جدًا، قال سولانكا، أستطيع أن أتعرف عليه من بين ألف».

لكنه لم يقم لذلك أي اعتبار.

«ماذا جئت تفعل هنا، قالت له نيلا قبل أن تستجمع قواها، اعذرني أيها القائد» بابور في زي آكاز كرونوس، لم يبقَ أي أثر لشاب واشنطن سكار ذاك الخجول المرتبك. كان يزعق بصوت لا يقبل أي اعتراض. القناع يفعل. تذكّر سولانكا «القائد آكاز». ذلك الرجل ـ الجبل، قد صار الرجل القوي لهذا المستنقع المصغّر، وكان يلعب دوره بإتقان. إنه ليس على ذلك القدر من القوة ـ علّق سولانكا ـ كي يكون حصينًا أمام تلك الظاهرة نيلا. كان بابور يمشي بخطوة عازمة واسعة، لكنّ قدمه كانت تطأ بعد كل اثنتي عشرة خطوة، على حاشية معطفه المزوبع مجبرًا عنقه على الالتواء إلى الخلف بطريقة غريبة. لقد نجح بعد دقيقة تقريبًا من دخوله إلى زنزانة سولانكا، في أن يدرك الطاولة والكرسيَّينْ. لقد حصل هذا مع أن وجه نيلا كان متخفيًا بقناع. كانت نيلا لا تزال في الواقع تطاول آمال سولانكا وهو الذي مع ذلك قد خيب آمالها. كان لا بد الآن من أن يرى إذا ما كان يستطيع أن يفاجئها كان بابور قد نجح في الحصول على «نحن» الجلالة.

«نحن نعرفكم، قال بمثابة تمهيد، من لا يعرف اليوم صانع الدمى المتحركة الملوك؟ لا شك بأنك تملك أسبابك الصائبة كي تقوم بهكذا رحلة» قال وهو يلتفت نصف التفاتة نحو نيلا ماهاندرا.

لا مجال للمزاح. فكّر سولانكا. غير مجدٍ أن يدحض الإنسان كل ما كان يعرفه من قبل.

«سؤالنا هو، ماذا سنفعل بك؟ أخت زامين، هل لديك ما تقولينه؟».

رفعت نيلا كتفيها.

«أعيدوه إلى بيته ـ قالت بصوت كئيب وحيادي هزَّ سولانكا. هذا ما اقترح أن تفعلوه».

انفجر بابور مقهقهًا.

«تقول الأخت إنك عديم النفع أيها الأستاذ الصاحب. هل الأمر كذلك؟ حسن جدًا! هل ترمي بك في سلة المهملات؟».

«لقد قطعت كل هذه المسافة كي أقدم لكم الاقتراح التالي: دعوني أفدكم كوسيط.

لا داعي لأن تتذكروا روابطكم بمشروعي. إننا نستطيع أن نفسح لكم المجال للمشاركة في حضور عالمي له ثقله. سنمكّنكم من دخول القلوب والعقول. إنكم بحاجة ماسة إلى ذلك. إن الصناعة السياحية مشرفة على الموت، كطائركم الأسطوري المذبوح أورغو، وإذا ما فقدتم أسواق بضائعكم المصدرة، ودعم السلطات المحلية العظمى فإن بلادكم ستفلس خلال أسابيع، شهر على الأكثر. أنتم بحاجة إلى إقناع الناس بأن قضيتكم عادلة، وأنكم تناضلون من أجل المبادئ الديمقراطية وليس ضدها. أريد التحدث عن دستور غولباستو فأنتم بحاجة إلى إعطاء وجه إنساني إلى هذا القناع.

«دعوني ونيلا نعمل مجانًا مع طاقمي النيويوركي، اعتبروا الأمر كعمل مناصر ويخدم حركة تحررية».

هاكم إلى أين كان مستعدًا أن يمضي بدافع الحب، صارت قضيتها قضيته. وإذا ما سامحته، فلسوف يصبح عبدًا لرغباتها.

كنس القائد «آكاز» الاقتراح بإيماءة سريعة.

«لقد تطوّر الموقف. قال ـ دوائر أخرى ـ إنهم جميعًا متطرفون سيئون ـ انكشفت على أنها متصلبة. وبالتالي فقد تصلبنا نحن أيضًا في موقعنا (لم يكن سولانكا يتابعه أبدًا). نحن طالبنا بالسلطة التنفيذية المطلقة ـ قال ـ انتهت المجاملات. ما تحتاجه الفيليبيستان هو زعيم قوي أليس كذلك أيتها الأخت (مكثت نيلا صامتة) أخت؟».

ردد بابور وهو يلتفت نحوها، رافعًا صوته.

أطرقت بالأرض وأجابت بشكل يكاد لا يسمع:

«أجل، بابور.

هذا العصر، هو عصر تشريع، إذا ما سننا أن القمر هو قرص جبنة فماذا يكون القمر أيتها الأخت؟.

ـ قرص جبنة، قالت نيلا بصوتها المكبوت نفسه.

ـ وإذا ما أعلنا أن العالم مسطح، فكيف يكون؟

ـ مسطح أيها القائد.

ـ وإذا ما أصدرنا مرسومًا غدًا، بأن الشمس تدور حول الأرض؟

ـ تكون الشمس حينئذ هي التي تدور».

أومأ بابور بهيئة تنم عن الرضا.

«ممتاز، هذي هي الرسالة التي لا بد لكل العالم أن يفهمها ـ قال ـ زعيم تجلّى في فيلبيستان، فكل العالم عليه أن يسير خلفه أو أن يتحمل النتائج الحتمية. آه، في الواقع أنت درست تاريخ الأمثال في جامعة كامبردج في إنجلترا، أجل وبالتالي فنتمنى عليك أن تتفضل وتنورنا حول هذه النقطة الصعبة ـ أمن الأفضل أن يحبوك أم أن يرهبوا جانبك؟ (لم يجب سولانكا أبدًا) هيا، هيا أيها الأستاذ ألح بابور إنك تستطيع أن تقدم الأفضل».

ضباط الـ NRV الذين كانوا يرافقون القائد أكاز هدفوا إلى أن يدس كل منهم بأوزيسه بطريقة مقلقة ـ بنبرة محايدة ذكر سولانكا مكايافيللي: «إن الناس يترددون في إيذاء من جعلهم يحبونه أكثر من ترددهم في إلحاق الأذى بمن أرعبهم».

أخذ يتحدث بحيوية وهو ينظر مباشرة إلى نيلا ماهاندرا:

«لأن الحب لا يدوم إلا بفضل سلسلة من الالتزامات التي تتهشم، نتيجة لكون الناس معرضين للخطأ، عند أصغر مناسبة تمس مصلحتهم الشخصية. أما الخوف: فهو يفرض نفسه. خشية من العقاب الذي لن تتحرر منه إطلاقًا».

ابتهج بابور.

ـ غائيون رائعون! هتف وهو يربت على ظهر سولانكا. أخيرًا، لن تكون عديم النفع جيد، جيد... سنفكِّر باقتراحك مليًّا. لتمكث قليلاً، ولتبقَ ضيفنا، فقد استبقينا قبلك بولغولام. فأنت أيضًا ستشهد الساعات الماجدة لـ فيلبيسان التي لا تغيب شمسها. أيتها الأخت، لتتكرمي بالمصادقة. كم مرة تغيب الشمس؟ ونيلا ماهاندرا التي كانت تتصرف دائمًا وكأنها ملكة، خفضت رأسها بعبودية وقالت:

«إنها لا تغيب أبدًا أيها القائد».

لم تكن الزنزانة ـ لقد كفَّ عن تسميتها غرفة ـ تحتوي على سرير، ولا على تمديدات صحية ولو بدائية. كان الإذلال هو رصيد «القائد آكاز» مثلما برهنت على ذلك طريقته في التعامل مع نيلا. اتضح لـ سولانكا أنهم كانوا يريدون أن يحطوا منه هو أيضًا. كان الوقت يمضي. لم يكن يحمل ساعة في يده كي يستطيع تقديره تمامًا. هدأ النسيم واختفى إنه الليل، الليل المغلوط إيديولوجيًا، الليل الذي لا وجود له أشبع بالرطوبة، وغلظ، وطال، أعطوه زبدية من العصيدة التي لم يعرف ماهيتها، وجرّة من ماء شك به، حاول أن يقاومهما، لكن الجوع والعطش طاغيان، فانتهى به الأمر إلى أن أكل وشرب بعد ذلك، أخذ في مقاومة الطبيعة، إلى أن وصل إلى لحظة الهزيمة التي لا مفر منها، وعندما لم يستطع أن يتمالك نفسه، بال، وتغوط في زاوية، بشكل مزرٍ جدًا، خلع قميصه، ونظف نفسه بأفضل ما استطاع، كان من الصعب عدم الخضوع إلى تصورية(١) مطلقة، ومن الصعب أيضًا النظر إلى هذه الإهانات على أنها عقاب مفروض على حياة مؤلمة وخرقاء. لقد أعيد خلق ليلليبوت بلوفسكي على صورة سولانكا. شوارعها كانت سيرته الذاتية، التي تناثرت فيها

---

(١) مذهب يقر بأن الأنا وحده هو الموجود. وأن الفكر لا يدرك إلا تصوراته.

ثمار خياله المنقّحة لروايات الذين عرفهم: غودول، بيري بانكوس، كانا موجودين نسخة .S.F فيلم خيال علمي. وكلها تجسيد مقنع لسارا لير، وإيليانور ماسترز وجاك رينيهارت، وسييل شويْلَرْ، ومورغان فرانز. كان هناك أيضًا نماذج ويسلاوا، وتشلينغ مستقبليين في شوارع ميلداندو، مثلما كانت هناك نيلا وهو نفسه، أقنعة حياته كانت تحاصره بطريقة صارمة كي تحكم عليه. أغمض عينيه، لكن الأقنعة كانت لا تزال موجودة ومدوِّمة. أحنى رأسه أمام حكمها. كان بوده لو كان طيّبًا، ولو سلك حياة مستقيمة، لكنَّه في الواقع لم يستطع بلوغ ذلك، أبدًا. مثلما قالت له إيليانور، لقد غدر بهؤلاء الذين لم يقترفوا إلا جريمة حبه. عندما كان قد أراد أن يفلت من الجهة القاتمة لأناه؛ من أنا غضبته الخطيرة، على أمل أن يدمر أخطاءه من خلال تطور تدريجي ترك، هجر، لكنه وقع في خطأ أفدح وأخطر، وببحثه عن خلاصه في الخلق، بتقديمه القربان لعالم خيالي، رأى مواطنيه ينتشرون في العالم الواقعي ويصبحون مماسيخ؛ ولعل أشرَّهم هو كان من كانت له ملامحه. أجل، بابور المجنون كان مرآة نفسه ـ بسعيه لاستدراك ظلم فادح، من أجل خدمة الخير، فجَّر «القائد آكاز» الرصاص، واستمر في الهزأة.

حدَّث نفسه مليك بأنه نال ما كان يستحق، ليسقط هؤلاء الذين هم الأقل جدارة، من صميم الغضب الجماعي لهذه الجزر البائسة أيها الغضب، يا أيها الأعظم والأرسخ من غضبه الذاتي الذي يدعو إلى الرثاء ـ اكتشف جحيمه الخاص، ليكن الأمر كذلك. بالطبع فإن نيلا لن تعود إليه إطلاقًا. لم يكن يستحقُّ تلك السعادة. فعندما جاءت لزيارته، قنّعت وجهها الجميل.

عندما هبوا لنجدته كان الوقت لا يزال ليلاً. انفتح باب الزنزانة، ودخل شاب ليلياني ـ هندي حاسر الرأس، يضع قفازين من البلاستيك، مع بكرة من أكياس القممة، وسطل وطشت وممسحة. نظف قذارات سولانكا بلا تذمر، وبكثير من اللباقة. وعندما انتهى، عاد بثياب نظيفة ـ سترة خضراء فاتحة، وبنطالٍ أبيض

فضفاض ـ وبمنشفة ودلوين جديدين، أحدهما فارغ والآخر مليء بالماء، وقطعة صابون. «من فضلك، قال ـ أنا آسف» وانسحب. نهض سولانكا، غيّر ثيابه، فازداد شعوره بذاته، ثم جاءت نيلا وحدها دون قناع في فستان بلون الخردل وسوسنة في شعرها.

واقعة أن سولانكا كان شاهدًا على القليل من ردة فعلها لقاء التعامل الذي عاقبها به بابور كانت تثير اضطرابها.

«كل ما فعلتُه، وكل ما أفعله الآن، هو من أجل المتفرِّجين. وضع القناع كان تعبيرًا عن تضامن، إنه أسلوب لكسب ثقة المقاتلين. ومن ثم فأنت تعلم، فأنا هنا كي أراقب ما يفعلون، وليس كي يراقبوني، هم. لقد لاحظتُ جيدًا أنك كنت تحسبني أتنكر. ليست الحالة كذلك بالنسبة لي. ولا بالنسبة لبابور أيضًا. فأنا لست هنا كي أخوض نزالاً. (كانت تبدو متوترة ومستعدة للدفاع عن نفسها ضدَّ أي مهاجمة). لا أرغب في أن يتحدثوا عنا، حسن؟ أنا مشغولة بأمر مهم الآن، وعلي أن أركز تفكيري بكليته على مشروعي».

لقد مثل دور الموافق على كل شيء. إمَّا كل شيء أو لا شيء. ربما لن يجد إطلاقًا فرصة كهذه. مع أن هذه الفرصة التي سنحت له لم تكن شيئًا عظيمًا، إنما على الأقل، فقد جاءت نيلا لرؤيته. كانت متبرجة، ولعل في ذلك فأل خير.

«لقد أصبح في هذا، بالنسبة لك، أكثر من مشروع وثائقي ـ قال ـ إن هذا يلامس الأعمق. جذورك المنتزعة من أرضها التي كانت ترهقك بمطالبها. وإن رغبتك المفارقة تدفعك إلى المشاركة بما كنت أقلعت عنه. ثم كلا فأنا لم أحسب أنك وضعت القناع كي تختفي، أو على الأقل، فإن هذا الشيء هو الوحيد الذي لم يخطر في بالي. حسبتك تتخفين من نفسك، من القرار الذي اتخذته في لحظة أو في أخرى كي تتجاوزي الحدود وتنشغلي في كل هذا. إنك لن تقنعيني بأنك مجرد مراقبة، أنت متورطة جدًا، وربما يكون هذا قد بدأ نتيجة لإحساس عاطفي شخصي إزاء بابور. ـ لا تقلقي، ليست الغبرة من تتكلم، إني

على أية حال أفعل كل شيء كي أكبتها ـ لكني أحسب أن مشاعرها تجاه آكاز أيًا كانت طبيعتها، هي أكثر التباسًا. أنت مقتنعة أن شعبك، إن كان لي أن أستخدم كلمة بالية بهذا القدر، قد استنهضه التاريخ. وأنه يستحق ما ناضل من أجله بابور ـ حق التصويت، حق امتلاك جملة الحاجات الإنسانية الشرعية. كنت تحسبين أن المسألة كانت مسألة نضال من أجل الكرامة الإنسانية، وكنت تفخرين ببابور لأنه علم خاصتك كيف يخوضون معركتهم. وبالتالي فإنك كنت تريدين أن تعمي عينيك، كيف يمكنني أن أعبر، كثيرًا عن اللاليبرالية. ففي الحرب مشقة، إلخ. بعض الحجج الدقيقة تمر من خرم في باب، كل هذا، همست به لنفسك وطيلة ذلك الوقت كان صوت آخر يهمس لك أنك كنت في طريقك لأن تكوني عاهرة التاريخ. أنت تعرفين عم أتكلم. ذات مرة بعنا أنفسنا، لم يكن لدينا هامش من الوقت كي نفاوض على السعر. كنت مستعدة للقبول بكم؟ بكم من العمال السلطوية الدنيئة باسم العدالة؟ ما الذي كنت مستعدة لأن تدفعي غيرك ليقوم به، ولأن تجني أنت مغانمه؟ والآن أنت منهكة كما تقولين، شيء مهم، إنك على حق، إن ذلك يستحق اهتمامك لكنه ليس في الحقيقة إلاّ هذا: لقد مضيت بعيدًا بسبب الغضب الذي ألم بك فجأة: أيضًا، في غرفتي. في مدينة أخرى تقع بعد العالم الآخر. أنا لا أستطيع أن أوضح لك كيف جرى هذا في تلك الليلة، كني أعرف أن نوعًا من صدى نفسيٍّ أصدى بينك وبين ميلا وإيليانور، لقد دوَّم الغضب وما زال يتصاعد. إنه دفع بمورغان لأن يهزمني بلكمته، ولأن يدفع بك إلى طرف الكوكب الآخر لترتمي بين ذراعي نابليوني قصير، سيضطهد شعبك أكثر ما اضطهده الإلبيون العنصريون الذين كانوا في نظرك على الأقل ـ أوباش هذا التاريخ. سيضطهده بذات القدر، إنما بشكل مختلف، أنا أعرف أن الناس قد اعتادوا على استخدام سوء التفاهم كسلاح عندما يفترقون، إنهم يستحوذون على العصا من طرفها السيئ، ويتخوزقون على حربتها، كي يثبتوا عمدًا أن الآخر كان غشاشًا ـ أنا لا أقول إنك أتيت إلى هنا بسببي.

على أية حال أنت كنت تنوين المجيء إلى هنا أليس صحيحًا؟ لقد كانت ليلة وداعنا، وإن كانت ذاكرتي لا تخطئ، فإن كل شيء قد جرى على ما يرام، إلى أن تحولت غرفتي إلى بهو محطة. كنت ترغبين بأن تكوني هنا. سواء أكنت أنا موجودًا أم غير موجود. لكن ما حفّزك على ما أعتقد، هو خيبة الحب. لقد خدعت بي، بتعبير آخر بالحب الكبير، غير المعوق، الذي ماكدت تبدئين تكنّينه لي أو تشعرين به نحوي، الذي ما كدت تجعلينني أعتز به، وأخذت أنت تعتزين به وترخين له العنان، حتى انكشف الأمير فجأة على أنه ذلك الضفدع العجوز السمين البذيء. ما حصل هو أن الحب الذي أهديت، قد أسيء تخثيره، لقد حَمُضَ، وأنت، أنت من تفيدين من هذه الحموضة، من خيبة الأمل تلك، ومن هذه الكلبية[1]، كي تندفعي مسرعة خلف ذلك الرَّدب الذي هو بابور. لم لا؟ إذا ما كانت الطيبة خرافة، والحب استيهامًا من مسلسل، لم لا؟ الأشخاص الودودون يصبحون ثانويين، والمجد يعود على الفاسدين. نهجك يحارب نفسه، الحب المجروح ينقلب ضد المثالية، ويكيل لها الضرب المبرح إلى أن تتنحى. وأنت تستطيعين ماذا؟ إن هذا يضعك في موقف حرج، تجازفين فيه بأكثر من حياتك، إنك تجازفين بشرفك وكرامتك. ها هي ذي لحظتك الغاليلية يا نيلا. هل الأرض تدور؟ لا تقول شيئًا. فأنا عرفت الجواب آنفًا. إنه أهم سؤال طرح عليك على الإطلاق باستثناء السؤال الذي سأطرحه عليك الآن: نيلا أما زلت تحبينني؟ إذا ما كان الحال على خلاف ذلك، فانصرفي إذن أرجوك، اذهبي للقاء مصيرك، وأنا سأنتظر مصيري هنا، لكنني، لا أظنك تستطيعين أن تفعلي ذلك، لأنني أحبك فعلًا مثلما أنت بحاجة لأن تكوني محبوبة: اختاري. على يمينك، أميرك الجميل، الذي انكشف على أنه خنزير مصاب بداء العظمة واضطراب الشخصية، وعلى يسارك العجوز البدين الضفدع، الذي يعرف كيف يمنحك ما أنت بحاجة إليه، وما هو بحاجة، وبشكل يائس، لكل ما تستطيعين برجوعك أن تمنحيه. هل يمكن للخير أن

---

(١) مبدأ فلسفي يقول باحتقار العرف والتقاليد والرأي العام والأخلاق الشائعة.

يكون ما هو عكسه؟ هل الاختيار السيئ هو الحسن بالنسبة لك؟ أظنُّك أتيتِ إلى هنا هذا المساء كي تكتشفي الجواب، إن كنت تستطيعين فهر غضبك مثلما ساعدتني على قهر غضبي، كي تعلمي إن كنت تستطيعين أن تجدي وسيلة كي ترجعي القهقرى مرة وقد وصلت إلى شفا الهاوية. ابقى مع بابور، إنه سيملأ قلبك بالحقد، أما أنت وأنا: فلدينا فرصة ربما. أعلم أن من البلاهة أن أقدم هكذا إفادة، في الوقت الذي كنت أنشر فيه وباء برازيًا قبل ساعة من الآن، وأنني ما زلت لا أملك غرفة لها مسكة من الداخل، إنما هاك ما كان عليَّ أن أقوله، وهاك لماذا عبرت البحار».

ـ قل إذن، قالت بعد أن تركت مجالاً، خيّم فيه صمت رهيب جدًا. وأنا من كنت أعتقد بأنني كنت الشدق الكبير لهذه القصة».

أخرجت من حقيبتها قضيبًا من التوبلورون المليَّن بالتسخين فارتمى سولانكا بجشع من كان يريد تملّكه.

«إنه يفقد ثقته برجاله، قالت لسولانكا؛ فهناك الكثير الكثير من الرجال أمثال ذلك الذي ساعدك البارحة. ربما نصف عدد الجنود، وكلهم يهمسون لي -puss puss Khuss-Khuss. هذا محزن جدًا. «سيدتي نحن بشر فعلًا puss-Khuss سيدتي، القائد الشاحب له سلوك غريب أليس كذلك؟ puss-Khuss من فضلك سيدتي لا تطلعي أحدًا على أفكاري». وأنا لست بذلك المثالية الوحيدة. لم يكن هؤلاء الصغار يحسبون بأنهم كانوا يشنُّون تلك الحرب كي يجعلوا الأرض مسطّحة أو كي يشطبوا ساعات الليل. إنهم يناضلون من أجل أسرهم، وكل هذه التهذيبات المفرطة تضايقهم. فجاؤوا لذلك يتظلمون عندي، مما وضعني في موقف حرج جدًا. لا أهمية في الواقع لما سأقدمه لهم من نصح. خطير جدًا أن تكون مرتكزًا في لم الشعث في بؤرة نظيره جرذ، خلد، يكفي، وبما أننا نتحدث عن العلاجيم، فأجل، إني أحبك كثيرًا.

لكنَّ ما رأيته في الخارج، من جهة أخرى، قبل أن أُدْخِلَ فريقي إلى هنا، فقد كان جيشًا مغتاظًا جدًا من تستُّره الهزلي. وبحسب ما بلغني فإنهم قد قاموا

بمباحثات مع الأمريكيين والبريطانيين. تؤكد الإشاعة أن الرماة البحريين والـ SAS موجودون من قبل في ميلداندو. لقد أحسست بنفسي بلهاء جدًا، في الواقع، طيلة الأسابيع التي مرّت على تجنُّبي إياك هكذا. كانت هناك حاملة طائرات بريطانية خارج المياه الإقليمية، وبابور لا يقوم بمراقبة مهابط الطيران الحربي في بلوفسكي. الحقيقة إنني ومن لحظة أن حدَّثت نفسي بأن الوقت قد حان للرحيل، لكنني لست أدري كيف سينظر بابور إلى الموضوع. أحد نصفيه يريد أن يضاجعني على القناة الوطنية والنصف الآخر يريد أن يوسعني ضربًا كي أتجرأ على منحه هذه الشهوات. والآن أنت تعرف لماذا وضعت ذلك القناع: لقد كان أفضل من أن أضع رأسي في كيس ورق؛ وأنت قد قطعت كل هذه المسافة من أجلي وألقيت بنفسك في شدق الأسد. لا بد أنك تحبني فعلاً، أليس كذلك؟ إني أحاول أن أجد مخرجًا لكل هذا فلو استطعت أن أوحِّد هؤلاء الساخطين الطيبين في الأماكن الطيبة، أظن أني سأستطيع ذلك. ولو قمت باتصالات مع الجيش، فإنه سيكون لتلك الاتصالات أن توصلنا إلى باخرة بريطانية أو ربما إلى طائرة حربية. في غضون ذلك سأكون مطمئنة إلى أنهم سيحيطونك بعنايتهم. من ناحية بابور فأنا أجهل إلى أية درجة هو طائش، ربما يظنّك رهينة قيمة، مع أنني لا أكف عن تذكيره بأنك لا تستحق كل هذا الاكتراث، إنك لست إلا مدنيًّا حشر نفسه في قصة لا يفهم منها شيئًا سمكة صغيرة سيكون لا بد من إعادتها إلى البحر. إن أنت لم تقبلني بسرعة فسوف أكون مضطرة لأن أقتلك بيديَّ OK. حسن والآن لا تتحرك. سأعود».

في أثينا، أخوات الجحيم الثلاث كن أخوات أفروديت: كان الجمال والغضب، مثلما علم ذلك هوميروس، ينبثقان من ذات النبع. إنها ذات القصة والوحيدة حتى. بيد أنِ إِزْيود(١) زعم بأن جنيات الجحيم كانت بنات الأرض والهواء وأخواتهن وأخوتهن كانوا يُدعَيْن: رهاب، نزاع، كذب، ثأر، شبق،

---

(١) شاعر إغريقي. القرن الثامن عشر. له: الأعمال والأيام.

جدال، خوف، وصراع. كانوا يثأرون لجرائم القرابة العصبية، بأن يطاردوا «على الأخص» هؤلاء الذين جرحوا أمهاتهم ـ لقد طاردوا أوريست[1] لأنه قتل كليتيمنستر[2]، قتلاً وحشيًا، كانت تستحقه، كان الليلك أو السوسن الأزرق يهدئ جنيات الجحيم أحيانًا، لكنّ أوريست لم يكن يضع الزهور في شعره. حتى القوس الذي أعطته إياه، بيتونيس[3]، نبيّه الوحي في دلف[4] كي يردَّ غاراتهن، قد ظهر على أنه ضعيف الفعالية. «شعر أفعى، رأس كلب، جناحا خفاش» كانت «الإيرينيس» تهاجمه طيلة ما تبقى له من أيامه، وتحرم عليه كل سلام.

في تلك الأزمنة كانت الآلهة الشحيحة أكثر جوعًا، وأكثر توحشًا، فوسّعت دائرة أحابيلها. كانت روابط القرابة العصية تضعف، فأخذت جنيّات الجحيم تتدخل في كل مرحلة من مراحل الحياة الإنسانية. من نيويورك إلى ليلليبوت بلوفسكي، وصار من المستحيل لأحد أن يهرب من لطم جوانحها.

لم تعد. شبان وصبايا كانوا يقومون على تأمين احتياجات سولانكا اليومية لقد كانوا بعضًا من المقاتلين المنهكين والمنطوين، الذين كانوا يرهبون بابور، بقدر ما كانوا يخافون وصول العدو إلى أبوابهم، من ذهبوا يلتمسون النصح من أفروديتهم الكئيبة. لكنهم أجابوا عندما سألهم سولانكا عن نيلا، بإيماءات تنم عن جهلهم وانصرفوا. القائد «آكاز» لم يأت هو أيضًا، البروفسور سولانكا، لمنسي المهمل: أخذ يتحدث مع نفسه بصوت عالٍ، حاد عن الواقع، وهو يتأرجح بين أحلام اليقظة ونوبات الرعب. من خلال قضبان نافذته الصغيرة. كان يسمع صوت المعركة التي تحتدم وتقترب. أعمدة من الدخان كانت

---

(١) ابن رآغامنون وكليتيمنستر. قتل أمه وعشيقها إيجيث كي يثأر لأبيه.

(٢) أم أوريست.

(٣) إلهة الوحي باسم أبولون في معبد الدلفيات.

(٤) معبد يوناني قديم مشهور بمعجزة أبولون.

تنتصب في الأجواء. فكر سولانكا بسِرْفليت، ليتني أضرمت النار في بيتها الحقير، ليتني حرقتها وحرقت نفسي والمدينة. بقي الاشتباك العنيف متعذر الفهم، بالنسبة لغالبية هؤلاء الناس الذين وجدوا أنفسهم في المعمعة. إنه نقص الخبرة، العلة والنتيجة، الكيف والسبب كانا منفصلين تمامًا. ليس هناك إلا سلسلة من الوقائع.

هذا أولاً، ثم ذاك. ويلي ذلك بالنسبة للناجين، حياة يقضونها كلها بمحاولة الفهم. حصل الهجوم في اليوم الرابع بعد وصول سولانكا إلى ميلداندو. عند الصباح الباكر جاؤوا ليفتحوا باب زنزانته. إنه الشاب السَّكوت نفسه ـ مزوَّدًا الآن بسلاح آلي وسكّينين مدسوسَين تحت حزامه ـ الشاب الذي نظف قذاراته قبل بضعة ايام دون تذمر. «تعال بسرعة». قال.

تبعه سولانكا، ليجد نفسه في المعضلة ثانية، مرّ من جديد عبر غرف الشؤم المتتالية، حيث كان بعض الجنود المقنعين يقومون بالحراسة، كان يقترب من كل باب كما لو كان مفخّخًا، ويلتفت نحو كل زاوية كما لو أن كمينًا كان ينتظرهما. من بعيد، كان سولانكا يسمع أصوات المعركة المبهمة، وطلقات البنادق الآلية، ودمدمات المدفعية الثقيلة، وعلاوة على كل ذلك، خفقات الأجنحة، وزقزقة الكلب ذي الرؤوس الثلاثة، ثم وجد نفسه في مصعد القسم منساقًا دون احتراز عبر المطابخ المدمّرة، ومدفوعًا في شاحنة مُبدلة دون نافذة. بعد ذلك بوقت طويل، لم يعد هناك شيء. سير مجنون، مواقف، قهقهات، والمركبة التي كانت تنطلق بأعجوبة. وضجيج. من أين كان يأتي ذاك الصراخ؟ من كان يموت؟ من كان يُقْتَل؟ ما هذه القصة؟ عندما عرف القليل عن ذلك، أخذ يحسُّ نفسه تافهًا، بل معتوهًا مُعمى. مرتجًا بزيفانات الشاحنة، أخذ مليك بصراخ كالعواء، لكن المسألة في نهاية المطاف كانت مسألة عملية وحشية. فأحدٌ ـ نيلا؟ قد حكم عليه بأنه جدير بالاحترام. الحرب تمحو الفرد، لكنهم أنقذوه من الحرب.

فتح باب السيارة. رفَّت عيناه الزائغتان من النور، ضابط حيّاه إنه إلبي حقيقي، بشاربين غريبين جدًا، يرتدي اللباس الليليباني الموحد المزين بشرائط على نحو مضحك.

«أيها الأستاذ. أنا سعيد جدًا لرؤيتك سليمًا معافى. سيدي» لقد ذكره الضابط بسرجيوس الضابط الكهنوتي في حجرة تشاو، سرجيوس الذي لم يكن يعتذر أبدًا. كان واضحًا أن هذا الرجل قد تلقّى الأمر بمرافقة سولانكا كي يراقبه، مهمّة كان يقوم بها بجلافة وهو يسير أمامه بمشيته العسكرية، كلعبة ذات نابض معبأة جيدًا. اقتاد سولانكا إلى مبنى يحمل إشارة الصليب الأحمر الدولي. بعد ذلك أحضروا له طعامًا، وطائرة حربية بريطانية كانت بانتظاره كي تقله مع مجموعة من أجانب آخرين مزودين بجوازات سفر إلى لندن.

«لقد أخذوا مني جواز سفري، قال سولانكا إلى سرجيوس ـ لا أهمية بعد لذلك الآن ـ أجاب الضابط ـ لا أستطيع أن أسافر بدون نيلا، لست مطلعًا على ذلك يا سيدي، قال سرجيوس، أوامري تقضي بأن أجعلك تصعد بأقصى سرعة على متن هذه الطائرة».

لقد أديرت مقاعد الطائرة الإنجليزية كلها إلى الخلف. جلس سولانكا في المكان الذي حددوه له.

لقد تعرّف على الرجلين الجالسين في الصف الثاني؛ إنهما المصور ومهندس الصوت لدى نيلا. عندما جاءا ليضماه بين أذرعهما فهم أن شيئًا لم يكن على ما يرام.

«شيء لا يُعقل، يا رفيقي، لقد نجحت بإخراجك أنت أيضًا، قال مهندس الصوت، يا لها من فتاة مدهشة».

أين هي، لم يعد لهذا أية أهمية بعد، حياتك، حياتي، فكر، هل ستكون هنا بعد قليل؟ «إنها هي من رتبت كل شيء، قال المصور، لقد وجدت الساخطين الذين كانوا مستائين من بابور، واتصلت بالجيش بواسطة جهاز راديو على موجات قصيرة، وأعدّت تصريحات المرور، كل هذا.

لقد أُعْتِقَ الرئيس وبولغولام أيضًا. هذا القذر أراد أن يشكرها فسمّاها البطلة الوطنية. لقد أفحمته. كانت تشعر بأنها خانت القضية الوطنية التي لم تكن تؤمن بها. كانت تساعد الأشرار على الفور، وهذا قتلها. لكنها رأت جيدًا ما صار إليه بابور.

لم يستطع مليك أن يبدي حراكًا بعد، ولا أن يتفوه بشيء.

«لقد ملَّ الجيش هذا السير: قال مهندس الصوت. سحب كل الجنود الاحتياطيين، وأزيلت كل المدافع الثقيلة التي لا تزال صالحة للاستعمال. وطائرات هليوكوبتر حربية يعود تاريخها إلى الحرب الفييتامية، والتي ابتيعت دون علم الولايات المتحدة الأمريكية منذ بضع سنوات، مدافع هاون أرضية، بعض الدبابات الصغيرة، البارحة مساء أعادوا سيطرتهم على سور البرلمان. لكن بابور لم يكن قلقًا (أظهر المصور صندوقة فضية) لقد صوّرنا كل شيء قال. لقد نجحت في إدخالنا إلى كل مكان. إلى كل مكان على الإطلاق لم يكن يعتقد أبدًا بأنهم كانوا سيستخدمون المدفعية في هجومهم على البرلمان. لقد أخطأ بموضوع المبنى وأساء تقدير تعيينهم. لكن الرهائن، كانوا هم المفتاح، ونيلا من كسرت القفل. فخرجنا نحن الأربعة ومن ثم حصل ذلك التسلسل الثاني الذي أعدته من أجلك». صمت تلا ذلك. والمر الرهيب بقي معلّقًا بينهم كنور قوي تغشى له الأبصار، بحيث إن المرء لا يستطيع أن يحدق فيه فأجهش مهندس الصوت بالبكاء. «ما الذي حصل؟ سأل سولانكا أخيرًا. كيف أمكنكما تركها؟ لماذا لم تهرب معكما، كي تضع نفسها في مأمن؟ كي تلتقيني».

هز المصور رأسه.

«هي فعلت ما كان فيه الصواب. لقد كشفته، لكنها لم تتمكن من الفرار. كان من الممكن لهذا الفرار، أن يكون فرارًا تحت النار».

لكنها لم تكن جنديًا! أو تبًا، إنها صحافية ألم تكن تعرف ذلك أم ماذا؟ لماذا

تجاوت ذلك الخط الرديء؟ مرر مهندس الصوت ذراعه على كتفي سولانكا.

«كان قد بقي عليها شيء، لا بد لها من أن تقوم به. ولو أنها لم تبق، لما كان للخطة أن تنجح.

ـ «من أجل إلهاء ـ بابور» قال المصور بصوت كئيب. وها هو الأسوأ قد أُطلق كيف هذا، من أجل إلهائه؟ ماذا كان يعني هذا؟ لماذا كان عليها هي أن تقوم بذلك؟

«أنت تعرف ما المقصود. قال مهندس الصوت، وتعلم ما يعني هذا وتعرف لماذا لم يكن هذا باستطاعة غيرها».

أغمض سولانكا عينيه.

«لقد أرست لك بهذا» قال المصور.

طائرات هليوكوبتر متتالية، ومدافع ثقيلة كانت تدك البرلمان الليليبياني بموافقة الرئيس المخلّص جولباستو ـ جي، قاذفة قنابل أفرغت حمولتها فانفجر المبنى وانهار مشتعلاً. وسحاب عنيف من الدخان القذر انتصب في السماء. ثلاثة آلاف جندي احتياطي ورجال من فرق الجيش هاجموا المجموعة ولم يأسروا أي أسير. غدًا سيستنكر العالم هذا العمل الظالم، أما اليوم، فقد كان لا بد من القيام بذلك. في مكان ما بين الأنقاض رجل يضع وجه سولانكا وامرأة تضع وجهها هي. حتى جمال نيلا ماهاندرا لم يستطع أن يؤثر بمدار المدافع، والقنابل كانت تتساقط كوابل من الأسماك الميتة. اقترب، همست لبابور انا قاتلك، وأنا من اغتالت آمالها. اقترب ودعني أشاهدك تموت.

فتح مليك سولانكا عينيه وقرأ الرسالة المخطوطة بيدها:

«أيها الأستاذ. أنا أعرف الإجابة عن سؤالك».

كانت هذه هي كلمات نيلا الأخيرة: «الأرض تدور، الأرض تدور حول الشمس».

[17]

من بعيد، كان شعر الولد لا يزال يبدو بلون الذهب، مع أن ذاك الذي كان ينبت تحته كان بلون أغمق، ربما سيتغير لون شعره تمامًا عندما سيحين عيد ميلاده الرابع. كانت الشمس تلمع بشدة عندما هبط أسمعان ممر المرج الذي تحفّ الأزاهير بجانبيه، على دراجته ذات العجلات الثلاث.

انظر إلي! صرخ، إني أسير بسرعة فعلًا!».

لقد كبر واتضح نطقه، لكنه لا يزال يضع رداء من ألق الطفولة كأبهى حلية بين الحليِّ. كانت أمه تركض متعاظمة، وقد كوّرت شعرها الطويل، ودسّته تحت قبعة واسعة من القش. كان نهارًا رائعًا من شهر نيسان، إبّان وفود الحمى القلاعية: والحكومة اللاشعبية كانت في الوقت نفسه على رأس التحريات ورئيس الوزراء، توني أوزيمانديا‌س، بدا خائبًا نتيجة لهذه المفارقة: ولكن، فهل أنتم لا تحبوننا أيها الشبان، إننا نحن النبلاء! إيه أيها العالم: إنني أنا مليك سولانكا ـ مسافر قادم من بلد قديم، وطالما كان ينظر ابنه من غيضة السنديان، كان الكلب اللابرودي الأسود يشمه. ابتعد الكلب عندما فهم بأن سولانكا لم يكن مستعدًا لتلبية مقاصده لقد كان محقًا. فهناك القليل من المقاصد التي ينوي سولانكا أن يلبيها هذه الأونة، «لم يبق بعد شيء منها».

لم يكن مورغان فرانز يجري فرياضة الجوكينغ لم تكن وصلته. بهيئة حسير النظر المفتون كان سولانكا يهبط السفح بخطو هادئ باتجاه المرأة والطفل اللذين كانا ينتظران.

«أرأيت هذا يا مورغان؟ ألم أسقْ جيدًا؟ كان بابا سيسرُّ بذلك، أليس كذلك؟».

نزوع أسمعان إلى التحدث بأعلى صوته، مكّن كلماته من الوصول إلى مخبأ سولانكا. إلا أن جواب فرانز كان غير مسموع؛ لكنّ سولانكا استطاع أن يتكهنّ الجواب بسهولة: «بطل يا أسمعان، فعلاً تمام».

التفاهات الهيبية القديمة قطّب الولد حاجبيه.

«لكنّ بابا، ماذا كان سيقول؟».

أحسّ سولانكا باندفاع من الاعتزاز الأبوي.

نقطة لصالحك يا بني، أنت تذكّر ذلك البوذي المنافق مَنْ يكون مَنْ.

كان مرج أسمعان ـ أو على الأقل الغابة المنظورة ـ موشى بالأشجار الرائعة. سنديانة عملاقة تهاوت على الأرض وجذورها تتلوى في الهواء. كان ركنًا منعزلاً خلاّبًا، وشجرة أخرى بثغرة في قاعدة جذعها، كانت مخبأ لمخلوقات حكايا الجنيات التي كان أسمعان يجري معها حوارات شعائرية في كل مرة يمرُّ أمامها وشجرة صغيرة كانت مسكن الدُّبِّ الصغير. بالقرب جدًا من المرجة المحيطة بالمنزل، أكمات كثيفة من الورديّات، تعيش فيها ساحرات تجعل من الزعف الساقطة عصواتها السحرية. تمثال «هيبوورث» كان مكانًا مقدسًا وكلمات بربرة هيبوورث أصبحت إلى الأبد في عداد مفردات أسمعان.

كان سولانكا يعرف خط السير الذي تسلكه إيليانور. وكان يعرف أيضًا كيف يتابع المجموعة الصغيرة دون أن يلفت الأنظار إليه، لم يكن متأكدًا من كونه مستعدًا لأن تقع عليه الأنظار. لكنه كان يعلم بأنه كان مهيأ لحياته الجديدة هذه. طلب منهما أسمعان أن يحملاه خلال المسافة المتبقية لأنه لم يكن يريد أن يصعد السفح بدراجته ذات العجلات الثلاث. فلديه كسل قديم رسَّخه الاعتياد.

كانت إيليانور تعاني من آلام في ظهرها، لذا فقد حمل مورجان الولد على كتفيه، كان هذا الامتياز في العادة، محفوظًا لسولانكا.

«هل أستطيع أن أصعد على كتفيّ بابا؟».

ـ على كتفيك أسمعان. قل «كتفيك».

ـ كتفيَّ».

هنا كان يوجد كل ما أحب على سطح هذه الأرض. حدّث نفسه سولانكا. سأكتفي بالنظر إليه لحظة. سأشرف عليه عن بعيد، لمرة أخرى أصبح يبتعد عن العالم. حتى مراجعة مكتب سفرياته كانت تشقُّ عليه.

كانت ميلا تزوجت، وإيليانور تركت رسائل مؤسفة ومحرجة تتحدث فيها عن محامين وعن اقتراب موعد الحكم بالطلاق. أيام سولانكا كانت تبدأ وتتعاقب ثم تنتهي، لقد هجر منزله النيويوركي وآل إلى كلاريدج. وجلّ الوقت لم يكن يغادر غرفته إلا من أجل أن يترك الشغالات يقمن بعملهن. لم يكن يتصل بالأصدقاء، أو يجري أية مكالمة رسمية، ولم يكن يشتري الصحف. عندما كان ينزوي باكرًا، كانت عيناه تبقيان مفتوحتين على اتساعهما، وجسمه يبقى متصلّبًا في سريره المريح، يصغي إلى الأصوات القادمة من الغضب البعيد، حيث كان يحاول أن يسمع صوت نيلا المخنوق. في عيد الميلاد، وفي عيد رأس السنة، حمل نفسه على الصعود إلى العشاء، وشاهد التلفاز بلا اكتراث، هذه الرحلة بالسيارة إلى شمال لندن، كانت أول مرة يخرج فيها بشكل حقيقي منذ أشهر. لم يكن متأكدًا حتى من أنه سيرى الطفل، لكن أسمعان وإيليانور كانا مخلوقين اعتياديين وأسفارهما كانت عفوية نسبيًا.

كان آخر يوم في العطلة، وكان هناك احتفال بافتتاح معرض مكشوف في «آلهيث».

قبل العودة إلى منزل «ويلاورود» ـ الذي وضع برسم البيع بين يوم آخر ـ كان أسمعان، وإيليانور، ومورغان يتنزهون وسط ميادين برّاكات المعرض. كان أسمعان يقترب بشكل ظاهر من مورغان، وكانت يده تختفي في قبضة العم مورغان الضخمة ذات الحواشب المشعرة. صعدا معًا في سيارة الألعاب

الكهربائية التصادمية، بينما كانت إيليانور تلتقط الصور. عندما وضع أسمعان رأسه خلف قميص مورغان، فإن شيئًا تصدّع في قلب مليك سولانكا.

رأته إيليانور بالقرب من لعبة الدمى بالأكر، فتمالكت نفسها. حدّقت به وهي متوتِّرة، ثم هزّت رأسها بعنف، وانفرجت شفتاها بصمت إنما بوضوح على الكلمة: لا، لا ليس هو الوقت المناسب، بعد كل هذا الزمن، صدمة كبيرة ستقع على الطفل، اتصل معي، لفظت، قبل كل اجتماع لهما، كان لا بد من الاعتراض على الموقف، والزمان والمكان، وعلى ما يجب عليهما أن يقولاه لأسمعان. لا بد من أن يُهيَّأ الصبيُّ إلى ذلك. وكانت هذه هي ردة الفعل التي تكهن بها سولانكا. التفت ولمح لعبة القصر. القصر الذي يصبح قصرًا بالنفخ. كان لونه أزرق زاهيًا، أزرق ليلكيًا مع سلم منعطف على جانبه، كانوا يتسلقون درجاته كي يصلوا إلى الحاجز المنفوخ، يتسللون ويهبطون بسرعة سفحًا واسعًا ومطاطيًا ثم كانوا يثبون من الفرح. اشترى مليك سولانكا تذكرة وخلع حذاءه. «لحظة صرخت امرأة المنصَّة الضخمة. هذا للأطفال خصيصًا ليس للكبار الحق بذلك».

لكنه كان أسرع منها، وبمعطفه الجلدي الذي كان يطير في الهواء الرقيق، قفز على الدرجات المرتعشة، جاعلاً بعض الأطفال المندهشين يخبطون وهم يحذون حذوه، عندما وصل إلى أعلى السلم، وأشرف على سوق المعرض من أعلى الحاجز، أخذ يقفز ويصرخ بكل ما أوتي من قوة، الصوت الذي كان ينطلق من حنجرته كان مرعبًا، رائعًا، لقد كان هديرًا قادمًا من الجحيم. إنها صرخة المعذّبين الهالكين، لكن قفزاته كانت مفعمة بالفخامة، لم يكن ينوي التوقف أو الامتناع عن الصراخ طالما أن الطفل لم يكن يسمعه أو ينظر إليه. بالرغم من المرأة الضخمة، والحشد الذي التمّ، والأم التي كانت تتفوَّه برسائل صامتة، والرجل الذي كان يمسك بالولد، سيستمر، إلى أن يلتفت أسمعان ويرى أباه هناك في الأعلى، أباه الواحد الأحد الذي يرتفع في الجو، في

السموات، لملم أسمعان كل حبه الضائع، ودفعه عاليًا إلى السماء، كحمامة بيضاء أخرجت من كمه. إنه والده الحقيقي الوحيد الذي تَان يطير كعصفور كي يمضي ليحيا تحت القبة الكبيرة الزرقاء، التي لم يسبق له أن آمن بها إطلاقًا.

تطلع إلي «صاح مليك بصوته المبحوح، وأهداب معطفه تصفق كأجنحة. تطلّع إليَّ يا أسمعان. إني أقفز بشكل رائع، إني أقفز وأعلو، وأعلو!».

هذا الكتاب

لم يقرأ كثيرون رائعة رشدي «أطفال منتصف الليل» التي صدرت مطلع الثمانينات وعُرّبت في دمشق. ولم تترجم أعماله اللاحقة إلى لغة الضاد، من «هارون وبحر الحكايا» إلى «شاليمار المهرّج». لقد توقف العرب عند «الآيات الشيطانيّة» ذات يوم من ١٩٨٩، ولم يخرجوا منه إلى اليوم. وإذا كان لهذه الرواية «الملعونة» من فضل علينا، فكونها طرحت على الضمير العربي المعاصر سؤالاً يتردّد على مرّ العصور: مَن يرسم حدود الابداع؟ حفنة من المثقفين العرب انتصرت لحريّة التعبير، وأعلنت تضامنها مع الكاتب البريطاني بمعزل عن الموقف من روايته الإشكاليّة. فالرواية ـ كما ذكّر صادق جلال العظم ـ عمل أدبي، متخيّل ومبتكر، يقيم مع الواقع الصِلات التي يريد، لكن لا نستطيع محاسبته على أنّه الواقع.

جريدة الأخبار ـ بيروت

التكوين